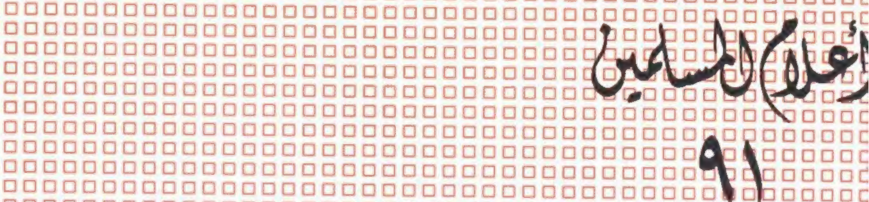


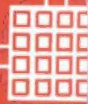
أشرف علي التهانوي

حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند

١٢٨٠ - ١٣٦٢هـ = ١٨٦١ - ١٩٤٣م

تأليف

محمد رحمة الله الندوي





دمشق

أعلام المسلمين

٩١



حكيم الأمة، وشيخ مشايخ العصر في الهند

١٢٨٠ - ١٣٦٢هـ = ١٨٦١ - ١٩٤٣م

تأليف

محمد رحمة الله الندوي

تقديم

الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

رئيس جامعة ندوة العلماء لكنو، الهند



دمشق


أشرف علي التهانوي
حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند

الطَّبْعَة الأُولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

تُطلب جميع كتُبنا مِن :
دَارُ القَلَم - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدَّار الشَّاميَّة - بيرُوت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



«كان من كبار العلماء الربانيين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم في إصلاح العقيدة والعمل، وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل، فاستفاد منها ألوف من المسلمين، وفي رفض عدد ـ لا يحصيه إلا الله ـ من العادات والتقاليد الجاهلية، والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين، وفي بيوتهم، وأفراحهم وأحزانهم، بسبب الاختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء».

الشيخ الشريف عبد الحي الحسني

«العلاَّمة الأوحد، والحبر المفرد، شيخ المشايخ في البلاد الهندية، المحدّث الكبير، والجهبذ الناقد البصير، مولانا حكيم الأمة محمد أشرف علي التهانوي، صاحب المؤلفات الكثيرة، البالغ عددها نحو خمسمئة مؤلف ما بين صغير وكبير، بل قد زادت مؤلفاته على ألف عند وفاته».

الإمام محمد زاهد الكوثري

«حكيم الأمة، مجدّد الطريقة، العالم الربّاني، الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، الذي مزج بقلمه بين الفقه والتصوّف بعد صراع شديد دام بينهما قروناً طويلة، وقد نفع الله بتعليمه وتربيته، وتوجيهاته وإرشاداته الدعوية الحكيمة، عالماً من البشر إلى حوالي نصف قرن، إذ كشف النقاب عن

حقائق الإيمانية، وأزاح الستار عن الدقائق الفقهية، والأسرار السلوكية،
الحكم الربانية؛ فلقّبه العالَم بحكيم الأمة، وحُق له أن يُلقَّب بهذا اللقب،
ب دوراً بارزاً في مجال تجديد الطريقة فطهّرها من أرجاس الرسوم، والتقاليد
ير الإسلامية، وأخذ بها إلى مكانها اللائق وطريقة السّلف الصالح».

العلاَّمة السيد سليمان الندوي

«الإمام الهُمام، مقدام العلماء الكرام، بهجة الأنام وشيخ الإسلام،
كيم الأمّة المحمّدية، مجدّد الملّة الإسلامية الحنيفية، تاج الملّة، سراج
أمّة، التقيّ النقيّ، المحدّث المفسّر، الفقيه الوليّ، مولانا الحافظ، الثقة
بت، الحجة الشيخ أشرف علي التهانوي قدّس الله سره، ورفع في أعلى
دارين درجاته».

المحدّث الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي

«المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي، الذي هو من كبار علماء
ذا العصر الربانيين، وأعظم مؤلف في هذا العصر على الإطلاق، ومن أعظم
ن انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة والعمل، والرجوع إلى الله، وإصلاح
فس، وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يُعرف لعالمٍ آخر في هذا الزمان».

العلاَّمة أبو الحسن علي الحسني الندوي

«كان مرجعاً في التربية والإرشاد، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق،
دُّ إليه الرحال، ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد وأدانيها، وانتهت
ه الرئاسة في تربية المريدين، وإرشاد الطالبين، والاطلاع على غوائل النفوس

ومداخل الشيطان، ومعالجة الأدواء الباطنة والأسقام النفسية».

العلاَّمة أبو الحسن علي الحسني الندوي

«آية من آيات الله، من الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، مجدّد الملّة، حكيم الأمة، سند علماء الدهر، وشيخ مشايخ العصر بالديار الهندية، سيّدنا ومولانا أشرف علي التهانوي، متّعنا الله تعالى وسائر المسلمين بطول بقائه بالخير».

العلاَّمة محمد شفيع كبير المفتين في باكستان

«كان رحمه الله من العلماء الأفذاذ، والدعاة البررة المخلصين، الذين أناروا في الهند مصابيح التجديد، باهرة الشعلة، ساطعة النور، وأخلصوا حياتهم لإعلاء كلمة الله، وإحياء علوم الدين، مرابطين على ثغور الإسلام، مثابرين في الدعوة إليه، ومصابرين على ما يصيبهم في هذا السبيل.

القاضي العلاَّمة محمد تقي العثماني

«استفاد منه ألوفٌ من المسلمين، وكان له فضلٌ كبيرٌ في نشر العقيدة الصحيحة، وإصلاح الأعمال والأخلاق، ومحاربة العوائد والبدع التي تسرَّبت إلى المسلمين عن طريق المواطنين».

الأستاذ عبد الباري الندوي

* * *

الإهداء

● إلى فضيلة شيخنا الجليل، عمّنا الكريم المُبَجَّل، العلاّمة القاضي، الأستاذ الشريف، المُربّي المشفق المخلص:

محمد قاسم المظفر فوري، حفظه الله تعالى ورعاه.

الذي أدين له في جميع جوانب حياتي العلمية منذ الصغر إلى يومي هذا، صاحب الفضل عليَّ بعد الله تعالى، الذي تربَّيتُ في كنفه وبحضرته، وقضيت فترة من العمر تحت رعايته، وظلّه الوارف، ونهلت من منهله العذب الفيَّاض، والذي أحببته لما له عليَّ من فضل ومنّة، ولما تتّسم به حياته من سمات رفيعة من الخلق الكريم، والعلم الغزير، والتّواضع والحلم، والزّهد في لذات الدنيا، والإعراض عن زخارفها والبعد عن الرياء والسمعة.

هو الذي حرّضني على الكتابة في هذا الموضوع، وأتحفني بكل ما يتعلق بشخصية الشيخ التهانوي من المصادر والمعلومات، وأشرف على العمل من البداية إلى النهاية.

● وإلى **أبويَّ الكريمين العزيزين** اللذَين أَدين لهما بحياتي، واللذين لو أنفقت عمري في رضاهما فلن أردّ جزءاً يسيراً من فضلهما عليَّ، واللّذين سهرا الليالي الطويلة على راحتي، يغمراني بعطفهما وحنانهما، فمهما قلت وعبّرت فلن أوفيهما حقهما....

● وإلى من ضحّت من وقتها بالكثير الكثير، وساعدتني في إنجاز هذا العمل زوجتي **أم عائشة**...

أهدي لهم جهدي المتواضع هذا سائلاً المولى عزَّ وجلَّ القبول والتوفيق.

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

مقدمة الكتاب

بقلم فضيلة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
الرئيس العام لندوة العلماء، لكنو (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَن تبعهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ شخصية المربِّي الجليل والداعية الكبير العلاَّمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى (ت١٣٦٢هـ)، الذي قضى حياته في الجهود الدعوية لإصلاح المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية، من بداية القرن الهجري الماضي إلى ما بعد منتصفه، عندما كان الشعب الهندي في هذه البلاد غير المنقسمة بين الهند وباكستان يرزح تحت وطأة الاستعمار البريطاني، وكانت الوسائل التربوية الإسلامية قليلة، وذلك بتأثير ظروف القهر والكبت من المستعمر الظالم، وبخاصة للمسلمين وفي شؤونهم الإسلامية، ولكن رغم ذلك كانت الشخصيات النابهة الممتازة تسعى سعيها في نشر الوعي الإسلامي

وتصحيح الاتِّجاه الديني، وتؤدِّي أدوارَها بحسب توفيق الله تعالى وبما رزقهم الله من همَّةٍ وفكرٍ إسلامي مستقيم.

كان من أهم هذه الشخصيات العالِم المفكِّر الإسلامي الجليل الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى، فقد قام بإصلاح النفوس وتزويد الناس بالعلم الديني الصحيح، وتصحيح المسار الإسلامي بمواعظه ومحاضراته وتأليفاته، وبدروسه التربوية ومجالسه الدينية المفيدة، حتى صدر من هذه الإفادات التربوية الدينية مئات من الكتب، واشتملت هذه الكتب على مواد دينية وعلمية وتربوية عظيمة، وعلى توجيهات فيها تزكية للنفوس، وتزويد علمي مفيد، وفائدتها للناس لم تَعُدْ قاصرة في الزمن الذي صدرت فيه، بل استمرَّ نفعها وامتدَّ إلى ما بعد وفاته، ولا تزال فائدتها قائمة إلى عهدنا الحاضر، بعد ستين سنة.

وإنَّ منهج الإصلاح والتربية الذي كان قد اختاره الشيخ الجليل رحمه الله تعالى كان فريداً في نوعه، فلقد كان ينظر بدقة إلى الأدواء الخلقية والتقصيرات الدينية المتغلغلة في المجتمع الإسلامي في عصره، فكان يبني منهج إصلاحه على معالجة هذه الأدواء، ولقد كان منها ما لم يكن يفطن لخطورتها أكثر العلماء المسلمين والمصلحين أيضاً في ذلك العصر.

وكانت النقطة المهمة في هذا المنهج هي توفيق توجيهاته بما ورد في الشرع الإسلامي من حِكَمٍ في المصدرين الشرعيين، وكان يذم ذمّاً شديداً اللامبالاة التي كان يراها قد عمَّت في اختيار العمل الأوفق، وكان سعيه الأكبر

هو تصحيح العمل الإسلامي المنحرف عن جادة السنة السنية، وكان هو الهدف الأكبر لجهوده الإصلاحية والتربوية، ولأهمية هذه النقطة من الدعوة والإصلاح عدَّه المطَّلعون على جهوده من مجدِّدي هذه الأمة في زمنه لضربه على الوتر الحساس ينشد به الإصلاح، وتصحيح مسار العمل في المسلمين، حتى إنَّ عدداً من تلاميذه ومسترشديه قد ألَّفوا كتباً لبيان علمه التجديدي، جمعوا فيها من أحاديث مجالسه، ومن المواعظ التي وردت في محاضراته، وكتباً أصبحت مصادر الاستفادة للطبقة المتعلّمة من المسلمين، وهي التي تضيء خطوط الحياة الإسلامية أمام المستفيدين منها، ثم جرى طائفة من تلاميذه ومسترشديه على منواله في الإصلاح والتربية، وبذلك حصل لأبناء شبه القارة الهندية ثلّة كريمة من تلاميذه في التربية تقوم بمواصلة الدور الذي كان قد قام به العلاّمة المصلح الكبير.

لقد أصبحت شخصيته معروفة كلَّ المعرفة في شبه القارة بعَظَمة عمله الديني التربوي، ولكنها لم تُعرف في العالم العربي لدى أصحاب اللغة العربية، ولقد جرى على منهجه مسترشدوه من بعده في شبه القارة، وقاموا بواجبهم نحو ذلك بدقة وسعة، ولكن لم ينقل إلى اللغة العربية شيء مهم من ذلك، ولم تُعرَف شخصيته في الناطقين باللغة العربية معرفةً كاملة، فأرادت دار نشر عربية أن يحصل تعريف بهذه الشخصية في كتاب مغنٍ في هذا الموضوع، فنشط أحد إخواننا الندويين وهو الأخ محمد رحمة الله الندوي (المقيم في الدوحة بدولة قطر)، وكان أعدَّ قبل هذا التعريف بعض الكتب من هذا القبيل، وأحسن العرض والاستعراض فيها، فكان من المأمول أن يكون

عمله في تقديم شخصية الشيخ أشرف علي التهانوي المربّي الحكيم والمصلح الكبير والمفسِّر والداعية الفقيه عملاً لائقاً، ومؤدِّياً لِمَا يجب في هذا المجال. وقد بنى كتابه هذا على سبعة أبواب، في كلِّ باب طائفة من الفصول، يتحدَّث فيها الكاتب المؤلف عن جوانب مختلفة من شخصيته وأعماله.

أرجو أن يكون هذا الكتاب ذريعةً نافعةً لمعرفة هذه الشخصية وأعمالها العظيمة وجهوده التجديدية، فإني أبدي تقديري لهذا العمل العلمي المفيد، وأدعو الله تعالى أن يحصل منه نفعٌ مطلوب، وأن يكون سبباً لحصول رضا الله تعالى، ونفع المسلمين.

محمد الرابع الحسني الندوي

دارة الشيخ علم الله، تكية كلان، رائي بريلي (الهند)

سلخ صفر المظفر ١٤٢٥هـ

بين يدي الكتاب

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المرسلين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى مَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه دراسة لحياة المصلح الربّاني، والمُربّي الحكيم، الداعية الكبير، الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، الذي تألّق نجماً ساطعاً في سماء العلم والمعرفة، وتلألأ نوراً وضّاءً في مجال حركة الإصلاح والتجديد، وقام بالثورة على الجمود والتقليد الأعمى، ورفع راية التجديد والإصلاح، لا سيما في مجال التزكية والإحسان، ولعب دوراً بارزاً في استعادة روح الشريعة الإسلامية، وإيقاظ الوعي الديني، واسترداد المجد الشامخ الراحل في شعوب شبه القارة الهندية، وصرف أقصى طاقاته في الدفاع عن حياض الشريعة الغرّاء، وتطهير المجتمع الهندي من أرجاس الغلوّ والإفراط والتفريط، التي غرقت فيها الأمة بسبب تقليد الجهلة من الصوفيّة، وحملة الأفكار الزائغة، والمعتقدات الباطلة، والعادات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان.

أَضِفْ إلى ذلك اطلاعه الشامل، ومعرفته العميقة، ودراسته الدقيقة للعلوم الإسلامية وإتقانه كل الفنون، وفهمه الثاقب، وذهنه الأخّاذ، وذكائه المُبهر، الصفات التي تجعل الإنسان يحتل مكاناً مرموقاً، وينال درجة سامية عند الله وعند الناس.

هذا وقد مرّ على حياته رحمه الله أكثر من نصف قرن دون أن تُدرس في كتاب مستقل (باللغة العربية) يحيط بمختلف جوانبها، ويُبرز أهم خصائصها ومميزاتها، لاسيما التعريف بتراثه الثري الرائع الذي خلّفه رحمه الله، وتذخر به مكتباتنا الإسلامية.

وفعلاً فقد كان رحمه الله من العباقرة الأفذاذ، والأعلام الكبار الذين خلّفوا آثاراً كثيرة لا تزال ماثلة في حياة الأمة الإسلامية الهندية حتى الآن.

منهجي في هذه الدراسة:

وقد كان منهجي في هذه الدراسة على النحو التالي:

الباب الأول: وفيه عدة فصول، وتحتوي على السيرة الذاتية للشيخ التهانوي، ونشأته العلمية، وتفوّقه العلمي، ونشاطاته الدعوية أيام الدراسة، وخصائصه ومميزاته البارزة، واستكماله التربية، ومبايعته للشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكيّ، رحمه الله، مع ذكر نبذة من ترجمته، ورحلته إلى الآخرة، ووصاياه، وما رُثي به، وما قيل فيه.

الباب الثاني: وفيه عدة فصول، وتحتوي على حياته العلمية، وذكر أهم تلاميذه، واشتغاله بالتأليف والكتابة، وذكر مواعظه.

الباب الثالث: يتضمن ذكراً مفصّلاً لجهوده الإصلاحية والتجديدية في مختلف المجالات والردّ على الفرق الضالّة.

الباب الرابع: ذكر جهوده التجديدية في مجال التزكية والإحسان

والسلوك، وردّ مزاعم الجهلة المتصوّفين، وتفنيد شبهاتهم، واستنكار الجهلة من الصوفية، وتقرير حقيقة الأذكار والأوراد والمجاهدة عند الشيخ التهانوي، وكذلك الردّ على الكشوفات الصّوفية، وبيان أنها لا قيمة لها في التقرّب إلى الله، وتقرير حقيقة البيعة. وتوضيح الإفراط والتفريط الواقعين فيها، وما إلى ذلك من المباحث الأخرى.

الباب الخامس: نبذة عن مشاهير خلفائه، وبيان الميزة الخاصّة في هذا الباب.

الباب السادس: آثاره الخالدة، ويتضمن السرد الإجمالي لأهم مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون، ودراسة موجزة لبعض أهم المؤلّفات.

هذا، وقد اعتمدت في بحثي هذا على المصادر المتوفّرة عن حياته ومعظمها باللغة الأردية، وأخصّ بالذكر منها كتاب (أشرف السوانح) تأليف الشيخ عزيز الحسن المجذوب، رحمه الله (من أَجَلِّ خلفاء الشيخ وملازميه والمقرَّبين إليه) وكتاب (بين التصوّف والحياة) للعلاَّمة الأستاذ عبد الباري الندوي، رحمه الله (الترجمة العربية بقلم سماحة العلاَّمة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله تعالى ورعاه).

وأشكر فضيلة الأستاذ العلاَّمة الجليل الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، حفظه الله تعالى ورعاه (رئيس ندوة العلماء لكنو) الذي تفضّل مشكوراً بكتابة مقدّمة علمية للكتاب تزيده قيمة وروعة ومكانة مرموقة، ولقد وجدته خلال اتصالاتي به أباً حنوناً ومربياً مشفقاً، فجزاه الله كل خير.

كما أشكر أستاذي الكريم الدكتور سعيد الأعظمي الندوي، حفظه الله تعالى (مدير دار العلوم لندوة العلماء لكنو، ورئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي) الذي أدين له في جوانب كثيرة من حياتي العلمية، فقد تشرَّفت دائماً بإشرافه العالي، ونلت منه كل الحب والمودة والإخلاص، والوفاء، أطال الله بقاءه لنا وللمسلمين جميعاً.

وأتقدم بخالص شكري إلى كل من ساعدني على إنجاز هذا العمل، وأخصُّ بالذكر منهم الأستاذ الحاج محمد قاسم، مدير المدرسة الأشرفية بوهدى حفظه الله و ابن عمي الأستاذ عبد الله المبارك الندوي، وشقيقي الصغير الأستاذ محمد نعمة الله القاسمي على إتحافي بالمعلومات، وتزويدي بالموادّ المتعلقة بالشيخ التهانوي، جزاهم الله كل خير، ومتّعهم بالصحة والعافية.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أرفع أسمى آيات الشكر والتقدير إلى الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم الذي تبنّى هذا المشروع العلمي القيّم لتعريف الأمة بأعلامها الكبار، وإبراز مآثرهم الخالدة، وشجّعني دائماً على القيام بأعمال البحث والتحقيق، فجزاه الله كل خير، ومتّعه بالصحة والعافية.

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربّنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم، وصلّى الله على سيدنا ونبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذرّياته أجمعين.

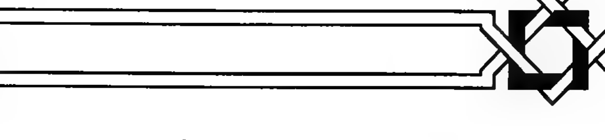
الدوحة ـ قطر

غرة صفر الخير ١٤٢٥هـ

وكتبه

العبد الفقير إلى الله

محمد رحمة الله الندوي



البَابُ الأوَّل

سيرة حكيم الأمّة أشرف علي التّهانوي

الفصل الأول : سيرته الذاتية .

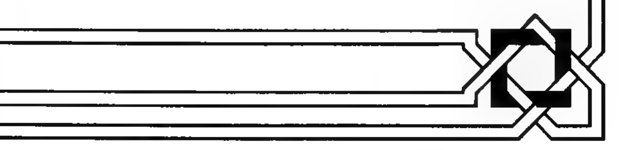
الفصل الثاني : نشأته العلمية .

الفصل الثالث: تفوقه العلمي ونشاطاته الدعوية أيام الدراسة .

الفصل الرابع : خصائصه وميزاته البارزة .

الفصل الخامس: استكمال التربية والسلوك .

الفصل السادس: رحلته إلى الآخرة .



الفصل الأول

السيرة الذاتية

اسمه ونسبه:

هو العلاَّمة الأوحد، الحبر المفرد شيخ المشايخ في البلاد الهندية، المحدث الكبير، صاحب التصانيف النافعة المفيدة، حكيم الأمة، مجدّد الملة الحنيفية في الهند، أشرف علي التهانوي بن المنشئ عبد الحق بن الحافظ فيض علي بن غلام فريد شهيد بن جلال بن رحمة الله بن أمان الله بن عتيق الله خطيب (الحائز على منصب عال في دولة الإمبراطور المغولي أورنك زيب عالمكير رحمه الله) ابن الحافظ حبيب الله بن الشيخ آدم بن مولانا محمد جلال خطيب (صاحب منصب كبير في دولة الإمبراطور المغولي «أكبر») ابن مولانا صدرجهان (الجد الأعلى للخطيبين، وكان في سنة ٩٧٠هـ، زمن الإمبراطور المغولي «أكبر»)[١].

ويصل نسبه إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه الخليفة الراشد الثاني.

---

(١) موائد العوائد، ضمن مبحث (سلسلة النسب من الأدب) للشيخ أشرف علي بشيء يسير من الاختصار، مع أشرف السوانح: ٣/ ١٢٠.

أسرته:

يتحدَّر العلاَّمة التهانوي من أسرة كريمة كثيرة المآثر والمفاخر، معروفة بالعلم والأدب والفضل والإحسان، يبلغ نسبها إلى أمير المؤمنين **عمر الفاروق رضي الله عنه**، ومشهورة بحيازها منصب القضاء زمن الإمبراطورية المغولية في الهند.

والجدّ الأعلى لهذه الأسرة التي تولّت القضاء فترة طويلة هو القاضي **نصر الله خان**، وما زال هذا المنصب في هذه الأسرة بعد عصر الشيخ مُلاّ محمد صابر الذي وصفه مؤلِّف[1] (كشاف اصطلاحات الفنون)، بأتقى العلماء، يبلغ نسبه من جهة الأب إلى **سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه**، ومن جهة الأم إلى **سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه**.

كان أبوه السيّد عبد الحق من كبار الأثرياء والسادة المعروفين في قصبة (تهانه بهون) من مديرية مظفر ناغر ولاية (أترابراديش)، بارعاً في اللغة الفارسية، وكاتباً قديراً، صاحب أسلوب رائع رشيق، ذا سيادة مستقلّة لمنطقة من مدينة (ميرت)، وقد فتح الله تعالى عليه من بركات السماء والأرض، وأنعم عليه من النعم من كل صوب ما لا يعدّ ولا يحصى.

وأما جدّه من الأم فهو الشيخ المرشد **نجابت علي** رحمه الله تعالى، كان من كبار المشايخ وفحول الشعراء باللغة الفارسية، مع ما كان يتمتع به من قوة

---

(١) محمد أعلى التهانوي.

فائقة وملكة قوية في الكتابة والأدب[1].

مولده:

ولد العلاّمة التهانوي صباح الخامس من شهر ربيع الثاني سنة ألف ومئتين وثمانين من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، الموافق العاشر من أيلول (سبتمبر) عام ألف وثمانمئة وثلاث وستين للميلاد.

نبذة تاريخية عن قريته (تهانه بهون):

إنَّ قرية (تهانه بهون) تقع في ولاية شمالية من الهند بمديرية (مظفر ناغر)، وقد استوطنها المسلمون من زمن بعيد، قبل عصر الإمبراطورية المغولية، وقد سمّوها بـ«محمد فور» وهذا الاسم ما زال مسجَّلاً في السجلاّت الحكومية القديمة، وهي قصبة تاريخية معروفة بسكانها المسلمين الأشراف من أصحاب السلالة الفاروقية، وكبار العلماء من ذوي المآثر الفريدة، وتعتبر من القرى التي عُرفت في البلاد الهندية برجالها المبرّزين، وعلمائها المهرة وأوليائها الكبار، وقد أنجبت أمهاتها شخصيات فذّة، برزوا على مسرح العلم والثقافة، ونوّروا العالم بما خلّفوا من آثار علمية وأدبية ودعوية وتاريخية، وعلى رأسهم:

١ ـ العلاّمة المحقق الشيخ **محمد أعلى التهانوي**، مؤلف (كشاف اصطلاحات الفنون)، تلك الموسوعة العلمية الكبيرة التي حازت ثناء أهل

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ١٠.

العلم، وثقة أهل المعرفة، في مشارق الأرض ومغاربها.

٢ ـ العلاَّمة الشيخ **محمد التهانوي**.

٣ ـ الحافظ **محمد ضامن الشهيد**.

٤ ـ العارف المحقق الشيخ الحاج **إمداد الله المهاجر المكّي**.

نشأته وأيام طفولته:

ولد حكيم الأمة التهانوي رحمه الله في هذه القرية العامرة بالعلم والدين، والورع والتقى، وترعرع في بيئة علمية ودينية خالصة، وجوّ من الصلاح والتقوى، وقد اختاره الشيخ عبد الحق، رحمه الله، من بداية أمره ليتعلّم الدين والشريعة، بينما اختار لشقيقه أن يتعلم العلوم العصرية، وربّاه تربية دينية، وكان منذ نعومة أظفاره مُكباً على العلم والعلماء ميّالاً إلى الطاعات، بعيداً عن اللهو، وكان من رقة طبعه منذ ميعة صباه أنه لم يكن يتحمل النظر إلى بطن أحد وهو عريان، وكان إذا فاجأه صبي من الصبيان ببطنه المكشوف، غلبه القيء، فكان الصبيان يعاكسونه ويكشفون أمامه من بطونهم ليقيء، فكان رحمه الله ربما يتعب من القيء مرة بعد أخرى، وكانت هذه الرقة في طبعه فطرة من الله تعالى، جعلته لا يميل إلى مخالطة عامة الصبيان، فأصبح بعيداً عن لهوهم وعبثهم.

كان رحمه الله من المحبوبين لدى الجميع منذ نعومة أظفاره، أينما كان وحيثما كان، سواء لدى الأقارب أو الجيران أو غيرهم، وقد ألقى الله في روعه حبّ الوعظ والخطابة منذ صباه، فكان يصعد على المنبر ويبدأ في تقليد

الخطباء والواعظين، وهو طفل صغير، لم يبلغ من العمر ثماني سنوات، كما كان يحبّ الصلاة، ويواظب عليها منذ باكورة عمره، حتى تعوّد على صلاة الليل وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكانت زوجة عمّه تستيقظ أحياناً في منتصف الليل، وتراه يصلّي، فتحاول إشفاقاً عليه أن يقلّل منها، ولا سيما في فصل الشتاء، حيث يكون البرد القارس أقصى ما يمكن، فلا يهمّه البرد ولا الصّيف، ولا يلتفت إلى كلامها، بل يمضي في صلاته، فكانت تضطر إلى أن تسهر حتى يفرغ رحمه الله من صلاته، ويكمّل أدعيته وأوراده[١].

حادثة وفاة الأم:

أصيب رحمه الله بحادثة مفجعة ومؤلمة إذ توفيت أمه وهو ابن خمس سنوات، وقلّما يتذكر الإنسان شيئاً حدث له في مثل هذا العمر، وهكذا كان شأن الشيخ التهانوي، رحمه الله، وكان يقول:

«أنا لا أذكر صورة أمي وشكلها أو هيئتها بالكامل، إلا أني عندما أتعمق في التأمل يُصوَّر لي أمام عيني منظر أنها جالسة في جانب من السرير، فقط لا غير».

وبعد حادثة وفاة الأم كان أبوه هو الذي احتضنه، وتولّى أمر تربيته وتعليمه، يقول رحمه الله: إن أبي هو الذي ربّاني أنا وشقيقي بعد وفاة أمي، وقد حظيتُ منه من الحبّ والمودّة والشفقة والعناية ما أنساني فَقْدَ الوالدة في

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٢٤_٢٥.

هذا العمر الباكر، بل إنَّه ظل يحبنا أكثر من حبّ الوالدة، وفّر لنا كل وسائل الراحة والنعم للعيش الهنيء الرغيد، وعشت في ظلّه الوارف، وقضيت أغلى أوقات عمري تحت رعايته البالغة، واهتمامه الفائق[1].

* * *

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٢٤/ ٢٥.

الفصل الثاني

نشأته العلمية

طلبه للعلم:

بدأ العلاَّمة التهانوي رحمه الله دراسته في قريته العامرة بالعلم والدين، والتي كانت في ذاك الوقت موطن كبار العلماء الأجلاّء، والمهرة البارعين في مختلف الفنون، وحفظ فيها القرآن الكريم على (آخون جى) الذي كان من مديرية (ميرت)، ثم أكمل حفظ القرآن على الحافظ حسين علي الذي كان من سُكان (دهلي)، واستوطن مدينة (ميرت)، وتعلّم اللغة الفارسية والكتب الابتدائية من بعض علماء (ميرت)، والكتب المتوسّطة من الأستاذ فتح محمد التهانوي[1] في قريته (تهانة بهون) ودرس عليه مبادئ اللغة العربية، وقواعد

---

(١) هو الشيخ العالم الفقيه فتح محمد الحنفي التهانوي، أحد الفقهاء الصالحين، ولد ونشأ (بتهانه بهون)، قرية جامعة من أعمال (مظفر ناغر)، واشتغل بالعلم، وقرأ أكثر الكتب على مُلاّ محمود الديوبندي والشيخ يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي وغيرهم، ثم لازم الشيخ إمداد الله العمري التهانوي المهاجر إلى مكة المباركة، وأخذ عنه الطريقة، وكان حليماً متواضعاً، زاهداً متعبداً مجوداً، يقرأ القرآن بلحن شجي، يأخذ بمجامع القلوب، ويتلطَّف بمن له رغبة في الاشتغال بالعلوم، ويحسن إليهم ويخدمهم في كثير من العلوم، ومن خصائصه أنه سافر مدة عمره راجلاً، لم يركب قط على عربة أو على غيرها من المراكب. =

النحو والصّرف، ثم أكمل هذه الدراسة على خاله الشيخ واجد علي، الذي كان من البارعين الماهرين باللّغة الفارسية وآدابها.

في جامعة (دار العلوم)[1] ديوبند:

= مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة وألف ببلدة تهانه، وله سبعون سنة، (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: ٨/ ٣٥٣).

(١) نبذة يسيرة عن جامعة دار العلوم ديوبند:

الوضع السياسي: عندما تناهت حالة الهند سوءاً عام ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧م الذي لفظت فيه الدولة المغولية الإسلامية القائمة اسماً في دهلي أنفاسها الأخيرة، بعد ثورة عارمة قام بها المسلمون الهنود ضد الاستعمار الإنكليزي، وفشلت بمؤامرات من داخل الصف، وبقوة الجنود والبنود، وكثرة العَدد والعُدد من قبل الاستعمار، وعلى ذلك تمَّ استيلاء الإنكليز على الهند كلها شرقاً وغرباً، فوضعوا السيف في المسلمين في دهلي وفي أرجاء البلاد، وكثر القتلى والجرحى، وامتلأت الشوارع والطرقات بجثث الشهداء، وتعرض العلماء ورجال الفكر والدعوة خصّيصاً لغضب الإنكليز، فقُتّلوا تقتيلاً، وشُرّدوا تشريداً، وأُعدموا شنقاً، ومن نجا منهم من ذلك كله نُفي إلى جزيرة (إندومان) التي كانت منفى سياسياً على عهد الإنكليز، لكونها غير ملائمة طبيعياً وجغرافياً للحياة الإنسانية والصحة الجسمانية.

ثم خيّم الظلام على الهند كلها، حيث صادر الإنكليز جميع الأوقاف والعقارات والإقطاعات التي كانت تمدّ المدارس الإسلامية بالحياة، وعملوا على تجفيف منابع الإشعاع والإصلاح والفكر والدعوة والتعليم والتربية، حتى يتحوّل المسلمون مع الأيام جهالاً يسهل صوغهم في البوتقة المسيحية المحرّفة.

وحينما نجحت الحكومة البريطانية في القضاء على الحكم الإسلامي، وتقويض نفوذه، كانت تعلم أنَّ بقاءَ الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية =

= يشكل خطراً عليها، لذلك حشدت كل قواها للسيطرة على الجماعات الإسلامية، وقررت استخدام سلاح العلم للقضاء على الثقافة الإسلامية، واستدعت أحد خبراء التعليم الغربيين وهو اللورد ميكال (Lord Michyl) للقيام بهذه المهمة، وبالفعل قام اللورد المذكور بوضع خطة تعليمية شيطانية وصفها بقوله: **«إن الغرض من خطتنا التعليمية هو إنشاء جيل في الهند، يكون هندي النسل واللون، أوروبّي الفكر والذهن»**.

وحينما وجد المسلمون أنفسهم أمام هذه الحقيقة التي كشـفت عن نيّـات المستعمرين حيال فكرهم وثقافتهم، ورغم قلة إمكانياتهم المالية، فقد قرّروا مواجهة هذه المؤامرة بخطة علمية رشيدة، تحفظ للمسلمين تراثهم، وتكفل لهم توارث عقيدتهم وعلومهم، ونشرها في كل مكان بشبه القارة الهندية، فاجتمع علماء المسلمين، ومن بينهم فضيلة الشيخ **محمد قاسم النانوتوي**، والحاج **محمد عابد** أحد أتقياء مدينة (ديوبند) حينذاك، وتدارسوا الأمر فيما بينهم، وقرّروا تأسيس المركز الإسلامي بديوبند لمواجهة الحرب السافرة المعلنة ضدّ الإسلام، وللرد على مقولة (اللورد) بقولهم: **«إن غرضنا من التعليم هو إيجاد جيل يكون بلونه وعنصره هندياً، ويتنور قلبه وعقله بنور الإسلام، وتموج نفسه بالعواطف الإسلامية ثقافة وحضارة وسياسة»**.

تأسيس جامعة دار العلوم: ومن ثم قاموا بتأسيس مدرسة صغيرة يوم ١٥ محرم الحرام ١٢٨٣هـ الموافق ١ أيار (مايو) ١٨٦٦م في مسجد أثري صغير، بمدينة (ديوبند)، كانت نواتها مدرساً واحداً اسمه **المُلاّ محمود**، وتلميذاً واحداً كان اسمه **محمود حسن**، والذي اشتهر فيما بعد بـ**«شيخ الهند»** تلك المدرسة التي عُرفت فيما بعد بـ**«دار العلوم ديوبند»** حتى صارت أكبر جامعة إسلامية في شبه القارة الهندية. =

رحل العلاّمة التهانوي إلى ديوبند في نهاية ذي القعدة عام ١٢٩٥هـ، والتحق بجامعة دار العلوم هناك، وبقي فيها خمس سنوات، حتى تخرج فيها، ونال الشهادة في بداية عام ١٣٠٩هـ، وقد تلقى جميع العلوم العربية والأدبية والعقلية والنقلية، لدى أساتذة قد جدّدوا ذكريات القدماء في سعة اطلاعهم وجودة إتقانهم.

= تقوم هذه الجامعة على فهم عميق للإسلام، واتزان دقيق في حساب الأشياء، وتركز أكبر اهتمامها على تثقيف الجيل المسلم ثقافة إسلامية، وتنشئتهم تنشئة إسلامية، وريادة المسلمين ريادة روحية وعلمية، وتُعْرَفُ بشدَّة التمسّك بالشريعة الإسلامية، والجمع بين روح الأمانة، والمحافظة على الشعائر، والذب عن حياض الدين، والذود عن حماه، بجميع القدرات والوسائل الميسرة.

وتنتمي هذه الجامعة إلى الإمام الحكيم ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، المتوفى (١١٧٦هـ)، وهو صاحب مدرسة فكرية معروفة، قام بدور عظيم في حفظ الكيان الإسلامي في الهند، وامتاز في عرض الشريعة الإسلامية عرضاً يتطابق مع مقتضيات عصره، وإليه يرجع الفضل في نشر السنّة في ربوع الهند، وتهدف الجامعة منذ نشأتها إلى الاحتفاظ بالعقيدة الإسلامية، واستعادة المجد الإسلامي، وبناء المجتمع على أساس الكتاب والسنة، وبثّ التوعية الإسلامية، وإشعال روح الغيرة الإسلامية والحماسة الدينية في المسلمين، ودحض كل نوع من البدع والتقاليد غير الإسلامية. (يراجع: مجلة الداعي عدد ممتاز جمادى الأولى ١٤٠٠هـ الصادرة من دار العلوم ديوبند، «ودار العلوم ديوبند مدرسة فكرية توجيهية» لمؤلفه عبيد الله الأسعدي، و«علماء ديوبند اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي»، ص٧٦).

كان عكوفاً على الدراسة والاستزادة العلمية، ولم يكن له طول دراسته أي شغل غير دراسة كتبه وخدمة أساتذته ومشايخه، وكان له في ديوبند عدة أقارب كثيراً ما كانوا يوجّهون إليه الدعوة لتناول الطعام عندهم، لكنه لا يستجيب لهم، ويعتذر إليهم قائلاً: إنه لم يدخل هذه البلدة إلا للتعلّم والدراسة، فلم يذهب إليهم مدة خمس سنوات إلى أن فرغ من دراسته، وكان رحمه الله معروفاً أيام طلبه في دار العلوم بالجدّية والوقار والآداب والأخلاق، والبعد عن الملاهي والملاعب.

كبار شيوخه:

لقد متّع الله العلاّمة التهانوي بأساتذة أكْفاء، كانوا على قمة البراعة والمهارة في زمنهم في مختلف العلوم وشتى الفنون، وقد قرأ رحمه الله على شيوخ كثيرين، وكان من كبارهم:

١ ـ الشيخ العالم الجليل المحقق النبيل **محمد يعقوب** بن الشيخ مملوك علي النانوتوي، أحد الأساتذة المشهورين في الهند، ولد سنة ١٢٤٩هـ الموافق عام ١٨٣٣م ببلدة (نانوته) بمديرية (سهارنفور) بولاية (أترابراديش) الهند، وتوفّي بها سنة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٤م. قرأ الكتب الدراسية معقولاً ومنقولاً على أبيه الشيخ مملوك علي بمدينة دهلي، حيث كان رئيس هيئة التدريس في (كلية دهلي) العربية، ثم درس وأفاد بـ(أجمير)، وبعد مدة وُلّي التدريس بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، فدرّس بها مدة، وأخذ عنه خلق لا يحصون، وشغل بها كذلك منصب رئيس هيئة التدريس.

كان من كبـار الأسـاتذة، ظهر تقدُّمـه في فنون، منها الفقه والأصول والحديث النبوي الشريف والأدب العربي، وكان يميل إلى الشعر أحياناً، مع ما كان يتمتع به من الاشتغال بالذكر والطاعات، رحمه الله رحمة واسعة[1]، وقرأ عليه الشيخ التهانوي كتب الحديث والتفسير.

٢ ـ الشيخ المحدّث **محمود حسن الديوبندي**، هو نابغة الأنام، الإمام المحدِّث المعروف بشيخ الهند، رائد النهضة العلمية والسياسية في شبه القارة الهندية، كان رحمه الله بطلاً مكافحاً عن مجد الإسلام، مجاهداً متحمساً ومربياً روحياً عظيماً، وفي مقدمة العلماء الغيورين الذين عاشوا في منتصف القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وجاهدوا لاستعادة مجد المسلمين، ولد في سنة ١٢٦٨هـ الموافق ١٨٥١م بمدينة (بريلي) في ولاية (أترابراديش)، حيث كان أبوه العلاَّمة الأديب ذو الفقار علي أستاذاً في كلية إنكليزية، وهو أديب بارع، وأحد أئمة اللغة العربية في الهند المتوفى ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م، وكان على رأس الدفعة الأولى من الطلاب التي التحقت بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، فالتحق بها وتخرج منها عام ١٢٩٠هـ الموافق عام ١٨٧٣م، ووليّ التدريس بالجامعة عام ١٢٩١هـ، ثم منح الترقية وبات رئيس هيئة التدريس بها عام ١٣٠٨هـ الموافق ١٨٩٠م.

كان آية باهرة في علوّ الهمّة وبعد النظر، والأخذ بالعزيمة وحبّ الجهاد في سبيل الله.

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: ٨/ ٥٢٤.

شديد البغض لأعداء الإسلام، كبير التواضع، دائم الابتهال، ثابت الجأش، جيد المشاركة في جميع العلوم العقلية والنقلية، ومطّلعاً على التاريخ، كثير المحفوظ للشعر، كثير الأدب مع المحدِّثين والأئمة المجتهدين.

وكان رحمه الله يضطرم غيظاً من الإنكليز، وكل ما يمتّ إلى الاستعمار بصلة، دائم التألم لأوضاع المسلمين، كثير الاهتمام بمطاردة الإنكليز، وقد نفخ روح الجهاد في كافة المنتسبين إليه، فكان يقود العلماء والمثقفين، ويناضل ضد الاستعمار البريطاني البغيض.

وضع خطة محكمة لتحرير الهند من مخالب الاستعمار البريطاني عام ١٣٢٣هـ الموافق عام ١٩٠٥م، وكان يودّ أن يستعين فيها بالحكومة الأفغانية والخلافة العثمانية، وقد هيّأ لذلك جماعة من تلاميذه، وكان بينهم الشيخ **عبيد الله السندي**، المتوفى ١٣٦٢هـ الموافق ١٩٤٤م، والشيخ **محمد ميان منصور الأنصاري**، المتوفى ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٦م.

وكان الاتصال بينه وبين تلاميذه وأصحابه المناضلين عن طريق الرسائل التي كانت تكتب على الحرير الأصفر، ومن هنا عُرف نضاله ضدّ الاستعمار بحركة الرسائل الحريرية، ولتنفيذ خطته سافر إلى الحجاز، وقابل كبار المسؤولين من الخلافة العثمانية في المدينة المنورة، ولكن من سوء الحظ أن حكومة الاستعمار الإنكليزي اطلعت على هذه الخطة، وألقت عليه القبض عن طريق الشريف حسين أمير مكة عام ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٦م، ومعه عدد من تلاميذه، وسُفِّروا إلى (مالطة)، وسُجنوا بها، ثم أطلق سراحهم في جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ الموافق يناير (كانون الثاني) ١٩٢٠م، بعد ثلاث سنوات

وشهرين، وتلقاه الناس بحفاوة بالغة، وغلب عليه لقب شيخ الهند، وظل يزور ويجول في أرجاء البلاد، يدعو الشعب إلى النضال ضد الإنكليز، واستأثرتْ به رحمةُ الله صباح يوم ١٨ من شهر ربيع الأول ١٣٣٩هـ الموافق ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠م في دهلي.

وكانت ترجمته للقرآن الكريم من أحسن التراجم الأردية وأكثرها قبولاً. وقد نبغ من تلامذته: العارف الكبير والمربّي العظيم الشيخ **أشرف علي التهانوي**، والعلاَّمة المحدِّث **محمد أنور شاه الكشميري**[1]،

---

(١) هو العلاَّمة المحدث الكبير الشيخ أنور شاه بن الشيخ محمد معظّم شاه الكشميري، انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث في الهند، كان دقيق النظر في طبقات المحدِّثين والفقهاء، نادرة عصره في قوة الحفظ، وسعة الاطلاع على كتب المتقدمين، والتضلّع من الفقه والحديث وأصولهما، والتفسير وأصوله، والرسوخ في العلوم الإسلامية والعربية، وُلد صباح السبت ٢٧ شوال ١٢٩٢هـ الموافق تشرين أول أكتوبر ١٨٧٥م في كشمير، التحق بجامعة دار العلوم ديوبند ١٣١٠هـ، وتلقى فيها الدراسات العليا على الشيخ محمود حسن والشيخ خليل أحمد السهارنفوري وغيرهما، وتخرج فيها عام ١٣١٤هـ، وبدأ يعمل رئيساً لهيئة التدريس بالمدرسة الأمينية الإسلامية بدهلي، وعاد إلى وطنه كشمير عام ١٣٢٠هـ، ثم سافر إلى الحجاز وأسند الحديث عن الشيخ حسين بن محمد بن مصطفى الطرابلسي ت ١٣٢٧هـ، ثم تولى التدريس بالجامعة الإسلامية بديوبند، وأصبح رئيس التدريس هناك لمدة اثني عشر عاماً، ومن مؤلفاته تعليقات على (فتح القدير) لابن الهمام إلى كتاب الحج، قال الشيخ الكوثري عنه: لم يأت بعد الشيخ ابن الهمام مثله في استثارة الأبحاث النادرة من ثنايا الأحاديث، وهذه برهة طويلة من الدهر، وتعليقات=

والعـــــلاَّمــــــة شبيــــــر أحمـــــد العثمـــــانـــــي[1]،

= على (الأشباه والنظائر)، وتعليقات على (صحيح الإمام مسلم) وكتاب (عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام) و(إكفار الملحدين) و(مرقاة الطارم) و(التصريح بما تواتر في نزول المسيح) و(فصل الخطاب) و(نيل الفرقدين) و(فيض الباري شرح صحيح البخاري) و(مشكلات القرآن). كان رحمه الله عالماً موسوعياً بكل ما للكلمة من معنى، يحمل في صدره مكتبة واسعة في العلوم العقلية والنقلية والقديمة والحديثة، حتى قيل: «إنه يفوق أستاذه أبا الحسنات عبد الحي اللكنوي في صناعة الحديث»، استأثرت به رحمة الله في ٣ صفر ١٣٥٢هـ الموافق ٣٠ نيسان أبريل ١٩٣٣م، (يراجع: نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور، للشيخ يوسف النبوري؛ نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحي الحسيني المجلد الثامن؛ تاريخ دار العلوم ديوبند المجلد الثاني؛ تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر للعلاَّمة عبد الفتاح أبي غدة؛ حياة الشيخ أنور للأستاذ أزهر شاه قيصر).

(١) هو العلاَّمة شبير أحمد العثماني بن الشيخ فضل الرحمن العثماني الديوبندي، ولد عام ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧م، والتحق بدار العلوم ديوبند وتخرج فيها عام ١٣٢٥هـ الموافق ١٩٠٧م، وكان من أبرز تلاميذ شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، وعُيّن أستاذاً في جامعة ديوبند عام ١٣٢٨هـ الموافق ١٩١٠م، وفي عام ١٣٥٢هـ عُيّن شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية بمدينة (دابهيل) بولاية (كجرات) الهند، وعلى إلحاح من حكيم الأمة أشرف علي التهانوي وغيره تولّى منصب الرئيس العام لجامعة ديوبند عام ١٣٦٢هـ الموافق ١٩٤٤م كان رحمه الله أحد الخطباء المصاقع، والأدباء المترسّلين المبرزين باللغة الأردية، ألّف عدداً من الكتب، تنمّ عن عميق علمه وسعة اطلاعه وطول باعِهِ في العلوم الإسلامية، وكان من كبار قادة جمعية علماء الهند، وفي عام =

والشيـــــــــخ عبيـــــــــد الله السنـــــــــدي[1]،

= ١٣٦٦هـ انتقل إلى باكستان، وعُيِّن عضواً في لجنة وضع الدستور ورئيساً للجنة أيضاً. من إنتاجاته العلمية الرائعة (إعجاز القرآن)، (بين العقل والنقل)، (رسالة الإسلام)، وله تفسير وجيز للقرآن الكريم يعرف بالفوائد العثمانية. أما مأثرته الخالدة وعمله الجليل فهو شرحه الحافل لصحيح الإمام مسلم، وقد سمّاه (فتح الملهم بشرح صحيح مسلم)، وأماليه على (صحيح البخاري)، توفي رحمه الله في ٢١ صفر ١٣٦٩هـ الموافق ١٣ كانون أول ديسمبر ١٩٤٩م (يراجع: مقدمة فتح الملهم، تاريخ ديوبند: ٢/ ٩٨، مقدمة التفسير العثماني).

(١) هو الشيخ العالم الصالح عبيد الله الحنفي السندي، أحد العلماء المشهورين، ولد في تاسع المحرم سنة تسع وثمانين ومئتين وألف في بلدة (سيالكوت)، ثم هاجر إلى بلاد السند ثم سافر إلى (ملتان) ومنها إلى (ديوبند) وقرأ على أساتذة الجامعة بعض رسائل المنطق ثم سافر إلى (كانفور) وقرأ أكثر الكتب الدراسية على مولانا أحمد حسن الكانفوري، ثم رجع إلى ديوبند، وأخذ الحديث من العلامة محمود حسن، وتفقه عليه، وأسس نظارة المعارف بفناء المسجد الفتحفوري في (دهلي) ليدرّس هناك القرآن الكريم وحجة الله البالغة، وبعض كتب الحديث، ثم نشبت الحرب الكبرى فسافر إلى حدود أفغانستان متخفياً بإيعاز من شيخه العلاّمة محمود حسن الديوبندي، يحمل رسالة الجهاد، والثورة على الإنكليز إلى خاصة تلاميذه، وليحمل أمير أفغانستان على محاربة الإنكليز والهجوم على الحكومة الإنكليزية في الهند، وتنكرت الحكومة الأفغانية للشيخ عبيد الله، وفرضت عليه رقابة وألزمته داراً، كان يشتغل فيها بتعليم القرآن لزملائه المعتقلين الذين كان أكثرهم من تلاميذ الكليّات والجامعات الذين هاجروا من الهند. =

والشيخ حسين أحمد المدني[1]

= كان الشيخ عبيد الله من نوادر الرجال في قوة الإرادة وشهامة النفس واقتحام المخاطر، والبعد في التخيّل، والاعتماد على النفس، والعزوف عن الشهوات، وكان مفرط الذكاء، جيد النظر في طبقات العلماء وتاريخ العلوم وتدوين الحديث، كما كان مفرط الحب والانتصار للإمام ولي الله الدهلوي، عظيم الشغف بكتبه وعلومه وتحقيقاته، جعل كتابه (حجة الله البالغة)، وتحقيقاته في كتبه أساس فكره وجهده يطبّقها على الأصل الجديد، وكان له مذهب في تفسير القرآن يستنبط منه دقائق السياسة العصرية والمذاهب الاقتصادية، وقد تخرج عليه في هذا الأسلوب من التفسير بعض كبار العلماء، الذين نفع الله بهم خلقاً كثيراً، أشهرهم الشيخ أحمد علي اللاهوري، ولم يكن له كبيرُ اشتغال بالتأليف، ومِنْ أحسن ما كتب (التمهيد في أئمة التجديد) بالعربية، ألفه بمكة، وافاه الأجل في الثالث من شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمئة وألف. (يراجع: نزهة الخواطر: ٨/ ٣٠٣ـ٣٠٨ بتعديل واختصار).

(١) هو الشيخ العالم الجليل، المحدِّث الكبير، البطل الجريء، السيد حسن أحمد المدني بن حبيب الله، المعروف في ديار الهند بـ(شيخ الإسلام)، ولد سنة ١٢٩٦هـ في قرية (بانكرمو) بمديرية (أوناو) بولاية (أترابراديش) الهند. التحق بجامعة ديوبند، وتلقى العلوم من أساتذتها البارعين، وأخذ الفقه والحديث عن الشيخ العلاّمة محمود حسن الديوبندي، ولازمه مدة طويلة إلى أن تخرج في الجامعة. هاجر مع أسرته إلى الحجاز سنة ١٣١٦هـ وأقام بالمدينة المنوّرة يدرّس في المسجد النبوي الشريف إلى أن غادر إلى الهند عام ١٣٣٣هـ. وقد أسر الشريف حسين أمير مكة الشيخ محمود حسن وأصحابه ومنهم الشيخ، في مكة المكرمة بإيعاز من الحكومة الهندية الإنكليزية حين سافروا إليها للحج، وأسلمهم إليها، فنقلتهم إلى مصر، ثم إلى (مالطة)، حيث مكث =

وغيرهم[١]، وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي أكثر كتب المنطق والحكمة وبعض الفقه والأصول.

٣ ـ الشيخ العالم الفقيه مولانا **منفعت علي الديوبندي**، أحد الفقهاء المشهورين، ولد ونشأ بديوبند، قرأ العلم على مولانا يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي والشيخ السيّد أحمد الدهلوي وعلى غيرهما من العلماء في المدرسة العربية بديوبند، ومكث بها طالباً من سنة أربع وثمانين ومئتين وألف، إلى سنة اثنتين وتسعين ومئتين وألف، ثم ولي التدريس بتلك المدرسة، فدرس بها إلى سنة ثماني عشرة وثلاثمئة وألف، ثم اعتزل عنها وخالف أعضاء المدرسة في نظامها، ودرّس مدة في مدرسة فتحفوري، ثم انتقل إلى جامعة العلوم بكانفور، ودرّس بها زماناً، كان عالماً كبيراً، بارعاً في الهيئة والهندسة

= سجيناً نحو ثلاث سنوات، ولما حمي وطيس حركة تحرير البلاد خاضه بقوة وثبات، وألقى خطباً مثيرة ضد الاستعمار، يجول في البلاد والأمصار فحبس مراراً.

كان رحمه الله عالماً ربانياً، ومحدِّثاً جليلاً، وزعيماً بارزاً، جامعاً لمحاسن الإنسانية ومزاياها، وكان قليل التصنيف، وله (نقش حيات) و(الشهاب الثاقب) وقد جمع بعض تلاميذه دروسه لسنن الترمذي، وهي مطبوعة.

توفّي رحمه الله في سنة ١٣٧٧هـ بمدينة ديوبند ودفن بها. (نزهة الخواطر: ٨/ ١٢٦؛ تاريخ جامعة دار العلوم ديوبند: ٢/ ٨٢).

(١) ينظر لترجمة الشيخ محمود حسن: (حياة شيخ الهند) و(نقش حيات)، و(أسير مالطة)، و(تذكرة شيخ الهند)، ونزهة الخواطر، المجلد الثامن، وتاريخ دار العلوم ديوبند، المجلد الثاني.

والحساب والفقه والفرائض، له رسالة بسيطة بالأردو في المواريث، توفّي في كانفور لسبعٍ خلون من ذي القعدة سنة سبع وعشرين وثلاثمئة وألف[1]، وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي المختصرات من العلوم العربية.

٤ ـ **الشيخ العالم الفقيه عبد العلي بن نصيب علي الحنفي الميرتهي**، أحد العلماء المشهورين، ولد ونشأ بقرية عبد الله فور من أعمال (ميرته)، وقرأ العلم على العلاَّمة محمد قاسم النانوتوي، ومولانا أحمد علي السهارنفوري والشيخ فيض الحسن السهارنفوري، وعلى غيره من العلماء.

درّس في المدرسة العربية بديوبند، ثم تصدر للتدريس في مدرسة المرحوم حسين بخش بدهلي في سنة اثنتي عشرة وثلاثمئة وألف، كان كثير التواضع، طارحاً للتكليف، أليفاً ودوداً، كثير الضيافة موسراً، تخرجت عليه جماعة من العلماء الكبار، وقرأ عليه الشيخ أشرف علي التهانوي والشيخ أنورشاه الكشميري، والشيخ حسين أحمد المدني الفيض آبادي، المعروف بشيخ الإسلام وغيرهم، مات في سنة أربعين وثلاثمئة وألف، ودفن في مقبرة الشيخ ولي الله الدهلوي[2].

٥ ـ **الشيخ المُلاّ محمود**، وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي بعض كتب الحديث.

---

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ٤٨٢.
(٢) المصدر السابق: ٨/ ٢٦٧.

٦ ـ الشيخ **السيد أحمد**: وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي الفنون الرياضية والمواريث.

٧ ـ الشيخ العالم المقرئ **محمد عبد الله المهاجر المكّي**، كان من القرّاء المعروفين المشهورين في البلاد العربية، وكانوا ينظرون إليه بعين الاحترام والتوقير، نظراً إلى ما رزقه الله تعالى من نعمة الصوت الحسن والبراعة في فن القراءة والتجويد، وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي بعض رسائل التجويد، وتدرب عليه في قراءة القرآن الكريم بالترتيل، وذلك في المدرسة الصولتية[١] بمكة المكرمة.

يقول الشيخ القاضي تقي العثماني متحدِّثاً عن دراسة الشيخ التهانوي في جامعة ديوبند:

«وبالجملة فقد عاش حكيم الأمة التهانوي رحمه الله في دار العلوم بين

---

(١) المدرسة الصولتية: هي المركز التعليمي، وأول مدرسة أسست في سنة ١٢٨٥هـ في مكة والحجاز، وسمّيت في سنة ١٢٩١هـ بالمدرسة الصولتية، نسبة إلى المرأة الهندية التي تبرعت ببنائها، واسمها صولت النساء، وبقي الشيخ العالم رحمة الله الكيرانوي مديراً ومدرّساً فيها إلى وفاته في ٢٢ من شهر رمضان ١٣٠٨هـ، وقد زار الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله هذه المدرسة في ٢٨ / ٦/ ١٣٤٤هـ، وتفقد فصولها وبناياتها، وأثنى على القائمين عليها، وما زالت هذه المدرسة قائمة بدورها العلمي في مكة المكرمة إلى الآن. (مقدمة التحقيق لكتاب (إظهار الحق)، ص٢١، ط: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية ـ الرياض).

هؤلاء الأساتذة وأمثالهم، رحمهم الله، واستفاد من علومهم وخدمتهم وصحبتهم، ولم يكن له طوال دراسته أي شغل غير دراسة كتبه وخدمة أساتذته ومشايخه، وكان له في ديوبند عدة أقارب كثيراً ما كانوا يوجّهون إليه الدعوة لتناول الطعام عندهم، ولكنه كان يعتذر إليهم، بأنه لم يدخل هذه البلدة إلا للتعلّم والدراسة، فلم يذهب إليهم مدة خمس سنوات إلى أن فرغ من دراسته»[1].

* * *

(١) مقدمة إعلاء السنن: ١/ ٩.

الفصل الثالث

تفوقه العلمي ونشاطاته الدعوية أيام الدراسة

كان التهانوي رحمه الله قد أكرمه الله تعالى من المواهب والصلاحيات التي جعلته يتفوق على أقرانه وزملائه في كل فن من الفنون، فقد وهبه الله تعالى لساناً طلقاً، وأسلوباً رشيقاً، وملكة قوية، وبراعة منقطعة النظير في مجال الخطابة والمناظرة، وقد أحسن رحمه الله في استخدام هذه المواهب الربّانية في الدفاع عن حياض الشريعة الغرّاء، والذَّبِّ عن شريعة الله الخالدة، ودَحْضِ قوى الباطل، واستئصال جذور البدع والمنكرات التي سادت المجتمع البشري.

فكان من عادته رحمه الله أن يشارك ـ أيام دراسته في جامعة ديوبند ـ في المناظرات مع ممثّلي المذاهب الأخرى، وكان النصارى واليهود أيام دراسته في ديوبند قد نشروا بعثاتهم التبشيرية في جميع أنحاء الهند، وكانوا يهدّدون المسلمين، ويدعونهم إلى المناظرة والمباهلة، فكان رحمه الله إذا وجد فرصة ذهب إليهم وناظرهم، وتغلَّب عليهم ببالغ حجَّةٍ وناصعِ بيانٍ، ونُدرةِ استدلالٍ، وقوة برهان، حتى اشتَهر بين الطلبة والعامة بقوة المناظرة، وملكة الخطابة، ولكن هذا كله كان زمن دراسته بجامعة ديوبند، وأما بعد أن صار شيخاً محنكاً، فكان أبعد الناس عن المناظرة والجدل، لِما كان يرى أن أمثال هذه المناظرات

والمجادلات الكلامية يعوزها الإخلاص، وينقصها الصدق، وقلّما تُجدي في جذب الناس إلى الهداية والرشاد.

يقول رحمه الله: «أنا اليوم أكره هذه المناظرات والمجادلات الكلامية، وأبتعد عنها بقدر ما كنت أحبها وأشتاق لها أيام دراستي، وذلك لما يترتب عليها اليوم من المضارّ، وتضييع الوقت، والمجادلة بالباطل، والانحياز عن الحق، وعدم الاستسلام له»[1]، كما أنه رحمه الله كان يقارن بين مناظرات اليوم ويبيّن ما فيها من أنواع الفساد، ومناظرات السلف الصالح وما فيها من قصص رائعة من الإذعان للحق والانقياد له، وعدم الانحياز عنه، والإخلاص والصدق والأمانة.

المفخرة العلمية:

عقدت حفلة تخريج الطلاب، وتوزيع الشهادات والعمائم على الطلاب المتخرجين من دار العلوم ديوبند سنة ألف وثلاثمئة للهجرة الموافق عام ألف وثمانمئة واثنين وثمانين للميلاد، واجتمع فيها كبار الأساتذة لتكريم نخبة ممتازة من العلماء الذين أكملوا دراستهم الدينية والشرعية في هذه الدار المباركة ـ أكبر مركز للعلوم الدينية وجامعة علمية مكتظّة بأولي العلم وأصحاب الفضل والمعرفة والتقوى، ومَنْهلاً عذباً من مناهل العلم والدين ـ ولما حان وقت التكريم، إذا بالشيخ التهانوي رحمه الله ومعه بعض أصحابه وعدد من

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٣٢.

زملائه يأتون إلى الشيخ العلاَّمة محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله ـ وكان يومئذ رئيس المدرّسين ـ ويقولون: «إننا سمعنا أن المدرسة ستمنحنا شهادة الفراغ من العلوم، وتضع على رؤوسنا العمائم، ولكنّ الحقيقة أننا لا نستطيع أن نحمل أعباء هذه الشهادة، ولا نستحق هذا التكريم، ونخشى أن يكون ذلك سبباً في إساءة الظن بالمدرسة أنها تُخرّج أمثالنا، الذين لا يحملون في جعبتهم الشيء الكثير من العلم والمعرفة والاطلاع»، فلما سمع الشيخ النانوتوي رحمه الله ذلك التفت إليهم قائلاً: «إنكم تشعرون بهذا الشعور لأنكم تعيشون بين أحضان الأساتذة البارعين الماهرين، حيث لا ترون لأنفسكم أي قيمة، ولا تزنون لها وزناً، وتحسبون أنكم لستم بشيء أمام هؤلاء، ولكنكم إذا خرجتم من رحاب هذه الدار، وواجهتم العالم الخارجي عياناً، فستعرفون قدركم، وستتبين لكم قيمتكم في نظر الآخرين، وأينما كنتم وحيثما ذهبتم ستكون مكانتكم عالية، ودرجتكم سامية، ورايتكم خفاقة، فكونوا ـ أنتم البارزين على مسرح العلم والثقافة ـ نجوماً وكواكب إن شاء الله تعالى»[1].

يقول الشيخ تقي العثماني حفظه الله: «وصدق قوله رحمه الله، حتى صار حكيمُ الأمة التهانوي قدّس سرّه، أكبرَ مرجع للعلماء والعامة، وأعظم مركز للعلم والدين، وقد شهد العلماء في ذلك الوقت بأنه وحيد عصره في العلم والتقوى، لا يجارى فيه ولا يُبارى»[2].

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٣٤ـ٣٥.

(٢) مقدمة إعلاء السنن: ١/ ٩.

وفعلاً تمثلت هذه الشهادة فيما قاله سماحة العلاَّمة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: «وكان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند وهو الشيخ أشرف علي التهانوي سَهْمٌ كبير في نشر العقيدة الصحيحة، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، والدعوة إلى الله، وقد عمل وحده عمل مجمع علمي كبير، وألّف كتباً، ورسائل تربو على ثمانمئة، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً، وأثّرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيراً عظيماً»[1].

احترامه الشيوخ وتوقيره إياهم:

لقد أكرم الله تعالى العلاَّمة التهانوي بالشيوخ والأساتذة الذين كان كل واحد منهم مثالاً رائعاً لعلماء السلف في البحث والتحقيق والإتقان والعمق، أمثال الغزالي والرازي، وكان يتمتع بعنايتهم الفائقة، واهتمامهم البالغ، وتوجيهاتهم الرشيدة، وحبّهم الخالص، دون الطلاب الآخرين، وكذلك هو كان يحمل في قلبه أسمى معاني الحب والتقدير، والاحترام لهم، بل كان يعشقهم إذا صحّ التعبير.

يقول رحمه الله: «إنّي لم أبذل جهداً ملموساً في الدراسة والتعلّم، ولم أصرف كبير جهد واجتهاد في هذا المجال، وإن كل ما رزقني الله تعالى وأكرمني به هو من فضله تعالى عليّ، ثم بفضل دعوات هؤلاء الشيوخ الكرام، وحبّهم لي ،وعنايتهم المباركة بي، وحُسن أفضالهم عليّ، والحمد لله أنا

---

(١) الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها، ص٣٢.

أستطيع أن أقول: إني لم أُغضب أحداً منهم ولو للحظة واحدة، وإن قلبي ما زال ولا يزال عامراً بحبّ هؤلاء السادة الكبار والشيوخ العظام، ويحمل في طيّاته أسمى معاني التقدير والتوقير لهم دائماً وأبداً».

وكان من عادته رحمه الله أنه كان دائماً يتحدث أمام تلاميذه عن سير شيوخه وتراجمهم، وروائع القصص عن علومهم، وأحوالهم، والمواقف المشرقة من حياتهم ونماذج حية من تحقيقاتهم العجيبة والنادرة، ودروسهم القيّمة الثمينة.

وذلك بأسلوب جذّاب ورشيق، يستلفت نظر المستمعين، ويخلب قلوب الدارسين، ويجدّد أمام أعينهم ذكريات السلف الصالح بكل رقة ولطافة، وغالباً ما كان يتمثل بشعر جرير بعد ذكر مناقبهم وفضائلهم:

أولئكَ آبائي فجِئْني بمثلِهِم ... إذا جَمَعَتْنا يا جَرِيْرُ المَجَامِعُ

ويتبيَّن للمستمع بعد سماع تلك المناقب والفضائل أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أودع فيه جميع هذه الصفات والمناقب[1]، كما قال الشاعر:

ليسَ على اللهِ بِمُسْتَنكَرٍ ... أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ في وَاحِدِ

* * *

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٣٧ـ٣٨.

الفصل الرابع

خصائصه ومميزاته البارزة

الذاكرة القوية النادرة والذكاء الباهر:

كان رحمه الله تعالى آية باهرة في الذكاء المتوقّد، والذهن الأخّاذ، والذاكرة القوية النادرة، وقد عُرف رحمه الله بهذه الصفات العظيمة بين زملائه وأقرانه، وكانت المسائل العلمية والآراء الدقيقة منقَّحة وواضحة وتامَّة لديه، ولذلك نجده سريعاً في الإجابة على الأسئلة التي تُوجَّه إليه، وكانت له ملكة خاصة في التقاط المواد العلمية من الكتب الضخمة والمباحث المعقّدة وترتيبها على أحسن المناهج وأحدث الأساليب، ثم إلقائها بطريقة وافية وشافية دون زيادة أو نقصان.

ولمّا عقدت حفلة التخريج بجامعة دار العلوم ديوبند في عام ١٣٠٠هـ وحضرها العلاّمة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي[1]، رحمه الله، لتوزيع

---

(١) هو الشيخ الإمام العلاّمة المحدِّث رشيد أحمد بن هداية أحمد بن بيربَخْش بن غلام حسن الحنفي الكنكوهي، أحد العلماء المحققين، والفضلاء المدققين، لم يكن مثله في زمانه في الصدق والعفاف والتوكل والثقة والشهامة والإقدام على المخاطر، والصلابة في الدين، ولد رحمه الله في ذي العقدة سنة أربع =

. . . .

= وأربعين ومئتين وألف للهجرة، قبل وقعة (بالاكوت) المشهورة في تاريخ الجهاد الإسلامي بالهند بسنتين، في قرية (كنكوه)، وهي قرية عُرفت منذ قديم بموطن العارفين الكبار، ومولد العظام من رجال التاريخ، ويتصل نسبه بسيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، توفّي أبوه وهو صغير لم يتجاوز السابعة من عمره، فتولّى تربيته وتعليمه جدُّه بيربخش، وأمه المؤمنة، حتى نشأ ولداً نجيباً، مرهف الشعور، ذكي الفؤاد، نافذ البصيرة، قرأ مبادئ اللغة العربية على الشيخ محمد بخش الرامفوري، ثم توجّه إلى دهلي وقرأ الحديث الشريف على الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد، فضرب بسهم وافر في هذا الفنّ حتى برع وفاق أقرانه في المعقول والمنقول، والتفّ حوله طلبة العلم ليأخذوا منه هذا العلم، سافر إلى الحجاز فلقي الشيخ إمداد الله المهاجر المكيّ هناك، وحجّ حجة الإسلام، ثم رجع إلى الهند، ثم سافر إلى الحجاز عدة مرات مع نخبة من العلماء والشيوخ، كان آية باهرة في التقوى واتباع السنة النبوية، والعمل بالعزيمة والاستقامة على الشريعة ورفض البدع ومحدثات الأمور، ومحاربتها بكل طريق، وقد رزقه الله من التلاميذ والخلفاء ما يندر وجود أمثالهم في هذا العصر في الاستقامة على الدين واتباع الشريعة الغرّاء، ونشر العلم النافع، وإحياء السنن، وإصلاح المسلمين، له مصنفات قيّمة منها: (تصفية القلوب)، (إمداد السلوك)، (هداية الشيعة)، (زبدة المناسك)، (هداية المعتدي)، (سبيل الرشاد)، وقد جمع تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن إسماعيل الكاندهلوي ما أفاد به في درسه لجامع الترمذي وطبع باسم (الكوكب الدرّي) وما أفاده في درس (الجامع الصحيح) للبخاري، ونشره ابنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مع تعليقاته، وسمّاه (لامع الدراري) توفّي رحمه الله يوم الجمعة في جمادى الآخرة سنة ١٣٢٣هـ (نزهة الخواطر:=

الشهادات والعمائم بين الطلاب، جاء الشيخ محمود حسن رحمه الله وهو يمدح الشيخ التهانوي، ويذكر ذكاءه وذاكرته ونباهته، فلم يلبث العلاّمة الكنكوهي إلا أن وجّه بعض الأسئلة الصعبة إلى التهانوي يختبره فيها، فأجاب عليها الشيخ التهانوي بأجوبة مقنعة وبشكل ارتجالي، فَسُرَّ بها الشيخ الكنكوهي رحمه الله كثيراً، وكذلك فعل العلاّمة الشيخ السيد أحمد الدهلوي رحمه الله، الذي بلغ الذروة في العلوم العقلية، وكان قد نبغ في العلوم الرياضية بمجرد المطالعة والجهد الخاص دون أن يدرسها عند أستاذ، إنه جاء وبدأ يختبر الشيخ التهانوي، وطلب منه أن يوضّح معنى بيت شعر من كتاب (سكندرنامه) فشرحه له الشيخ التهانوي شرحاً مفصّلاً، وذكر له عدة تفسيرات، ففرح به الشيخ الدهلوي فرحاً كثيراً، وأُعجب به، ودعا له بالبركة، وأثنى عليه. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على ذكائه المفْرط، وقريحته الوقّادة، وذهنه الأخّاذ.

ضبط الأوقات وحسن توزيعها:

انطلاقاً من مبدأ (الوقت هو الحياة فلا تقتلوه) و(الوقت كالسيف إن لم تقطعه يقطعك) مشى العلاّمة التهانوي رحمه الله في حياته، فكان من الذين يحافظون على كل لحظة من لحظات الحياة وكل ثانية من ثوانيها محافظة دقيقة، لا يغادر منها دقيقة ولا ثانية إلا أحصاها، واستغلّها لصالح الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله مثالاً في ضبط الأوقات وحسن توزيعها بين الله

= ٨/ ١٤٨، مقال الدكتور سعيد الأعظمي الندوي في جريدة الداعي عدد جمادى الأولى ١٤٠٠هـ).

وبين العباد وبين شؤونه الشخصية والعائلية، لا يخلّ بها ولا يستثني منها إلا اضطراراً.

يقول الشيخ عزيز الحسن مجذوب رحمه الله (وهو من أهم الملازمين للشيخ وكبار خلفائه): «إنَّ من أهم خصائص الشيخ التهانوي رحمه الله ومميزاته أنه ما كان يضيّع شيئاً من أوقاته، وإنَّما كان يحاسب كل دقيقة ولحظة من حياته محاسبة دقيقة، ويعتبرها أغلى وأثمن ما رزقه الله تعالى من النعم في هذه الحياة الفانية، وهذه الميزة ما زالت موجودة في حياته منذ صباه إلى الآن، الأمر الذي ساعده في تحقيق المهمّات الصعبة، وإنجاز الأعمال الكبيرة الهامّة في وقت قصير ،وكان بفضل الله تعالى وعونه، ثم بفضل ضبط الأوقات وحُسن استخدامها، استطاع رحمه الله وحده أن يخلّف وراءه مآثر علمية خالدة ومكتبة واسعة كبيرة ثرية، قد لا يسع لمجمّعات علمية أن تقوم بها، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد بارك في أوقاته وأعماله حتى أصبح أكثر الناس تأليفاً في عصره.

وها هو شيخه وأستاذه العلاَّمة محمود حسن الديوبندي المعروف بشيخ الهند قد زاره مرة من المرات ونزل عنده ضيفاً، فأكرمه الشيخ التهانوي قدر ما يستطيع، ووفّر له كل ما يحتاجه شيخه من وسائل الراحة، ولما حان وقت تأليفه وموعد تصنيفه حسب جدوله الخاص المبرمج في حياته، ذهب إلى شيخه يستأذنه مراعياً في ذلك كل معاني الاحترام وغاية التوقير، وقال: سيّدي وأستاذي! عندي بعض الأعمال العلمية أقوم بها في مثل هذا الوقت فلو أذنت لي؟ فأذن له الأستاذ الكريم بكل سرور ورحابة صدر قائلاً: اغتنم هذه الفرصة التي وهبك الله إياها، فذهب التهانوي رحمه الله لينجز ما كان يريد إنجازه حتى

لا يحرم من البركات بسبب الغياب»[1].

وها هو العلاَّمة عبد الحي الحسني[2] رحمه الله يصوّر لنا كيفية ضبط أوقاته تصويراً دقيقاً ورائعاً، فيقول رحمه الله: «وكانت أوقاته مضبوطة

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٣٠ـ٣١.

(٢) هو الشريف العلاَّمة عبد الحي بن فخر الدين الحسني رحمه الله، والد سماحة العلاَّمة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ولد لثماني عشرة خلونَ من شهر رمضان سنة ست وثمانين ومئتين وألف في زاوية السيد عَلَم الله، على بُعد ميل من بلدة (راي بريلي) من أعمال لكنو (الهند)، قرأ الكتب الدراسية من الصرف والنحو والفقه والأصول والتفسير والمعقولات على أشهر علماء لكنو، ثم سافر إلى بهوفال وهي إذ ذاك محطّ رحال العلماء والطلبة، وقرأ الحديث على العلامة المحدث الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني، كان رحمه الله حريصاً على إصلاح المسلمين ونفعهم، ناصحاً لهم، وكان يتألم كثيراً مما يرى من اضطراب حَبْل المسلمين، وتَفَرُّق كلمتهم، وانشقاق عصاهم، وذهاب رِيحهم، وكان رحمه الله هو المعتمد في أمور ندوة العلماء من أول الأمر، وعليه المُعوّل فيها، وحاز ثقة أصحابه، فجعلوه ناظماً لها ومديراً لشؤونها، كان متضلعاً من العلوم، راسخ القدم في آداب اللغة العربية والفارسية والأردية، وكان شاعراً مُجيداً. بارعاً في الفقه والحديث والتفسير والسِّير والتاريخ، لم يكن له نظير في العلم بأحوال الهند ورجالها في عهد الدولة الإسلامية، من أهم مؤلفاته (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) في تراجم أعيان الهند ومآثرهم، (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف) (جنّة المشرق ومطلع النور المُشرق) في التاريخ الإسلامي، (تلخيص الأخبار) (كتاب الغناء) (القانون في انتفاع المرتهن بالمرهون). مقدمة نزهة الخواطر.

منظّمة، لا يُخل بها، ولا يستثني فيها، إلا في حالات اضطرارية، وكان إذا انصرف من صلاة الصبح اشتغل بذات نفسه، عاكفاً على الكتابة والتأليف، منفرداً عن الناس، لا يطمع فيه طامع إلى أن يتغدّى ويقيل ويصلّي الظهر، فإذا صلّى الظهر جلس للناس يكتب الردود على الرسائل، ويقرأ بعضها للناس، ويتحدث إليهم، ويُؤَنّسهم بنكته ولطائفه، وكان حديثُه نزهةً للأذهان، وفاكهة للجلساء، بحيث لا يملّون ولا يضيقون، فإذا صلّى العصرَ انفرد عن الناس، واشتغل بشؤون بيته إلى أن يصلّي العشاء، فلا يطمع فيه طامع»[1].

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نتحف القرّاء الكرام بما شهد به العلاّمة الأديب والمفسّر الأريب عبد الماجد الدريابادي، يقول رحمه الله: «لقد عايشته (أي: التهانوي) في شتى الظروف، ومختلف الأوضاع، وقرّت عيناي برؤية محيّاه في زمن الصحة والمرض، والقوة والضعف، والفرح والحزن، فأشهد بما رأيته بأم عيني، وشاهدته بقلبي وقالبي، كان رحمه الله منعدم النظير في تنظيم الأوقات، ومحاسبة الدقائق واللحظات، عكس ما نراه ونشاهده في حياة غيره من عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين، فنجد معظمهم يقعون فريسة الإفراط والتفريط، نرى فلاناً قد عظم شأنه، وعلت منزلته في الجانب الفلاني وهو مُخِلٌّ ومقصّر في الصفة الأخرى، والجانب الآخر، وهكذا الثاني والثالث، أما الاتزان الكامل والاعتدال المناسب فهو من صفات الأنبياء عليهم السلام، وقد رأينا رؤية العين هذه الصفات العالية في حياة الشيخ التهانوي

---

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ٥٧ ـ ٥٨.

رحمه الله، فكلٌّ عمل في وقته وميعاده، كل شيء في مكانه، الأكل والشرب، المشي والوقوف، القيام والجلوس، وكل ذلك مع المراعاة التامة للآداب العالية والضوابط الثابتة، كل حديث له هدفه المتوخّى وغايته المنشودة، كأنه لا يعرف التحدث بدون هدف، لم أرَ له مثيلاً ولا نظيراً في التغلّب على لسانه بين معاصريه وأقرانه وزمرة العلماء الآخرين، كان عديم الاهتمام بتلك الأوراد والوظائف التي تسود زوايا الآخرين، يتجنَّبُ الرسوم والعادات الشائعة بين العامة، ويحترزُ عن التكلّفات والمظاهر، لا يهمه إلا شغله، بعيداً كل البعد عن إحراج الآخرين، مسرعاً في خدمة العباد، مبادراً إلى عمل الخيرات باهتمام بالغ واعتناء كبير، هذه هي الصفات العالية، والأخلاق الحسنة، والآداب الفاضلة التي قرّت بها عيني وثلج صدري، وبرد قلبي في المجالس الأشرفية».

وأضاف رحمه الله قائلاً: «لقد رأيت الكثيرين من عباد الله الصالحين والتقيت بهم في حياتي، وسمعت أخبار الكثيرين الآخرين عن كثب، وعرفت أحوالهم بكل تفصيل، فوجدت منهم العُبّاد والزُّهّاد والمتصوّفة والنسّاك، أصحاب الزوايا وأهل الكشوف والكرامات، ومما لا شك فيه أنَّ فيهم من عباد الله الصالحين والمصطفين الأخيار المقرّبين الأبرار، ولكن لم ترَ عيني مصلحاً ومربياً ومعلّماً كريماً مثل الشيخ التهانوي، ولا سمعت أذناي عمن يعادله في هذه الأوصاف الكريمة»[1].

---

(١) المعاصرون، ص١٥ـ١٦.

حبّه للسنة وكراهيته للبدع:

فُطر العلاّمة التهانوي رحمه الله على حبّ السُّنّة وكراهية البدع، فكان حبّ السنة وأهلها منقوشةً في قلبه، وكراهية البدعة وأهلها متأصلة في نفسه، وذلك منذ نشأته وقراءته لكتب الشريعة ومبادئ الدين، ويتجلى لنا هذا الواقع في ضوء عدد من مؤلفاته رحمه الله التي ألّفها خاصة في الرد على البدع والخرافات، ودحض الأباطيل والخرافات، وقمع الطقوس والتقاليد الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، ومن تلك المؤلفات كتابه القيّم المعروف المسمّى بـ(إصلاح الرسوم) وكذلك (تعليم الدين) فقد جمع واستوعب فيهما مثل هذه الأمور، وأرشد الناس فيهما إلى ما هو المحبوب المرضي عند الله تعالى والثابت عن النبي الكريم ﷺ والسلف الصالح، كما أن ردّه العملي على بعض البدع المنتشرة بين الناس خير دليل على ذلك.

وإنَّ الكتب المؤلفة في سيرته وترجمته غنية بمثل هذه المواقف المشرقة وروائع القصص الدالة على ردّه العملي على البدع والعادات الجاهلية، ومن ذلك ما حدث للشيخ في زيارته (للبنغال الغربية) حيث بدأ الناس يقبّلون رجله ويمسكونها، فنهى الناس عن ذلك، فلم يمتنعوا، فإذا به يفعل معهم ما كانوا يفعلون معه، فتركوا ذلك، وكفوا عنه خجلين نادمين، ولم يعودوا لذلك مرة ثانية قط، وهكذا حدث في قرية (أعظم كراه)، حيث رأى الناس لا يدعون أحداً يمشي أمامه أو يمرّ قدّامه، ولو تقدّم أحد ومرّ أمامه مصادفةً أو بسبب الزحمة جاء بعض الناس يزحفون وراء الشيخ، فقضى الشيخ على هذه العادة الشائعة الناتجة من الغلوّ في التقديس والتكريم، والإفراط في التوقير والاحترام،

ونادى في الناس بصوت عالٍ: إن الطريق ليس ملكي خاصة، وإنما هو ملك الناس عامة، وحق للجميع، فالكل سواسية في استخدامه والمشي عليه.

محاسن أخلاقه:

كان رحمه الله متحلياً بمحاسن الأخلاق من الرقة واللين، والعفو والحلم، والوقار والرزانة، والتواضع وانكسار النفس، يقول الشيخ عزيز الحسن مجذوب، رحمه الله: «كل من رآه بعين الإنصاف والعدل تبين له هذا الواقع كالشمس في رابعة النهار، وهو أن ما يتمتع به الشيخ التهانوي رحمه الله من الرقة والليونة والعفو والحلم قلّما يوجد في آخرين، لكن صفاته هذه لا تظهر إلا في مواضع الحاجة، وعند اقتضاء المصلحة الدعوية والإصلاحية لها، وكان يقول: إني حُرّ في طبيعتي ومزاجي، لكني لا أستطيع أن أرى أحداً - ولو كان عدوّي - يصيبه الأذى، أو يعاني من المصيبة، وكلما أرى إنساناً أصابه نوع من الأذى، أو شخصاً يعاني من المصائب والمشاكل أتمنى أن أشق له عن قلبي وأشاركه في همّه وغمّه».

وكان رحمه الله يقول: «إن رأس الخلق الحسن وأساسه أن يهتمّ الرجل بأن لا يتأذّى منه أحد، وهو الذي علّمنا النبي ﷺ بقوله الجامع: «المسلمُ مَن سلمَ المسلمون من لسانِهِ ويدِهِ»[1]، وكل من تسبّب في إيذاء أحد فهو داخل في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان (١٠، ١١) وكتاب الرقاق (٦٤٨٤)؛ ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٤٠، ٤١، ٤٢)؛ والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة (٢٥٠٤)؛ وكتاب الإيمان (٢٦٢٧)؛ وأبو داود في=

سوء الخلق، سواء كانت صورته صورة خدمة أم أدب وتعظيم مما يزعمه الناس حسن الخلق، لأن حقيقة الخلق الحسن هي إراحة الغير، وهي مقدمة على الخدمة، فالخدمة بغير الإراحة قِشر بلا لُبّ»[1].

وسطيته واعتداله:

كان من فضل الله تعالى على الشيخ التهانوي أن أكرمه بنعمة الوسطية والاعتدال، وجنّبه الإفراط والتفريط في كل شأن من شؤونه، وعمل من أعماله، فحياته العامة وحياته العلمية والدعوية والإصلاحية كانت متسمة بالتوازن والوسطية والاعتدال، نراه يضع كل شيء في محله، وينزّل كل شيء حسب درجته ومكانته، وقد تجلّت لنا ميزته هذه في طريقة إصلاحه، ومنهج تربيته، ومذهبه الفقهي، وفي العدد الكبير من فتاواه التي تحويها مجلدات كبار، بكل جلاء ووضوح، فنجد أفكاره في غاية من الاتزان منطلقة من المبدأ القرآني والربّاني في اتخاذ الوسطية شعاراً ودثاراً[2]، يقول الشيخ عزيز الحسن المجذوب رحمه الله: «كان الشيخ التهانوي رحمه الله ذا إلمام كبير بالعلوم العقلية، وقد وصل فيها إلى درجة النُّبوغ، ودرس جُلّ ما أُلف فيها من

= سننه، كتاب الجهاد (٢٤٨١)؛ والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه (٤٩٩٦)، (٤٩٩٩).

(١) مقتبس من كتابه (آداب المعاشرة).

(٢) كما في قول الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

المؤلفات الكبيرة والصغيرة، إلا أنه رغم ذلك كله كان يُفضّل عليها المنقولات، ويكره الإعراض عن الكتاب والسنّة، والتولّي عن مذهب أهل السنة أشدّ الكراهية، وكان يعتقد أن هذه العلوم العقلية بمثابة خَدَم للكتاب والسنة، وكُلُّ مَن تأمل في أقواله وأفعاله وتصانيفه وأعماله العلمية بعين الإنصاف رأى هذا الواقع بأم عينه، وأيقن أن منهجه في قمع جذور البدع والخرافات، ودحض الأباطيل، وتفنيد شبهات الضالّين، والردّ على الفِرق الضالّة والطوائف المنحرفة كان منهجاً وسطاً، متصفاً بالاتزان والاعتدال، لا إفراط فيه ولا تفريط»[1].

ولم يكن فيه تزمُّتٌ فكري أو عصبية مذهبية أو جمود علمي، بل كان واسع النظر، رحب الصدر، مُحباً للوسطية في كل شيء، ولعلّ هذا هو السرّ في أنه كان مُحبوباً لدى كافة الأوساط العلمية، ونال قبول وإعجاب كل الطبقات من البشر.

وكان لا يتعرض في مواعظه للمسائل الخلافية فيما بين المسلمين، إلا إذا جاءت مسألة خلافية في أثناء كلامه، فيشرحها شرحاً وافياً برفق ولطف وحكمة ونصيحة، لا يُغلظ فيه الكلام على مخالفيه، ولا يبالغ في التشنيع عليهم، وإنما يتأسَّى بالأنبياء عليهم السلام في قول لين وموعظة حسنة والمجادلة بالتي هي أحسن[2].

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٣٣ـ٣٤.

(٢) مقدمة إعلاء السنن، للشيخ تقي العثماني: ١/ ١٤ بتعديل يسير.

كان رحمه الله من أولئك الذين انطلقت حياتهم بمبدأ قول الرسول ﷺ: «الكلمةُ الحكمةُ ضالّةُ المؤمنِ، أنّى وجدَها فهو أحقُّ بها»، فالبحث عن الحق والمجاهدة في هذا السبيل أنّى كان وحيثما كان دون النظر إلى المصدر والمنبع كان من أوصافه المتميزة، وإن حُبّ العلم والعلماء كان قد رسخ في قلبه وخاطره، وتجشم رحمه الله في هذا السبيل مشاقَّ كثيرةً وقطع مسافات طويلة في الرحلة إلى كبار أصحاب الفن، وها هو العلاّمة المحدث الشيخ نذير حسين السلفي الدهلوي[1] الذي كان من كبار علماء أهل الحديث في عصره، قد

---

(١) هو الشيخ الإمام العالم الكبير المحدّث العلامة نذير حسين بن جواد علي الدهلوي، المتفَق على جلالته ونبالته في العلم والحديث، ولد سنة عشرين، وقيل: خمس وعشرين ومئتين وألف في (بيهار)، ونشأ بها، ثم سافر إلى (عظيم آباد)، وأدرك بها السيد الإمام الشهيد أحمد بن عرفان الحسني البريلوي وصاحبيه الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، والشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي، فملأ قلبه من الإيمان، وغشيه نور المعرفة، ثم سافر إلى (دهلي)، وقرأ الكتب الدرسية على كبار علماء الفن في عصره، ولازم دروس الشيخ المسند إسحاق بن محمد فضل العمري الدهلوي سبط الشيخ عبد العزيز بن ولي الله، وكان له ذوق عظيم في الفقه الحنفي ثم غلب عليه حب القرآن والحديث فترك اشتغاله بما سواهما إلا الفقه، كان إماماً في الحديث والقرآن، حسن العقيدة، كثير الصلوات والتلاوة والتخشع والبكاء، شديد التعصب على من خالفه، متواضعاً حليماً، ذا جرأة ونجدة، لا يخاف في الله لومة لائم، ولم يكن له كثير اشتغال بتأليف، وله رسائل عديدة أشهرها (معيار الحق) (واقعة الفتوى ودافعة البلوى) (ثبوت الحق الحقيق) (فلاح الولي باتباع=

التقى به الشيخ التهانوي عدة مرات، واستفاد من مجالسه.

مذهبه في الفقه:

لقد درس العلاَّمة التهانوي الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، درس كتاب (الهداية شرح بداية المبتدي) للمرغيناني[1] على شيخ الهند العلاّمة محمود حسن الديوبندي، إلا أن ميزته في هذا الجانب أنه لم يتشدّد تشدّد المتأخرين، ولم يقع فريسة التقليد الأعمى الجامد، حتى لا ينحاز إلى مذهب معين أو رأي محدّد، قَيْدَ شبر، بل كان يختار من الأقوال ما يدعمه الدليل، سواء كان في المذهب الحنفي أو في غيره، واعتناؤه بالدليل، وتعويله

= النبي) (رسالة في إبطال عمل المولد)، وأما الفتاوى التي شاعت في البلاد فلا تكاد تحصر، توفي رحمه الله يوم الإثنين لعشر ليالٍ مضينَ من شهر رجب سنة عشرين وثلاثمئة وألف. (نزهة الخواطر: ٨/ ٤٩٧).

(١) هو علي بن أبي بكر عبد الجليل الفرغاني المرغيناني صاحب (الهداية)، كان إماماً فقيهاً حافظاً محدِّثاً مفسّراً جامعاً للعلوم، ضابطاً للفنون، متقناً محققاً نظاراً مدققاً زاهداً ورعاً بارعاً أصولياً أديباً شاعراً، لم ترَ العيون مثله في العلم والأدب، وله اليد الطولى في الخلاف، والباع الممتد في المذهب، من تصانيفه: (كتاب المنتقى) في الفروع، و(نشر المذهب)، و(التجنيس والمزيد) و(مناسك الحج) و(مختارات النوازل) و(كتاب في الفرائض) و(الهداية في شرح بداية المبتدي)، توفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة. (انظر: الفوائد البهية، ص٢٣٠؛ مفتاح السعادة: ٢/ ٢٦٣؛ تاج التراجم، ص١٦٤؛ كشف الظنون: ١/ ٢٢٧؛ الأعلام: ٤/ ٢٦٦).

على الحجج والبراهين معلوم ومعروف لدى الجميع، وخير دليل على ذلك كتاب (إعلاء السنن) الذي ألّفه الشيخ المحدّث الفقيه ظفر أحمد التهانوي رحمه الله على ضوء ما أفاده العلاّمة التهانوي رحمه الله، وهو كتاب فريد من نوعه، وسوف نتحدث عنه بالتفصيل إن شاء الله في باب (مآثره الخالدة).

يقول الشيخ ظفر أحمد رحمه الله: «يمتاز الشيخ التهانوي بوسطيته واعتداله في هذا الجانب، واختيار التوسّع، وعدم التضييق في المسائل الخلافية»[1]. كما روي واشتهر عنه الإذن بالإفتاء وفق مذهب أحدٍ من الأئمة الأربعة في مسائل العقود والمعاملات، التي يوجد فيها عموم البلوى، ونوع سعة في بعض المذاهب، لئلا تضيق صدور عامّة المسلمين بها، فيتركوا الشريعة رأساً[2].

ومن أراد التحقيق والتفصيل فليراجع فتاواه وشروحه للحديث، وما كتب وألف في الفقه، وخير مثال على هذا الباب كتابه (الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة) فقد ألّفه رحمه الله في شرح وبيان مسألة (زوجة المفقود) واختار فيها قول الإمام مالك رحمه الله ورجّحه، نظراً لما فيه من السعة والرخصة للمرأة، خلافاً لما ذهب إليه الأحناف وغيرهم، وما اشترطوا فيه من الشروط الصعبة التي تؤدي إلى إيقاعها في الضيق والعسر.

---

(١) انظر: تذكرة الظفر، ص١٧٢.

(٢) آداب الإفتاء والاستفتاء، ص٢٣ ـ ٢٥، لمؤلفه محمد زيد المظاهري الندوي، ط: إفادات أشرفية باندة، الهند، ١٤١١هـ.

يقول الشيخ عزيز الحسن مجذوب رحمه الله: «كان قد وهبه الله تعالى موهبة خاصة وأكرمه بمكانة سامية مرموقة في مجال البحث والتحقيق، هدفه الأول والآخر، وغايته المنشودة والمتوخّاة هو الحصول على الحق واتباع ما ثبت بالدليل والسير معه حيثما سار. كان يتمتع بسعة النظر ورحابة الصدر خاصة في الفروع والجزئيات، وكان لا يدع الاختلاف فيها ـ بسبب الاختلاف في الاجتهاد ـ يتجاوز الحدود الشرعية، وكان دائماً يقول: «عمري ما حملت شيئاً في قلبي تجاه أي عالم أو صاحب فضل بسبب الاختلاف في الفروع الفقهية والمسائل الاجتهادية»[1].

حلمه وتواضعه:

كانت حياة العلاَّمة التهانوي رحمه الله مثالاً رائعاً للتواضع والحلم، وتَجدُّد ذكريات حياة السلف الصالح في هذا الباب، وكل من عاشره أو صحبه في سفره وحلّه وترحاله شاهد ذلك بأم عينه، ومن النماذج على ذلك أنه كُلّما عرضت عليه مسألة أو وُجّه إليه سؤال حول معضلة علمية أو إشكال علمي سارع في استشارة تلاميذه، ومناقشتهم في الموضوع، وبعد الدراسة والبحث والتنقيح وعرض الأدلة كان يختار ما يراه مناسباً، وموافقاً لروح الشريعة والمصلحة العامة.

كان من عادته رحمه الله أنه كلما احتاج إلى أن يكلّم أحداً أو يأمره بأمر لم

---

(١) أشرف السوانح: ١/١٢٨.

يطلبه إليه أبداً، بل مشى إليه بنفسه، سواء كان تلميذه أو مسترشده أو من صغار أقاربه، وكان يقول: «ينبغي أن يذهب صاحب الحاجة إلى من يحتاجه لا العكس، حتى إن الطبيب الذي كان من أصحابه ومحبّيه وخُلّص مسترشديه وكان يتردّد إليه كثيراً، إذا احتاج إليه الشيخ رحمه الله كان يذهب إليه بنفسه لكي يصف له الأدوية، ولا يدعه يحضر إليه، ما لم يتعذّرْ ذلك لمرض، وهكذا كانت الحال في الخَدَم الذين كانوا في بيته، لا يأمرهم بشيء بأسلوب شديد، بل يراعي في ذلك احترامهم وأدبهم»[1].

الاهتمام البالغ بإصلاح الأمة والعناية الفائقة بتربية النفس:

كان إصلاح الأمة والأخذ بها إلى الطريق المستقيم، وإخراجها من غوائل النفس وسفاسف الأمور إلى معاليها، شغلَه الشاغل وهمَّه الأول والآخر، كان توفيق الله عزَّ وجلَّ حليفه دائماً في إنجاز هذه المهمة الصعبة، حتى نفع الله تعالى به أقواماً، واهتدى بجهوده الدعوية والإيمانية أفواجٌ من الناس.

وكل من اطّلع على نبذة من حياته عرف أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لتحقيق هذا الغرض النبيل، وفعلاً قام به الشيخ التهانوي رحمه الله بكل ما أودع الله تعالى فيه من صلاحيات وما وفّر له من إمكانات، وسخّر كل الوسائل المتاحة له في هذا السبيل، متخذاً شعاره من الكلام الرباني ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ١٥٧.

إن جهوده رحمه الله في هذا الباب تتناول كلا الجانبين، الجانب العلمي والجانب العملي:

أما من **الجانب العلمي** فيتجلّى لنا هذا الجانب بكل وضوح وجلاء في مؤلفاته ومواعظه ومذكّراته اليومية، ولا سيّما كتابه العظيم الذائع الصيت (إصلاح انقلاب الأمة) الذي ألّفه خصّيصاً في هذا الموضوع، ويتحدث فيه عن أهم الأحداث والمستجدّات التي تواجهها هذه الأمة في دينها وعقيدتها وشريعتها، وكيف يمكن معالجتها، وما هي الطريقة الصحيحة لمداواة الأمراض والأسقام المزمنة التي وقعت الأمة فريستها، هذا وسوف نتطرق إن شاء الله لدراسة الكتاب بالتفصيل في باب (مآثره الخالدة).

أما **الجانب العملي** فهناك أمور كثيرة اهتم بها الشيخ رحمه الله وركّز عليها وأولاها عناية بالغة لتحقيق هدف الإصلاح، ومن أهمها:

١ ـ الدعوة والتبليغ.

٢ ـ القيام برحلات دعوية إلى مختلف بقاع العالم.

٣ ـ إحياء فريضة الميراث، وتوزيعه في أصحاب الحقوق، خاصة في صنف النساء.

٤ ـ سدّ فتن الارتداد.

٥ ـ فتح الكتاتيب والمدارس الأهلية لتعليم القرآن والحديث والعقائد الصحيحة.

٦ ـ صيانة الكتاتيب والمدارس من المقرّرات الدراسية التي تناقض الشريعة الإسلامية وتنافي تعاليم الدين الحنيف.

٧ ـ الاهتمام بتعيين القضاة المسلمين لحل نزاعاتهم، والحسم في قضاياهم.

٨ ـ الاعتناء البالغ بالدعوة والإرشاد، وردّ البدع والمنكرات الشائعة في المجتمعات.

غنى النفس:

لم يتطلع الشيخ التهانوي رحمه الله قطّ إلى حبّ المال وجمعه، وبرغم توفّر كل الأسباب التي تجعل مثله يعيش عيشة هنيئة رغيدة، وفي أنواع من التنعم والترف والرخاء، كانت حياته رحمه الله حياة زهد وعفاف وقناعة، استغنى عن الناس فأغناه الله عنهم، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأتته الدنيا وهي راغمة، وقد كان من عادته رحمه الله أن لا يقبل هدايا الولاة والأمراء والوزراء، وحياته غنية بقصص أولئك الأمراء الذين تقدموا له بالهدايا القيّمة لكنه رفض أن يقبلها قائلاً: «إن هذه الأموال ملك لبيت مال المسلمين، ولستُ ممن يجوزُ له الأخذ من بيت المال»[1].

أما هدايا عامة الناس فكانت هناك شروط خاصة إذا تحققت وتوفّرت؛ قبلها الشيخ رحمه الله، وإلا فلا، وهذه الشروط كانت من أجل التحقق من صدق

(١) أشرف السوانح: ١/ ١٠٧.

الشخص المُهدي وإخلاصه، وللتأكد من أن هذه الهدية لا تتضرر بها المصلحة الدينية أو الدنيوية، وإذا استوفت الهدية هذه الشروط كانت مقبولة وإلا فلا[1].

حليته وصفاته:

كان الشيخ التهانوي رحمه الله مشكلاً منور الشبيه مكلّلاً بنور الشيب، أبيض، مُشْرَبَ الحمرة، رَبْعَةً من الرجال، حسن الثياب في غير إسراف وتجمل، حلو المنطق، لطيف العشرة، فيه دعابة مع مهابة ووقار، وسكينة ورزانة، كثير المحفوظ، حسن الاستشهاد بالأبيات، كثير الإنشاد لأشعار المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي[2]، في المواعظ والمجالس في محالها، شديد العناية، كثير المحاسبة على أداء الحقوق إلى أصحابها، وإصلاح المعاملات مع الناس، لا يحتمل في ذلك تساهلاً وتغافلاً[3]، مقلاً من الكلام

---

(١) أشرف السوانح: ٢/ ٢٧٩.

(٢) هو الشاعر المعروف، ولد في بلخ سنة ٦٠٤هـ الموافق ١٢٠٧م، تلقى العلم على أبيه ثم على العالم برهان الدين محقق الترمذي، وقد تَحدث المؤرِّخون عن عظمته كصوفي، وقد وصفه أحد أدباء فارس فقال: إن قلبه الطاهر مخزن الأسرار الإلـٰهية، ومذهبه يهدي حيارى الجهَّل إلى اليقين، من مؤلفاته (ديوان شمس تبريز) هو يشتمل على ما نظمه من الشعر الغزلي، وكتاب (المثنوي) وقد نظمه بعد ذلك، والمثنوي المنظوم يقع في ستة مجلدات وعدد أبياته (٢٦) ألف بيت، ويشتمل على قصص وحكم وأمثال ومواعظ وتفسير للقرآن الكريم، توفّي رحمه الله سنة ٦٧٢هـ الموافق ١٢٧٣م، (انظر: مناقب العارفين للأفلاكي).

(٣) نزهة الخواطر: ٨/ ٥٨.

كثير الصمت، محباً للخلوة، دائم الفكرة، كان شغله الشاغل هو الاهتمام بإصلاح الأمة، والعناية بها، مديم الاشتغال بالمطالعة والبحث، سيّال القلم في التأليف والتصنيف، سلس القريحة، خطيباً مصقعاً، وواعظاً جليلاً، كانت لمواعظه صولة وجولة، وكلمته مسموعة في الخاصة والعامة، واسع الاطلاع، عالي الكعب في العلوم الشرعية، كثير الاعتناء بأمور العقائد ومحاسن الأخلاق.

* * *

الفصل الخامس

استكمال التربية والسلوك
ومبايعته الشيخ إمداد الله المهاجر المكّي والاستفادة منه

تمهيد:

شهدت التجربة أنَّ مجرَّد غزارة العلم وسعة المطالعة لا تكفي في تربية الإنسان تربيةً دينية قويمة، وأنَّ إصلاح النفوس وتزكية القلوب، وتقويم الملكات، وتعديل الأخلاق لا يكاد يحصل لرجل إلا أن يتأسى في حياته بأسوة رجل من رجال الله، ويتمتع بملازمته وصحبته، ويستفيد من تعاليمه، ويجلب إلى نفسه تلك المواهب العالية، وذلك المذاق السليم الذي وُفّق له ذلك الرجل، ولذلك فسّر الله سبحانه وتعالى (الصراط المستقيم) بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، إشارة إلى أن الصراط المستقيم: إنما هو صراط مشى عليه الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وفسّره النبي ﷺ بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي»[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ

(١) جزء من حديث طويل رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤١)، ونحوه رواه الحاكم في المستدرك: ١/ ٢١٨، (٤٤٤)، وكذلك المقدسي في الأحاديث المختارة: ٧/ ٢٧٨، (٢٧٣٣)؛ والطبراني في المعجم الصغير: ٢/ ٢٩، (٧٢٤)؛ وفي الكبير: ٨/ ١٥٢، (٧٦٥٩).

مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، دلالة على أن الصراط المستقيم المطلوب؛ إنّما يهتدي إليه الرجل باتباع من ينيب إلى الله، وملازمة الصادقين الذين تهذبت نفوسهم، واعتدلت عواطفهم النفسية، ولذلك استمرّت عادة العلماء منذ عصر الصحابة والتابعين، أنهم لا يكتفون بمجرد مطالعة الكتب وحفظ الأحاديث، وتلقي الدروس، وإنما يهتمّون كذلك بملازمة رجال الله والاستفادة من صحبتهم وخدمتهم[١].

قيمة الصحبة وأهميتها:

يقول الأستاذ الفيلسوف عبد الباري: «لئن كان مجرد العلم يكفي لعلوّ مكانة الرجل، وتقرّبه إلى الله، ولإصلاح الناس، وإكمال الدين، لما كان للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مكانٌ سامٍ، ودرجة عالية في الإسلام، ولما كانت لهم فضيلة بالنسبة إلى من جاؤوا من بعدهم من كبار علماء الأمة، لكن شتان بينهما، في عُلوّ الدرجات وسموّ المكانة!.

إنَّ فضل الصحابة وجلالة أقدارهم على من أتوا مِن بعدهم حقيقة لا شبهة فيها، وأمر لا جدال فيه، مهما بلغ المتأخرون من الفضل وغزارة العلم والشهرة في الفقه والحديث، وإن كانوا أولياء الله، وأقطاب الدين، ليس الفرق بينهم إلا لأن أولئك الصحابة أفنوا نفوسهم في صحبة أعظم رجل، وأكمل

---

(١) من مقدمة الشيخ تقي العثماني لكتاب (إعلاء السنن: ١/ ١٤ ـ ١٥).

إنسان في الوجود، فقيل لهم: صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا سرّ عظمتهم وسموّهم الذي لا يضاهى»[1].

وانطلاقاً من هذا المبدأ لمّا كمّل الشيخ التهانوي دراسته هاج في قلبه الحنين إلى لقاء شيخ العرب والعجم العارف بالله الشيخ إمداد الله المهاجر المكي رحمه الله، فأَرَّقَ جفونه، واستولى عليه الشوق والاضطراب.

التعريف بالشيخ إمداد الله المهاجر المكي:

هذا، وقبل أن نتحدَّث بالتفصيل عن قصة لقائه به، وما تلاه من الأحداث والوقائع نودّ أن نعرّف بالشيخ إمداد الله المهاجر المكي، ويحسن بنا في هذه المناسبة أن ننقل ما كتبه العلاَّمة الشيخ عبد الحي الحسني، في ترجمته في كتابه الشهير (نزهة الخواطر)، فإنه يصدق عليه وصف (ما قلّ ودلّ)، وقد جاء فيه لُباب كتب التراجم، وعُصارة ما كُتب عنه:

«الشيخ العارف الكبير الأجلّ إمداد الله بن محمد أمين العمري التهانوي، المهاجر إلى مكة المكرمة المباركة، وكان من الأولياء السالكين والعارفين، اتفقت الألسن على الثناء عليه، والتعظيم له، وُلد يوم الإثنين لثمانٍ بقينَ من صفر سنة ثلاث وثلاثين ومئتين بعد الألف (بنانوتة) قرية من أعمال سهارنفور، وقرأ الرسالة الفارسية على الوجه المرسوم، وقرأ (الحصن

---

(١) بين التصوّف والحياة، ص٤٣ ـ ٤٤، تعريب الشيخ الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي.

الحصين) على مولانا قلندر بخش الجلال آبادي، وقرأ المثنوي المعنوي عليه أيضاً، ثم سافر إلى (دهلي) ولازم الشيخ نصير الدين الشافعي المجاهد، وأخذ عنه الطريقة، وبعد شهادته رجع إلى (تهانه بهون) فأقام بها زماناً، وفتح الله سبحانه وتعالى عليه أبواب المعرفة، وجعله من العلماء الراسخين في العلم، فتصدّر للإرشاد والتلقين بأمر شيخه، وثار المسلمون وأهل البلاد على الحكومة الإنكليزية سنة أربع وسبعين ومئتين وألف، وقامت جماعة من العلماء والصلحاء وأهل الغيرة من المسلمين في (سهارنفور) و(مظفر ناكر) فأعلنوا الحرب على الإنكليز، واختاروا الشيخ إمداد الله أميراً لهم، واشتبك الفريقان في ميدان (شاملي) قرية من أعمال (مظفر ناكر)، فقتل حافظ محمد ضامن شهيداً، وانقلبت الدائرة على المسلمين ورسخت أقدام الإنكليز، واشتد بطشهم بكل من اتُّهم بالمشاركة في هذه الثورة، وضاقت على العلماء العاملين الغيارى الأرض، وضاق مجال العمل في الهند، وقضى بعض الرفقة مدة في الاختفاء والانزواء، ولجأ بعضهم إلى الهجرة ومغادرة البلاد.

هجرته إلى مكة المكرمة: وآثر الشيخ إمداد الله الهجرة إلى مكة المكرمة، ودخل مكة سنة ست وسبعين ومئتين وألف، وألقى رحله بالبلد الأمين، وكان أول إقامته على (الصفا) ثم انتقل إلى (حارة الباب) حيث قضى حياته ولقي ربه، وعاش أياماً طويلة في عُسْرٍ شديد، وفقرٍ وفاقة، شأن الأولياء المتقدمين، وهو صابر محتسب، راضٍ بما قسم الله له من الحال، حتى جاء الله بالفرج، وأبدل اليسر بالعسر، وجاءته الدنيا راغمة، واشتغل بالمجاهدات والعبادات، متوجهاً إلى الله بقلبه وقالبه، دائم الذكر والمراقبة، فائق القلب

والباطن بالعلوم والأنوار، مع هضم للنفس، واطِّراح على عتبة العبودية، وتواضع للعباد، وعلوٍّ همة، وشهامة نفس، وإجلالٍ للعلم والعلماء، وتعظيم للشريعة والسنّة السنية، حتى غرس الله حبه في قلوب عباده، وعَطَّف قلوب العلماء الكبار، والمشايخ الأجلاّء، إلى الرجوع إليه، والاستفادة منه، وأَمَّه طُلاّب المعرفة واليقين من بلاد بعيدة، وبارك الله في تربيته وطريقته، فانتشرت أنوارها في الآفاق، ونفع الله به خلائق لا يُحصَون، أجلّهم الشيخ قاسم، والشيخ رشيد أحمد، ومولانا يعقوب، والمولوي أحمد حسن، والمولوي محمد حسين، والمولوي أشرف علي، وكلُّهم صاروا شيوخاً، وانتفع بهم خلق كثير.

حليته وصفاته: كان الشيخ إمداد الله مربوع القامة، يميل إلى الطول، نحيف الجسم، أسمر اللون، كبير الهامة، واسع الجبين، أزجَّ الحاجبين، واسع العينين، حلو المنطق، ودوداً، بشوشاً، قليل المنام، مُقِلاً من الطعام، قد أضْناه الحب الإلـٰهي، وأنحفته المجاهدات والرياضات، رحب الأناة، واسع القلب، جامعاً للأشتات، يلتقي على حبه والاستفادة منه المختلفون في الأذواق والمشارب، متسامحاً مع الناس، متوسعاً في المسائل الجزئية، والمذاهب الخلافية، لا يتعصب فيها ولا يتشدّد، مولعاً بالمثنوي المعنوي، دائم الاشتغال به تأملاً وتدريساً وتذوقاً وتلقيناً، ينصح أصحابه بقراءته والتأمل فيه.

مؤلفاته: له مصنفات لطيفة، كلها في الحبّ الإلـٰهي، والمعرفة والتصوّف، منها: (ضياء القلوب) بالفارسية، (إرشاد المرشد)، (حديقة المعرفة)، (تحفة العشاق)، (الجهاد الأكبر)، (غذاء الروح) كلها باللغة

الأردية، وأكثرها في الشعر.

وفاته: توفّي رحمه الله يوم الأربعاء ثاني عشر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وثلاثمئة وألف بمكة المباركة، ودفن بالمعلاة عند الشيخ رحمة الله[1] الكيرانوي»[2].

هذا، وقد قدَّر الله سبحانه وتعالى أن يكمّل الشيخ التهانوي رحمه الله في صحبة هذا الشيخ مسيرة التكميل الباطني، ويستفيد منه في مجال التزكية

---

(١) هو الشيخ الفاضل العلاّمة رحمة الله بن خليل الله بن نجيب الله العثماني الكيرانوي، كان من العلماء المبرزين في الكلام والمناظرة، ولد في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين ومئتين وألف، بكيرانه، قرية جامعة من أعمال (مظفر ناكر)، ونشأ بها، واشتغل بالعلم أياماً في بلدته، ثم سافر إلى (دهلي)، وقرأ على الشيخ عبد الرحمن الأعمى وشيخه محمد حياة، ولازمهما مدة طويلة حتى أتقنها، ودرس وأفتى، وله ذكاء مفرط لم يكن في زمانه مثله، وله المقالات الطويلة التي طال بينه وبين أهل عصره من علماء النصارى البحث فيها، واضطر بسببه للخروج من الهند، فسار إلى الحجاز وأقام بمكة المكرمة، حيث صنَّف هناك كتابه الشهير (إظهار الحق) بأمر السيد أحمد زيني دحلان الشافعي المكي سنة ثمانين ومئتين وألف، وأسس المدرسة الصَّوْلتية هناك وبارك الله فيها، ونفع بها خلقاً كثيراً، وله مؤلفات أخرى وأشهرها (إزالة الأوهام) (إزالة الشكوك) (إعجاز عيسوي) (أصح الأحاديث في إبطال التثليث) توفي لسبعٍ بقينَ من رمضان سنة ثمان وثلاثمئة وألف، فدفن بالمعلاة. (نزهة الخواطر: ٨/ ١٤٥، بالاختصار والتعديل اليسير).

(٢) نزهة الخواطر: ٨/ ٧١ـ٧٣، باختصار.

والإحسان والسلوك، حتى يصل فيه إلى درجة الإمامة والاجتهاد، ويؤدي دوره الكامل، وبسبب المواهب الإلـٰهية، وما أراد الله تعالى به وقيّضه له من إصلاح جذري، وانقلاب شامل، وينهض بهذه المهمة العظيمة بكامل العدة والعتـاد، والثقة والاعتماد، ويقوم بالأعمال التجديدية الإصلاحية من نوع جديد، **فيعيد الطريقة إلى نصابها تابعة طيّعة للشريعة**، ويربّي الناس ويسمو بهم إلى المقامات الرفيعة، ومراتب الإحسان العاليـة، وينقلهـم من الوسـائل والأسباب إلى المقاصد والغايات.

المبايعة:

كان الشيخ التهانوي رحمه الله ولوعاً بملازمة مشايخه، حريصاً على خدمتهم، وبعد الفراغ من دراسته، بايع العارفَ المتبصّر الحاج إمداد الله المهاجر المكي، بيعة السلوك، ولازمه مدة، واستفاد من صحبته، علماً أن الشيخ التهانوي سبق وأنْ حصل له شرف المبايعة من الشيخ إمداد الله بالمراسلة، وذلك أيام دراسته في جامعة دار العلوم ديوبند في عام ١٢٩٩هـ، وكان عمره آنئذٍ تسعة عشر عاماً، فذهب به والده إلى الحجاز للحج والزيارة سنة ألف وثلاثمئة للهجرة، فارتحل في شوال وحجّ بيت الله، وزار روضة النبي ﷺ، ومكث عند شيخه مدة، ثم حجّ مرة ثانية في ١٣١٠هـ، وبقي عند شيخه مدة ستة أشهر، ولازمه ملازمة لا تفتر ولا تنقطع، وبقوة استعداده وكمال عناية الشيخ أصبح في هذه المدة اليسيرة كالمرآة تتجلّى فيها سيرة شيخه، وتترقرق فيه أخلاقه، حتى أصبح معروفاً في دياره بعبادته وزهده وورعه وبحسن تعليمه

وتربيته، **فنظّف طريق التصوّف عن الخرافات المحدثة، والبدع الشنيعة، وجدّده تجديداً**[1].

غادر الشيخ مكة المكرمة متوجهاً إلى وطنه الهند، وعاد إلى (كانفور)، يدرّس ويربّي الطلاب، ويفيد الناس بدروسه ومواعظه وتصانيفه.

ثم استقال عن مدرسة كانفور في صفر ١٣١٥هـ وخلف فيها تلميذه مولانا الشيخ محمد إسحاق البردواني ورجع إلى موطنه (تهانه بهون) ولزم زاوية شيخه ومرشده (الخانقاه الإمدادي) لأن شيخه الحاج إمداد الله المهاجر المكي كان قد أوصاه بذلك، ثم لم يزل مقيماً بهذه الزاوية إلى أن توفّاه الله تعالى في سنة ١٣٦٢هـ، وفي هذه الزاوية أظهر الله على يديه تلك الأعمال الدينية العظام التي تعجز عنها المجمّعات الكبيرة والمجالس العالمية.

وها هو الشيخ العلاَّمة الشريف عبد الحي الحسني رحمه الله يقص علينا قصة مبايعته فيقول: «ثم سافر إلى الحجاز فحج وزار، وأخذ الطريقة عن الشيخ الكبير، إمداد الله التهانوي المهاجر إلى مكة المكرمة، وصحبه زماناً، ثم رجع إلى الهند، ودرس مدة طويلة في مدرسة جامع العلوم بكانفور، مع اشتغاله بالأذكار والأشغال، ثم ترك التدريس وسافر إلى أقطار الهند وراح إلى الحجاز مرة ثانية وصحب شيخه مدة ثم عاد إلى الهند»[2].

---

(١) سوف نتحدث بالتفصيل عن جهوده رحمه الله الإصلاحية والتجديدية في مجال التصوّف في الباب الرابع، ص٢٣٩.

(٢) نزهة الخواطر: ٨/ ٥٧.

الخانقاه الإمدادي:

كان (الخانقاه الإمدادي) دار تربية فريدة في منهجها في العالم، تُهذَّبُ فيها الأخلاق، وتُثَقَّف فيها الأفكار، وتُعلَّم فيها آداب الحياة الفردية والاجتماعية، يجتمع فيها المسلمون من أنحاء الهند وأطرافها، فيهم العلماء والمشايخ الكبار، وفيهم الأطبّاء والمهندسون، وفيهم الموظفون والمدرسون، وفيهم أصحاب الزراعة والصناعة، ورجال من جميع مجالات الحياة، يأتون إليه ويسكنون عنده فترات طويلة، وربما تكون معهم الزوجات والأولاد، فيُشرف الشيخ على أحوالهم، ويعلّمهم الدين، ويدرّبهم على الأخلاق الإسلامية، ويصف لهم طريق الحصول عليها، ويمرّنهم على آداب المعاشرة، ويشرح لهم دقائقها، ويلفت أنظارهم إلى أمراضهم النفسية، ويبين لهم طريق التخلّص منها.

وكان لهذا الخانقاه نظام محكم في كل شيء، لا يستطيع أحد أن يخالفه، وكان هذا النظام نفسه مثالاً حيّاً لآداب المعاشرة الإسلامية، يحضّ المرء على أن ينظّم حياته، ويضبط أوقاته، ويُعنى بأداء الحقوق، والاحتراز عن إيذاء الآخرين، حتى صارت هذه الزاوية مصنعاً كبيراً يصنع الرجال، وتصاغ فيه الأخلاق الحسنة، والآداب الصالحة، ولو شرحنا هذه الأخلاق والآداب التي كان يلتزمها الشيخ ويدرّب عليها غيره لطال بنا الكلام»[1].

* * *

---

(١) مقدمة كتاب (إعلاء السنن) للشيخ تقي العثماني: ١/ ١٨.

الفصل السادس

رحلته إلى الآخرة

كُلُّ ابن أنثى وإنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ   يَـوْمـاً عَلـى آلَـةٍ حَـدْبَـاءَ مَحْمُـولُ

مما لا شكَّ فيه أن البقاء لله الملك الواحد القهّار، وهذه هي الحقيقة التي لا بُدَّ من الاعتراف بها، وكل نفس حية لها بدايتها ونهايتها، إلا ذات الباري تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

وتصديقاً لهذا الواقع الملموس، الذي كتبه الله سبحانه وتعالى على كل إنسان، جاء أوان رحلة هذا العبقري الفذّ، والمصلح الكبير، حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله إلى ربّه العليّ القدير، في النصف الأول من ليلة الأربعاء، لستّ عشرة خلون من شهر رجب سنة اثنين وستين وثلاثمئة وألف، الموافق ٢٠ يوليو ـ تموز عام ١٩٤٣م، وهكذا أفل ذلك النجم الذي تألّق، ونوّر شبه القارة الهندية بأضواء العلم والمعرفة، وأنوار الزهد والتقوى، والذي كانت حياته حافلة بالمآثر الخالدة، والخدمات الجليلة، وقد خلّف من ورائه تراثاً علمياً ثريّاً يجعله حياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكلما يُذكر هذا العبقري يترحم عليه المسلمون عامة، وطُلاَّب العلم الشرعي، والمُربُّون تحت إشرافه، وفي ظلّه الوارف خاصة، وبذلك ترتفع درجاته عند الله، وتسمو مكانته عند الرفيق الأعلى إن شاء الله تعالى.

لقد طاب حياً فطاب ميتاً، عاش صالحاً مصلحاً، ومات موتاً مغبوطاً، عاش محبوباً مقبولاً مَرضياً لدى الخلق، ومات محبوباً، تحنّ إليه الأفئدة، وتباركه يد الرحمن، وتدعو له الألسنة والقلوب.

مات رحمه الله وترك مسلمي شبه القارة الهندية وشعوبها باكية بدموع دامية، وخلّف من ورائه ملايين الألسنة تدعو له، وتذكره بالحب والمواساة والتأسّف، وملايين الأكباد تكاد تتفطر من رحيل هذا المرشد العظيم والمربي الربّاني الحكيم، الذي وقف حياته كلّها على العمل على استعادة مجد الأمة الإسلامية الهندية، واسترداد عزّها وكرامتها، وماضيها المُشرق الباهر.

هذا وقد شيّعه جمٌّ غفيرٌ من المحبّين، وكبار العلماء والصالحين، وصلى عليه ابن أخته العلاّمة المحدّث الكبير الفاضل الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي، ودفن في المقبرة التي وقفها الشيخ رحمه الله بنفسه لدفن موتى المسلمين، في الجانب الشمالي من (الخانقاه الإمدادي) بـ(تهانه بهون). رحمه الله رحمةً واسعة، ورفع درجاته في أعلى عليّين، آمين.

من وصايا الشيخ رحمه الله:

لقد أوصى رحمه الله قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى، وأعلن عن هذه الوصايا على مرأى ومسمع من الناس، وهي جديرة بأن تُسجَّل بماء من الذهب، لما تحتوي من معانٍ قيّمة، وتوجيهات رشيدة، ونصائح نافعة لكل مسلم في الدنيا والآخرة.

وفيما يأتي نصّ هذه الوصايا:

١ ـ «أرجو من جميع إخواني، وكل المسلمين، أن يستغفروا لي الله تعالى من جميع المعاصي والخطايا، الصغيرة منها والكبيرة، سواء صدرت مني عمداً أو خطأً.

٢ ـ أطلب من جميع المسلمين ممّن قصّرتُ في حقوقهم، أو أصابهم مني أيّ أذًى بأي شكل من الأشكال، سواء باليد أو باللسان، حاضراً أو غائباً، أو كنت سبباً في ضياع حقوقهم، عرفوا ذلك أم لم يعرفوه، ألتمس منهم جميعاً، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً أن يصفحوا عني، ويسامحوني من صميم القلوب وأعماق الضمائر، والله تعالى سيجازيهم أحسن ما يجازي به عباده الصالحين، ويغفر لنا ولهم، ويرزقنا العفو والعافية في الدارين، ويرفع درجاتهم في أعلى علّيين.

٣ ـ أما بالنسبة لي فأعلن بكل صراحة أني قد عفوت عن الجميع من صميم خاطري عن كل ما صدر من أحدٍ في حقي من هذا القبيل، وذلك طلباً لرضا الله تعالى، ونيل مرضاته، وابتغاء وجهه، وأملاً ورجاءً في العفو عما صدر مني في حقّهم.

٤ ـ أوصي كل الإخوان والأحبّاء والزملاء خصوصاً، وسائر المسلمين عموماً بضرورة الاهتمام بطلب العلم الديني؛ تعلّمه للنفس وتعليمه للأولاد، فإنه فرض عين على كل مسلم، سواء كان ذلك بالكتاب، أو بملازمة العلماء وأصحاب المعرفة، وذلك لأنه لا سبيل لتجنّب الفتن ـ وما أكثرها في أيامنا هذه ـ في أمور الدين والشريعة، ولا طريق للابتعاد عنها في أمور الدنيا، إلا بتعلّم

الدين، والتسلّح بسلاح المعرفة، والاطّلاع على أحكام الشريعة الإسلامية، وتطبيق ديننا الحنيف في الحياة، واقتفاء سنّة المصطفى ﷺ في كل شعبة من شعب الحياة.

٥ ـ أوصي طلبة العلم وشداة المعرفة والسالكين طريقها أن لا يغترّوا بما تعلّموه من الكتب؛ لأن الفائدة الحقيقية لهذا العلم هو العمل به، وتطبيقه في الحياة، وذلك لا يمكن إلا بملازمة العلماء وأولياء الله الصالحين.

٦ ـ إن المدرسة الدينية (إمداد العلوم) التي ما زالت مستمرة بحمد الله وعونه في أداء واجباتها نحو الإصلاح والتربية والدعوة والإرشاد، وتثقيف الجيل المسلم والنشء الجديد، إنها مدرسة ذات منهج خاص، وأرجو أن تواصل مسيرتها نحو غايتها الأساسية وهدفها الأصيل إن شاء الله تعالى، وأتمنى من الذين يتولّون أمورها من بعدي أن لا يغيّروا من منهجها، ويضعوا الاهتمام بتربية الأخلاق، وإصلاح النفوس وتزكية الباطن، نُصب أعينهم، أسأل الله العظيم أن يجعلها منبع خير وبركة، ومنهل علم ومعرفة، ومركز تزكية النفس وإصلاحها، ووسيلة قوية لاستئصال جذور البدع، والقضاء على الطقوس الجاهلية، والأفكار الزائفة التي لا تمتّ إلى الإسلام بصلة.

٧ ـ نظراً إلى ما يترتّب من المضارّ في الدين والدنيا بسبب اقتراف بعض الذنوب، والاجتراء على بعض المعاصي، أوصي إخواني المسلمين جميعاً بالعمل بما يأتي، والعض عليه بالنواجذ:

- كفّ النفس عن العمل بمقتضيات الشهوة أو ما تهواه النفس ويتطلّبه دافع الغضب.

● إن العجلة من الشيطان، وهي أمر لا تحمد عواقبه.

● الاهتمام بالاستشارة مع أصحاب الشورى قبل الإقدام على شيء.

● تجنّب الغيبة وما يماثلها من الأخلاق السيئة، والعادات القبيحة، تجنّباً قاطعاً.

● تجنّب كثرة الكلام ولو كان مباحاً، وكذلك الامتناع عن كثرة الاختلاط بالخلق دون ضرورة قصوى أو حاجة شديدة، أو مصلحة دينية ودعوية، وخاصة إذا وصل هذا الاختلاط إلى درجة الصداقة، والاعتماد عليهم بالأسرار.

● عدم الأكل دون اشتهاء كامل.

● عدم الاستدانة أو الاستقراض إلاّ في حالة الضرورة القصوى.

● عدم الاهتمام بجمع أشياء وأغراض تزيد عن الحاجة، ولا تهمّ الإنسان في حياته.

● تعويد النفس على فضائل الأخلاق والرفق واللين والحلم، وتجنّب القسوة والغلظة والشدّة والجفاف، والخلق السيِّئ.

● تجنّب الرياء والتكلّف لما لا داعي له، في الأقوال والأفعال، والمأكل والملبس.

● يجب على الرعايا المعاملة الحسنة والتعامل بالأخلاق الفاضلة مع أمرائهم، وتقليل التردّد عليهم ومخالطتهم، وعدم اتخاذهم نصب الأعين لنيل

حطام الدنيا وكسب المناصب العالية، وتحقيق الأهداف الفانية الزائلة.

● الاهتمام بصفاء المعاملات ونظافتها، أكثر من العبادات.

● لا بد من أخذ الحذر التامّ، والحيطة الكاملة، في بيان الروايات، وسرد القصص، وقد تغافل الناس كثيراً عن هذا الجانب، سواء في فهمها أو نقلها للآخرين.

● لا بد من استشارة الطبيب الحاذق وأخصائي الأمراض قبل استخدام الأدوية وأخذ العلاج.

● حفظ اللسان وكفّه عن كل أنواع المعاصي، والأمور التي لا تعني الإنسان في دينه ودنياه.

● كُن مُحبّاً للحق وعاملاً به مهما كان، وحيثما كان، ولا تكن مُصرّاً وجامداً على قول لا يسانده الدليل ولا يوافقه البُرهان.

● عدم الإكثار من إيجاد العلاقات، والتدخل في الشؤون الدنيوية لشخص ما.

٨ ـ أرجو من جميع الإخوة والزملاء أن يدعوا لي الله بالعفو والمغفرة، وخاصة بعد قراءة القرآن، وأحذّرهم كل التحذير من إحداث أي أمر لا يمتّ إلى الإسلام والدين بصلة، أو اختراع أمر مخالف لسنّة المصطفى ﷺ.

٩ ـ عدم تعليق النفس بالدنيا وزخارفها، قدر المستطاع، وعدم إغفال فكرة الآخرة، ولو للحظة واحدة، وكذلك إعداد النفس دائماً للقاء الربّ عزّ

وجلّ، حتى إذا وافتها المنيّة لا تكن أمنيّتها ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠]، وملازمة الاستغفار والمواظبة عليه لذنوب النهار قبل دنوِّ الليل، ولذنوب الليل قبل دنوِّ النهار، والقيام بأداء حقوق العباد بالكليّة وتبرئة الذمة منها قدر المستطاع.

١٠ ـ المواظبة على الدعاء لحسن الخاتمة، لا سيّما بعد أداء الصلوات الخمس بغاية من التضرّع، وأقصى درجات الخشوع، لأن من نال حسن الخاتمة فقد نال الخير كله، وحاز الفضيلة العليا والنعمة الكبرى، والشكر على نعمة الإسلام كما هو الموعود من خالق السماوات والأرضين ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

١١ ـ أُحذِّر إخواني وأحبّائي ببالغ التحذير من التجمّع بغرض الدعاء لي أو إيصال الثواب إليّ، لا بقصد ولا من دون قصد، حتى لو اجتمعوا بمناسبة من المناسبات فعليهم أن يتفرّقوا عند تلاوة القرآن، وكل من تحلو له نفسه أن يدعو لي أو ينفعني بالصدقات والنوافل والقربات الأخرى فليفعل وحده، دون أن يشاركه أحد في شيء من ذلك، ولا أُجيز لهم أن يتبرّكوا بما أخلّفه من ورائي من أثاث البيت، أو الأغراض التي كنت أستعملها.

نعم إن يتملّكها أحدهم بطريقة شرعية، ويحتفظ بها بطريقة سريّة فلا بأس لكن لا ينبغي الاهتمام بإبرازها أمام الآخرين أو إطلاعهم عليها، أو النظر إليها كشيء يُتبرَّك به، فأنا بريء من ذلك.

كانت هذه إحدى عشرة وصية، وتشبَّه في العدد بأحد عشر كوكباً حرَّرتها

وسجّلتها لكم لكي يسترشد بها الناس ويعملوا بها.

سائلاً المولى عزَّ وجلّ أن يوفّقنا لكل خير، ويُرينا الحقّ حقّاً ويرزقنا اتّباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، آمين».

مقتبسات من قصائد قيلت في رثاء الشيخ رحمه الله:

لما مات رحمه الله ارتجّت الهند بالبكاء، وتأسّف عليه المسلمون أسفاً شديداً، ورثاه غير واحد من العلماء والشعراء بمئات الأبيات، وفيما يأتي نذكر مقتبسات من هذه القصائد العربية:

● من قصيدة الشيخ العلاّمة المفتي **محمد شفيع** رحمه الله:

شَمْلُ الهُدى والدِّينِ عَمَّ شَتاتُه ... والدَّهرُ سَاءَ وأقلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أفَلَتْ نُجُومٌ للهُدَى وشُمُوسُهُ ... والجَهْلُ شَاعَ وأحْدَقَتْ ظُلُمَاتُهُ
لَمْ يَبْقَ منْها اليَوْمَ إلاَّ أرْسُمٌ ... دُرُسٌ تَدُورُ لِمَحْوِهَا نَكَبَاتُهُ
والخَطْبُ طَمَّ ولا تَزَالُ كَمَا تَرَى ... تَبْقَى إلى أمَدِ المَدَى حَسَرَاتُهُ
بِوَفَاةِ أشْرَفِهِم مُجَدِّدِ وقْتِه ... ظَهَرَتْ عَلَى أُفْقِ العُلَى آيَاتُهُ
لِحِمَايَةِ الدِّينِ القَوِيْمِ قِيَاسُهُ ... تَشْييدُ أرْكَانِ الهُدَى مَسْعَاتُه

وقال رحمه الله:

مَا مَاتَ مَنْ أبْقَى الخَلِيْفَةَ بَعْدَهُ ... رَوْضاً أريْضاً تُجْتَبَى ثَمَرَاتُهُ
مَا مَاتَ مَنْ أبْقَى الخَلائِفَ بَعْدَهُ ... تَبْقَى بِهِم آثَارُه وسِمَاتُه
ما مَاتَ مَنْ أبقَى كألْفِ مُصنَّفٍ ... تَزْهُو عَلَى أُفْقِ العُلَى صَفَحَاتُه

فـي الحَـيِّ والقَيّـومِ قَـامَ مُشَمِّـراً خَلَدَت إلى خُلْدِ الزَّمَانِ حَيَاتُه[1]

● ومن قصيدة الشيخ جميل أحمد التهانوي:

أيُطفـي لَـوعَتـي دَمْـعُ البُكَـاءِ أيَـرْوي غُلَّتِـي سَكْـبُ الـدِّمَـاءِ
أيَكْفـي بَعـدَ شَيخـي أنْ تَقُـولُـوا عَــزَاءٌ يـا كَئيـبُ علـى العَـزَاءِ
أنسلُـوا سَـاقيـاً مـا زالَ يَسْقـي ولـمْ يـكُ مَـلَّ قـطُّ عَـن السِّقَـاء
كَـأنَّ الـرَّبَّ لَـمْ يَخْلُقْـهُ إلاّ لِسَقْـي سَقِيْمنـا كَـأسَ الشِّفَـاءِ
وَمَـا هـذَا انْسِجَـامُ القَطْـرِ إلاّ بُكَـاءٌ فـي نُـواهِ مِـنَ السَّمَـاءِ
رزيّـةُ فَقْـدِهِ عَنّـا رَزَايَـا دَهَتْنـا فـالـدَّهَـاءُ عَلـى الـدَّهـاءِ
فَـأيْـنَ طَبيـبُ أرواحِ البَـرَايَـا فقَـدْ أعْيَـا الأطبّـةَ كُـلُّ دَاءِ
وأيـنَ حكيـمُ أمَّتِنـا فـإنّـا نَـرى فينَـا عُيـوبَ الأشْقيـاءِ
إذا مَـا شُبهـةٌ وردتْ بِقَلْـبٍ فَمِنْـهُ دِفَـاعُهـا مَحْـضُ اللِّقَـاءِ
حَيَـارى لا نَـرَى للشَّيْـخ مِثْـلاً ولا لِكُلـومِنَـا بَعْـضَ الـدَّواءِ
إذَا جَـازى الإلـهُ هُـداةَ قَـوْمٍ جَـزَى عَنَّـا لَـهُ خَيْـرَ الجَـزَاءِ

● ومن قصيدة العلاّمة الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي:

بَكَـتْ عَيْنِـي وَزَادَ بِـيَ العَـوِيْـلُ وهَـلْ بِـدُمُـوعِهـا يُشْفَـى العَلِيْـلُ
لَقَـدْ ضَـاقَ الفَضَـاءُ بِنَـا ومَـالَـتْ جِبَـالُ الأرضِ أو كَـادتْ تَـزُولُ
وأوحَشَـتِ البِـلادُ بِنـا وأمْسَـتْ يَبَـابـاً مَـا يُـرَى فيْهـا خَلِيْـلُ

---

(١) أشرف السوانح: ٤/ ١٥٠ ـ ١٥٢.

وأظلمتِ الدِّيارُ ومَا عَليها فهَل لِضيائِها يَوْماً سَبيلُ
تصدَّعتِ القُلوبُ بمَا دَهَاهَا وجَلّ الخَطْبُ وانْذَهَلَتْ عُقُولُ
وقُلِّبَتِ الأمُورُ غَداةَ ولَّى حَكيمُ الأمةِ العَلَمُ الجَليلُ
مجدِّدُ ملّةِ الإسْلام حقّاً فَنِعْمَ دَليلُنا ذَاكَ الدَّليلُ
مفسِّرُ عَصْرِهِ مِنْ غيرِ خُلْفٍ فَقيْهُ الوَقْتِ ليسَ لهُ عَديلُ
خَبيرٌ بالحديثِ وكُلِّ عِلْمٍ وبالأسْرَارِ يَنْطِقُ إذْ يقُولُ
تَضلَّعَ بالعُلُومِ فكَانَ فَرْداً إليهِ كلُّ مَكْرُمَةٍ تؤولُ
وليُّ زمانِهِ عَدْلٌ تقيٌّ إمامُ الدَّهرِ ليسَ لهُ مثيلُ
رؤوفٌ راحمٌ بَرٌّ كريمٌ وفي عُنُقِ الهَوى سَيْفٌ صَقِيْلُ
لَقَدْ قَطَعَ الحَبائلَ عن فِئَامٍ بوادي الهالكين لهم نزولُ
يحضّ بنا على طَلَبِ المَعَالي ويَهْدينَا لِمَا قَالَ الرَّسُولُ
لَهُ فينَا صَحائِفُ مُعْلَمَاتٍ كثيرُ ثَنائِهَا منّا قليلُ

● ومن قصيدة الشيخ المحدّث محمد إدريس الكاندهلوي:

لقد قُبضتْ روحُ العُلى والمكارمِ بموتِ حكيمِ الهندِ أشرفَ عالمِ
وقد قبضت روحُ الفضائلِ والهدى بموتِ إمامِ الهندِ رأس الأكارمِ
نقيٌّ تقيٌّ عالمٌ أيُّ عالمٍ وموتُه واللهِ موتةُ عَالَم
وكَانَ جنيدَ الوقتِ نُعمانَ عصرِه وفي البحث كالرازيِّ عند التَّخاصُمِ
وكان خَطيباً مصْقَعاً أي مُصْقَعٍ مواعظُه مشهورةٌ في العَوالم
وَقَدْ كَانَ في التَّفسيرِ آيةُ ربِّه هَمَى علمُه مثلَ الحيا المتراكِمِ
وأحْيَا عُلومَ الدِّينِ مدَّة عُمْرِهِ وما خاف في مولاه لَوْمَةَ لائِمِ

● وقال رحمه الله:

وأيْتَمْتَ أهلَ العلمِ يا عَلَمَ الهُدَى ... فَمَن ذَا الذي نَدعو لرغم المخَاصِمِ
وأورثْتَنَـا عِلْمـاً وأورَثْتنـا الأسَـى ... ولي مِنْهُما حَظٌّ نصيبُ المقاسِمِ
عَليـكَ سَـلامُ اللهِ يـا قَبْـرَ أشـرفٍ ... ورَحْمَتُـهُ تترى كَجُـودِ الغَمـائـمِ
وبَـوَّأكَ الـرَّحمـنُ خيـرَ مُبـوَّأٍ ... وأرضاكَ رَبُّ العرشِ أرحمُ راحمِ
وأُهدِيكَ يا نَجْمَ الهُدَى أحْسَنَ الدُّعا ... وتَسليـمَ مُشتـاقِ الفُـؤادِ وهـائـمِ
جَـزَاكَ إلـهُ العـرشِ خَيْـرَ جَـزَائِـهِ ... فَقَدْ كُنْتَ للإسْلامِ أحْسَنُ خَادِمِ[1]

فضله وثناء العلماء عليه:

يقول الشيخ الإمام **محمد زاهد الكوثري** رحمه الله (وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية) تحت عنوان: (أحاديث الأحكام وأهم الكتب المؤلَّفة فيها، وتناوب الأقطار في الاضطلاع بأعباء علوم السنّة):

«وكذلك عُني بهذا الأمر العلاَّمة الأوحد والحبر المفرد، شيخ المشايخ في البلاد الهندية، المُحدّث الكبير، والجهبذ الناقد البصير، مولانا حكيم الأمة محمد أشرف علي التهانوي، صاحب المؤلَّفات الكثيرة البالغ عددها نحو خمسمئة مؤلَّف ما بين كبير وصغير؛ فألّف ـ طال بقاؤه ـ كتاب (إحياء السنن) وكتاب (جامع الآثار) في هذا الباب، ويُغني عن وصفهما ذكر اسم مؤلّفهما العظيم، وكلاهما مطبوع بالهند، إلا أن الظفر بهما أصبح بمكان من

---

(١) أشرف السوانح: ٤/١٥٨ـ١٦١.

الصعوبة، حيث نفدت نسخهما المطبوعة، لكثرة الراغبين في اقتناء مؤلفات هذا العالم الرباني، وهو الآن قد ناهز التسعين، أطال الله بقاءه، وهو بركة البلاد الهندية، وله منزلة سامية عند علماء الهند، حتى لقّبوه (حكيم الأمة)[1].

ويقول الشيخ العلاَّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله:

«حكيم الأمة، مجدّد الطريقة، العالم الربّاني، الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، الذي مزج بقلمه بين الفقه والتصوّف بعد صراع شديد دام بينهما قروناً طويلةً، وقد نفع الله بتعليمه وتربيته، وتوجيهاته، وإرشاداته الدعوية الحكيمة، عالَماً من بني البشر، إلى حوالي نصف قرن، وكشف النقاب عن الحقائق الإيمانية، وأزاح الستار عن الدقائق الفقهية، والأسرار السلوكية والحكم الربّانية، فلقّبه العالَم بحكيم الأمة، وحُقَّ له أن يُلقَّب بهذا اللقب، لَعب دوراً بارزاً في مجال تجديد الطريقة والسلوك، والتزكية، فطهّرها من أرجاس الرسوم، والتقاليد غير الإسلامية، وأخذ بها إلى مكانها اللائق، وطريقة السلف الصالحين»[2].

ويقول الشيخ الشريف عبد الحي الحسني رحمه الله:

«الشيخ العالم الفقيه أشرف علي بن عبد الحق الحنفي التهانوي، الواعظ، المعروف بالفضل والأثر، كانت له اليد الطولى في المعارف الإلـٰهية، ومهارة

---

(١) مقالات الكوثري، ص٧١ـ٧٦.

(٢) يادرفتكان.

جيدة في التصنيف والتذكير، ورزق من حسن القبول ما لم يرزق غيره من العلماء والمشايخ في العصر الحاضر»[1].

ويقول سماحة العلاَّمة الشيخ **أبو الحسن علي الحسني الندوي** رحمه الله:

«المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي، الذي هو من كبار علماء هذا العصر الربَّانيين، وأعظم مؤلّف في هذا العصر بالإطلاق، ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة، والعمل، والرجوع إلى الله، وإصلاح النفس، وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان...»[2].

وقال رحمه الله في موضع آخر:

«كان مرجعاً في التربية والإرشاد، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، تُشدّ إليه الرحال، ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد وأدانيها، وانتهت إليه الرئاسة في تربية المُريدين، وإرشاد الطالبين، والاطّلاع على غوائل النفوس، ومداخل الشيطان، ومعالجة الأدواء الباطنة والأسقام النفسية»[3].

ويقول الشيخ العلاَّمة **محمد شفيع**، المفتي الأعظم في كراتشي باكستان

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: ٨/ ٥٦.
(٢) مقدمة كتاب (بين التصوف والحياة)، ص١٢ ـ ١٣.
(٣) من تعليق الشيخ على كتاب (نزهة الخواطر): ٨/ ٥٧.

وكبير علمائها:

«آية من آيات الله، من الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، مجدّد الملّة، حكيم الأمة، سند علماء الدهر، وشيخ مشايخ العصر بالديار الهندية، سيّدنا ومولانا أشرف علي التهانوي، متّعنا الله تعالى وسائر المسلمين بطول بقائه بالخير»[1].

ويقول العلاَّمة الشيخ المحدّث ظفر أحمد العثماني التهانوي رحمه الله:

«الإمام الهمام، مقدام العلماء الكرام، بهجة الأنام وشيخ الإسلام، حكيم الأمّة المحمدية، مجدّد الملّة الإسلامية الحنيفية، تاج الملّة، سراج الأمّة، التقيّ النقيّ، المحدّث المفسّر، الفقيه الوليّ، مولانا الحافظ، الثقة الثبت، الحجّة، الشيخ أشرف علي التهانوي، قدَّس الله سرّه، ورفع في أعلى الدارين درجاته»[2].

وقال في موضع آخر: «آية من آيات الله، مظهر قوله عليه الصلاة والسلام: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله»، مجدّد الملّة، حكيم الأمة، سند علماء الدهر، شيخ مشايخ العصر، مسند الوقت، أعظم المفسّرين، سلطان العلم والعمل، وفي التفسير والحديث والفقه، أمير المؤمنين، مقدام العلماء الراسخين، أشرف العلماء والأولياء الكاملين سيّدنا ومولانا محمد المدعو بأشرف علي التهانوي متَّعنا الله تعالى وسائر المسلمين بطول بقائه بالخير

---

(١) مقدمة كتاب (أحكام القرآن): ١/ ١ ـ ٢.

(٢) تقريظ لكتاب (قواعد في علوم الحديث)، ص١١، ١٢.

والعيش الهنيء»[1].

ويقول الأستاذ الشيخ عبد الباري الندوي:

«استفاد منه ألوف من المسلمين، وكان له فضل كبير في نشر العقيدة الصحيحة، وإصلاح الأعمال والأخلاق، ومحاربة العوائد والبدع التي تسرّبت في مجتمعات المسلمين عن طريق المواطنين»[2].

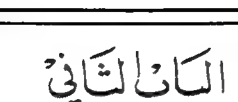
ويقول الشيخ القاضي العلاّمة محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى ورعاه:

«كان رحمه الله من العلماء الأفذاذ، والدعاة البررة المخلصين، الذين أناروا في الهند مصابيح التجديد، الباهرة الشعلة، الساطعة النور، وأخلصوا حياتهم لإعلاء كلمة الله، وإحياء علوم الدين، مرابطين على ثغور الإسلام، مثابرين في الدعوة إليه، ومصابرين على ما يصيبهم في هذا السبيل»[3].

* * *

---

(١) مقدمة كتاب (أحكام القرآن): ١/ ١ ـ ٢.
(٢) بين التصوف والحياة، ص١٦.
(٣) مقدمة التحقيق لكتاب (إعلاء السنن): ١/ ٧.



الحياة العلمية لحكيم الأمة
أشرف علي التهانوي

الفصل الأول : التدريس والمحاضرات .

الفصل الثاني : أهم تلاميذه .

الفصل الثالث : الكتابة والتأليف .

الفصل الرابع : المواعظ الحسنة .

الفصل الخامس : مذكراته اليومية ومجالسه .

الفصل السادس : القيام بمهام الإفتاء .

الفصل السابع : آراؤه في المسائل الاعتقادية .

الفصل الثامن : التهانوي والسياسة (آراؤه في السياسة الشرعية والسياسة المعاصرة) .

الفصل الأول

التدريس والمحاضرات

تخرَّج العلاَّمة التهانوي من دار العلوم ديوبند سنة ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٢م، بعدما كمَّل دراسته العالية تحت إشراف العلماء الربّانيين، والشيوخ الأفاضل، الذين شهد لهم الزمان بالتفوّق العلمي، وذاع صيتهم في الأوساط العلمية بالتبحّر والنبوغ، فأشاروا عليه بالاشتغال بمهام التدريس في إحدى المدارس الدينية.

مدرسة الفيض العام:

كان في مدينة (كانفور) (مدينة صناعية كبيرة تقع على مسافة حوالي (٨٠) كيلو من العاصمة لكنو) مدرسة شهيرة معروفة تسمَّى (الفيض العام)، وكان يدرّس فيها الشيخ أحمد حسن الأمروهوي[1]، وكان من الأساتذة

(١) هو الشيخ العالم الفقيه أحمد حسن الحنفي الأمروهوي، أحد العلماء المشهورين بسعة التقرير، والتبحّر في علم الكلام، قرأ على الشيخ محمد قاسم النانوتوي وغيره من العلماء، وأسند الحديث عن الشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارنفوري والشيخ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري والشيخ عبد القيوم البكري وسافر إلى الحجاز فحج وزار، وأسند الحديث هناك عن الشيخ عبد الغني الدهلوي، كان حسن الصورة، حلو الكلام، مليح الشمائل، قوي=

المعروفين المتفوّقين النابغين في جميع العلوم ولا سيما في العلوم العقلية، وقد استقال عن التدريس فيها لبعض الأسباب، فطلب المسؤولون من علماء ديوبند أن يبعثوا إليهم أستاذاً يكون خلفاً للعلامة أحمد حسن، ويسدّ الفراغ الذي حصل بغيابه، فوقعت أنظارهم على العلاَّمة التهانوي ورشَّحوه واختاروه لإنجاز هـذه المهمّة، لِمَا رأوا فيه من النباهة والذكاء والمواهـب العلميـة والدعوية، بجانب الرسوخ في العلم والتضلّع من الفنون المختلفة، والتفوّق في مجال التدريس.

وبدأ الشيخ التهانوي حياته العلمية بالقيام بمهام التدريس والإفادة في مدرسة (الفيض العام) وذلك في صفر ١٣٠١هـ، وهكذا صارت بداية رحلاته لإفادة الناس في مطلع القرن الرابع عشر، يقول الشيخ تقي العثماني: «وبالجملة فقد اشتغل رحمه الله في (كانفور) بالتدريس والدعوة والإرشاد والتأليف، وسرعان ما اشتهر فيما بين الطلبة بغزير علمه وحسن تدريسه وقوة خطابه، على رغم أنه تولّى منصب شيخ محنّك وهو في ريعان شبابه»[1].

وقد كان راتب الشيخ رحمه الله هناك خمساً وعشرين روبية، وبالرغم من أن هذا الراتب الضئيل كان لا يعادل شيئاً بالمقارنة بما كان يملكه الشيخ رحمه الله من والده من أموال طائلة وثروات هائلة، لكنّه رحمه الله ارتضاه، بل

= العمل، كثير الدروس والإفادة، توفي سنة ١٣٣٠هـ. انظر للتفصيل: نزهة الخواطر: ٨/ ٤١.

(١) مقدمة إعلاء السنن: ١/ ١٠.

اعتبره فوق ما كان يستحقه هو، وكان يقول: إني لا أرى لنفسي أنها تستأهل هذا الراتب الكبير، لكنه فضل من الله العلي العظيم الذي أكرمني به[1].

مدرسة جامع العلوم:

ثم انتقل الشيخ رحمه الله إلى مدرسة أسّسها في الجامع الكبير وسُمّيت بـ(جامع العلوم) في نفس المدينة، وقد أعجب أهل المدينة كلهم بالشيخ أيما إعجاب، ونالت دروسه وخطبه ومحاضراته، ومواعظه الإصلاحية، قبولاً وشهرةً لدى الخاصة والعامة، وتتلمذ على يديه خلق كثير، واستضاؤوا من أنوار علمه، واقتبسوا من أشعة معارفه، وقد مكث الشيخ زهاء أربع عشرة سنة، يفيد الناس بدروسه ومواعظه وتصانيفه، ويحوز ثقة الناس والأساتذة والطلاب، وقد ألقى الله تعالى في قلوبهم حُبّه واحترامه وتوقيره، فكانوا ينظرون إليه بغاية من الاحترام والتبجيل، وينزّلونه أعلى منزلة وأسمى مكانة، حتى أولئك الذين يخالفونه في المنهج، والآراء الفقهية والفروع والجزئيات، لم يلبثوا إلا أن أحبوه واعترفوا له بالفضل وعلوّ الكعب.

وقد استغلّ الشيخ التهانوي هذا الحب، والعلاقة الوطيدة التي كانت تربطه بأهل المدينة، في تحقيق أهدافه الدعوية والإصلاحية، واغتنم الفرص المتاحة له في سبيل نشر السنّة وتطهير المجتمع عن أدناس البدع والخرافات، وحلّ بعض المعضلات العلمية والتاريخية التي كانت قد تسبّبت في تفريق كلمتهم وتشتيت شملهم، ومن ضمنها ما وقع فيه الناس من سوء الفهم تجاه

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٤٠.

علاقة الصحابي الجليل سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما مع الخليفة الراشد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، حيث قام الشيخ التهانوي رحمه الله بالكشف عن الحقائق التاريخية، وإزالة الأفهام الخاطئة، وذلك بأسلوب علمي رصين ومنهج دعوي قويم، وبالحكمة والموعظة الحسنة.

منهجه في التدريس:

تتميز طريقة الشيخ التهانوي ومنهجه في التدريس والإفادة بخصائص ومميزات، قد لا يجدها الطالب عند الآخرين، ومن أهم مزاياه في هذا الباب هو سلاسة اللسان، وسهولة البيان، وحلّ الغوامض والقضايا الصعبة، والمعضلات بأسلوب سهل ميسّر رشيق يحتل مكانة مرموقة في قلوب الدارسين، ويخلّف أثراً عميقاً في أذهان المتعلّمين.

هذا وقد ركّز التهانوي رحمه الله على أصول معيّنة في طريقة التدريس وهي:

١ ـ ينبغي للمدرّس أن يقدّم المادة العلمية أمام الطلاب بشكل ميسّر سهل التناول للجميع، وهذا يتطلّب منه المطالعة العميقة، والدراسة الوافية الكافية للموضوع قبل التدريس.

٢ ـ ينبغي للمدرّس أن يقوم بتفهيم الطالب المسائل الصعبة، والقضايا الغامضة، دون الإشارة إلى أن المسألة الفلانية من الكتاب من أصعب المسائل، أو إخبارهم بذلك.

٣ ـ ينبغي للمدرّس أن يقتصر في تقرير المسائل على ما تقتضيه الحاجة، ويتطلَّبه الدرس، ولا يطوّل فيما لا داعي له، فقط لكي يقال: إنه مدرّس فاضل عبقري عالي الكعب ورفيع المستوى.

وكان يقول: إذا التزم الطالب بالأصول الآتية، أمكنه إيجاد موهبة علمية بكل يسر وسهولة إن شاء الله، وهي:

١ ـ أن يقوم الطالب بمطالعة ما يدرسه لاحقاً، وليس من اللازم أن يحلّ الدرس بكامله في مطالعته هذه، وإنما المقصود هو أن يميز بين ما يعلمه وما يجهله، حتى يتسنّى له التركيز على ما يجهله بشكل أكثر.

٢ ـ أن لا يبدأ في المسألة القادمة قبل أن يُتقن فهم المسألة السابقة.

٣ ـ أن يعيد تقرير المسائل نفسها التي درسها عند الشيخ.

٤ ـ أن يراجع ويذاكر ما درسه في السابق.

الحاجة إلى العلماء أو المتصوّفين:

كان رحمه الله يحبّ طُلاّب العلم حبّاً جماً، ويعطيهم الكثير من اهتمامه، والاعتناء بشؤونهم منذ البداية، ودائماً يسمي نفسه طالب العلم، وكان يقول: «**أنا لست متصوِّفاً، أو ولياً من الأولياء، وإنما طالب علم بسيط متواضع، وأرجو أن تناقشوني في أمور الكتاب والسنة وأحكامهما، وتسألوني عن المسائل المستنبطة منهما، ولا أعرف غير القرآن والحديث، وأنا على يقين قاطع أن معرفة القرآن والحديث هي أعظم الولاية، وأفضل درجات التصوّف**».

كما كان يذكّر الناس دائماً ويقول: «**إن حاجة العالم اليوم إلى العلماء المتقنين الربآنيين أكثر وأشدّ من حاجته إلى المتصوّفين، لأن العلماء هم ورثة الأنبياء، وبهم يبقى الدين**»[1].

وبسبب هذه المكانة العالية، والدرجة السامية التي كان يحملها الشيخ التهانوي رحمه الله في قلبه للعلم وأهله، ازدادت رعايته لطلاّب العلم، واهتمامه بشؤونهم، والمساهمة الفعّالة في مدّ يد العون والمساعدة لهم، وكان يفضّلهم على الناس الآخرين في الاحترام والتوقير، ويوصي أصحابه بذلك، كما أنه كان يبذل قصارى جهوده في صرف ذهن الطالب إلى هدفه الحقيقي وتذكيره بغايته المنشودة، ومكانته العالية، والمنصب العظيم الذي يحوزه بهذا العلم، وكان يقول: «**جزى الله خيراً السادة الفقهاء وأجزل مثوبتهم، فهم الذين خدموا الدين، وبيّنوا للأمة الصراط المستقيم، وكشفوا النقاب عن هذا الدين القويم، واستنبطوا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ تلك الأصول والضوابط التي تكفي البشرية إلى يوم القيامة، وكلما جدّ جديد، أو حدث حادث، فإنه يمكن معرفة حكمه في ضوء هذه الأصول، بدون أية صعوبة.**

فهناك طائفتان جعلهما الله تعالى رحمة للأمة جمعاء: الفقهاء والمتصوفون، وهم بمثابة الحكماء لهذه الأمة»[2].

* * *

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الفصل الثاني

أهم تلامذته

سبق أن ذكرنا أنَّ هناك عدداً كبيراً من العِطاش للعلم، والباحثين عن الحق، وطالبي المعرفـة، الذين ارتووا من منهل العلاَّمة التهانوي، العذب الفيَّاض، وذهب ظمؤهم وابتلّت عروقهم بمياه هذا المنبع الصّافي والمنهل الوافي، وبرزوا أمام مسرح العلم والثقافة نجوماً وكواكب، ساطعين، لامعين، ولعبوا دوراً بارزاً ملموساً في أداء المسؤوليات التي ألقيت على كواهلهم والتي ربّاهم عليها مرشدهم ومربّيهم الشيخ التهانوي رحمه الله، فأحسن تربيتهم.

وها نحن الآن نسعد بذكر نبذة من أحوال بعض هؤلاء الثلّة الخيّرة الذين ترعرعوا ونشؤوا تحت إشرافه، وذلك لأنهم جزء أساس من الحياة العلمية للشيخ التهانوي:

١ ـ العلاَّمة المحقق البحَّاثة المدقق، والثبت الحجة، المفسّر المحدِّث، الفقيه الأصولي البارع، المؤرِّخ الأديب، الورع الزاهد، **ظفر أحمد بن لطيف العثماني التهانوي**، ولد في ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٠هـ، بدار آبائه بقرب دار العلوم في ديوبند، أعظم مراكز العلم في البلاد الهندية، وتوفيت أمه وهو ابن ثلاث سنين، فربّته جدته أحسن تربية، وكانت امرأة تقيّة صالحة، فتلقن منها صلاحها وتقواها، ولما تمّ له من العمر خمس سنوات، شرع في قراءة القرآن الكريم عند كبار حفظته في ديوبند، ولما أتمّ السابعة شرع في قراءة

الكتب الأردية والفارسية وكتب الحساب والرياضيات عند الشيخ الجليل مولانـا محمد ياسـين، وهو والد كبير علماء باكستان العلاَّمة الشيخ محمد شفيع الديوبندي، المفتي الأعظم في كراتشي ومؤسس دار العلوم الإسلامية فيها، ثم انتقل من ديوبند إلى مجلس خاله (الشيخ التهانوي) وشرع في قراءة الكتب العربية عند العلاَّمة المتمكّن مولانا محمد عبد الله الكنكوهي، وسمع من خاله شيئاً من علم التجويد، ونبذاً من التلخيصات العشر، وأجزاءً من (المثنوي).

ثم لما اشتغل خاله في تأليف كتابه العظيم (بيان القرآن) بالأردية، ذهب بـه إلى (كانفور) وأدخله في مدرسة (جامع العلوم) وفوّض تدريسه وتعليمه إلى أرشـد تلامذته مولانا محمد إسحاق البردواني، ومولانا محمد رشـيد الكانفوري، فقرأ عندهما كتب الحديث المقررة ـ الكتب الستة ـ و(مشكاة المصابيح)، مع ما يعزز دراستها من كتب المصطلح وعلوم الحديث، كما قرأ عندهما كتب الفقه والتفسير والأدب المقررة بكاملها.

ولما فاز بسند العلوم الشرعية والنقلية، متميزاً بمواهبه وجِدّه على سواه من الطلبة النابهين، انتقل إلى سهارنفور، وجلس في مدرسة (مظاهر العلوم) وحضر دروس الحديث الشريف عند العارف بالله، الإمام المحدّث الفقيه مولانا خليل أحمد السهارنفوري، مؤلف (بذل المجهود في شرح سنن أبي داود)[١].

---

(١) هو الشيخ العالم الفقيه خليل أحمد السهارنفوري، أحد العلماء الصالحين، وكبار الفقهاء والمحدِّثين، ولد في أواخر صفر سنة تسع وتسعين ومئتين وألف في قرية نانوتة من أعمال سهارنفور، وقرأ العلم على خاله الشيخ يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي، والشيخ محمد مظهر النانوتوي وعلى غيره من =

وبعد مدة من ملازمته لهذا المحدِّث الإمام أجازه بالحديث وعلومه وبسائر العلوم النقلية والعقلية، وفاز بسند الإتمام والفراغ من الدراسات العليا في سنة ١٣٢٨هـ، وكانت سنه حينئذٍ ١٨ سنة، وهي سن صغيرة لا يرتقي فيها

= العلماء في المدرسة العربية بديوبند، وفي مظاهر العلوم بسهارنفور، وكان قد درس الحديث دراسة إتقان وتدبر، وحصلت له الإجازة عن كبار المشايخ والمسندين، كالشيخ محمد مظهر النانوتوي، والشيخ عبد القيوم البرهانوي، والشيخ أحمد دحلان مفتي الشافعية وغيرهم، وعني بالحديث عناية عظيمة تدريساً وتأليفاً ومطالعةً وتحقيقاً، وكان من أعظم أمانيه أن يشرح سنن أبي داود فبدأ في تأليفه سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة وألف، يساعده في ذلك تلميذه البار الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي، وانتهى منه في شعبان ١٣٤٥هـ في المدينة المنورة، وقد صبّ فيه الشيخ مهجة نفسه، وعصارة علمه، وحصيلة دراسته، وقد أجهد قواه، وأرهق نفسه في المطالعة والتأليف.

كانت له الملكة القوية والمشاركة الجيدة في الفقه والحديث، واليد الطولى في الجدل والخلاف، والرسوخ التام في علوم الدين والمعرفة واليقين، نفع الله به خلقاً كثيراً، وخرّج على يديه جمعاً من العلماء والمشايخ، من أجلّهم المُصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والمحدِّث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب (أوجز المسالك) و(لامع الدراري)، له من المصنّفات: (المهند على المفند) (إتمام النعم على تبويب الحكم) (مطرقة الكرامة على مرآة الإمامة) (هدايات الرشيد إلى إفحام العنيد) (بذل المجهود في شرح سنن أبي داود).

توفي بعد العصر يوم الأربعاء ١٦ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٦هـ في المدينة المنوّرة ودفن بالبقيع لدى مدفن أهل البيت. (نزهة الخواطر: ٨/ ١٣٣ باختصار شديد).

إلى ذروة هذه المرتبة إلا الأفذاذ النابغون، ونظراً لمزيد تفوقه، وبالغ ذكائه، ونبوغه؛ عُيّن مدرساً في المدرسة المذكورة، فدرّس فيها زهاء سبع سنين علم الفقه والأصول والمنطق، ثم فوّض إليه الشيخ التهانوي تأليف كتاب (إعلاء السنن) مع الإفتاء والتدريس، فقام بكل ذلك خير قيام، وبقي في تأليفه نحو عشرين سنة، فألفه في (١٨) مجلداً، ثم أمره الشيخ التهانوي بتأليف (دلائل القرآن على مسائل النعمان) على منوال (أحكام القرآن) للجصّاص[١]، وقد ألّف منه مجلدين كبيرين انتهيا بسورة النساء، وألف كتباً عديدة بالأردية منها: (القول المتين في الإخفاء بآمين) و(شق الغين عن حق رفع اليدين) و(رحمة القدوس في ترجمة بهجة النفوس) و(فاتحة الكلام في القراءة خلف الإمام).

وأخيراً استقر في دار العلوم الإسلامية في أشرف آباد غربي باكستان، يدرّس فيها (صحيح البخاري).

---

(١) هو الإمام الهمام، المحقق النابغ، المحدِّث الفقيه الأصولي، أحمد بن علي الرازي الحنفي، المعروف بالجصاص، أبو بكر، فقيه مجتهد، وهو تلميذ أبي الحسن الكرخي، وقد انتهت إليه رئاسة الحنفية في وقته، وهو من المجتهدين المبرزين في المذهب، رحل إليه الطلبة من الآفاق، من أهم مصنفاته: كتاب (أحكام القرآن) (شرح مختصر الكرخي) (شرح الجامع لمحمد بن الحسن) (شرح الأسماء الحسنى) (شرح مختصر الطحاوي). ولد في بغداد سنة خمس وثلاثمئة هجرية، وتوفي في ذي الحجة سنة سبعين وثلاثمئة هجرية. (الجواهر المضيئة: ١/ ٢٢٠؛ تاريخ بغداد: ٤/ ٣١٤؛ تذكرة الحفاظ: ٣/ ٩٥٩؛ البداية والنهاية: ١١/ ٢٩٧؛ الطبقات السنية: ١/ ٤٧٧).

كان رحمه الله مع ضعفه ومرضه ملتزماً بالأذكار والنوافل، يشهد جميع الصلوات في المسجد، ويتحمل لذلك عناءً كبيراً، وكان لسانه في أواخر عمره رطباً بذكر الله في أكثر الأوقات، وفي شهر رمضان سنة ١٣٩٤هـ قد منعه الأطباء من الصيام، لأمراضه المتواردة، ولكنه لم يرضَ بذلك، وقال: إن عياضاً رضي الله عنه لم يترك الصيام وهو في التسعين من عمره، وكان يلقى من الصوم شدةً وعناءً، حتى كان يجلس في مركن من الماء، ولا يرضى بالافتداء، فكيف أرضى بالفدية؟!

وهكذا عاش رحمه الله حتى توفاه الله تعالى في ذي العقدة سنة ١٣٩٤هـ، أسكنه الله تعالى في رحمته ورضاه[١].

٢ ـ الشيخ العالم الفقيه **إسحاق بن لطيف الهدى الحنفي البردواني**، أحد العلماء المشهورين، ولد في قرية (كيتن) من أعمال (بردوان) من أرض بنغالة سنة ثلاث وثمانين ومئتين بعد الألف، وقرأ المختصرات على أساتذة بلاده ثم دخل (آره) وقرأ على المولوي محمد حنيف الآروي، ثم سار إلى (كانفور) وقرأ سائر الكتب الدراسية على مولانا عبد الغفار اللكنوي[٢]، ومولانا أشرف

---

(١) قمنا بتلخيص هذه الترجمة مما كتبه العلاّمة المحقق المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، رحمه الله، في مقدمة تحقيقه لكتاب (قواعد في علوم الحديث) للشيخ ظفر أحمد العثماني، رحمه الله، ص٨ ـ ١٠، ط: دار السلام القاهرة.

(٢) هو الشيخ العالم الفقيه عبد الغفار بن عالم علي اللكنوي ثم الكانفوري أحد الفقهاء الحنفية، ولد في ١٢٤٧هـ بمدينة لكنو، واشتغل بالعلم على مولانا=

علي التهانوي، ثم ولي التدريس بالمدرسة العالية بكلكته، ومنحته الحكومة لقب (شمس العلماء) ثم رقي إلى درجة (المعلم) في مدرسة حكومية في (داكة) (عاصمة بنغلاديش) وأحيل إلى المعاش، وعين معلماً في قسم الإسلاميات في جامعة (داكة).

توفي رحمه الله في سنة سبع وخمسين وثلاثمئة وألف في كلكته في حادثة اصطدام، وقد جاء إلى زيارة موطنه، فنقلت جثته إلى قريته (كيتن) ودفن بها[١].

٣ ـ الشيخ الفاضل **أحمد علي بن أمجد علي الفتحفوري**، أحد العلماء المدرّسين الأفاضل، ولد في شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين ومئتين وألف بفتحفور قرية جامعة من أعمال (باره بنكي) قرب مدينة لكنو، وقرأ المختصرات على مولانا عابد حسين الفتحفوري[٢] وعلى غيره من العلماء، ثم سافر إلى

= محمد علي بن عبد العزيز اللكنوي، وحفظ القرآن الكريم، ودرس وأفاد بلكنو مدة من الزمن، ثم ذهب إلى كانفور وبقي في المطبعة النظامية مدة عمره، كان حسن الأخلاق، كثير الصمت، مديم الاشتغال بالدرس والإفادة، شديد التعبد، له (هداية العباد إلى آداب محفل الميلاد) و(بدر الكمال)، و(الفتاوى) و(منظومة في الدعاء) مات في ذي الحجة سنة ١٣١٢هـ ببلدة كانفور. (نزهة الخواطر: ٨/ ٢٦٨).

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ٥٢.

(٢) هو الشيخ العالم الصالح عابد حسين بن محمد حسين الحنفي اللكنوي ثم الفتحفوري، كان من العلماء المتورّعين، ولد ونشأ ببلدة لكنو وانتقل مع =

كانفور ودخل بـ(جامع العلوم) المدرسة الكبيرة فيها، وقرأ الكتب الدرسية على مولانا أشرف علي التهانوي، ولازمه مدة من الزمان، ثم ولي التدريس بتلك المدرسة، ودرس بها زماناً، وكان من أوائل من أجازهم الشيخ أشرف علي التهانوي، وكانت له مناسبة تامة بالفقه، توفي رحمه الله قبل شيخه أشرف علي التهانوي بعدة سنوات[1].

٤ ـ **الشيخ العالم الصادق صادق اليقين بن سراج اليقين الحنفي الكرسوي**، أحد العلماء المبرزين في الفقه والحديث، ولد ونشأ بكُرسي ـ بضم الكاف ـ قرية جامعة من أعمال لكنو، حفظ القرآن، وقرأ المختصرات في بلاده، ثم سافر إلى ديوبند وقرأ الكتب الدرسية على مولانا محمود حسن الديوبندي، وعلى غيره من العلماء، ثم دخل كنكوه، وأخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الحنفي[2] الكنكوهي، وقرأ عليه أياماً، ثم سافر إلى

= والده إلى فتحفور، واشتغل بالعلم على مولانا نذير علي اللكنوي، فقرأ عليه الكتب المدرسية، ثم تصدى للدرس والإفادة في حياة شيخه، وصار من أكابر العلماء، كان شيخاً منوراً، وقوراً متواضعاً، حسن الشكل، حسن الأخلاق، حلو المنطق، مات يوم عرفة من ذي الحجة سنة خمس وأربعين وثلاثمئة وألف، ودفن بفناء مسجده بفتحفور. (نزهة الخواطر: ٨/ ٢٠٨).

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ٤٦.

(٢) هو الشيخ الإمام العلاَّمة المحدِّث رشيد أحمد الكنكوهي الحنفي، أحد العلماء المحققين والفضلاء المدققين، لم يكن مثله في زمانه في الصدق والعفاف والتوكل والثقة والشهامة، والإقدام على المخاطر، والصلابة في الدين، ولد في ذي القعدة سنة ١٢٤٤هـ، كان آية باهرة ونعمة ظاهرة في =

الحجاز للحج والزيارة مع والده سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة وألف، فحجّ وابتلي بالزَّحير ـ استطلاق البطن ـ بمكة المكرمة، ومات بها في ثالث المحرم سنة أربع وعشرين وثلاثمئة وألف، فدفن بالمعلاة، وكان على قدم السلف الصالح في الزهد و العفاف، والصدق والإخلاص، وعلوّ الهمّة في المجاهدة والعبادات، شديد الحب لشيخه، عظيم الأدب معه(١).

٥ ـ الشيخ العالم الطبيب الحاذق **محمد مصطفى البجنوري**، كان من كبار العلماء الصالحين المشهورين بالحذق والنبوغ في فن الطبّ ومهنته، نشأ وترعرع في أسرة ثرية وعَائلة غنية في ظلّ والده السيد مروان علي، كان متقناً للّغة العربية وآدابها، وذلك لأن والده اهتم منذ صباه بتعليمه اللغة العربية، درس على الشيخ أشرف علي التهانوي جميع المقرّرات الدراسية، وبرع فيها، وهو أول من بدأ في جمع وتدوين مواعظ الشيخ التهانوي وترتيبها، وكان

= التقوى واتباع السنة النبوية والعمل بالعزيمة، والاستقامة على الشريعة، ورفض البدع ومحدثات الأمور، ومحاربتها بكل الطرق، والحرص على نشر السنة وإعلاء شعائر الإسلام.
من أهم مؤلفاته: (تصفية القلوب)، (هداية المعتدي)، (سبيل الرشاد)، وأماليه على سنن الترمذي، وكذلك صحيح البخاري. توفي رحمه الله يوم الجمعة في جمادى الآخرة سنة ١٣٢٣هـ. (نزهة الخواطر: ٨/ ١٤٨، مقال الدكتور سعيد الأعظمي الندوي في جريدة الداعي، عدد جمادى الأولى ١٤٠٠هـ).

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ١٨٦.

يكتب ما يلقيه الشيخ التهانوي باللغة العربية بعبارات فصيحة مختصرة ومفيدة، ثم ينقلها إلى اللغة الأردية لإفادة الناس عامة، تلك المواعظ التي استفادت منها الأمة الهندية ـ الإسلامية، ونفع الله بها آلاف العباد، كما قام رحمه الله تعالى بنقل بعض مؤلفات الشيخ التهانوي المستقلّة إلى اللغة الأردية مثل رسالة (الانتباهات المفيدة عن الاشتباهات الجديدة)، وتسهيل وتيسير البعض الآخر منها، مثل: رسالة (الشوق إلى الوطن) و(مجالس الحكمة) و(أمثال العبر).

كان مثالاً رائعاً لاتباع السنة النبوية، وتقوى الله، والعبودية الخالصة لله، والصدق والإخلاص والتواضع، محباً للخير والبرّ والإحسان إلى الفقراء والمساكين. حفظ القرآن الكريم وهو كبير السنّ، كان يتمتع بلطافة الطبع وذكاء الحس، شعاره الانقياد والاستسلام لأحكام الشريعة.

كان أستاذه الشيخ التهانوي رحمه الله دائماً يذكره بالخير ويمدحه ويثني عليه، وكان يقول: «إن الحكيم (الطبيب) مصطفى فقيه النفس، وله نظر عميق في مكايد النفس وغوائلها» وكان يحبه ويوقّره، رحمهم الله تعالى ورفع درجاتهم في أعلى عليين[1].

* * *

---

(١) كاروان تهانوي (من قوافل التهانوي) للشيخ الحافظ محمد أكبر شاه البخاري، ص١٢٤ ـ ١٢٥. وانظر: المصابيح الأشرفية، للأستاذ أحمد سعيد، ص١٧٣.

الفصل الثالث

الكتابة والتأليف

كان الشيخ التهانوي رحمه الله أكثر الناس تأليفاً في عصره، ولا يوجد في هذا القرن من يجاريه أو يدانيه في كثرة المؤلفات، فإنّه قد ترك خلفه نحو ألف كتاب مطبوع، ما بين صغير وكبير، ولا يوجد موضوع ديني أو شرعي أو دعوي، يحتاج إليه المسلمون في هذا العصر، إلا وله فيه كتاب أو رسالة أو موعظة مطبوعة، وقد شهد بعبقريته ونبوغه في هذا المجال كبار المؤلفين وجهابذة المحققين، والنُّقّاد والباحثين، أمثال الشيخ العلاَّمة المحدِّث الناقد البصير الإمام محمد زاهد الكوثري، والشيخ المحقّق المحدّث الفقيه عبد الفتاح أبي غدّة، وسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي وغيرهم.

يقول الشيخ زاهد بن حسن الكوثري رحمه الله أثناء حديثه عن جهود علماء الهند وباكستان ومآثرهم العلمية والحديثية والفقهية: «وكذلك عني بهذا الأمر، العلاَّمة الأوحد والحبر المفرد، شيخ المشايخ في البلاد الهندية، المحدث الكبير، والجهبذ الناقد، مولانا حكيم الأمة محمد أشرف علي التهانوي، صاحب المؤلفات، البالغ عددها نحو خمسمئة مؤلف، ما بين صغير وكبير، بل قد زادت مؤلفاته على ألف عند وفاته...»[1].

---

(١) مقالات الكوثري، ص٧٥.

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي: «كان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند وهو الشيخ أشرف علي التهانـوي سـهم كبير في نشـر العقيـدة الصحيحـة، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، والدعوة إلى الله، وقد عمل وحده عمل مجمع علمي كبير، وألّف كتباً ورسائل تربو على ثمانمئة، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً، وأثّرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيراً عظيماً»[1].

هذا وقد ألّف رحمه الله في كل فن وفي كل موضوع، وتتميز مؤلفاته بالأصالة والإتقان، مع سعة العلم، ودقة البحث، وتنوّع المقاصد، ويغلب الطابع الإصلاحي والدعوي على مؤلفاته جميعها.

إيجاد جيل من المؤلفين النابغين:

ولم يقتصر عمل الشيخ التهانوي التأليفي على هذه الكتب التي نجدها اليوم بين أيدينا مطبوعة منشورة في سائر بقاع شبه القارة الهندية وخارجها، منتشرة في الأوساط العلمية والمجامع الإصلاحية والدينية والدعوية، وإنما هناك جهود مباركة ومساعي حثيثة قام بها الشيخ التهانوي رحمه الله، وذلك عن طريق إرشاد أجَلّ تلاميذه وكبار مسترشديه إلى إنجاز مشاريع علمية في مجال التأليف والتصنيف، وبالتالي إيجاد مكتبة علمية متكاملة تبقى مرجع الطلاب والدارسين والباحثين، وتخدم العلماء والمحققين بكل ما يحتاجونه في سبيل تحقيق أهدافها، ويتطلبه العصر الحديث، مع المراعاة التامة لأصول البحث وضوابط التحقيق.

---

(١) الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها، ص٣٢.

وفعلاً أثمرت هذه الجهود المباركة ثماراً يانعة، وتحقق حلم الشيخ التهانوي رحمه الله، وظهر كبار العلماء والمحققين، والمؤلفين النابغين، أمثال الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي، والشيخ العلاَّمة المفتي محمد شفيع الديوبندي، والشيخ حبيب أحمد كيرانوي، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي وغيرهم من الذين قاموا بتنفيذ خطة الشيخ التهانوي رحمه الله العلمية المباركة السعيدة، وخلّفوا للأمة الإسلامية عموماً ولمسلمي شبه القارة الهندية خصوصاً تراثاً علمياً ضخماً، ومكتبة تحقيقية ذات أصالة وبحث وعمق وإتقان، عامرة بكل أنواع العلوم والفنون، قد لا يمكن للمجمّعات الإسلامية تقديمها، وإنّ كتاب (إعلاء السنن) و(إمداد الفتاوى) و(بيان القرآن) و(أحكام القرآن)، وغيرها من الكتب، بل الموسوعات العلمية ـ إذا صحّ التعبير ـ شاهد عدل على ما قلناه.

ويجدر بنا أن ننقل هنا ما أعرب به الشيخ التهانوي رحمه الله عن انطباعه حول كتاب (إعلاء السنن) حيث قال: «الحمد لله قد ظهر بالخانقاه الإمدادية (تهانه بهون) عمل عظيم، لم يوجد نظيره في أكبر مراكز العلم الدينية بالهند، وهو جمع الأحاديث المؤيدة للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، في مسائل الخلاف من كل باب. . . فبتأليف هذا الكتاب القيّم (إعلاء السنن) ظهر للناس عامة، وللعلماء خاصة أن ليس مسألة من مسائل أبي حنيفة رحمه الله تعالى مخالفة للكتاب والسنة، والحمد لله حمداً كثيراً»[1]، وقال: «لو لم

---

(١) مقدمة كتاب (قواعد في علوم الحديث)، ص١١ ـ ١٢، للشيخ ظفر أحمد العثماني، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

يكن بالخانقاه الإمدادي إلا تأليف (إعلاء السنن) لكفى به كرامة وفضلاً، فإنه عديم النظير في بابه».

هذا ولنا حديث مفصّل إن شاء الله تعالى عن مؤلفات الشيخ التهانوي رحمه الله، مع التناول بأبرز العناوين، وأهم الموضوعات التي تتضمنها هذه المؤلفات، ودراسة لبعضٍ منها دراسة علمية وافية، وذكر نماذج من كتاباته العربية، كل ذلك ضمن فصول الباب السادس (الآثار الخالدة لحكيم الأمة). وبالله التوفيق.



الفصل الرابع

المواعظ الحسنة

مما لا شك فيه أن الوعظ والنصيحة أو بتعبير أصح القيام بأعمال الدعوة والإرشاد من أهمّ وأجلّ ما قام به الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، وبما أنَّ العلماء الربّانيين هم ورثة الأنبياء الحقيقيين، فكان من الطبيعي أن يرزقهم الله تعالى هذه الموهبة، ويكرمهم بهذه الصلاحية بأكمل وجه وأتم طريقة.

وانطلاقاً من مبدأ هذه السنّة الإلـٰهية نرى أنَّ الشيخ التهانوي رحمه الله منذ زمن دراسته بجامعة ديوبند، كان يتمرن على الوعظ والخطابة، ويعقد كل ليلة جمعة حفلة يجتمع فيها الطلاب، ويلقون كلماتهم مرة بعد أخرى، وكان الشيخ رحمه الله من سبّاقي هذه الحلبة، ومبرّزي هذا الميدان، حتى أصبح بعد إكمال دراسته من أشهر الخطباء والوعاظ في عصره، وكلما زار مدينة، أو أقام في بلد لم يغفل قط عن أداء هذه المسؤولية العظيمة.

كان رحمه الله يعظ الناس ويدعوهم إلى الخير، وتعقد له الحفلات في كل ناحية من نواحي البلاد، بل في كل بلدة من بلاد الهند، واشتهرت مواعظه في جميع أنحاء البلاد، حتى أصبحت لها جولة وصولة، كان الناس يقصدون إليها من أداني البلاد وأقاصيها، ويتجشّمون من أجلها المشاقَّ، ويتحملون

المتاعب، ويقطعون المسافات البعيدة، وحقاً كانت مواعظه كالبحر الذي لا يُرى له ساحل، والعين التي لا تجفّ أبداً، والمنهل العذْب الفيّاض الذي يروي غليل الباحثين عن الحق، وطالبي المعرفة، بقطوف دانية، فيها من العلم والحكمة والأمثال والنوادر واللطائف العلمية، والغرائب الدعوية ما لا تحمله الأسفار، وفيها من بدائع التفسير والحديث والفقه، ومعاني التزكية والإحسان، ما لا يوجد في الكتب المتداولة، كان الشيخ رحمه الله ينثر فيها من لآلئ عرفانه ما يجلو القلوب وينوّر الأذهان.

يقول العلاّمة عبد الحيّ الحسني رحمه الله في (نزهة الخواطر): «وقد كان من كبار العلماء الربانيين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم، وقد بلغ عدد مجالس وعظه التي دوّنت في الرسائل، وجمعت في المجاميع أربعمئة مجلس، وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل، واستفاد منها ألوف من المسلمين، ورفض عدد لا يحصيه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية، والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين، في بيوتهم وأفراحهم وأحزانهم، بسبب الاختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء».

وفعلاً فقد كان لمواعظه من التأثير في إصلاح النفوس، وتقويم الأفكار ما لا يوجد له نظير في هذا العصر، فكم من رجلٍ كفّ بعد سماعها عما اعتاد من المعاصي، وكم من ضالٍّ قد تاب بها عن البدع والأهواء، وكم من متخبّط في الشكوك، قد اهتدى بها إلى الإيمان واليقين، والذين قد أحدثت هذه

المواعظ انقلاباً في حياتهم، قد يجاوز عددهم الآلاف من الرجال والنساء.

هذا وقد وفق الله تعالى بعض تلاميذه الذين قاموا بتحرير هذه المواعظ، وجمعها وترتيبها، ثم نشرها في حلّةٍ قَشيبةٍ وطباعة فاخرة، بحيث يتمكن الجميع من الاستفادة منها بكل سهولة، وقد طُبع منها نحو عشرين مجلداً، كل مجلد منها يحتوي على ستمئة صفحة على الأقل.

يقول الأستاذ نجم الحسن التهانوي: «لقد جال الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله في كل بقعة من بقاع الهند المترامية الأرجاء، وألقى فيها خُطَباً ومواعظ، أمام جموع حاشدة من المسلمين، وأحياناً تستمر هذه الخطب، وحلقات الوعظ والدعوة والإرشاد إلى حوالي خمس ساعات متواليات، ويستمع إليها الحضور الكامل بهدوء منقطع النظير، وآذان صاغية وقلوب واعية وكل هذه المواعظ كانت تدور حول الركائز الخمسة والأصول الأساسية للدين الحنيف، مدعمة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال السلف الصالح، والعبر والأمثال من حياتهم المجيدة وماضيهم المشرق الباهر»[1].

منهجه وطريقته في الوعظ:

١ ـ كان رحمه الله يركّز في مواعظه على جانب الترغيب، بدل الترهيب، وكان يقول: «قد جرّبتُ طباع الناس في هذا العصر، فوجدتهم ينتفعون بما يشوّقهم ويرغّبهم أكثر من انتفاعهم بما يُرهّبهم ويُخوّفهم، ولذلك أرى من

---

(١) الشيخ أشرف علي التهانوي، سيرته وخدماته ودعوته، ص١٣.

المناسب التركيز على جانب الترغيب، والتقليل من جانب الترهيب»[1]، والحثّ على المبشّرات دون التحدث عن شيء يبعث على اليأس والقنوط في الأمة.

٢ ـ كان رحمه الله يبتهل إلى الباري تعالى ويدعوه قبل البدء في الوعظ، أن يوفقه لبيان ما يحتاج إليه الحاضرون والمستمعون، وما يكون في صالحهم، ويصلح أحوالهم[2].

٣ ـ إنه كان دائماً يستهلّ الوعظ بالخطبة المأثورة، ويتبعها بتلاوة آيات من القرآن الكريم، وحديث من أحاديث الرسول الكريم ﷺ.

٤ ـ كان لا يضيّع وقته في انتقاء العبارات المسجوعة، واستخدام الجمل والكلمات الموزونة، مثل عامّة القُصّاص والوعّاظ المحترفين، وإنما يسرد كلامه سرداً بأسلوب سهل رشيق، وفي غاية من البلاغة والفصاحة، وكان يستخدم بعض الأبيات الشعرية من العربية والفارسية خلال خطاباته بما يناسب المقام ويقتضيه الحال[3].

٥ ـ كان لا يتعرض في مواعظه للمسائل الخلافية فيما بين العلماء والأئمة الفقهاء، إلا إذا جاءت مسألة خلافية أثناء كلامه، فيشرحها شرحاً

---

(١) سيرة أشرف، ص٣٧، نقلاً عن وعظ الباطن، ص١٣٧.
(٢) ذم النسيان، ص١٥.
(٣) أشرف السوانح: ١/٦٦.

وافياً، برفقٍ ولينٍ ولطف، وحكمة ونصيحة، ولا يغلظ الكلام على مخالفيه، ولا يبالغ في التشنيع عليهم، وإنما يتأسَّى بالأنبياء عليهم السلام في قول لين وموعظة حسنة.

٦ ـ كان رحمه الله دائم الاعتناء، وشديد الاهتمام بالمسائل العقدية، والرد على البدع، وإصلاح ذات البين، وكان يقول: «إنّي على يقين كامل أن من صلحت عقائده، وطَهُرَ قلبه من أسقام الشبهات، وأدناس الأفكار الزائغة، أدّاه ذلك إلى صلاح الأعمال إن شاء الله تعالى».

٧ ـ كان من عادته رحمه الله أنه لم يكن يحدّد الموضوع للوعظ بطلب من أحد، وإنَّما كان يختار الموضوع المناسب حسبما كان يقتضيه الوقت وتتطلبه الحاجة والظروف الراهنة، وبما فيه صالح الإسلام والمسلمين[١].

٨ ـ كان يتناول شرح بعض الأحاديث الشريفة في مختلف المجالس، ولمرات عديدة، ولكن لا يتكرر منه نفس الكلام الذي سبق أن تناوله في المجلس الماضي، وإنَّما كان يتجدّد الموضوع في كل مرة[٢].

٩ ـ كان من عادته رحمه الله أنه لم يكن يَقبَلُ على الوعظ أي عوض مالي، حتى لو أهدى إليه رجل بعد الوعظ شيئاً مما يجعله كالعوض ـ في الظاهر ـ لم يقبله أبداً.

---

(١) أشرف السوانح: ١/ ٧٢.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٨٣.

وبالجملة فقد كانت مواعظه رحمه الله مصداقاً كاملاً بكل ما يحتويه من المعاني لقوله جلَّ وعلا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

* * *

الفصل الخامس

مذكراته اليومية
(مجموعة ملفوظاته)[1]

كان من عادة السلف الصالح رحمهم الله تعالى أنهم كانوا يهتمون بعقد جلسات علمية ومجالس دينية ودعوية يومياً، يتناولون فيها موضوعات مختلفة، ويعبّرون فيها عما يجول في خواطرهم، وما يُلقي الله تعالى في روعهم من كلمات الحكمة والمواعظ الحسنة، وقصص الصالحين، وحكايات العلماء الربّانيين، وقد قام تلاميذهم بجمع وترتيب هذه الملفوظات والمذكّرات اليومية، واشتهرت فيما بعد بمجالسهم، وتراثنا الإسلامي الثري غنيٌّ بمثل هذه المجالس ؛ التي نُسبت إلى كبار العلماء والزهاد والصالحين.

كان حكيم الأمة التهانوي رحمه الله ممن اصطفاهم الله تعالى واختارهم للقيام بمهمة الدعوة، والنهوض بالأمة إلى قمة الرقي والازدهار في مجال توطيد علاقة العباد بالرب تعالى، والتحلّي بحلي الإيمان والإحسان، وإصلاح الباطن، وتطهير المجتمع من البدع والمنكرات، فكان همّه الأول والآخر هو

---

(١) الملفوظات: نوع من كتب المتأخرين يجمعون فيها كلمات شيوخهم وفوائدهم المنثورة.

القيام بهذا الواجب الديني والدعوي، مستخدماً في تحقيق هذا الهدف كل الوسائل الممكنة والإمكانيات المتاحة لديه، وفعلاً فإن هذه المجالس التي اشتهرت من السلف الصالح كانت تحتل مكانة مرموقة، ولها من التأثير الكبير ما لا يعزب عن أحد.

«فكان رحمه الله يعقد كل يوم بعد الظهر مجلساً عاماً في (الخانقاه الإمدادي) يجتمع فيه تلاميذه ومسترشدوه وعامة الناس، فكان يعظهم، ويجيب على أسئلتهم المتفرقة، ويحدثهم بما بدا له من غير اقتصار على موضوع دون موضوع، وكان بعض الحاضرين في هذه المجالس يدوّن كلامه، وما يلقي فيه من إفادات، فطبع كلامه باسم (الملفوظات) في أكثر من عشرين مجلداً، وتشتمل هذه الملفوظات على نوادر من علم وحكمة، ولطائف وظرائف، وقصص وأخبار، وموعظة وعبرة، وإصلاح وإرشاد، وأدب وخلق، وردّ ونقد، وقد جرّب علماء هذه الديار أنّ هذه الملفوظات لها أثرٌ بالغٌ في تكوين المذاق الديني السليم، والتشجيع على الأعمال الصالحة»[1].

هذا وقد بلغ عدد أولئك الذين نهلوا من منهل الشيخ الصافي، واستقوا من معينه العذب الحلو الآلاف، يمثّلون كل أصناف الناس وطبقاتهم، فمنهم الأولياء والصالحون والعلماء والجهابذة الكبار، والمحدِّثون والفقهاء، والمثقّفون والأدباء، والحكماء والأطبّاء، وأصحاب الحرف والمهن المختلفة، ولم يقتصر ذلك على (الخانقاه الإمدادي) فقط، بل كانت هذه

---

(١) من مقدمة الشيخ تقي العثماني لكتاب (إعلاء السنن): ١/ ١٤.

عادته في حلّه وترحاله، وسفره وحضره، وها هو سماحة العلاَّمة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله، الداعية الكبير، والمفكر الإسلامي العظيم، رائد الأدب الدعوي، وصاحب المؤلفات النافعة، قد سنحت له فرصة الاستفادة من مجالس حكيم الأمة التهانوي رحمه الله، عدة مرات، ويسعدني أن أتحف القرّاء الكرام بما كتبه العلاَّمة الندوي في هذا الصدد، ولا شك أن كلامه هذا صورة رائعة ومشرقة لمعرفة مدى العلاقة القوية، والصلة الوطيدة التي تربطه بحكيم الأمة، واستفادتِه من مجالسه ومواعظه، يقول رحمه الله وهو يحكي لنا قصة نزول حكيم الأمة في مدينة لكنو واستفادة العامة والخاصة من مجالسه: «وبالجملة فقد قدم الشيخ إلى لكنو، في أغسطس عام ١٩٣٨م واتخذ بيت مسترشده وتلميذه القديم المولوي محمد حسن الكاكوروي، مدير (أنوار المطابع) منزلاً له، ودامت إقامته أربعين يوماً، وهي مدة لها قيمتها، وأهميتها في مجال التربية والإصلاح والتزكية، خصّ وقت ما بين الظهر والعصر للقائه برجال مخصوصين، وكان ضابط ذلك أن يعرف الشيخ القادمين شخصياً، أو يُعرّفهم رجلٌ ثقة من حَضَرة مجلسه، كي لا يحدث أمراً لا يليق به ويؤذيه.

طار الخبر المفاجئ بقدوم الشيخ في أرجاء الهند، ولا سيما في المديريات الشرقية، برغم جميع التحفظات والتأكيدات، فلم يسمح بالزيارة إلا لأهل العلاقة الخاصة، كما تشرَّف بزيارته، واستفاد من مجالسه العلمية والإصلاحية، عدد كبير من أعيان البلد، بما فيهم علماء (فرنكي محل) وأساتذة (دار العلوم ندوة العلماء)، وطائفة لا يستهان بها من المتدينين في البلد.

كان الشيخ رحمه الله يصلّي العصر في مسجد (خواص) الذي أصبح مسجد الخاصة، بمعناه الحقيقي بقدومه الميمون ومجالسه اليومية، ثم ينعقد مجلسه بعد الصلاة في ناحية المسجد الشمالية الغربية، فكان الشيخ يخاطب الناس مع الرد على الرسائل.

كان مجلسه مجلس علم وتربية وتزكية، يذكر فيه معاني ورموز التزكية والإحسان، ودراسات علمية وتربوية، وقصص المشايخ والربّانيين، وإذا ذكر الشيخ أحوال المُصلحين من السلف وقصصهم، غشيت المجلس غاشية من الهدوء والسكينة، وسحابة من البهجة والسرور، وكان الشيخ نفسه يشعر بالفرح والارتياح وتنفرج أسارير وجهه»[1].

وقال في موضع آخر: «ثم قدم (الشيخ التهانوي) مرة ثانية إلى لكنو عام ١٩٤١م بعد ثلاثة أعوام، وأقام في هذه المرة أيضاً لأكثر من شهر، وكان ثمة نفس البرنامج الذي كان من قبل، وبذلك تسنَّى لنا أن نحضر مجالسه العلمية والتربوية العامرة بالروحانية والسكينة والرزانة، وننهل من مشاربها الصافية ونعلّ»[2].

وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن قصة نزوله ضيفاً عند الشيخ رحمه

---

(١) مجلة ثقافة الهند (حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي): ٨/٤٢، ١٩٩١م، تعريب الأستاذ أفتاب عالم الندوي.
(٢) المصدر السابق، ص٩.

الله: «فحضرت إليه في الضحى تقريباً، ولم يحضر فيه إلا بضعة أشخاص، أذكر منهم الشيخ خواجه عزيز الحسن مجذوب، فأمر الشيخ التهانوي خواجه عزيز الحسن أن يناوله حبالته، فنهض الخواجه امتثالاً، غير أنه لم يتفطن لما أمر به، فسأله الشيخ هل عرفت ما هي حبالتي؟ كان الجواب بلا، فقال: إنما هي المسبحة، فهي حبالتنا، نتصيد بها الناس، ولم تزل تغشى المجلس غاشية من الابتهاج والارتياح، وسحابة من الانفتاح والانبساط، ولا غرو، فإن طلاقة وجه الشيخ ووضاءة جبينه، وإشراقة محيّاه، وبهاء طلعته، كان يفضي على المجلس لوناً صافياً من الرونق والبهاء، والروعة والجمال»[1].

كانت هذه نظرة عابرة على مجالسه رحمه الله، وإليكم الآن نبذة يسيرة من مقتطفات هذه المجالس القيّمة والملفوظات الغالية، نتحف بها القرّاء الكرام مع الأمل أنها ستلعب دوراً بارزاً في مجال الإصلاح وتطهير النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل ومحاسن الأخلاق والآداب.

● كان من وصاياه للعلاّمة المفتي محمد شفيع رحمه الله حين قدم إليه مسترشداً ومستفيداً:

«إنّ الاهتمام بأداء الفرائض والواجبات، والاعتناء بالسنن والمستحبات، يقوم به كل المسلمين، عامتهم وخاصّتهم، ولكن أوصيك أن تواظب على ثلاثة أشياء:

---

(١) المصدر السابق، ص١١.

١ ـ تقوى الله تعالى، وهي لا تقتصر على الصلاة والصيام والمعاملات الظاهرية، بل تجب مراعاتها في المعاملات الباطنة، ولابد من تحققها فيها مثل الأعمال الظاهرة.

٢ ـ تجنب كل ما لا يعني، سواء كان من العمل أو الكلام أو الجلوس أو اللقاء، وأقصد بـ(ما لا يعني) الشيء الذي لا يرجع على الإنسان بنفع وخير، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإننا إذا تأملنا في حياتنا، وأمعنا النظر فيها يتجلّى لنا هذا الواقع أننا نضيّع الكثير الكثير من أوقاتنا وأشغالنا وأقوالنا بما لا ينفع شيئاً من دنيانا ولا آخرتنا.

٣ ـ ينبغي المواظبة يومياً على تلاوة القرآن الكريم ولو شيئاً يسيراً، وكذلك المداومة على التسبيحات المأثورة، مثل (سبحان الله) و(الحمد لله) و(لا إلـه إلا الله) و(أستغفر الله)، والاهتمام بالصلاة على النبي الكريم ﷺ، والالتزام بالتسبيحات المأثورة بعد الصلاة.

● كان رحمه الله يقول: نرى كثيراً من حَفَظَة كتاب الله يختمون القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك في ليلة واحدة، ويحسبون ذلك قربة عظيمة عند الله تعالى، ويغيبُ عن بالهم أنَّ هناك ناساً ضعفاء، ومرضى وعجَزَة، يحتاجون للراحة، كما أنَّ هناك عدداً كبيراً من الناس الذين يشتغلون في المصانع، ويتوظفون لدى المؤسسات الحكومية، والعمّال الذين يسعون في الأرض يبتغون من فضل الله، ويكسبون المعاش حتى يعولوا أهليهم وذويهم،

وبالتالي فإن هؤلاء الناس في حاجة إلى أن يأخذوا قسطاً من الراحة في الليل، حتى يتسنّى لهم أداء واجبهم في نهار رمضان دون أي صعوبة، فكم يتأذى هؤلاء من هذه القربة؟ ومما يزيد الطين بلّة أن في بعض المساجد يُستخدم مكبّر الصوت مما يتسبّب في إزعاج النائمين.

فهذه الأمور وإن كان ظاهرها العبادة، وأعمال الخير والثواب، لكنَّها تسبّبُ إيذاء الآخرين وتتسبَّب العذاب والنقمة أكثر من النعيم والرحمة، كما أننا على دراية كاملة أن درجة هذه الأعمال هي التطوع والنفل والاستحباب، أما إيذاء المسلم فتجنّبه أمر واجب، وصاحبه يُعدُّ مرتكب الكبيرة.

● كل شيء إذا بقي في حدّه، فهو نافع يفيد، وإن تجاوز حدّه تحوّل إلى ضرر، مثال ذلك (الخشية) (الخوف من الله) فهو ينبوع فيّاضٌ، ومنهلٌ عذبٌ، ومصدرٌ حقيقي لكل الخيرات والحسنات، ويحتل مكانة مرموقة، وله من الفضائل والمناقب ما لا يُعدّ ولا يُحصى، لكنه إذا تجاوز الحدّ يجعل الإنسان يعيش مُعطَّلاً، [تذهب حياته] سُدًى، دون أن يتوجه إلى هدف أو يلتفت إلى غاية، ولذلك نرى الرسول الكريم ﷺ لما دعا الله تعالى وطلب منه أن يرزقه الخشية قال: «اللهمَّ اقسم لي من خشيتكَ ما تحُوْلُ به بيني وبينَ معاصيك»[1].

ومقابل ذلك (أي الخشية) الشوقُ إلى لقاء الله تعالى والحنين إليه، ولا شك أنه من أكبر نعم الله تعالى وآلائه العظيمة على الإنسان، لكنَّ الرسول ﷺ

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٠٢) كتاب الدعوات؛ سنن النسائي الكبرى (١٠٢٣٤).

لما دعا الله تعالى كانت ألفاظه هكذا: «وشوقاً إلى لقائكَ في غيرِ ضرّاءَ مضرّة، ولا فتنة مضلّة»[1].

● قال رحمه الله ردّاً على الكشوف التي يزعمها المتصوّفة: «هذه الكشوفُ التي يدّعيها المتصوّفة ليست من قربة الله تعالى في شيء، ولا هي دليل التقرب إلى الله، ولا يشترط لمن يصدر منه هذه الكشوف أن يكون مسلماً عاقلاً، بل يمكن صدورها حتى من غير المسلمين، وكذلك من المجانين والمختلّين عقلياً، وقد صرّح كبار الأطبّاء ونصّوا على أنّ المجنون يمكن أن يصدر منه الكشف الصحيح، **وهناك أدلة ثابتة متوفرة على صدور الكشف الصحيح من الكفار والفسقة.**

وقد أعجب الناس اليوم بأصحاب الكشوف وأُولعوا بهم حتى بدؤوا يقدّسونهم ويعظّمونهم، فضلّوا وأضلّوا كثيراً منهم، وليعلم كل واحد أن الميزان الحقيقي والمقياس الأصلي للتفريق بين الحق والباطل، والمقبول والمردود، **هو اتباع شريعة الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ**، فالذي لا يتوفّر فيه هذا الميزان والمقياس فإنه ضال فضلاً عن أن يكون ولياً من أولياء الله، أو قدوة وأسوة، ولا عبرة بصدور الكشف منه حتى لو بلغ المئات أو الآلاف».

● **حقيقة التزكية والتصوّف:**

قال رحمه الله: إن حقيقة التزكية والتصوّف هي تضحية النفس، وتفادي

---

(١) صحيح ابن حبان: ٥/ ٣٠٤، (١٩٧١)، المستدرك على الصحيحين: ١/ ٦٩٧ (١٩٠٠)، و١/ ٧٠٥، (١٩٢٣)؛ سنن النسائي (١٣٠٥) كتاب الدعوات.

الأرواح لابتغاء رضوان الله تعالى ونيل رضاه، وما العبادة والطاعة والمجاهدات إلا وسائل لابتغاء وجه الله تعالى، وإن رضا الله سبحانه وتعالى يحصل بالتواضع والانكسار، وإظهار العجز والذل أمامه عزَّ وجلَّ، فالعبد لابد أن يحويه الشعور بالتقصير، وإحساس عدم الإيفاء بالعهد، مع القيام بأداء كل الواجبات والفرائض.

مَن مِنَّا يعادل رسول الله ﷺ وصحابته العظام رضوان الله عليهم أجمعين، أو يدانيهم في شيء من العبادات والطاعات؟! كانوا قُوّاماً بالليل فرساناً بالنهار، وقفوا حياتهم بأكملها في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه وبثِّ دعوته وكلمته، وبرغم ذلك كله كانوا يُلزمون أنفسهم الاستغفار، يقول الله تعالى في وصفهم: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وفي هذه الآية توجيه خاص وتعليم مهم، لاسيما لطائفة العلماء والخطباء والمؤلفين والكُتّاب، والمجتهدين في العلوم الشرعية، أن ما يقومون به من أعمال علمية وخدمات دينية ودعوية، ليس مما يتباهون به أو يفتخرون عليه، وإنَّما هو نعمة من الله تعالى يجب الشكر عليها، والاستغفار على ما حصل في أدائها من الأخطاء أو التقصير.

وكان يقول: «**لقد أخطأ الناس في فهمهم للتزكية والإحسان والتصوّف، ووقعوا فريسة سوء الفهم في هذا الصدد، وزعموا أن التزكية والتصوّف اسم لنوع من الأوراد والأشغال الخاصة، والكشف والإلهام، والأذواق والمواجيد، وبالتالي فصلوه عن الدين، وقطعوا صلته بأحكام الشريعة، وسنة النبي الكريم ﷺ، وهذا زعم فاسد، وفهم خاطئ البتة، إنما الطريقة أو التزكية والتصوّف**

اسم لاتباع كامل للشريعة الربانية، واقتفاء أثر الرسول ﷺ في كل شعبة من شعب الحياة، وجميع مجالاتها، وإن الأعمال الباطنة وإصلاح الباطن جزء لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية، مثل الأعمال الظاهرة، وأول ما يقوم العبد بإصلاحه في الأعمال الباطنة هو جانب العقائد، فبعد إصلاحها يأتي دور إصلاح الأخلاق والآداب، والتحلّي بمحاسن الأخلاق، والاتصاف بأوصاف التواضع، والقناعة، والصبر والشكر، والحب الكامل لله ورسوله ﷺ، وتطهير النفوس والقلوب من الأمراض الشائعة عموماً، والأسقام التي تطرقت إلى الداخل مثل الكبر والحسد والشحناء والبغضاء والحرص والشحّ وحبّ المال والجاه.

هذا وقد أشار الإمام عبد الوهاب الشعراني رحمه الله في كتابه (اليواقيت والجواهر) إلى أسباب عدم اهتمام السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة المتبوعين والمجتهدين بتدوين الأعمال الباطنة وأحكامها، أو الاعتناء بهذا الجانب مثل الأعمال الظاهرة وأحكامها، فقال ما معناه:

«إنَّ السلف الصالح بأكملهم كانت بيوتهم عامرة بالعمل على هذه الأعمال الباطنة، وكانوا على معرفة تامة، واطلاع كامل عليها، وبالتالي فلم تعد هناك حاجة إلى تدوينها أو جمعها وبيان أحكامها، ولما بدأ الناس يُغفلون هذا الجانب المهم، وأصيبوا بالتكاسل والتهاون تجاهها، قيّض الله سبحانه وتعالى في نهاية عهد السلف مَنْ نهض برفع لواء هذه المهمة الكبيرة، وقام بتدوينها، ومثلها مثل الحديث والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى، حيث لم يتم تدوينها في زمن النبي ﷺ، ولكن جهابذة العلماء، لما شعروا بحاجة الناس

إلى ذلك قاموا ودوّنوا ورتّبوا وجمعوا حسب ما اقتضت به الضرورة تدريجياً، فدوّنوا الحديث ثم الفقه ثم الأصول وهكذا».

وخلاصة القول: ينبغي أن لا يغترَّ أحد بعدم وجود أحكام الأعمال الباطنة في كتب الفقه المتداولة بين أيدينا، ويظن أنها ليست من الأحكام الشرعية، بل إن مكانتها وأهميتها لا تنقص من الأعمال الظاهرة، مثل الصلاة والصيام والأحكام الشرعية الأخرى، والله تعالى أعلم».

فائدة مهمّة:

لقد ثبت في ضوء الأصول المتفق عليها بين الأئمة الأربعة: أنَّ أي قضية يسوغ فيها الاجتهاد، ويعمل فيها كل من الأئمة المجتهدين، بما يرونه مناسباً من وجهة نظرهم وراجحاً حسب الدليل، لا ينبغي أن نحكم على رأي منها أنه منكر، بل القائلون بكل الآراء من أصحاب المعروف، ولا يجوز أن يستخدم هناك قاعدة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، كما لا يجوز لأحد أن يتهم من خالفه في رأيه ومذهبه بـ(تارك السنة) أو بالفسق.

وينبغي لطالبي الحق، والباحثين عن الحقيقة أن يجعلوا نُصب أعينهم في هذه المناسبة ما كتبه العلاَّمة الحافظ ابن عبد البر رحمه الله في كتابه العظيم (جامع بيان العلم وفضله).

وللأسف الشديد فإنَّ بعض منتسبي العلم، وزاعمي المعرفة في هذه الأيام يَصِلُونَ إلى درجة التكفير والتفسيق، وما أسهل عليهم هذا التجرؤ والتسرّع! ليس لأجل الاختلاف في الأساسيات والعقائد المعلومة من الدين

بالضرورة، بل لاختـلاف في الآراء، وتبـاين وجهـات النظر فـي الفروع، والقضايا الاجتهادية، الأمر الذي يؤدي إلى الإساءة إلى مقام كبار الأئمة، والقدح في الجهابذة من العلماء، أعاذنا الله منه.

* * *

الفصل السادس

القيام بمهام الإفتاء

لقد امتاز الشيخ التهانوي رحمه الله بخدماته الجليلة، ومآثره العظيمة في مجال الفقه والإفتاء، وإن جهوده في تدريس الفقه مع المقارنة بين المذاهب الأربعة، وكذلك الإفتاء، والتدريب للإفتاء، وإعداد الرجال المتخصصين في الفقه، وتأليف ما يُحتاج إليه في ذلك، على أساليب مختلفة وفي جوانب متعددة، من أهم مميزات حياته العلمية، فالاشتغال بالإفتاء، والرد على أسئلة المستفتين كان من روائع ما تمتاز به حياته، بل إن هذا هو الجانب الأساسي الذي يحيط بحياته العلمية كلها، كيف لا وقد تمرّن رحمه الله على هذا الفنّ، ونبغ فيه في ظلّ إشراف أستاذه العطوف الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله.

كان من عادته رحمه الله ـ منذ الوقت المبكر من اشتغاله بالإفتاء ـ أن يهتم بتحرير وضبط كل ما يجود به قلمه السيّال، حتى الفتاوى التي صدرت منه أيام تدرّبه في دار العلوم ديوبند كلها محرّرة ومحفوظة، وبالنظر إلى الإفادة العامة واستفادة الجماهير فقد اعتنى رحمه الله بطباعة بعض منها، في مختلف المناسبات وحسب الظروف والمتطلبات.

وتنقسم فتاواه رحمه الله إلى ثلاثة أقسام نظراً إلى زمن الإفتاء:

فالقسم الأول: هو تلك الفتاوى التي صدرت منه رحمه الله أيام تمرنه عليها تحت إشراف شيخه، وذلك من عام ١٢٩٧هـ إلى ١٣٠١هـ.

والقسم الثاني: هو تلك الفتاوى التي صدرت أثناء إقامته في (كانفور) في فترة ما بين ١٣٠١هـ و١٣١٥هـ.

والقسم الثالث: هو الفتاوى الصادرة في فترة استقراره بتهانه بهون وإقامته الدائمة هناك، وذلك من عام ١٣١٥هـ إلى ١٣٢٥هـ.

وقد قام الشيخ رحمه الله بمراجعة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله في القسم الثالث من فتاواه، واستفاد منه أشياء كثيرة، والفتاوى التي صدرت منه بعد هذه الفترة كانت تسمّى بـ(تتمة الفتاوى)، وأخيراً تمت طباعة كل هذه الفتاوى مجموعة مرتبة، محلاّة بالهوامش والتعليقات في عام ١٣٧١هـ في ستة مجلدات ضخمة، علماً أن هناك عدداً كبيراً من الفتاوى أفتى بها الشيخ رحمه الله باللغة العربية، وسوف نتحدث بالتفصيل إن شاء الله تعالى عن مجموعة هذه الفتاوى، وخصائصها، ومميزاتها، ومنهج الشيخ رحمه الله فيها، ونماذج من فتاواه العربية، في الباب السادس (الآثار الخالدة لحكيم الأمة).

* * *

الفصل السابع

آراؤه في المسائل الاعتقادية

● الشيخ التهانوي يثبت الاستواء لله تعالى ويحمله على الحقيقة دون الخوض فيها:

قال رحمه الله في تفسيره المسمّى (بيان القرآن) بعد أن فسّر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: ثم تعلق (وتجلى) بالعرش الذي يشبه سرير الحاكم والملك بحيث يليق بشأنه، وبسماع هذا يخطر ببال السامعين أمران للّزوم العرفي:

أحدهما: **الرفعة والعلوّ**، والآخر: **صدور الأوامر الملكية**، لأنه يلزم الأمران للجلوس، والتمكّن من العرش الملكي والسرير الحكومي، وهذا هو الذي عليه جمهور السلف، من حمل الاستواء على الحقيقة، ثم تفويضها إلى الله تعالى، والمنع عن الخوض فيها، وهذا المنع معقول، لأن إدراكنا قاصر عنه، كما يمنع من الخوض في كنه اللون بعين هذه العلة، **وإياك أن تقيس استواءه على استوائك، لأن الصفة تختلف حقيقتها باختلاف الموصوف، وإذا كان المستوي غير معلوم الكنه، فكان الاستواء لا محالة غير معلوم الكنه، فأي وجه لقياس مجهول الكنه على معلوم الكنه**[1].

---

(١) انظر: بيان القرآن: ٤/ ١٩؛ وكذلك بوادر النوادر، ص٦٢٤.

ويقول رحمه الله في موضع آخر: «تحقيق المقام أنه في الاستواء وأمثاله اتفق أهل الحق على أنَّ اتصافه تعالى بها ليس مثل اتصاف المخلوق، وهذه المسألة ثبتت بالعقل أيضاً، وهي بديهية عند العقلاء، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، دليل النقل عليه، ثم بعد نفي المماثلة لهم طريقان:

الأولى ـ طريقة السلف: وهي أنهم يحملونها على الحقيقة، ويفوّضون كنهها إلى علم الله تعالى، ولا يذكرون لها كيفية.

الثانية ـ طريقة الخلف: وهي أنهم يؤلونها بتأويلات مناسبة، وذلك لئلا يُفسد الفرق الضالة ـ مثل المشبّهة والمجسّمة ـ العوامَ، ولا يوقعونهم في الغلط بأن يقولوا ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ: إن الله تعالى مستقر على العرش، والاستقرار هو الجلوس والعكوف، فثبت أنه تعالى جالس على عرشه، كما أننا جالسون على السرائر.

والجواب الصحيح عن هذه الشبهات على طريقة السلف: أن كل ذلك ثابت له، ولكن ليس كمثلنا، إلا أن العوام لا يُدركون هذا، ولا تُنتقل أذهانهم في مثل هذا إلا إلى التجسيم والتشبيه، ولابد من حفظهم وصونهم عن هذه العقيدة، فلذلك ذهب الخلف إلى أن فسّروا هذه الحقائق بما لا يترك به القرآن والحديث، وإنما السلف لم يحتاجوا إليه، لأن خواصهم كانوا عاملين بقول النبي ﷺ: «تفكَّروا في آلاءِ اللهِ ولا تفكَّروا في اللهِ»[1]. فكانوا لا يخوضون في مثل

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: ٦/ ٢٥٠، (٦٣١٩)، قال الهيثمي: وفيه=

هذه الأشياء، ويدفعون الوساوس عن أنفسهم، وأما العوام فكانوا محفوظين عن ذلك، لأن هؤلاء المبتدعة المضلّلين لم يكونوا في ذلك الزمان، فكانت أذهانهم خالية عن هذه الشبهات، وكانوا يؤمنون بمعانيها إجمالاً، ولا يفكرون في البحث والخوض...».

ثم قال رحمه الله: «**وهذا كله كان على مذهب السلف، واختار الخلف مسلك التأويل لمصلحة سهولة فهمه للعوام**»[1]، وقد صرّح رحمه الله برجحان مذهب السلف[2].

التهانوي يرجّح مذهب السلف في اختصاصه تعالى بعرشه:

قال رحمه الله في اختصاصه تعالى وتعلّقه بالعرش: «أنا في هذه العقيدة على مسلك السلف، فإنهم لم ينكروا الحقيقة، بل أنكروا الجهة، ونفي الجهة

= الوازع بن نافع وهو متروك، وتفرد به علي بن ثابت (مجمع الزوائد: ١/ ٨١) ورواه البيهقي في شعب الإيمان: ١/ ١٣٦، (١٢٠) وقال: هذا إسناد فيه نظر، ورواه اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة): ٣/ ٥٢٥، (٩٢٧)؛ والأصبهاني في (العظمة): ١/ ٢١٠؛ والهروي في (الأربعين في دلائل التوحيد): ١/ ٩٠، (٣٨)، كما روي الحديث بألفاظ أخرى بطرق متعدّدة في مختلف كتب السنن، وقد ضعّفه السيوطي في (الجامع الصغير) (٣٣٤٨) وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٥٧٠٧).

(١) انظر: رسالته (تمهيد الفرش في تحديد العرش) في مجموعة (بوادر النوادر)، ص٦٠٢ ـ ٦٠٤، باختصار وتعديل؛ وكذلك (إمداد الفتاوى): ٦/ ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) بوادر النوادر، ص٦٢٧.

ثابت نقلاً وعقلاً، أما النقل فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأما العقل فلأن الجهة مخلوقة حادثة، والله تعالى منزّه عن الاتصاف بالحادث، لأن محل الحادث حادث، والحكم بالاستواء والعلو لا يستلزم الجهة، فلو حكمنا بالجهة وأثبتناها لَتَعَيَّنَ كنه العلو والاستواء، وذلك خلاف قول السلف. فإنهم يصرّحون بأنه غير معلوم»[1].

رأيه في المعيّة الإلـٰهية:

سُئل الشيخ التهانوي رحمه الله عن المعية الإلـٰهية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة قَ: ١٦].

فمن الناس من يقول: إن القرب باعتبار الذات والوصف.

ويقول الآخرون: إن القرب بحسب الوصف فقط، فأيّهما على الصواب؟ وأي الفريقين على الحق؟ وإن كان الله قريباً بالذات، فهل يقرب مع كون استوائه على العرش، أم لا؟ ثم القائلون بالقرب الوصفي يكفّرون القائلين بالقرب الذاتي، فما هو الحق؟

فأجاب رحمه الله قائلاً:

«لما كان المتبادر عند العامة من المعية الذاتية، هي المعية الجسمانية، أنكرها العلماء، وكفّر بعضهم القائلين بها، ولو أريد بها المعية غير المتكيفة،

---

(١) إمداد الفتاوى: ٦/ ٢٥.

فلا محذور في القول بها، والامتناع في اجتماعه بالاستواء، لأن الذات ليست بمتناهية، والمعية ليست بمتكيّفة، ومن لم يقدر على اعتقادها بلا كيفية، فالأسلم له أن يقول بالمعية الوصفية فقط، وبهذا التقرير خرج الجواب من كل سؤال، وارتفع كل إشكال، والحمد لله الكبير المتعال عن كل مقام وخيال».

رأيه في العلم بالغيب:

قال الشيخ أشرف علي التهانوي: الغيب له معنيان: حقيقي وإضافي، **فالغيب الحقيقي**: ما لا طريق ولا سبيل إلى معرفته، وهذا مخصوص به تعالى، وحصوله للعبد محال شرعاً وعقلاً.

والغيب الإضافي: هو ما يعطاه الإنسان بأحد الوسائل، لكنه يعطى البعض فقط، ويخفى عن بعض، فهذا يحصل للعبد بإعلام من الله تعالى[(١)].

ويرى رحمه الله أنه لا يجوز إطلاق لفظة (عالم الغيب) على الرسول ﷺ وإن كان بتأويل، لكونه موهماً للشرك، ولو جوّز ذلك بتأويل، للزم أن يجوز إطلاق (الخالق) و(الرازق) و(المالك) و(المعبود) وغيرها من صفات الله تعالى المختصة بذاته، على المخلوق، بذلك التأويل، وأيضاً يلزم منه حجة نفي إطلاق لفظة (عالم الغيب) عن الله تعالى بالتأويل الآخر، فإنه تعالى ليس عالم الغيب بالواسطة والعرض. فهل يأذن في نفيه عاقل متديّن؟ حاشا وكلاّ[(٢)]!.

---

(١) إمداد الفتاوى: ٦/ ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المهنّد على المفند، ص٢٥ ـ ٢٦، للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، نقلاً =

التهانوي يفنّد قول منكري بشرية النبي ﷺ:

يعتقد الشيخ التهانوي رحمه الله كما هو عقيدة السلف من أهل السنة والجماعة، أنَّ الأنبياء بشر دون ريب وشبهة، ويقول: بأنَّ من لم يعتقد فيهم البشرية، فهذا يعني أنه يوصّلهم إلى حدود الألوهية، وهذا شرك جليّ.

كما أنه رحمه الله أفتى فيمن يدّعي أنَّ النبي ﷺ كان بشراً في ظاهره فقط، أما في الحقيقة فهو ليس ببشر، بأن هذه الدعوى كفر، ولذا فإنه فسّر الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر بشريّة الأنبياء، ووصفهم بما فسّر به الجمهور والسلف الصالح، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، قال الأنبياء: نحن نعترف ونقر ببشريتنا، وبأننا بشر مثلكم، ولكن لا منافاة بين البشرية والنبوّة، لأن النبوة منة عظمى من الله تعالى، وله تعالى الحق والاختيار أن يمنّ على من يشاء من عباده[1].

التهانوي يفسّر النّور بالقرآن العظيم:

كما فسّر الشيخ التهانوي رحمه الله كلمة (النور) الواردة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، بالقرآن العظيم، فقال:

= عن كلام الشيخ التهانوي.

(١) انظر: بيان القرآن: ٦/ ٥.

قد جاءكم من الله تعالى شيء نـوراني وهو كتـاب واضح يعني القرآن المجيد، وبيّن سبب الترجيح قائلاً: إشارة إلى أن عطف الكتاب على لفظ (النور) للتفسير، فهما متغايران بالصفة، متحدان بالذات، ولذا حَسُن إفراد الضمير في (بـه)، وبهذا التفسـير حسن إسناد الهداية هاهنا إلى الله تعالى، وجعل الكتاب والنور سبباً، وإسناد التبيين فيما قيل إلى رسول الله ﷺ، وأما إذا فُسّر النور بالرسول، لا يحصل هذا الحسن، كما أن قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤] يؤيد ما قلناه، لأن المقصود في الآيـة هو الكتاب قطعاً[١].

التهانوي يمنع الدعاء لغير الله بلفظ الخطاب أو نداء غيره بـ(يا كاشف الكرب) أو (يا قاضي الحاجات):

لقد سُئل الشيخ التهانوي رحمه الله عن دعاء النبي ﷺ بعد وفاته بلفظ الخطاب، أو تلقيب غير الله تعالى بـ(دافع القحط والوباء) أو (كاشف الكرب) أو (قاضي الحاجات) ما حكمه؟

فأجاب رحمه الله قائلاً: قال الله تعالى: ﴿ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال رسول الله ﷺ: «لا يقولَنَّ أحدُكُم عبدي وأمتي، ولا يقل العبدُ: ربّي»[٢]

---

(١) بيان القرآن: ٣/ ١٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، (٢٢٤٩) ونحوه=

وقال ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان»[1]، وفي رواية: «لا تقولوا ما شاءَ اللهُ وشَاءَ محمَّدٌ»[2].

إنَّ الألفاظَ المذكورة في السؤال فوق الألفاظ المذكورة المنهي عنها في الكتاب والسنة بدرجات في إيهام الشرك يقيناً، سواء كان النهي بأي درجة، ولكنه مكروه وغير مرضي في كل حال، فلما كان الأخفّ منهياً عنه عند الشارع عليه السلام، كان الأشد ممنوعاً من باب أولى.

والوجه الثاني: أن الألفاظ المنهي عنها في الحديث إنما يستخدمها الناس عادة دون أن توهِمَ أيَّ تعبُّدٍ أو تقرُّبٍ، ولكنَّ هذه الألفاظ ـ التي يسأل عنها السائل ـ يصحبها الاعتقاد بالتبرك والتقرب إلى الله أو إلى أوليائه، حسب

= البخاري في صحيحه، كتاب العتق، (٢٥٥٢)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، (٤٩٧٥)؛ وأحمد في مسنده: ٢/ ٤٢٣، (٩٤٦٥)، ٢/ ٤٦٣، (٩٩٦٥)، ٢/ ٤٨٤، (١٠٢٨٦)، ٢/ ٤٩١، (١٠٣٧٣).

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب (٤٩٨٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرى: ٣/ ٢١٦، (٥٦٠١)؛ والنسائي في السنن الكبرى: ٦/ ٢٤٥، (١٨٠٢١)؛ وأحمد في مسنده: ٥/ ٣٨٤، (٢٣٣١٣)، ٥/ ٣٩٤، (٢٣٣٩٥)؛ ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣٤٠، (٢٦٦٩٠)، ٦/ ٧٤، (٢٩٥٧٢).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٣٢، (٥٧٢٥)؛ والحاكم في المستدرك: ٣/ ٥٢٣، (٥٩٤٥)؛ والدارمي في سننه: ٢/ ٣٨٢، (٢٦٩٩)؛ وابن ماجه في سننه باب النهي أن يقال ما شاء الله... إلخ (٢١١٨)؛ وأحمد في مسنده: ٥/ ٧٢، و٥/ ٣٩٣، (٢٣٣٨٧).

اختلاف معتقدات الناس، فهذا فيه نوع من التعبّد، وهذا ممنوع، لأن التعبد بأمر ممنوع أقبح وأشنع من استعمال الممنوع في غير موضع التعبّد، لأن الذي تصدر منه هذه الكلمات لا يعتقد المعصية في هذه الصورة سبباً لرضاء الله تعالى، وفي الأولى يعتقد المعصية والممنوع سبباً لرضائه.

ولما ثبت النّهي وتقرّر المنع ثم ثبت وصحّ ذلك عن شخص أُمرنا أن نُحسن الظن فيه، لا يجوز التغير في الحكم الشرعي، ولا لأحد استعماله، ولا الاستدلال، وذلك لأن النهي عنه ثبت وتقرّر بالحجج الشرعية، **وفعل المشايخ ليس بحجة شرعية بإزاء النصّ أو خلافه**، وقال رحمه الله في موضع آخر: «إن هذه الخطابات لها ثلاث مراتب:

الأولى: أن يعتقد أنَّ أصحاب الخطابات متصرفون في الأمور بالاستقلال، فهذا شرك صريح.

الثانية: أن يعتقد أن هؤلاء متصرفون بالإذن، ومطلعون على هذه الخطابات بمشيئة الله تعالى، وهذا ليس بشيء من الشرك، لكنّ وقوعه مختلف فيه بين سلف هذه الأمة، فمنهم من أثبت ذلك، ومنهم من نفاه، والمثبتون لا يجيزون النداء من بعيد، ولا يوجد دليل على السماع من البعد دواماً، فمثل هذا الاعتقاد دون دليل شرعي ـ مع أنه ليس بشرك حقيقة صريحاً ـ معصية وكذب حقيقة، وشرك صورة.

دليل المعصية قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ودليل الكذب صدق تعريفه عليه، وأما الشرك صورة فلأجل التشبّه في

عادة بمن يعتقد بالمرتبة الأولى.

الثالثة: أن لا يعتقد التصرّف ولا السماع، بل يخاطبهم ويناديهم بمثل هذه الخطابات من غلبة الحبّ وشدّة الحنين لهم، فهذا ليس بشرك ولا معصية، ويجوز بشرط أن لا يتعدى حدود الشرع في الألفاظ والخطابات، ولا يستلزم فساد عقيدة العامة، لأن المرء كما يجب عليه الاجتناب عن المعاصي يلزم عليه صيانة غيره من المسلمين لا سيما العامة منهم، ولذا فلو استلزم هذا العمل فساد عقيدتهم لا يجوز أبداً»[1].

المذهب الوسط في التوسّل والوسيلة:

لقد اختار الشيخ التهانوي رحمه الله مذهباً وسطاً في باب التوسل والوسيلة، وأَوَّلَ ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ومن نحا نحوه من منع التوسل بالأعيان الموتى، تأويلاً لطيفاً، وله بحث مفيد في هذا الموضوع، وقد تحدَّث عنه في مواضع عديدة من مختلف مؤلفاته.

يقول رحمه الله: إنَّ التوسل وإن لم يكن قربة مقصودة مثل الصلاة على النبي ﷺ، لكنه مثلها في الفائدة والتأثير، وهو أنَّ كلاً منها يقرب الدعاء إلى الإجابة، وقد اختلف فيه البعض بنوع اختلاف، لكن الجمهور فيه على الجواز، بشرط أن يراعي الإنسان الحدود الشرعية، ولذا فإنه مذهب منصور[2].

---

(١) إمداد الفتاوى: ٥/ ٣٧٨ـ٣٧٩.

(٢) انظر هذا الموضوع في كتب الشيخ التهانوي؛ منها: نشر الطيب في ذكر النبي=

ثم ذكر الروايات واستدل بها على ما ذهب إليه.

وقال في موضع آخر وهو يذكر ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الشيخ ابن تيمية يجيز التوسّل بالأعمال، فلو كنت في زمنه أو كان هو في هذا الزمن لقلت متأدباً أمامه: يا شيخنا ما حقيقة هذا التوسّل بالأعمال؟ فأما أنا فأرى أن حقيقة ذلك أن أحداً إذا خاطب الله تعالى للتوسّل ويقول: اللهمَّ افعل لي كذا بفضل العمل الفلاني، فمعنى ذلك: اللهمَّ إن هذا العمل محبوب عندك ومقبول لديك، وقد وعدتَ بنزولِ رحمتك الخاصة على من له تلبُّس بعمل تحبُّه، فلنا أيضاً تلبُّس الكسب والصدور بهذا العمل، فنطلب منك رحمتك التي وعدتها على التلبّس بهذا.

فنظراً إلى هذه الحقيقة لو توسّل أحد بالأعيان، فما هو الفارق بين التوسّلين؟ التوسّل بالأعمال، والتوسّل بالأعيان؟.

وسواء كان الأعيان أحياءً أو أمواتاً؟ لأن محصل هذا التوسّل بالأعيان ـ بعد التوجيه المذكور ـ اللهمَّ إنَّ هذا الرجل الصالح ـ حياً أو ميتاً ـ محبوب عندك، وقد وعدت بنزول الرحمة على من له تلبّس بأحبائك، ولنا تلبس حسن الاعتقاد والحب بهذا الرجل الصالح، فنطلب منك رحمتك الموعودة، فقل لي: ما الفرق في هذا بين الحيّ والميّت؟ وإنّي على يقين بأن الشيخ لو كان حياً

= الحبيب، ص٢٤٧ـ٢٤٨؛ إمداد الفتاوى: ٥/ ٨٥؛ بوادر النوادر، ص٧٠٦ـ ٧٠٩.

اليوم لرجع عن المنع عن التوسّل بالأعيان الموتى إطلاقاً، بعد اتضاح حقيقة التوسّل.

توجيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وبالتالي فأرى أنَّ الشيخ أراد بالتوسّل الممنوع هو التوسّل بطريق الاستغاثة والاستعانة بالأموات، لا أنه يمنعه مطلقاً، أو يوجّه قوله (بالمنع) بأن الممنوع من التوسّل هو المذكور آنفاً، إلا أنه أطلق المنع سداً للباب، لئلا يؤدي ذلك إلى وقوع العامة من المسلمين في الحرام الممنوع من التوسّل بتجويز واختيار الجائز منه، لأن التوسّل ـ الذي نحن نسوغه ونجيزه ـ مباح وجائز فقط، وليس من الواجبات والمقاصد، وكل مباح يُخشى به الافتتان والضلال فلا بأس بأن يمنع عنه العلماءُ.

خلاصة القول:

وبالجملة فإن التوسلَ بالموتى ليس بمنهي عنه مطلقاً، كما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في ظاهر قوله، ولا أنه مباح جائز بحيث إنه يطلب منهم الحاجات أو الدعاء لقضائها، بل الأمر بين بين، وهو ما ذكرته من أن يختار الدعاء بفضل حبّهم، وحقيقة ذلك هو طلب الرحمة الموعودة على التلبّس، سواء كان التلبّس تلبّس الصدور، كما في الأعمال، أو تلبّس الحب كما في الأعيان، ويجب الابتعاد عن الإفراط والتفريط، بالتزام الاعتدال في الباب[١].

---

(١) أسعد الأبرار، ص٢٩٠ ـ ٢٩١.

المنامات ليست بحجة شرعية ولا يجوز الاعتماد عليها في المسائل:

المنامات كما ثبت بالأخبار الصحيحة نوعان:

١ ـ صحيحة صادقة لها حقائق في الخارج، لأنها تكون من الله تعالى ومن الملأ الأعلى.

٢ ـ والنوع الآخر منها: كاذبة هي خيالات محضة، تنبعث من النفس أو الشيطان.

والمهمّ في الباب أن المنامات ليست باختيار العبد، لذا يرى فيها المرء ما لا يريده ويتصوره أبداً، وكذا ما لا قدرة له عليه في اليقظة.

هذا وقد نصّ العلماء على أن المنامات والرؤى المحضة التي لا دليل يدل على صحتها، لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوّة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث المرءُ نفسَه...»[١].

وذلك لأن مسائل الدين والعلم لا يعتمد فيها إلا على نصوص من الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، وهذا ما قرّره الشيخ التهانوي رحمه الله، حيث صرّح وقال:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، (٢٢٦٣).

«إنَّ المنامات ليست بحجة شرعية، ولا هي قطعية، يناظر بها المرء ويجادل أحداً، إلا أن الرؤيا الصالحة من المبشرات بنصّ من الحديث، أثرها الطبيعي التسلية والسرور، فإذا وافقت الدلائلَ الشرعيةَ، يترجح جانبُ صدقها»[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «إن المنامات لا يجوزُ الاعتماد عليها في المسائل»[2]. ولذا اتفقوا على أنه لا تنبني عليها أحكام الشرع، ولا عبرة بها في المسائل، إلا أنه فيها نوعٌ مساغٌ للاستشهاد أو الاستبشار والاطمئنان، أو الامتثال أيضاً في بعض الأحيان، إذا وافقته الدلائل والقرائن.

وهذا هو المسلك العدل الذي اختاره علماء أهل السنة والجماعة في موضوع المنامات، كذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم رحمهما الله[3].

التهانوي يرفض الورد بـ(يا شيخ عبد القادر) ونحوه:

كان المجتمع الذي عاشه الشيخ التهانوي رحمه الله مليئاً بأنواع من الخرافات والمنكرات والأباطيل، وتسوده شتى أصناف الضلالات، والبدع والتقاليد والطقوس غير الإسلامية التي لا تمتّ إلى الإسلام بصلة، لا من قريب

---

(١) أنفاس عيسى، ص١٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٢.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ١٩/ ٥.

ولا من بعيد، وإنّ الشيخ رحمه الله منذ بداية أمره في مجال الإصلاح وتغيير المنكر وإزالته كان شغلَه الشاغل هو القضاءُ على تلك البدع السائدة، واستئصال جذور تلك الخرافات، التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي من أهمها تلك الأوراد الباطلة، والنداءات المردودة التي توهم الشرك والكفر، وبحكم اشتغاله رحمه الله في المجال الإصلاحي وردته أسئلة كثيرة عن النداء والورد بـ(يا شيخ عبد القادر شيئاً لله) وبنحوها من النداءات الأُخر، فاتفقت كلمته على عدم الجواز، وأجاب رحمه الله:

«إن عدم الجواز، وعدم نقله عن الأئمة ظاهر، والدليل أيضاً ظاهر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]».

وهناك تفصيل أكثر في نفس الموضوع[١].

تحقيق معنى السنة والبدعة:

لقد عالج الشيخ التهانوي رحمه الله موضوع السنة والبدعة معالجة دقيقة، وشرح معناهما وبيّن مدلولهما بدقة وتفصيل، موضحاً إياهما بضرب الأمثلة، كما تطرق رحمه الله إلى تقاسيم البدعة، وبعض الأعمال المعتبرة في الشريعة.

---

(١) لمعرفة مزيد من التفصيل يراجع كتاب إمداد الفتاوى: ٤/ ٣٥٢ـ ٤٩٢.

تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة نزاع لفظي:

إن القاعدة الكليّة في هذا الباب، أن ما لا يكون من الدين ـ كليّاً أو جزئياً ـ فجعله من الدين، واعتقاده كذلك، علماً وعملاً، لاعتراء شبهته، بدعة، لأجل مزاحمة الأحكام الشرعية.

ودليل ذلك الحديث الصحيح: «مَنْ أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1]، ففي هذا الحديث كلمة (مَنْ) وكذا (في) تدلاّن على هذا المدعى صراحة.

والبدعة الحقيقية: لا تكون إلا سيئة، فأما البدعة الحسنة: فهي بدعة صورية وسنة حقيقية لدخولها تحت كليّة وانضمامها إليها، ولذا فإثبات تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ونفيه إنّما هو من النزاع اللفظي، فإن الإثبات نظراً إلى الصورة، ونفيه بناءً على الحقيقة، ولا مشاحّة في الاصطلاح[2].

وقال في رسالته (إعداد الجنة للتوقّي عن الشبهة في إعداد البدعة والسنة) بعد أن ذكر تعريفات الفقهاء للسنة والبدعة: «وفي الحقيقة إن معنى السنة: هي الطريقة المسلوكة في الدين».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، (٢٦٩٧)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، (١٧١٨)؛ وأبو داود في سننه، كتاب السنة، (٤٦٠٦)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، (١٤).

(٢) إمداد الفتاوى: ٥/ ٢٨٥.

ومعنى البدعة: «اعتقاد خلاف المعروف عن الرسول ﷺ، لا لمعاندة، بل بنوع شبهة».

وبعبارة أخرى: «ما أُحْدِثَ على خلاف الحق المتلقّى عن رسول الله ﷺ من علم أو عمل أو حال». وهذا المعنى الحقيقي للبدعة هو المراد في قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[١]، أي أدخل في الدين ما ليس في الدين، والثابت بالأدلة داخل في الدين، وليس بخارج منه[٢].

وقال في موضع آخر: «إنما حقيقةُ البدعة أن يفعل المرء شيئاً ويختاره معتقداً أنه من الدين، فلو اختار معالجة تدبير لأمر من أمور الدين، فكيف لا يكون من الدين؟ فهنا أمران: إحداث للدين، وإحداث في الدين، فالإحداث للدين سنة معنى، والإحداث في الدين بدعة»[٣].

قاعدة كلية لمعرفة السنة والبدعة من المحدثات:

وتحقيقاً لمعنى البدعة بشيء من التفصيل قسّمها رحمه الله بالنظر إلى أسباب حدوثها:

يقول رحمه الله: «اعلم أن ما حدث وأُحدث من الأمور بعد خير القرون على نوعين:

---

(١) سبق تخريجه في ص١٤٧

(٢) بوادر النوادر، ص٦٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص٧٧٨.

النوع الأول: ما يكون سببه أيضاً جديداً مثله، لكنه يتوقف عليه شيء مأمور به من الشرع، بحيث لا يمكن الإتيان بذلك المأمور به إلا باختيار أمر محدث (في أصله وذاته) مثل تصنيف الكتب الدينية وتأليفها، وبناء المدارس، فإنه لم يكن يوجد شيء منه في زمنه ﷺ، فالسبب جديد، وهذه الأشياء يتوقف عليها مأمور به من الدين وهو حفظ الدين ونشره، وإشاعته بعد تغير الأحوال والظروف بالنسبة إلى زمن النبي ﷺ، فسبب هذه الأشياء جديد، لأنه لم يكن في خير القرون، وأما نفس هذه الأشياء فقد توقّف عليها حفظ الدين الآن بعد تغيّر الزمان.

فالأعمال المذكورة (من تصنيف الكتب وبناء المدارس ونحوها) بدعة في الصورة، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، بل هي واجبة بناءً على القاعدة التي تقول: «**ما يتوقف عليه حصول الواجب فهو واجب**».

النوع الثاني: من الأمور المُحدثة ما سببه قديم مثل **الاحتفال بمولد النبي ﷺ، والأربعينات ونحوها من البدع**، فإن أسبابها قديمة، لأن سبب الاحتفال بالمولد هو الفرح للولادة النبوية، وكان هذا السبب موجوداً في زمنه ﷺ أيضاً، لكن لم تنقل هذه المجالس والاجتماعات عن النبي ﷺ، ولا عن أحدٍ من أصحابه، فهذه الأشياءُ بدعةٌ صورةً ومعنًى، وواجبة الرد، لدخولها تحت حديث: «مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنَا هذا مَا ليسَ مِنْهُ فَهُو رَدٌّ»[1].

---

(١) سبق تخريجه، ص١٤٧.

فالاحتفال بمولد النبيِّ ﷺ والأربعينات ونحوها بدعةٌ صورة ومعنى، وواجبة الردِّ.

فأما النوع الأول فهو مقبول؛ لأنه داخل في «ما منه»، فهذه قاعدة كليّة لمعرفة البدعة والسنة من المحدثات، وعليه يخرّج حكم جميع الجزئيات المحدثة».

عدم تكفير أهل الأهواء:

كان التهانوي رحمه الله من أولئك العلماء الصالحين الذين رزقهم الله تعالى نعمة الوسطية والاعتدال في كل شأن وفي كل أمر، وقد اتسمت حياته بهذه الصفات الكريمة في جميع الشؤون، فنراه متزناً معتدلاً في سائر تعاملاته، وأعماله الدعوية وجهوده الإصلاحية، وخير دليل على ذلك فتاواه العلمية، ومواعظه الإصلاحية، حيث إنَّ منهجه وأسلوبه يتميز بهذه الميزة بكل معنى الكلمة.

وها هم البريلوية[1] الذين كانوا قد أظهروا عداواتهم وبغضاءهم لجميع

---

(١) البريلوية: طريقة صوفية، ولدت في الهند أيام الاستعمار البريطاني، وقد غالى أفرادها في محبة وتقديس الأنبياء والأولياء عامة، والنبي محمد ﷺ خاصة، وأضفوا عليهم صفات تعلو بهم عن خصائص البشر، متأثرين بعقيدة النصارى في سيدنا عيسى، والبوذية في بوذا، والشيعة في أئمتهم المعصومين ـ في نظرهم ـ وقد أسس هذه الطريقة أحمد رضا خان بن تقي علي خان سنة ١٣٤٠هـ الذي سمّى نفسه عبد المصطفى، ولد في بلدة بريلي (ولاية =

أهل السنة والجماعة، ونبزوهم بالألقاب حتى وصلوا إلى غاية الإساءة فكفّروهم، ولكن في هذا الوضع الحرج نرى الشيخ رحمه الله لا يُسرع في الرد عليهم بالتكفير المتبادل، وإنما يثبت على حلمه ووسطيته واعتداله، ويقول: نحن لا نكفرهم مع أنهم يكفروننا، فإن مذهبنا أخذ الاحتياط الشديد في الحكم بالكفر على أحد، وذلك لأنه لو كان أحد كافراً حقيقة، وفي واقع الأمر، ولم نقل إنه كافر، فما الحرج فيه؟ ولكننا لو قلنا لأحد: إنه كافر، وتبين الأمر خلاف ما قلناه، فهذا أمر خطير للغاية، ونظراً إلى هذا السبب فإننا لم نحكم بالكفر على القاديانية[1] ـ في بداية الأمر ـ بالرغم من أنهم كانوا يكفّروننا، ولكن لما تبيّنت لنا حقيقة الأمر، وتجلّى لنا الواقع أنهم يقولون بنبوّة (الميرزا)[2] أفتينا

= أترابراديش) وتتلمذ على الميرزا غلام قادر بك الشقيق الأكبر للميرزا غلام أحمد القادياني (مؤسس القاديانية)، ويعتقد أبناء هذه الطائفة بأن للرسول محمد ﷺ قدرة يتحكم بها في الكون، وللأولياء مثل ذلك، ولهم علم الغيب أيضاً، ولهم عقيدة اسمها عقيدة الشهود، حيث إن النبي ﷺ في نظرهم حاضر وناظر لأفعال الخلق في كل زمان ومكان، وهكذا يعتقدون في أحمد رضا خان. (انظر: للتفصيل الكتب المؤلفة في البريلوية).

(١) سوف نتحدث عن هذه الفرقة بالتفصيل في باب (جهوده الإصلاحية) إن شاء الله.

(٢) هو غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني المتمهدي ثم المتنبّي، كان مولده نحو سنة ست وخمسين ومئتين وألف، وفي سنة ثمان وثلاثمئة وألف ادعى أنه مثل المسيح، وقال: لقد أُرسلتُ كما أُرسل المسيح بعد كليم الله موسى، وطبق على نفسه الأحاديث التي وردت في نزول المسيح عليه السلام، وأبعد=

بكفرهم، لأنَّ هذا كفر صريح، وما كان قبل ذلك مما سواه فكنا نؤوِّله، ولو بتأويل بعيد، نظراً إلى عدم إخراج أحد من الملة الإسلامية بشبهة، فالبريلوية عندنا من أهل الأهواء، وأهل الأهواء ليسوا بكفرة[1].

وكان رحمه الله يقول: «نعذرهم فيما يرموننا به نظراً إلى أنَّ ذلك لا يصدر منهم إلا لشدة حبهم وغرامهم بالنبي ﷺ»[2].

= النجعة في تأويلها، وألف رسالة سماها (تحفة الندوة) قدمها إلى حفل ندوة العلماء المنعقدة في (أمرتسر) قال فيها: «فكما ذكرتُ مراراً أن هذا الكلام الذي أتلوه هو كلام الله، بطريق القطع واليقين كالقرآن والتوراة، وأنا نبي ظلي وبروزي من أنبياء الله، ويجب على كل مسلم طاعتي في الأمور الدينية، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بأني المسيح الموعود...». وادعى فيما بعد أنه نبي مستقل، صاحب أمر ونهي، وكفّر من لا يؤمن بنبوته، وقال بالتناسخ والحلول وادعى التفوق على كثير من الأنبياء، وألف في هذا الموضوع عدداً كبيراً من الرسائل والكتب، وأفتى بنسخ الجهاد وتحريمه، وأعلن أن الإنكليز هم أولو الأمر الذين تفترض طاعتهم على المسلمين، وفي عام ست وعشرين وثلاثمئة وألف باهله الشيخ ثناء الله الأمرتسري، وأن الكاذب المفتري من الرجلين سيموت، ودعا الله تعالى أن يقبض المبطل في حياة صاحبه، ويسلّط عليه داء مثل الهيضة والطاعون يكون فيه حتفه، وفي شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وثلاثمئة وألف أصيب بالهيضة الوبائية وهو في (لاهور) ومات في آخر ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وثلاثمئة وألف. (نزهة الخواطر: ٨/ ٣٤٠ ـ ٣٤٥ باختصار وتعديل).

(١) ملفوظات كمالات أشرفية، ص٣٨٤.

(٢) مجلة هدى، الشهرية، الصادرة في دهلي، ١٩٩٥م.

موقفه من الاجتهاد والتقليد:

إن الشيخ التهانوي رحمه الله لم ينطلق في فقهه من رأي محض أو هوًى متبع، كان يقلّد المذهب الحنفي، لكن ليس تقليداً أعمى، وإنما انطلق من مرتكزات يعتمد عليها، وأصول يستند إليها، وأهمها الرجوع المباشر إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، بغاية الوصول إلى الحق حيثما كان، وهذا ما يتبين لنا في ضوء كتاباته وتأليفاته وتحقيقاته العلمية النادرة، واستفادته من كنوز الأئمة السلف، دون تمييز أو تفريق بين المذاهب والمسالك، فنرى أنه يستفيد من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ويذكر آراءه، وكذلك تلميذه النجيب الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية رحمه الله، وينقل آراءه بغاية من التوقير والاحترام والتبجيل، حتى أودع بعض كتاباته الشيء الكثير من مقتطفات أقوال وآراء هذين الإمامين وغيرهما من السلف.

ورسالته المسمّاة (نهاية الإدراك في أقسام الإشراك) مستفادة بكاملها من رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (اقتضاء الصراط المستقيم)، وتتمة هذه الرسالة مليئة بنقول من كتب الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية مثل: (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) و(مدارج السالكين شرح منازل السائرين)[1].

وها هو تلميذه وخليفته العلاَّمة المحقق السيد سليمان الندوي[2] رحمه الله يكتب إليه فيقول: «لا أقلد المتأخرين في الفقه، ولست من أهل الحديث

---

(١) وانظر كذلك: إمداد الفتاوى: ٦/ ٨٢ـ ٨٤ـ ٨٩.

(٢) انظر: ترجمته بالتفصيل في باب (أجلّ خلفائه)، ص٢٧٨ـ ٢٨٥.

بالمعنى الذي تعارف عليه الناس، أحترم الأئمة رحمهم الله تعالى من صميم قلبي، ولا أرى من الحق مخالفتهم جميعاً».

فكتب إليه التهانوي رحمه الله: «لقد زادني إعرابك الحر عن مذهبك حُبّاً لك، وذلك لسببين:

أحدهما: لما كشفت لي عن صدقك وإخلاصك.

والثاني: لصفاء هذا المذهب ونقائه، وهذا هو مذهب أهل الحق جميعاً»[1].

وفعلاً كان التهانوي رحمه الله داعياً لهذا المذهب وسالكاً عليه، كان يرفض التقليد الأعمى، ولا يقرّه إلا في المسائل الظنية التي يسوغ فيها الاجتهاد، ولا تخالف نصاً قطعياً.

يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]: «ثبت بهذه الآية إبطال التقليد الذي كان عليه أهل الكتاب، فأما التقليد الذي عليه جمهور المسلمين الآن، فهو مشروع، وليس بداخل تحت مدلول هذه الآية، ومحل هذا التقليد (المشروع) هي المسائل الظنيّة التي تحتمل الطرفين، ولا تخالف نصاً قطعياً محكماً

---

(١) مجلة (بحث ونظر) الفصلية، الصادرة في دهلي من مجمع الفقه الإسلامي لعموم الهند، عدد جمادى الأولى، ١٤٠٨هـ، ص٢٠٠.

مجمعاً عليه ولا إجماعاً، وإلا فيقدّم النص والإجماع»[1].

ويقول رحمه الله في موضع آخر وهو بصدد بيان حقيقة التقليد وحكمه:

الأحكام على نوعين: منصوص وغير منصوص.

والمنصوص منه على قسمين: متعارض وغير متعارض.

والمتعارض له صورتان: معلوم التقديم والتأخير وغيره.

فالأحكام المنصوصة غير المتعارضة، وكذا المتعارضة معلومة التقديم والتأخير لا يجوز فيها لأحد القياس، ولا اتباع قياس أحد، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ولقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، المراد بالظن المذكور هو ما يعارض النص.

وأما الأحكام غير المنصوصة، أو المنصوصة المتعارضة غير معلومة التقديم والتأخير، فلها حالان:

١ ـ إما أن لا يعمل بها أصلاً.

٢ ـ أو يعمل بها.

فإن لم يعمل بها لزم مخالفة النص من قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

---

(١) بيان القرآن: ٢/ ٢٨.

وإن أراد العمل فلا يمكنه ذلك إلا بالعلم، وبعد تعيين أحد جانبيها، وهذا العلم أو التعيين لا يحصل بالنص، لعدم النصّ في الأول، وللتعارض من غير علم بالتقديم والتأخير في الثاني، فلا محالة أن العلم بالتعيين يحصل بالقياس.

وإذا كان كذلك فإما أن يعتبر شرعاً قياس كل واحد، أو العبرة بقياس البعض دون البعض الآخر ودون الكل، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فلما ثبت أن المعتبر من القياس هو قياس البعض، فذلك البعض يسمّى (المجتهد والمستنبط).

أما المقلد: فهو من لا يُعْتَبَرُ قياسُه، فهكذا لزم على المقلّد أن يقلّد ويتبع المجتهد، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥][1].

يجب على المقلّد ترك مذهبه فيما لا دليل عليه:

وقد حذّر الشيخ التهانوي رحمه الله من التقليد الأعمى، وأرشد إلى القول الوسط الحق، ألا وهو اتباع الدليل حيثما كان وأنّى وُجد، كما وضّح أن ترك المرجوح بعد النظر في الراجح والمرجوح من وظيفة المجتهد، لا بد من العمل عليه، سواء كان مجتهداً مطلقاً أو مجتهداً مقيداً.

---

(١) إمداد الفتاوى: ٤/ ٥٦٤_٥٦٥.

يقول رحمه الله في بعض فتاواه:

«إن ترك المرجوح بعد النظر في الراجح والمرجوح أيضاً من وظيفة المجتهد، ولو كان مجتهداً مقيداً، نعم إذا تبين وتحقق لمقلد محض أنه لا يوجد دليل لمذهبه في مسألة معينة مثلاً، يجب عليه أن يترك ذلك القول والمذهب، ويعمل بالراجح المدعم بالدليل والبرهان»(١).

ومنهجه هذا يتجلى لنا بكل وضوح في تأليف أعظم كتاب و أوسعه وأحسنه في بيان مأخذ الحنفية من الأحاديث النبوية، وهو كتاب (إعلاء السنن).

فقد قال الشيخ ظفر أحمد العثماني ـ ابن أخت الشيخ التهانوي ـ الذي جمع الكتاب ورتّبه في ضوء ما أفاده الشيخ التهانوي: «بل رُجّح قول الإمام الشافعي على قول الحنفية في بعض المسائل، وكُتب في تلك المواضع أنه لم يوجد حديث في تأييد الحنفية في كتاب من كتب الحديث الموجودة، ومن الممكن وجود حديث في ذلك عند أئمتنا لم نقدر عليه، ففي هذا الحال قول الإمام الشافعي هو القوي، وهو الذي اخترناه»(٢).

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص٤٩٧.
(٢) تذكرة الظفر، ص١٧٢.

الفصل الثامن

التهانوي والسياسة
آراؤه في السياسة الشرعية والسياسة المعاصرة

تمهيد:

لايخفى على كل من له إلمام بسيرة الشيخ التهانوي رحمه الله، أن خدماته المباركة ومآثره العظيمة في شتى مجالات الحياة، وشعبها المختلفة، منعدمة النظير، لا نجد لها مثيلاً، منذ قرون ماضية، وذلك لأنه قلما يوجد موضوع ديني، أو جانب دعوي، لم نجد له فيه رسالة أو مقالاً، عالج فيه ذلك الموضوع، وناقشه من وجهة نظر إسلامية، وحاول إبراز تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف، متخذاً غايته وهدفه الوصول إلى روح الشريعة، ومقاصدها الأساسية.

أما موضوع السياسة، وآراؤه رحمه الله حول الموضوعات السياسية، فبالرغم من أن شخصيته رحمه الله لم تكن لها أية صلة بسياسة العصر، لا من قريب ولا من بعيد، ولا كانت السياسة المعاصرة موضوعه الخاص ـ ولذلك نرى أنه لم يتناول هذا الموضوع في كتاب مستقل ـ لكن كما هو معروف فإن شريعتنا الإسلامية، وأحكامها المبنيّة على مصالح البشر، لها ارتباط وثيق،

وصلة وطيدة بالسياسة، وهي ليست بمنفصلة عنها انفصالاً تاماً.

فنرى الشيخ التهانوي رحمه الله يتطرق إلى مباحثها، ويذكر بعض التوضيحات المتعلقة بها، ويحدّد مسارها الصحيح، ومكانتها اللائقة بها في ديننا الإسلامي الحنيف، دون إفراط أو تفريط، وذلك ضمن مؤلفاته، وملفوظاته ومواعظه، مستخدماً أسلوبه الرائع ومنهجه الدعوي القويم، متجنّباً الإطناب المُملّ والإيجاز المُخلّ، سالكاً طريق العدل والوسطية والاتزان.

ويشعر القارئ الكريم، ودارس هذه المباحث، أنها تتميز ـ مع تناولها توضيح أحكام الشريعة الإسلامية تجاه السياسة المعاصرة ـ بالنّقد البنّاء للأنظمة السياسية المعاصرة، والتحديد لمواضع ضعفها، وانحرافاتها الفكرية، وزلاّتها العلمية والعملية.

إنَّ هذه الأسطر المتواضعة تأتي ضمن إطار محاولة تسليط بعض الضوء على تلك المباحث السياسية والأفكار المبعثرة التي دبجها يراع الشيخ التهانوي رحمه الله، وفاض بها قلمه السيّال، والتي كانت مغمورة مطمورة في بطون الكتب، وهي تحمل في طيّاتها، تصوّراً كاملاً، وتوضيحاً وبياناً لمبادئ هذا الموضوع، وتعاليم شرعنا الإسلامي القويم نحوه.

لقد كان الشيخ التهانوي رحمه الله من أولئك العباد المصطفَين الأخيار الذين اختارهم الله تعالى لتجديد دينه، وإحياء شريعته في القرن الرابع عشر ـ في شبه القارة الهندية ـ ومما لا شك فيه أنَّ القيام بهذه المهمّة الشاقة صعب

المنال، لا يتمكن منه إلا مَن صَبَغَ حياته بالصبغة الدينية الخالصة، صبغة الكتاب والسنة، ومصادر الشريعة الحق ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]. ومن كان هذا شأنه لا بد أن يكون على معرفة تامة، واطلاع كامل على مجريات زمانه، وحوادث عصره، وما يصير حواليه، لكنه لا يمشي وراءه، ولا يقبل منه إلا ما يتطابق والصبغة الدينية الخالصة، ولا يذعن إلا لما يتوافق وتعاليم الشريعة، تكون عيناه مفتوحتين دائماً ـ عين البصر وعين البصيرة ـ لا تؤثر فيه الدعايات والإشاعات السائدة حواليه، حتى لو أن الدنيا بكاملها أجمعت على شيء، وانحازت إلى جانب واحد، لا تتزلزل قدماه عن الصواب الحق، بل يبقى صامداً عليه، وقّافاً عند حدود الله تعالى، متمسكاً بحبل الله المتين، عاضّاً عليه بالنواجذ، لا يخاف في الصدع بالحق لومة لائم.

هذه هي أبرز صفات الشيخ التهانوي رحمه الله، الذي ثبت بقدم راسخة على الصراط المستقيم، والحق المبين، في العواصف الهوجاء، صادعاً بالحق على مرأى ومسمع من الملأ الأعلى، دون أي خوف أو تردد.

وإذا نظرنا إلى المباحث السياسية التي تناولها الشيخ رحمه الله في مختلف مؤلفاته ومواعظه ومذكّراته اليومية، يمكننا تقسيم أفكاره السياسية إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١ ـ مكانة السياسة في الإسلام.

٢ ـ نظام الحكم الإسلامي فرائض وواجبات ومسؤوليات.

٣ ـ حكم الجهود والمساعي السياسية لإقامة الدين، وما هي حدود هذه الجهود؟.

هذه هي النقاط الثلاث المهمّة التي تدور حولها أفكاره السياسية رحمه الله، ولنبدأ في ذكر كل نقطة بشيء من التفصيل:

النقطة الأولى: مكانة السياسة في الإسلام:

ما هي مكانة السياسة في الإسلام؟ وما هي أهمية إقامة نظام سياسي صحيح في الدين؟.

لقد اشتهرت نظرية (النصرانية) حول فصل الدين عن السياسة، والقول أنهما أمران متباينان، ثم إن هذه النظرية الخاطئة القائلة بالفصل بين الدين والسياسة تحوّلت إلى نظرية (العلمانية) في العصر الراهن، التي تعدّ من النظريات المحبّبة لدى الأنظمة السياسية المعاصرة، والمعجب بها عند معظم الحكومات والدول، ومما لا شك فيه أن الإسلام يرفض كلتا النظريتين رفضاً تاماً، وبما أن تعاليم ديننا الحنيف تشمل سائر جوانب حياة البشر وجميعَ شعبها -ومنها السياسة- فإنها لا تسمح بفصل السياسة عن الدين والشريعة.

الخطأ الدقيق في التعبير (السياسة الإسلامية أو الإسلام السياسي؟):

وقد تصدّى للرد على هاتين النظريتين، ومثل هذه الأفكار الزائفة، عددٌ كبيرٌ من العلماء والمثقفين الإسلاميين، إلا أنهم في أثناء ردّهم على هذه النظريات الباطلة، وقعوا فريسة خطأ دقيق لم يخطر على بالهم، ولم يشعر به ذهنهم، ولو أردنا أن نعبّر عن ذلك الخطأ الدقيق يمكننا القول:

إنهم في غليانهم، وتحمّسهم في الرد على هذه النظريات جعلوا الإسلام

سياسياً، بدل أن يجعلوا السياسة إسلامية، وقد كان المفروض أن يعبّروا عن رأيهم ويقولوا:

«لاينبغي أن تفصل السياسة عن الدين»، لكنهم أخطؤوا وقالوا: «لا ينبغي أن يُفصل الدين عن السياسة».

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل مما زاد الطين بلة، أنهم تجاوزوا الحدود في الرد على هذه النظريات، إلى درجة أنهم جعلوا السياسة والحكومة، المقصودَ الأصلي، والغاية الحقيقية للإسلام، والهدف الأساس من بعثة الأنبياء عليهم السلام، بل اعتبروها الغرض الأوّلي من خلق الإنسان، وأما أركان الإسلام الأخرى، ودعائمه الحقيقية مثل العبادات وغيرها، فلم يعتبروها من الدرجة الثانية فقط، بل جعلوها وسيلة للحصول على الهدف الأصلي، وهو (السياسة) في نظرهم.

وقد أدّى هذا التصلّب والتطرّف إلى انقلاب صورة الدين رأساً على عقب، وانقلب ترتيب الأولويات(Order of priority) في الدين الإسلامي، وحلّت الوسيلة محل الغاية، وتسلّطت على القلب والذهن، وأما الغاية فقد تحوّلت إلى وسيلة غير مهمّة.

هذا في جانب، وفي جانب آخر لما انقلب الميزان الحقيقي للإسلام لدى هؤلاء، وأصبحت السياسة، وإنشاء الحكومة المقصدَ الأول، والعبادات الأخرى حلّت محلّ الوسيلة، رخصت في نظرهم قيمة الوسائل، وسَهُل عليهم التضحية بالوسائل طمعاً في نيل الغاية، ورضوا بالإهمال فيها، والتغافل عنها،

لأنهم اعتبروا أنفسهم بصدد نيل الهدف السامي، وغاب عن أنظارهم هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبوه في مسيرهم هذا.

ولما ابتدأت حركات تدعو إلى الاستقلال من مخالب الاستعمار الغربي في المسلمين، منذ فجر القرن الرابع عشر الهجري، شاعت فيها هذه النظرية الخاطئة، وترسّخت فيها هذه الفكرة التي جعلت السياسة مقصداً للدين، متسترّة وراء أسماء حديثة وعناوين مبتكرة جديدة، مرة باسم (الخلافة في الأرض) وأخرى بـ(الحكومة الإلـٰهية).

وهكذا وقع معظم المثقفين ـ الذين أصبح الحصول على الاستقلال السياسي شغلهم الشاغل، وهمّهم الأول والآخر ـ فريسة هذا الخطأ الدقيق، ولم يفكّروا في تحديد المكانة الصحيحة للسياسة في الدين.

في مثل هذه الظروف، والأوضاع الحرجة التي أصيبت بتقليب الحقائق والموازين، كانت شخصية العلاَّمة أشرف علي التهانوي هي الأولى من نوعها، التي نهضت رافعة لواء الإصلاح والتجديد، وبيّن رحمه الله للناس هذا الخطأ الفادح، وأثبت لهم في ضوء الكتاب والسُّنة مكانة السياسة الحقيقية في الإسلام.

يقول رحمه الله: «يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، دلّت الآية الكريمة على أن الدّيانات هي المقصودة بالذات، وأن السياسات والجهاد ليس من الغرض الأصيل، ولعلّ هذا هو السبب أن جميع الأنبياء عليهم السلام قد بُعثوا بالديانات وأحكامها، وهذه هي النقطة

الجامعة بينهم جميعاً، لكن السياسة أو الجهاد لم يُبعث به الجميع، بل أمر الله تعالى به حيث اقتضت الحاجة، وتطلّبت المصلحة، وهذا هو شأن الوسائل والأسباب، فإنه لا يكلّف بها الإنسان إلا لضرورة.

وقد يثير أحد هذا الإشكال، ويخطر بباله أنّ الآيات الأخرى تدلّ على خلاف ما دلّت عليه الآية الأولى، وظاهرها كون الدّيانة وسيلة، والتمكين في الأرض والسياسة غاية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٥٥]، واشترطت الآية الإيمان والعمل الصالح من أجل التمكين في الأرض، وهذا يستلزم كون السياسة المقصودَ الأصلي؟

فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى وعد بالتمكين في الأرض، والاستخلاف فيها على استيفاء شرط الإيمان والعمل الصالح، وإن السلطة والتمكين في الأرض يترتبان على الدين، ومعناه أنه وعد بنيل السياسة والقوة على شرط وجود الدين، ولا يلزم كون الموعود مقصوداً، وإلا ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦]، هل يسع أحد أن يقول: إن السعة في الأرض هو المقصود الأصلي من العمل بالتوراة والإنجيل والقرآن؟ كلا! بل إن الله سبحانه وتعالى وعد بسعة الرزق إذا عملوا بالتوراة والإنجيل.

وعلى كلٍّ فقد تبيّن في ضوء ما أسلفنا أن السياسة هي وسيلة، وأن الدين وتحقيق أحكام الشريعة هو الهدف الحقيقي، والغاية المتوخّاة، وهذا لا يعني

بـالضرورة إهمـال السياسـة وإغفالها، بـل المطلوب فيها تنزيلهـا منزلتهـا الحقيقية»[1].

إن الشيخ رحمه الله قد كشف القناع عن الموضوع وجعله واضحاً نيِّراً كالشمس في رابعة النّهار، في هذه الكلمات الموجزة، بحيث لا يبقى مجال للشك ولا للريب، ويمكننا تلخيص كلامه في العبارة الآتية:

إن كلتا النظريتين على طرفي نقيض، واجبة الرفض، فلا ينبغي الاعتماد على نظرية (العلمانية) التي تفصل السياسة عن الدين، ولا تلك النظرية التي تجعل السياسة الغاية الأصلية للدين، والحق الذي يجب الإيمان به هو أن الهدف الأساس من الدين هو صلة العبد بالربّ تعالى، ويتمثل ذلك في الطاعات والعبادات، وليست السياسة والحكومة إلا وسيلة لتحقيق هذا الغرض، ونيل هذه الغاية المنشودة، لا غير.

وبالتالي فإنَّ الإسلام لا يرضى إلا بتلك السياسة التي تساهم في تحقيق هذا الغرض، وكل سياسة لا تهدف إلى ذلك، بل تقلّب الموازين، وتؤدي إلى إيجاد مفاهيم خاطئة عنه، فهي ليست من الإسلام في شيء، مهما سمّيناها إسلامية أو دينية.

النقطة الثانية: نظام الحكم الإسلامي يرفض العلمانية والديمقراطية:

إن معظم الحكومات التي قامت في أوروبة في القرون الوسطى، كانت

(١) أشرف السوانح (خاتمة السوانح): ٤/ ٢٨-٢٩.

حكومات شخصية، ويغلب عليها الطابع الشخصي، وكل أمر صادر من الحاكم، أو كلمة خارجة من فم الملك تحمل درجة القانون الرسمي الذي يجب العمل به، ولا يسع أحد مخالفته أو معارضته في شكل من الأشكال، الأمر الذي أدى إلى شيوع الظلم والجور والفساد، وعمّت الفوضى في العباد والبلاد، وسادت المجتمعات الأوروبية أنواع من المصائب، وأصناف من المشكلات من جرّاء هذا النظام.

وبالتالي فكان من الطبيعي أن يحدث هناك ردُّ فعلٍ عنيف ضدّ هذا النظام الظالم، وفعلاً بدأت هتافات الغضب العارم، ونعرات الاستنكار تعلو ضدّه، وقُدّمت (الديمقراطية) كحكومة نموذجية مقابل ذاك، إلى أن حلّت الديمقراطية محل الحكومة الشخصية بأكملها، وظلّ الناس يمجّدونها ويشيدون بها، ويعتقدون أنها النظام الوحيد الذي يضمن لهم العدل والإنصاف والحق والصداقة، حتى إن الأحزاب والجماعات السياسية التي نهضت في عصرنا الراهن باسم الإسلام، لم يلبث معظمها أن تأثرت بتلك الدعايات العالمية، بل جعلت إنشاء الحكومة الديمقراطية نُصْبَ أعينها، وعلى رأس قائمة أهدافها وغاياتها، وتحقيقاً لأغراضهم هذه بدؤوا يزعمون أن الديمقراطية متطابقة مع أصول الإسلام، وتعاليم الدين الحنيف، بل جرّهم صنيعهم هذا إلى القول: بأن الإسلام علّمنا الديمقراطية.

لقد تسرّبت هذه الفكرة الخاطئة إلى كل الأوساط، وترسخت في أذهان الزعماء، وصارت لها جولة وصولة لدى العامة والخاصة، ولم يتجرأ أحد على معارضتها، في مثل هذه الأوضاع قام الشيخ أشرف علي التهانوي، مشمّراً

عن ساعد الجد، غير مبـال بالنعرات الجذّابـة ولا منجذب وراء الهتافـات البرّاقة، معتصماً بحبل الحق، متمسكاً بأواصر الدين القوية، عاضّاً عليها بالنواجذ، رافضاً الباطل أينما كان وحيثما صار، محذّراً الأمة الإسلامية من مفاسد الديمقراطية، وما ينجم عنها من عواقب وخيمة، وتناول هذا الموضوع من جوانبه المختلفة، وعالجه في ضوء تعاليم الشريعة الإسلامية، وذلك في أثناء مؤلفاته ومواعظه.

هذا وقد أبعد النجعة من جعل الديمقراطية (من المسلمين المثقفين) مرادفة (للاستشارة)، ومبدأ (الشورى الإسلامي)، تلك الاستشارة التي أمر بها الإسلام، وحثّ عليها الرسول الكريم ﷺ، والواقع يردّ ذلك رداً قاطعاً؛ لأن الحكومة الديمقراطية تمشي وراء فلسفة، وتتمسك بمبدأ لا يمكن أن يتقبله الإسلام في أي خطوة من خطواته، وبموجبها يشترط الإيمان بالعلمانية.

والعبارة التالية اشتهرت في توضيح معنى الديمقراطية:

(Itisa Gonernment of the people by the people for the people)

(إنها نظام حكومي جمهوري يتشكل برأي الجمهور لصالح الجمهور).

وعلى هذا فإن الركن الأساس، والدعامة العظمى للديمقراطية هي أن الجمهور هم بمثابة الحاكم الأعلى فيها، وكل حكم يحكم بـه الجمهـور، معتمدين على رأي الأغلبية العظمى، فإنه يعتبر حكماً واجب العمل، لا يمكن رفضه أو إلغاؤه في أي حال من الأحوال.

وخلاصة القول: إن نظام (الديمقراطية) يعتبر رأي الأكثرية بمثابـة

الحكم الإلٰهي الذي لا يمكن الإنكار عليه، وبسبب هذه الطامّة الكبرى نرى الغرب ما زالوا ينفّذون بعض القوانين بالاعتماد على رأي الأغلبية، دون أن يفكّروا في نوعيتها، أو يقدّروا مدى عواقبها الوخيمة، حتى لو كانت فاحشة من الفواحش، أو جريمة من الجرائم الخلقية والإنسانية، بالغة ما بلغت من درجات الانحطاط والتدهور الخلقي، مثل الترخيص بأعمال الزنى واللواط، وغيرهما مما يمسّ عرض الإنسان وناموسه وكرامته، ويدعو إلى الإباحية، بأشكال مختلفة، وهنا نرى أن الشيخ التهانوي رحمه الله أثبت وَهْنَ هذه الفكرة وضعفها، وردّ عليها في ضوء تعاليم الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام: ١١٦]

هل رأي الأغلبية معيارٌ للحق؟:

يقول رحمه الله في إحدى مواعظه: «إن من الأمور الغريبة التي يتداولها الناس اليوم زعمهم أن الحق دائماً يكون مع الأغلبية، وهذا صحيح من ناحية، ولكن من هم المعنيّون بالأغلبية؟ هل هم العوام المُشبّهون بالأنعام؟ وإذا كانوا هم المعنيّين، فلماذا لم يعمل نبيّ الله هود عليه السلام برأي قومه؟ إنهم كانوا على رأي، وهود عليه السلام كان على رأي آخر، وكان السبب في ذلك أن قومه كانوا من الجَهَلة، ورأيهم كذلك كان مبنياً على جهالة»[١].

كما استدل رحمه الله على ذلك بما حدث للمسلمين في غزوة أحد[٢]،

---

(١) فضائل العلم والخشية، ص٣٠؛ معارف حكيم الأمة، ص٦١٧.

(٢) روى البخاري في (صحيحه) عن البراء رضي الله عنه قال: «لقينا المشركين =

حين عيّن الرسول الكريم ﷺ خمسين من رماة الصحابة على الجبل، وأمرهم أن لا يبرحوا من مكانهم مهما كان الوضع، انهزم المسلمون أو انتصروا، ولكن اختلفت آراؤهم واجتهاداتهم في فهم فحوى كلام النبي ﷺ، فرأى بعضهم - وكانوا الأغلبية - أننا ظهرنا على العدوّ، وآن الأوان أن نصيب من الغنيمة ونتقدم إلى جهتها، بينما تمسّك البعض الآخر - وكانوا قلة - بأمر الرسول ﷺ، ولم يبرحوا المكان، وهكذا أخطأت الطائفة الأولى في اجتهادها، وقد رأينا في هذه الواقعة أن رأي الفئة الكبيرة كان على خطأ، ورأي الفئة القليلة كان هو الصواب.

وفي ذلك عبرة لأولئك الذين يرون أن رأي الأغلبية دليل على كونه حقاً[1].

= يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمّر عليهم عبد الله، وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سُوقهنّ قد بدت خلاخلهنّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال عبد الله: عهد إليّ النبيّ ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن الخطّاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبتَ يا عدوّ الله أبقى الله عليك ما يخزيك... الحديث». كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٤٠٤٣)، ورواه مختصراً برقم (٣٩٨٦)؛ كما رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، (٢٦٦٢).

(١) انظر: ذمّ النسيان للشيخ التهانوي، ص١٢؛ وكذلك معارف حكيم الأمة، ص٦١٨.

كما استدل رحمه الله على ذلك بعمل سيدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مع مانعي أداء الزكاة، لما امتنعت بعض القبائل عن أداء الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ ولقائه بالرفيق الأعلى، فأعلن رضي الله عنه رَفْع علم الجهاد ضدهم، ومعلوم أنَّ معظم صحابة الرسول ﷺ وعلى رأسهم سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه كان يرى عدم محاربة مانعي الزكاة، لكن شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه في هذه القضية، وثبّته على رأيه، وفي النهاية أجمعت آراء الجميع على رأي أبي بكر، واعترفوا كلهم بأنه كان على الصواب والحق[1].

وهكذا ردّ الشيخ التهانوي رحمه الله على هذه الفكرة بدلائل شرعية وعقلية، وبيّن الواقع بأسلوب بسيط، وطريقة سهلة، لو تأمل فيها الإنسان ونظر إليها بنظرة الإنصاف، لوصل إلى هذه النتيجة التي وصل إليها الشيخ رحمه الله.

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لمّا توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله، فمن قالها فقد عصم منّي ماله ونفسه إلا بحقّه وحسابه على الله؟ فقال: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق». كتاب الزكاة، برقم (١٤٠٠)؛ وكتاب استتابة المرتدين (٦٩٢٤)؛ وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، (٧٢٨٥)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (٢٠)؛ والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، (٢٤٤٣).

نظام الحكم الشخصي (الملكية):

لقد أيّد الشيخ رحمه الله نظام الحكم الشخصي في عدة مواضع من كتاباته، خلال نقده للنظام الديمقراطي، ومما لا شك فيه أن تأييده ودعمه لنظام الحكم الشخصي يتوجه إلى ذلك الحاكم الإسلامي المثالي الذي يُسمّى في اصطلاح الشرع بـ(أمير المؤمنين) أو (خليفة المسلمين)، وذلك النظام الذي يتميّز بخلوّه من مفاسد الحكومات الشخصية (الدكتاتورية) عموماً، والتي سبق أن تحدثنا عنها من خلال نظرة عابرة على أنظمة الحكم في الغرب في القرون الوسطى.

ومما يجدر بالذكر في هذه المناسبة أن تعيين الخليفة أو (أمير المؤمنين) في مثل هذا النظام إنما يتمّ عن طريق اختيار أهل الحلّ والعقد، لا بالوراثة أو بالقوة، كما أن هناك صفات ومميّزات لابدّ من توافرها في شخصية ذلك الخليفة، ولا يجوز لأهل الحلّ والعقد أن يختاروا أحداً لا يستوفي هذه الشروط. ولا يسعنا في هذه العجالة الخوض في تفاصيل هذه الشروط، فإنها معروفة عند أهل العلم.

هذا وقد تناول الشيخ التهانوي رحمه الله موضوع الديمقراطية ونظام الحكم الشخصي، في عدة أماكن من مواعظه ومؤلفاته، أوسعها وأشملها ما جاء في رسالته (تقليل الاختلاط مع الأنام).

السلطة مسؤولية وأمانة وليست حقاً من الحقوق:

ثم هناك فرق كبير جداً بين نظام الحكم الشخصي الذي تبتنى دعائمه

على تنفيذ قوانين وضعتها يد الشخص الواحد، أو نطق بها لسان الفرد، وإطاعة أوامره، والاستسلام أمامه، وبين نظام الحكم الإسلامي الذي يتولاّه فرد من أفراد المجتمع، فإن الحكم الشخصي في المجتمعات غير الإسلامية يُعتبر حقاً من الحقوق (Prinilege) أو فائدة من الفوائد (Advantage) وهناك ينشأ سؤال: مَن الذي يتمتع بهذا الحق؟ ومن الذي يستفيد من هذه الفائدة؟ ومن أجل ذلك يظل الناس يركضون وراءه لنيله، ويبذلون أقصى ما عندهم من الإمكانات لتحقيق هذا الغرض.

أما من وجهة نظر الإسلام فإن الحكم والسلطة تعدّ من قبيل (الأمانة) أو (المسؤولية) التي ليست أداة راحة أو وسيلة حصول العيش الهنيء الرغيد، بل إنها عبء ثقيل وحِمل كبير ـ ديني ودنيوي ـ يُلقى على كواهل الحاكم، فلا يتقدم إليه أحد، ولا يمدّ يده لنيله، بل يهرب منه ويجنّبه نفسه قدر الإمكان، ولعلّ هذا هو السبب في أن الشخص الذي يتقدم أمام الناس بهذا الطّلب، فإنه يعتبر غير متأهل لحمل هذه الأمانة، في نظر الإسلام، وأن السياسة الإسلامية الحقيقية خالية عن أي تصوّر للترشيح (Candidataure) .

فرائض الحاكم وواجباته:

وعلى هذا فكل من يتحمل هذه المسؤولية العظيمة على عاتقه، يجب عليه أن يعتبر نفسه خادماً، لغرض ابتغاء وجه الله ونيل رضاه، ويعتقد اعتقاداً جازماً أن الحكم ليس مقصوداً بالذات، وإنما الهدف الأساس والغاية الأصيلة هي نيل رضاه سبحانه وتعالى، ولذا فإن وقع هناك أي تعارض بين الحكم

ورضا الله تعالى، فالحاكم يُؤْثِر رضا الله على الحكومة، ويضحّي بالحكم بكل فرح وانبساط.

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله في إحدى مواعظه: «واعلموا أن السلطة أو الحكومة ليست بمقصودة بذاتها، وإنما الغاية الأصيلة المتوخّاة هي رضا الله تعالى، وابتغاء وجهه، ولو سخط الله علينا مثل فرعون مع هذه السلطة، فتباً لهذه السلطة التي تجعلنا في عداد فرعون، ولو كانت السلطة والحكومة هي المقصودة بالذات لكان فرعون وهامان ونمرود وشدّاد من عباد الله المقرّبين، ولكنهم مطرودون من رحمة الله، وملعونون عند الله، فعلمنا أن السلطة والحكومة المطلوبة والمحبوبة عند الله، هي التي يصحبها رضا الله تعالى، وأما السلطة المجرّدة عن رضا الله، والتي تجرّ غضب الله، فإنها نقمة من الله ووبال.

وها هو الشيخ إبراهيم بن أدهم[1] رحمه الله، كانت بيده السلطة والحكومة، لكنه أعرض عنها، لماذا؟ لأنه كان يشعر أنها تُخلّ في تحقيق الهدف الأصيل، كان رحمه الله إماماً فقيهاً محدّثاً، وقد أكرمه الله تعالى بنعمة

---

(١) هو الشيخ إبراهيم بن أدهم، الإمام العارف، سيّد الزهّاد، أبو إسحاق العجلي، وقيل: التميمي نزيل الشام في حدود المئة، قال النسائي: هو ثقة مأمون أحد الزهّاد، اشتهرت قولته المشهورة: «كل ملك لا يكون عادلاً فهو واللص سواء، وكل عالم لا يكون تقياً فهو والذئب سواء، وكل من ذلّ لغير الله فهو والكلب سواء» توفّي رحمه الله سنة اثنتين وستين ومئة. (سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٨٧؛ معرفة الثقات للعجلي: ١/ ٢٠٠؛ مشاهير علماء الأمصار لابن حبان: ١/ ١٨٣).

العلم والفضل، ومع ذلك كله فإنه لما شعر بإخلاله في المقصود صرف النظر عن الحكم.

وها هو سيّدنا أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه الخليفة الراشد الأول، وسيّدنا عمر الفاروق رضي الله عنه الخليفة الراشد الثاني لمّا رأيا أن الخلافة والسلطة لا تُخلّ في نيل مقصودهما ولا تضرّهما بشيء، أُذن لهما بها، ومُنع سيّدنا أبو ذر رضي الله عنه عن هذه المسؤولية، وقيل له: «لا تَولّيَنّ مال يتيم، ولا تقضينّ بين اثنين»[1].

وفيه دليل واضح على أنّ المقصود الأصلي هو الحصول على رضا الله تعالى، وليست السلطة والحكومة، فإن أضرّت السلطة بالمقصود، وأخلّت في تحقيق الهدف يمنع عنها الإنسان[2].

١ ـ الاهتمام بالأمور التافهة والاعتناء بالأشياء البسيطة والمحقّرات:

يقول رحمه الله: «إن من أهم أسباب سقوط السلطات السابقة،

---

(١) روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لي: «يا أبا ذر إنّي أراك ضعيفاً، وإنّي أحبّ لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم»، (باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، (١٨٢٦)، رواه ابن حبّان في صحيحه: ١٢/ ٣٧٥، (٥٥٦٤)؛ واللفظ الوارد في الكتاب رواه أحمد في مسنده: ٥/ ١٨١، (٢١٦١٤)؛ ونحوه أبو المحاسن الحنفي في معتصر المختصر: ٢/ ٢، كتاب الأقضية).

(٢) تقليل الاختلاط مع الأنام، ص٦١ ـ ٦٢؛ أشرف الجواب، ص٤٥٥ ـ ٤٥٦.

وزوالها، في نظري، هو عدم اهتمام الحكّام بالأمور التافهة؛ لأن الإنسان إذا تعوّد على الإهمال في الأشياء البسيطة، وإغفال المحقّرات من الأعمال، فيجرّه صنيعه هذا إلى الإهمال في الفرائض والواجبات، وإذا كان هذا صنيع الحاكم فيتسبّب ذلك في زوال النعمة وذهاب السلطة»[1].

٢ ـ منع الأُمراء والعُمّال من الظلم والطغيان:

فكما يجب على الحاكم أن يحكم بالعدل والإنصاف بين الناس في كلّ قضاياهم، كذلك يجب عليه أن يأمر أمراءه وعُمّاله بتجنّب الظلم والطُّغيان، ويعوّدهم على الإحسان والعدل، والتحلّي بالأخلاق النبيلة العالية، في سائر تعاملاتهم مع الرعايا والمحكومين[2].

٣ ـ قسمة الأعمال والمسؤوليات بين الحُكّام والعلماء:

يقول رحمه الله: «كان النبي الكريم ﷺ قد بعثه الله تعالى بمهمّتين عظيمتين مهمّة النبوة، ومهمّة الحكومة، وكان الخلفاء الراشدون بعده جامعين لهاتين الفضيلتين، إلا أنهما قد انقسمتا وتوزعتا في عصرنا الراهن إلى طائفتين مختلفتين، فمهمّة النبوّة تتمثل في العلماء، ومهمّة الحكم والسلطة تتمثل في سلاطين الإسلام، والحُكّام المسلمين، ولذا فإن استغنت فئة السلاطين عن فئة العلماء يلزم منه الإعراض عن مهمّة من مهمّات النبيّ الكريم ﷺ، وصورة الجمع بين هاتين المهمتين هي:

---

(١) إصلاح المسلمين، ص١٧٩؛ الإفاضات اليومية: ٧/ ٢٥٩.

(٢) أنفاس عيسى: ١/ ٣٣٧.

أنْ نقول للحكّام والسلاطين: لا ينفّذوا حكماً من الأحكام إلا بعد الاستفتاء من علماء الحق، والاستشارة منهم. ونقول للعلماء: أن يتثبّتوا من أحكام الشرع بعد تنفيذها، وإذا تحققت هاتان المهمّتان اللّتان بُعث النبي الكريم ﷺ بهما، أرجو أن يتحقق الهدف الأصيل وتنال الإنسانية بُغيتها، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها، وإلا فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين»[١].

٤ ـ استشارة أولي الألباب، وأصحاب العقل والفهم:

يجب على الحُكّام أن يُلزموا أنفسهم استشارة أولي الألباب، وأصحاب الفهم والعقل، لأن استشارتهم تكشف لهم عن جوانب خفية، ونواحٍ عديدة قد تغيب عن أنظارهم، علماً أن هذه الاستشارة مطلوبة، لكن مع الحذر الشديد من التباس الاستشارة بالديمقراطية المخترعة المعروفة، فإنها دعاية كاذبة جوفاء، لا سيّما النظام الديمقراطي المكوّن من أعضاء مسلمين وكافرين، فإنَّه في حكم السلطة الكافرة ولا يسمى حكومة إسلامية أبداً في أي حال من الأحوال[٢].

النقطة الثالثة: حكم بذل الجهود والمساعي السياسية لإقامة الدّين، وما هي حدود هذه الجهود؟:

هذه هي النقطة الثالثة المهمّة في دراستنا وعرضنا لأفكار الشيخ التهانوي

---

(١) إصلاح المسلمين، ص٥٣٦.

(٢) الإفاضات اليومية: ٣/ ١١١ ـ ١١٢.

السياسية، فهل يجب على المسلمين أن يجاهدوا، ويبذلوا كل ما في وسعهم من الطاقات لإقامة حكومة إسلامية، وما هي حدود هذه الجهود؟.

لقد ألّف الشيخ رحمه الله رسالة خاصة بهذا الموضوع، سمّاها (الروضة الناضرة في المسائل الحاضرة) أوضح فيها مكانة هذه الجهود، من وجهة نظر الإسلام، كما أعرب عن رأيه حول الأوضاع السياسية السائدة في عصره.

يقول رحمه الله: «إن مدافعة الكفّار عن أهل الإسلام عموماً، وعن الحكومة الإسلامية خصوصاً ـ بما فيه الخلافة وغير الخلافة، والحكومة الإسلامية ـ وعن شعائر الإسلام ومقدساته لاسيّما الحرمين الشريفين، من الفرائض الواجبة على المسلمين، أحياناً على العين وأحياناً على الكفاية، على اختلاف الأحوال، إلا أن هناك شروطاً لابد من توافرها لهذه الفريضة، وهذه الشروط قد تناولها الفقهاء مفصّلة مبسوطة في كتبهم، ومن جملتها:

١ ـ **الاستطاعة**: والمراد منها الاستطاعة الشرعية التي دلّ عليها الحديث الشريف الآتي: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَن رأى منكم مُنكراً فليغيِّره بيدِه، فإنْ لَم يستطعْ فبِلِسَانِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضعفُ الإيمان»[١].

---

(١) رواه مسلم في (صحيحه)، كتاب الإيمان، (٤٩)؛ والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، (٥٠٠٨)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، (١١٤٠)؛ وكتاب الملاحم، (٤٣٤٠)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، (١٢٧٥).

٢ ـ **انتفاء أسباب الوقوع في شرّ أكبر من السابق**: وذلك مثل مخافة أن يسيطر الكفار أنفسهم بعد الدفاع، أو تسيطر طائفة مكوّنة من الكفار والمسلمين، لأن الغاية مفقودة في هذه الصورة، وهي إخلاء الأرض من الفساد، والقاعدة تقول: «**الشيء إذا خلا عن الغاية انتفى**».

ثم إن لم تنتفِ هذه الأسباب سقط الوجوب، أما الجواز ففيه تفصيل، وخلاصة القول: إن كانت الاستطاعة متحققة، ولا يكون هناك احتمال الوقوع في مفسدة أكبر من الأولى، فالمجاهدة، وبذل المساعي واجب، أحياناً على العين، وأحياناً على الكفاية، وإلا فلا»[1].

الجهود السياسية ومبدأ تزكية الأخلاق:

ومن الشروط الأساسية لهذه الجهود أن يقوم الإنسان بتزكية أعماله وأخلاقه، وأن تكون مشاعره وأحاسيسه متسمة بالاتزان والاعتدال والوسطية، ولنا في حياة رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وانظروا إلى الحياة النبوية المكّية، كيف عاش ﷺ ثلاثة عشر عاماً من حياته، إنها فترة التعليم والتربية وتزكية الأخلاق والأعمال، ولما تهذّبت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وتجلّت أخلاقهم العالية، وتربّوا متفيّئين ظلال النبي الكريم ﷺ، وبعد مجاهدات

---

(١) الروضة الناضرة في المسائل الحاضرة، المطبوعة ضمن أشرف السوانح: ٣/ ١٧٢ ـ ١٨١؛ وانظر كذلك: الإفادات الأشرفية في المسائل السياسية، ص١٠.

عظيمة، وتحمّلٍ للمشاق، وصبر على الإيذاء، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، بدأ النبي ﷺ بالمدينة المنوّرة في أمر الجهاد، وحياة الكفاح والقتال والحكومة والسياسة.

التدابير السياسية:

لقد أكّد الشيخ التهانوي رحمه الله في مواضع عديدة من مؤلفاته ومواعظه، أنه لا يكفي في السياسة الإسلامية، كونُ المقصد والهدف صالحاً، موافقاً للشريعة الإسلامية، بل يجب أن يكون منهجها وطريقتها، والوسائل التي تستخدم في تحقيق الهدف، متطابقة مع أصول الشريعة الإسلامية. فلو أراد أحد أن يؤسس حكومة إسلامية، تاركاً أحكام الشريعة وراء ظهره مُعرضاً عن تعاليم ديننا الحنيف، صارفاً نظره عن مبادئ الدين وأصوله وقواعده، فإنه سيواجه عواقب وخيمة، حتى لو نجح في تأسيس الحكومة، فإنها لن تكون إسلامية إلا في الاسم لا غير، ولذا فلا بدّ من التأكد من جميع الوسائل التي يختارها الإنسان في هذا الهدف، وكل خطوة يخطوها، هل تأتي ضمن الإطار الشرعي أم لا؟ وهل هي موافقة لوجهة النظر الإسلامية أم لا؟.

إن حياة سيّدنا النبي الكريم ﷺ، وسيرة صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، لغنيّتان بنماذج حية رائعة، تدلّ على إعراضهم عن بعض التدابير الحربية ـ حتى لو كانت مهمة وتكتيكية لضرب الأعداء ـ بسبب تعارضها مع مبادئ ديننا، وشريعة نبيّنا، ومَن منا لا يعرف عن غزوة بدر الكبرى، المعركة الحاسمة، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، إذ كان عدد المسلمين لا يتجاوز

ثلاثمئة وبضعة عشر شخصاً، والأعداء كانوا مُجَهَّزين في العُدّة والعَتاد، وبأضعاف عدد المسلمين، وفي ذلك الوضع الحرج كان من الطبيعي أنه إذا ازداد شخص واحد في الجيش، لأدى ذلك إلى رفع معنوياتهم، فأراد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان وأبوه أن ينضمّا إلى جيش المسلمين، ولكن كان من هديه ﷺ أن أعداءه إذا عاهدوا واحداً من أصحابه على عهد لا يضرّ بالمسلمين بغير رضاه، أمضاه، وهكذا فعل مع المشركين في حذيفة وأبيه، فأمضى لهم ذلك، ومنع حذيفة وأباه من الانضمام بالجيش الإسلامي، إيفاءً بعهدهم معهم قائلاً: «نفي لهم بعهدهم ونستعين الله تعالى عليهم»[1].

وفي نفس الغزوة قَدَّمَ شخص مشرك ـ كان يذكر منه جراءةٌ ونجدة ـ نفسَه لرسول الله ﷺ، لكن الرسول ﷺ رفض طلبه قائلاً: «ارجع فلن أستعين بمشرك»[2].

---

(١) روى الإمام مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حُسيل، قال: فأخذنا كفار قريش قالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم» (كتاب الجهاد والسير، (١٧٨٧)).

(٢) روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ قِبل بدر، فلمّا كان بحرّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جراءة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال =

وهكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم، وأتباع أتباعهم، كانوا متمسّكين بهذا المبدأ، وتاريخنا الإسلامي المجيد، المشرق الباهر، غني بهذه الروائع والمواقف العظيمة.

كيفية التعامل مع الحُكّام:

لقد أكّد الإسلام في جميع أحكامه، وسائر تعاليمه على ضرورة اتباع أحكـام الشـريعة في كل الشؤون، فإنْ حَكَمَ حاكم، أو صدر أمر من الأمير يخالف شريعة الله، فلا يجب تنفيذه ولا العمل به؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ويلزم العمل بأحكام الشريعة، إلا في حالة الاضطرار وإكراه النفس، كما يجب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق الشروط اللازمة، وإظهار الحق والصدع به عند الضرورة، لأنه أفضل الجهاد، كما ورد في الحديث الشريف[1].

= لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك... الحديث». كتاب الجهاد والسير، برقم (١٨١٧)؛ ورواه الترمذي في سننه، كتاب السير، (١٥٥٨)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، (٢٧٣٢)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، (٢٨٣٢).

(١) روى الإمام أبو داود في سننه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر». كتاب الملاحم (٤٣٤٤)؛ ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، برقم (٤٠١١).

إلا أن العامة وقعوا فريسة الإفراط والتفريط في الأوضاع الراهنة تجاه معرفة حق الحاكم والمحكوم، فهناك فئة من الناس تكون ألسنتهم رطبة بمدح الحُكّام والإشادة بهم، وذكر مآثرهم ـ وهذا أقرب ما يكون إلى المداهنة من الحُبّ أو المدح ـ وهؤلاء يسكتون على المفاسد الموجودة في النظام، ويصرفون أنظارهم عن الظلم السائد فيه، بينما هناك فئة أخرى تجعل مخالفة الحكام نصب أعينها، ولا تألو أي جُهد في صبّ جام الغضب عليهم بكل الطرق والوسائل المتاحة، ولا يلبثون إلا أن يصفوهم بصفات سيئة، وينبزوهم بالألقاب، ويسخرون منهم في مجالسهم، وأحياناً لا يمتنعون عن سبّهم وشتمهم، ويقترفون معاصي الافتراء والبهتان.

وها نحن نرى الشيخ التهانوي رحمه الله يرفض هذا المنهج رفضاً تاماً، ويستنكر هذا الاتجاه، ويقول رحمه الله: «إن الحجاج بن يوسف كان من أظلم الناس في هذه الأمة، وقد اغتابه رجل في مجلس أحد الصالحين، واتهمه بأشياء، فقال له الرجل الصالح: إن الحجاج وإن كان فاسقاً ظالماً، لكن الله تعالى كما ينتقم منه من أجل حقوق المظلومين الآخرين، كذلك فإنه سبحانه وتعالى سينتقم للحجاج ممن يظلمه ويغتابه أو يتهمه»[١].

وقد صرّح رحمه الله في مواضع عديدة بأن إهانة الحُكّام، والإساءة إليهم على مرأى ومسمع من الناس، دون ضرورة قصوى، أمر مذموم ينبغي تجنّبه،

---

(١) مجالس حكيم الأمة، ص٩٢، (ملفوظات رمضان سنة ١٣٤٨هـ).

يقول رحمه الله: إنَّ الجمهور والرعايا هم الذين سيتضرّرون بإهانة الحُكّام عَلَناً؛ لأن القلوب إذا خلت عن هيبتهم، أدى ذلك إلى نشوء الفتن الكثيرة، وثار الغضب، ولذا فيجب على الجميع احترام سلاطين الإسلام وتوقير الحُكّام المسلمين(١).

وإذا تأملنا في كلام الشيخ رحمه الله، وأمعنا النظر فيه يتبيّن لنا أنه شرح لما روى عياض بن غنم رضي الله عنه عن النبي ﷺ يقول: «من أراد أن ينصح لسلطان بأمرٍ فلا يُبدِ له علانية، ولكن ليأخذ بيده، فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدّى الذي عليه له»(٢).

ويقول رحمه الله في إحدى مواعظه: نرى بعض الناس يسبّون الملوك، ويشتمونهم، ويسيئون إليهم، ويصفونهم بأسوأ الصفات، ويُلقون كل اللّوم عليهم، لما يواجهون من المصائب في بعض الأحيان، وهذه علامة فروغ الصبر، وأمر غير ممدوح.

وقد ورد في الحديث الشريف المنع عن سبّ الملوك(٣).

وقد قصد الشيخ رحمه الله بالحديث ما روي عن عائشة رضي الله عنها:

---

(١) أنفاس عيسى: ١/ ٣٧٥.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٣/ ٤٠٣، (١٤٧٩٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات: ٥/ ٢٢٥؛ ورواه الطبراني في مسند الشاميين: ٢/ ٩٤، (٩٧٧)؛ وذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: ٣/ ٥٩١، (٥٨٥١).

(٣) وعظ الصبر، ص٣٦؛ إصلاح المسلمين، ص٥٢٢.

«لا تشغلوا قلوبكم بسبّ الملوك، ولكن تقرَّبوا إلى الله تعالى بالدعاء لهم، يعطف الله قلوبهم عليكم»[1]، وما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قوله: «إنَّ اللهَ يقولُ: أنَا اللهُ لا إلـهَ إلاَّ أنَا، مالِكُ المُلْكِ ومَلِكُ المُلُوك، قُلوبُ المُلوكِ بيدي، وإنَّ العبادَ إذا أطَاعُوني حوّلتُ قلوبَ مُلوكِهم عَليهم بالرأفَةِ والرَّحمةِ، وإنَّ العبادَ إذا عَصَوني، حَوَّلتُ قلوبَهم عليهم بالسُّخطِ والنّقمةِ، فسَاموهم سوءَ العَذاب، فلا تَشغَلُوا أنفسَكُم بالدُّعاء على المُلوك، ولكن اشْغَلُوا أنفسَكُم بالذِّكر والتَّضرُّع إليَّ، أكْفِكُم مُلُوكَكُم»[2].

وما روي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا الأئمة، وادعوا الله لهم الصّلاح، فإنَّ صلاحهم لكم صلاح»[3].

---

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير وضعّفه برقم (٩٨٠٥)؛ والمتقي الهندي في كنز العُمّال (١٤٥٨٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: ٩/٩، (٨٩٦٢). قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): وفيه إبراهيم بن راشد وهو متروك: ٥/٢٤٩؛ وذكره أبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء): ٢/٣٨٨؛ وابن حبان البستي في كتاب (المجروحين): ٣/٧٦ في ترجمة وهب بن راشد.

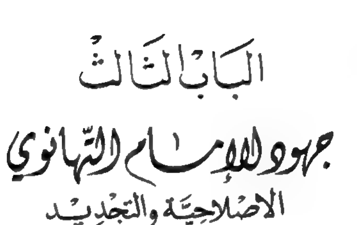
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: ٢/١٦٩، (١٦٠٦)؛ وفي المعجم الكبير: ٨/١٣٤، (٧٦٠٩) قال الهيثمي: لم أعرف شيخ الطبراني، وبقية رجاله ثقات؛ مجمع الزوائد: ٥/٢٤٩؛ كما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه: ١٢/١٥١ (٦٦١٣)؛ والعجلي في كشف الخفاء: ٢/٤١٣، (٢٧٩٠)؛ وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير برقم (٩٧٨٤)؛ كما ذكره المتقي الهندي في كنز العمّال برقم (١٤٥٨٧).

وأكتفي بهذا القدر من ذكر مواقف الشيخ التهانوي رحمه الله الرائعة في باب الحكومة والسياسة، وآرائه السديدة وتوجيهاته الرشيدة في هذا الموضوع[1].

* * *

---

(١) قد استفدت في تحرير هذا الموضوع من كتاب الشيخ العلامة المفتي محمد تقي العثماني (الأفكار السياسية للشيخ حكيم الأمة التهانوي)، ط: مكتبة ملت ديوبند الهند؛ وكذلك كتاب (أشرف السوانح) للشيخ الخواجه عزيز الحسن المجذوب؛ و(أحسن الفتاوى): ٦/ ٨٥ ـ ٩٥، بتحقيق الشيخ محمد تقي العثماني، بالإضافة إلى المصادر والمراجع المُشار إليها في الهوامش، فجزى الله تعالى مؤلفي هذه الكتب ورحمنا معهم.



تمهيد

الفصل الأول: جهوده الإصلاحية في مجال العقائد والإيمان.

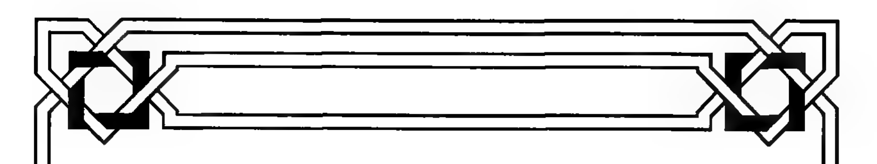
الفصل الثاني: تعلّم الإنسانية أم تعلّم الولاية.

الفصل الثالث: العناية البالغة بحقوق العباد.

الفصل الرابع: إصلاح المعاشرة.

الفصل الخامس: تعليم حسن المعاشرة مقدّم على تعليم النوافل.

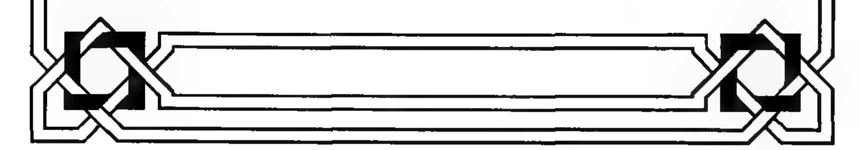
الفصل السادس: إصلاح العادات والتقاليد غير الإسلامية.



الفصل السابع: الجهود الإصلاحية في مجال تعليم المرأة المسلمة.

الفصل الثامن: صيانة المسلمين عن خيانة غير المسلمين.

الفصل التاسع : الردّ على الفرق الضالّة.



تمهيد

إنَّ كل من له إلمام بالتاريخ الإسلامي في الهند، واطلاع واسع على سير وتراجم علمائها العباقرة، والقائمين بأعمال الإصلاح والتجديد، يعرف معرفة اليقين أن الشيخ التهانوي رحمه الله قد قام بدور رائع في الدفاع عن الدين الإسلامي، والذب عن حياض الشريعة الغراء، وتطهير المجتمع الإسلامي الهندي من أدناس التقاليد والطقوس الجاهلية، وشوائب البدع والخرافات التي كانت وليدة العقول البشرية، وكسبت الرواج والشيوع في كل الأوساط، ورسخت في أذهان السُّذَّج من المسلمين، وذلك بسبب البعد عن تعاليم الإسلام النقيّة الصافية في جانب، وشيوع الجهل بينهم في جانب آخر.

ونظراً إلى هذه الجهود الإصلاحية والتجديدية الرائعة في استعادة الروح الإسلامية، وإيقاظ الوعي الإسلامي من جديد، تعتبر حياته رحمه الله صانعة لتاريخ جديد، وبداية عهد جديد، حتى غلب عليه لقب (حكيم الأمة) و(مجدّد المئة) الذي عرف به الشيخ رحمه الله واشتهر اشتهاراً عظيماً، وقد صدقت به بشارة الصادق المصدوق ﷺ فيما رواه الإمام أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يبعثُ لهذِهِ الأمةِ عَلى رَأسِ كُلِّ مئةِ

سَنَةٍ مَن يُجدِّدُ لَها دِينَها»[1]، وكذلك بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «يَحْمِلُ هَذا العِلمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُوْلُه، ينفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المُبْطِلينَ»[2].

* * *

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة، برقم (٤٢٩١)؛ كما رواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٥٦٧، برقم (٨٥٩٢) و(٨٥٩٣)؛ ورواه الطبراني في المعجم الأوسط: ٦/ ٣٢٤، (٦٥٢٧)؛ والديلمي في مسند الفردوس: ١/ ١٤٨، (٥٣٢).

(٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين: ١/ ٣٤٤؛ والبيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ٢٠٩؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/ ١٤٠، باب أخذ الحديث عن الثقات؛ وأبو المحاسن الحنفي في معتصر المختصر: ٢/ ١٠٦؛ وأورده الديلمي في مسند الفردوس: ٥/ ٥٣٧، (٩٠١٢).

الفصل الأول

الجهود الإصلاحية في مجال العقائد والإيمان

يتجلّى لنا عمله التجديدي، ومآثره الإصلاحية الخالدة، في تجلية الفكر الإسلامي، وإنعاش الروح الدينية، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة، واستئصالها من جذورها، وكسر طلاسم المحاولات الضالة المؤسسة على الرياضات والمجاهدات التي كانت تعتمد على وسائل مختلقة وطرق مخترعة، وتستنكف عن اقتفاء سنّة سيدنا وقدوتنا محمد ﷺ، واتباع هديه، ولا ترى لزوماً لذلك، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بأصناف من الطقوس الجاهلية، والتشديد في الإنكار على البدع والخرافات، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال.

ضوابط التجديد والمُجدّد:

وقد تحققت ضوابط التجديد والمُجدّد في شخصيته رحمه الله بكل معانيها، علماً أن هذه الصفات والسمات التي لا بدّ من توافرها في المجدّد قد نصّ عليها علماء كبار أمثال الحافظ ابن حجر والسيوطي والمناوي والمحبيّ وشمس الحق العظيم آبادي وأبي زهرة وغيرهم، وهي كالتالي:

١ ـ أن يكون متبعاً لا مبتدعاً.

٢ ـ أن يكون محيياً للسنة، طامساً للبدعة.

٣ ـ أن يشتهر بين أبناء عصره ومصره بالعلم، ويكون مشاراً إليه بالبنان.

٤ ـ أن يكون مكثراً من العلم ناصراً لأهله، ذائداً عن حمى الدين، متصفاً بالصفات الكاملة، إذ المقصود أن يكون من علمه صادعاً بالحق، وناصراً أهله.

٥ ـ أن يكون هذا الاشتهار على رأس مئة هجرية.

فيكون ثابتاً على دين الإسلام، داعياً إليه، ومحذّراً من كل دخيل عليه، واثقاً مما هو عليه، لا يغتر بما تغترّ به العوام، ولا ينخدع كما تنخدع الهوام، وإنما ينظر إلى الأمور بعين الحكمة الإلٰهية، وعلى مقتضى الشريعة المحمّدية، ويكون الناس بحاجة لعلمه ومؤلفاته، وينتفعوا بها[١].

وكل دارس لشخصية الشيخ التهانوي، وناظر في حياته يجد هذه الصفات فيها متحقّقة، وهذه السّمات متوفرة بأروع أشكالها وأكمل معانيها.

تفضيله الشريعة على الطريقة:

كما أنَّ هناك جانباً آخر مهماً تتركز عليه جهوده الإصلاحية، ألا وهو

---

(١) انظر: فتح الباري: ١٣/ ٢٩٥؛ خلاصة الأثر للمحبّي: ٣/ ٣٤٤؛ فيض القدير: ١/ ١٠؛ ٢/ ٢٨١؛ الرفع والتكميل، ص٤٤؛ عون المعبود: ١١/ ٢٦٣؛ مقالات الكوثري، ص١٥؛ المجددون في الإسلام للصّعيدي، ص١١ ـ ١٢ ـ ١٥؛ المجدّدون في الإسلام للخولي، ص١٢ ـ ٣٣؛ والنور السافر للعيدروسي، ص١١١ ـ ١١٧.

تفضيل الشريعة على الطريقة، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة وخادمة لها، وقد أوقف رحمه الله بذلك تلك الفتنة الخطيرة الناجمة في أوساط (السلوك والطريقة) التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة، وكذلك إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمّة.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله عن جهود الشيخ التهانوي الإصلاحية: «كان من كبار علماء هذا العصر الربانيين، وأعظم مؤلف في هذا العصر بالإطلاق، ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة، والعمل، والرجوع إلى الله وإصلاح النفس، وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان»[1].

جهوده في إصلاح العقائد:

هذا وإن جهوده الجبارة في مجال إصلاح العقائد، وإرشاد الناس إلى الدين القويم والصراط المستقيم، تتجلى لنا في ناحيتين: عملية وعلمية:

أما العملية: فقد كانت حياته رحمه الله مرآة صافية، ومنبعاً شفافاً، ومنهلاً عذباً للتوحيد الخالص، لا يشوبها شيء من الشرك أو البدع أو الخرافات، كما أنّ مجالس وعظه، ولقاءاته ورحلاته غنية بتلك الواقعات والقصص التي هي خير بُرهان على تمسّكه بهذا المبدأ، وعنايته الفائقة بهذا الجانب المهمّ والركيزة الإسلامية الأساسية.

---

(١) من مقدمته لكتاب بين التصوّف والحياة، ص١٢ ـ ١٣.

وأما من الناحية العلمية: فحدّث ولا حرج، فإنَّا لا نجد كتاباً أو رسالة، أو مذكّرة إلا ونراه يتطرق فيها إلى هذا الجانب بكل ما يحويه من المعاني، فيحثّ على الاعتصام بعقائد الإسلام الحق، ويحذّر من الوقوع في البدع، ويقطع دابر كل المعتقدات الباطلة، أو الرسوم والتقاليد الجاهلية التي اختلقتها العقول البشرية، أو أنتجتها الأفكار الزائغة والأوهام التائهة.

فها هو كتابه القيم (تعاليم الدين) يحتوي على حوالي مئتي صفحة بالقطع المتوسّط، ورغم أنه صغير الحجم، لكنّه يتضمن رؤوس كل المسائل الأصولية، المتعلقة بالعقيدة والتوحيد والإيمان، ومقابل ذلك أنواع الشرك والبدع، والتحذير منها مع بيان تفصيلي لشُعَبِ الإيمان، وكل ذلك مع الأدلة والبراهين من الآيات القرآنية والأحايث النبوية الشريفة، وقد تناول فيه رحمه الله بيان العقائد الإسلامية مختصراً في أربعين مادة، وأتبعها بذكر أقسام الشرك، فذكر **الإشراك في العلم والصفات**، **والإشراك في التصرف والعبادة**، **والإشراك في العادة**، ثم انتقل إلى ذكر البدع، فبدأ بذكر **بدع القبور**، ثم **البدع الأخرى والطقوس غير الإسلامية**، كما تناول موضوع بعض الكبائر، وشعب الإيمان، وختم الكتاب بذكر المضار الدنيوية الناتجة عن المعاصي، والمنافع الدنيوية الناتجة عن الطاعات، وهكذا جاء هذا الكتاب رغم صغر حجمه يحمل في طياته بحراً زاخراً بالكنوز والمعارف، كثير النفع جمّ المعاني، وكذلك مؤلفاته الأخرى التي سوف نتحدَّثُ عنها بالتفصيل في الباب السادس (آثار الشيخ الخالدة) إن شاء الله تعالى.

* * *

الفصل الثاني

تعلّم الإنسانية أم تعلّم الولاية؟!

كان التهانوي رحمه الله قد أوقف حياته كلها على القيام بأعمال إصلاحية في كل المجالات، وسائر جوانب حياة الإنسان الفردية والجماعية، وبشتى الطرق والوسائل، مستخدماً في ذلك كل الإمكانات المتاحة، فلم يَدَّخر أي وسع في سبيل تحقيق أهدافه الإصلاحية والدعوية النبيلة.

يقول الأستاذ نجم الحسن التهانوي: «لقد جعله الله سبحانه وتعالى (حكيم الأمة) بكل ما تحويه هذه الكلمة من المعاني، فكان التفكير في إصلاح الأمة، ونفخ الروح الإيمانية الجديدة فيها، جزءاً أساساً من حياته الطبيعية، وشغله الشاغل في معظم لحظات عمره، لم يوجد هناك فراغ في أي جانب من جوانب إصلاح الأمة إلا بذل الشيخ جهوده الحثيثة المتواصلة لسدّه، ولا حاجة من الحوائج الدعوية إلا فكّر في قضائها، وبالجملة فإن تفقد أحوال الأمة، ومحاولة إصلاحها، كان الغاية المتوخاة من حياته.

ومن أهم ما يمتاز به منهجه في الإصلاح وتربية النفس هو اهتمامه البالغ بجانب الأخلاق، والمعاملات، والتركيز على تصحيح أعمال الحياة العملية،

مع الاعتناء الكامل والشديد بجانب العقائد والعبادات.

لم تكن طريقته في الإصلاح والتربية خاضعة للطرق الخاصة المسلوكة المعروفة، ولا كان يقلّد أحداً في منهجه في التعليم، وإنما كان جلّ اهتمامه هو تنفيذ أوامر الله وتطبيق شرع الله، واتباع الرسول الكريم ﷺ، في كل شعبة من شعب الحياة، كان ينفق قسطاً كبيراً من وقته في تجنيب النفس من مكايد الشيطان، وإبعادها عن وساوسه.

ولم تكن المنامات، والمكاشفات، والكرامات، في نظره ذات قيمة ومكانة، إزاء العقائد والعبادات، وتصحيح الأعمال.

وكان يقول: «لأن أجعل مجلسي هذا مجلس الإنسان الكامل الذي يتمتَّع بكل معاني الإنسانية من الأخلاق والآداب والعقائد والأوصاف الفاضلة ـ أحبَّ إليَّ من أن أجعله مجلس الأولياء بمفهومهم المعروف المشهور بين العامّة».

كما كان يقول: «أنا دائماً أردّد هذه المقولة وأكرّرها للجميع، من أراد أن يتعلّم الولاية أو يحوز مراتب الأولياء فليغادر مجلسي هذا وليرحل حيث يشاء، ومن أراد أن يتعلّم الإنسانية ويتحلّى بأوصاف الإنسان الكامل الذي يرضاه الإسلام، فليأت عندي».

وكان رحمه الله يقول: «**إن تعلّم أوصاف الإنسانية واجب أساسي، وتعلّم الولاية ليس بواجب**، لأن المرء إذا لم تتحلَّ حياته بصفات الإنسانية

الكاملة، فإنه قد يتسبّب في إيذاء الآخرين، أما الذي لم يتعلّم الولاية، ولم تحصل له درجة الأولياء فإنه لا يضرّ غيره شيئاً»[1].

* * *

(١) حكيم الأمة ومجدّد الملة أشرف علي التهانوي، ص١٤، للشيخ نجم الحسن التهانوي.

الفصل الثالث

العناية البالغة بحقوق العباد

كان من أهم ركائز نشاطه الإصلاحي والتربوي أنه كـان يحثُّ أَتباعـه ومسترشـديه على أداء الحقوق، سواء كان من حقوق الله تعالى أو حقـوق العباد، وكانت عنايته بحقوق العباد آكد وأكثر، لِما شاهد من حال كثير من الناس أنهم يواظبون على العبادات. ويُكثرون من ذكر الله، ولكنهم يقصّرون في حقوق العباد، ويخالفون الشرع في كثير من المعاملات، كما أن اهتمامه بتعليم آداب المعاشرة، أكثر وأشدّ من اهتمامه بتعليم الأوراد والأذكار وسائر التطوّعات.

وكان يقول: «إني أصرف جلّ عنايتي بأن لا يتأذَّى أحد مني، أو من أصحابي، سواء كان ذلك الإيذاء بَدنياً كالضرب والنزاع، أو مالياً كغصب الحقـوق وأكل الأموال بالباطل، أو ما يتعلق بعرض الإنسان كإهانة رجـل واغتيابه، أو نفسياً مثل أن يترك أحد غيره في اضطراب وتشويش، أو يعامله بما يكرهه، وإن صدر شيء من ذلك خطأً، فالواجب أن يبادر إلى طلب العفو.

وإني أهتم بهذه الأشياء أكثر من اهتمامي بغيرها، حتى لو رأيت أحداً يخالف الشريعة في وضعه الظاهر، فإن ذلك يحدث في نفسي نوعاً من الألم،

وأما إذا رأيت أحداً لا يبالي بأداء هذه الحقوق، فإنه يحزنني حزناً شديداً، وأدعو الله تعالى له أن ينجيه من هذه الموبقات»[١].

* * *

(١) أشرف السوانح: ١/ ١٧٩.

الفصل الرابع

إصلاح المعاشرة

إنَّ المعاشرة أو الحياة الاجتماعية شعبة مهمة من شعب الإسلام، التي قلما يهتم بها الإنسان، ويراعي حقوقها وآدابها، ونشاهد أن عامّة الناس، بل خواصّهم كذلك يُغفلون هذا الجانب المهمّ إلا من رحم الله، وذلك لأن الحياة الاجتماعية هي قوام البشرية، والعنصر الأساس والمهمّ الذي إذا صلح يَسُود الأمة كلَّها الخيرُ والبركة، ويستتبّ الأمن والاستقرار، وبالتالي فإن إنجاز هذه المهمّة، والتشمير عن ساعد الجد لتحقيق هذا الغرض، هو النقطة المركزية والمحور الأساس الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية والأعمال الإصلاحية العظيمة، التي نهض بها ورفع رايتها الشيخ التهانوي رحمه الله بكل حمية دينية، وشجاعة إيمانية قوية، دون أن يبالي في هذا الطريق بلومة لائم أو طعن طاعن.

وكان نقطة انطلاقه في هذا السبيل هو كلام الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، حيث أرشد فيه الإنسانية إلى دستور قيّم للحياة. وقانون متكامل يهدي الناس إلى إيجاد مجتمع مثالي أفضل، إذا طبّقوه في حياتهم، يقول المصطفى ﷺ: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ

المسلمونَ من لسَانِهِ ويَدِهِ»[1].

وها هو كتابه القيم (آداب المعاشرة) خيرُ دليلٍ على ما كان يحمله الشيخ رحمه الله من فكر دائم وهمٍّ عميق، نحو إصلاح المعاشرة، وتحلية المجتمع بالخلق الحسن، وتخليته من مساوئ الأخلاق، والسلوك المنافي لروح الشريعة الإسلامية.

كان جلّ عنايته رحمه الله تعليم الإحسان إلى خلق الله وعدم مسّهم بالإهانة والإيذاء.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان رقم (١٠و ١١)؛ وكتاب الرقاق، (٦٤٨٤)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم (٤٠، ٤١، ٤٢)؛ والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٠٥٤)؛ وكتاب الإيمان، (٢٦٢٨)؛ والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، (٤٩٩٩)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، (٢٤٨١).

الفصل الخامس

تعليم حُسن المعاشرة مقدَّم على تعليم النوافل

إنَّ رأسَ الخُلق الحسن وأساسه أن يهتمَّ الرجل بأن لا يتأذى به أحد، وهو الذي علّمه النبي ﷺ بقوله الجامع: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ»[1] وكلّ ما كان سبباً لإيذاء أحد، فهو داخل في سوء الخلق، سواء كانت صورته صورة خدمة أو أدب وتعظيم مما يزعمه الناس حُسْنَ خلق، لأن حقيقة الخُلق الحسن هي إراحة الغير، وهي مقدمة على الخدمة، فالخدمة بغير الإراحة قشر بلا لُب، وإن آداب المعاشرة ولو كانت متأخرة عن العقائد والعبادات من حيث كونُها شعائر للدين، ولكنها مقدمة على العقائد والعبادات من حيثية أخرى، وهي أن في الإخلال بالعقائد والعبادات ضرراً يقع على الإنسان نفسه، وفي الإخلال بآداب المعاشرة ضرراً لغيره، وإضرارُ الرجل بغيره أشدّ من إضراره بنفسه، ومن ثَمَّ قدّم الله تعالى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، الذي فيه تعليم آداب المعاشرة، على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، الذي فيه تعليم العبادات وغيرها.

---

(١) تقدَّم تخريجه في الفصل السابق.

فالمعاشرة الحسنة مقدمة على الفرائض من بعض الوجوه، وأما تقدّمها على النوافل فثابت من جميع الوجوه، وكما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبيِّ ﷺ: إن فلانة تصوم النهارَ، وتقومُ الليل، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال: «لا خيرَ فيها، هي في النَّار»، قيل: فلانةٌ تصلّي المكتوبة وتصوم رمضان، وتتصدّق بأَثوارٍ من إقْطٍ ولا تؤذي أحداً بلسانها، قال: «هي في الجنَّة»[1].

فبيّن النبيُّ ﷺ أن التي كانت تقوم بواجباتها تجاه ربّها، وتصون لسانها من إيذاء الآخرين في الجنة، وأما التي كانت تؤذي جيرانها فهي من أهل النار، حتى لو كانت تصلّي وتقوم الليل، وبهذا اتضح لنا قيمة المعاشرة وأهمية الاعتناء بها.

* * *

---

(١) رواه أحمد في مسنده رقم (٩٦٧٣)؛ والبخاري في الأدب المفرد: ١/ ٥٤، (١١٩)؛ والحاكم في المستدرك واللفظ له: ٤/ ١٨٤، (٧٣٠٥ ـ ٧٣٠٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كما رواه ابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٧٧، (٥٧٦٤).

الفصل السادس

إصلاح العادات والتقاليد غير الإسلامية

كان التهانوي رحمه الله يبذل جهداً كبيراً في إصلاح الرسوم والقضاء على الطقوس والتقاليد غير الإسلامية السائدة في المجتمع الإنساني نتيجة إغفال الناس تعاليم الكتاب والسنة، واحتكاكهم المباشر بالمجتمع الهندوسي الذي يتكون من أساسه بأفكار زائغة، وأوهام خيالية، ومعتقدات واهية لا أساس لها في الدين والشريعة، فكان التشبّه بالهندوس شائعاً في كل الأوساط، وجميع مجالات الحياة، ولم يكن الأمر مقتصراً على الطقوس العادية، وإنما بلغ الأمر إلى مشاركتهم حتى في أعياد الهندوس وحفلاتهم التي يغلب عليها الطابع الديني، بل قد تتضمن نوعاً من أنواع الإشراك بالله، ومعظم تلك العادات والتقاليد كانت مرتبطة بمناسبات الأفراح والأحزان، وكان منها ما ابتدعه القبوريون، وكانوا يرون أنَّ فيها أجراً وثواباً، فقيّض الله سبحانه وتعالى الشيخ رحمه الله لدحض هذه التقاليد الخرافية، وذلك باستخدام شتى الوسائل ومختلف الأساليب مثل إلقاء الخطب، وعقد مجالس الوعظ، وإعداد النشرات والكتب، وكان يرشد الناس إلى اتباع السنة، وتجنب البدع، فانتفعت به الأمة كثيراً، وتخلَّصت من أدناس الشرك وأرجاس الخرافات والعادات الجاهلية.

وها هو كتابه المسمّى (إصلاح الرسوم) (إصلاح التقاليد والعادات) يسلّط الأضواء على جهوده المباركة في هذا المجال، ورغم صغر حجم الكتاب فإنه جمع واستوعب كل هذه الأمور، أو معظمها، أو أرشد الناس إلى ما هو المحبوب المرضيّ عند الله تعالى ورسوله ﷺ، وكذلك كتابه (أغلاط العوام) و(حفظ الإيمان) و(إصلاح انقلاب الأمة) من الكتب المهمّة، ذات الفوائد القيّمة النّادرة.

وقد كانت نقطة انطلاق الشيخ رحمه الله في هذا السبيل هو قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

* * *

الفصل السابع

الجهود الإصلاحية في مجال تعليم المرأة المسلمة[1]

أما دور التهانوي في تعليم المرأة، وجهوده الإصلاحية في هذا المجال فهي تعرف خاصة من كتابه (حلية أهل الجنة) الذي قدم فيه الشيخ صورة ملخَّصة جامعة لمفاهيم القرآن الكريم، والسنة المطهّرة، وتناول فيه معظم القضايا الخاصة بحياة المرأة اليومية، فهذا الكتاب موسوعة تتضمن مسائل المرأة المسلمة وأحكامها في الإسلام، ذاع صيتها في الوقت الذي لم يتوفّر في أي كتاب آخر باللغة الأردية، يحقق متطلبات النساء، فقد بحث فيه المؤلف: الإيمان، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وأساليب الحياة إلى جانب التوجيهات القيّمة الخاصة بشؤون المنزل، والأمور العائلية.

هذا الكتاب يجسّد فعلاً اهتمامه البالغ بتعليم النساء اللاتي ظلّ أغلبيتهن فريسة للانفلات، وعدم العناية من قبل المجتمع المسلم الهندي في مجال التعليم، بالرغم من وجود الدلائل القوية، والنصوص الواضحة التي تحثّ

---

(١) من مقال الأستاذ الدكتور نسيم اختر الندوي (مجلة البعث الإسلامي الصادرة في لكنو عدد محرم ١٤٢٤هـ) بتعديل واختصار.

المسلم والمسلمة على الاهتمام بالعلم سواء بسواء، فقد ظلّت المرأة المسلمة في الهند متخلّفة عن مسيرة التعليم، فقام الشيخ التهانوي وألقى النظر على المجتمع الهندي، ووجد الناس منقسمين إلى ثلاث فئات في موضوع تعليم المرأة:

فالنوع الأول: قد اختار موقفاً حيادياً، لا يؤيد ولا يعارض فكرة تحلية المرأة بالتعليم.

والنوع الثاني: يعارض تعليم المرأة معارضةً شديدةً.

والنوع الثالث: يستعدّ ويؤيّد ما ينفع المرأة من التعليم والتربية.

كان الشيخ التهانوي يؤمن أن الأفراد من **الفئة الأولى** منحرفون عن طريق الصواب، وهم قد فشلوا في تعليم المرأة، وتقدير دورها الملموس، ونشأ هذا الخطأ عن الفكرة المادية الجامحة، فهم يرون أن المرأة لا تهمّها الوظائف، وضرورة الأعمال خارج سور البيت، فلا داعي لها لأن تتسلَّحَ بالتعليم، وتتكلفَ ما لا يفيدها، ولا يفيد أسرتها.

ويعتقد الشيخ التهانوي أن هذا الموقف أبرزُ مثال على الفجوات الفكرية بين المسلمين الهنود وخاصة هذه الفئة، ولا يدري هؤلاء الناس أن الإسلام دين لا يشيد بفكرة ربط التعليم بالعمالة، ولا يعتبر التعليم وسيلة للترف المادي، بل إنه يشدّد على تلقّي العلم الديني، مؤكداً بأنه تتجلى فيه إمكانية أوسع لتقوية إيمان الفرد بخالقه عزَّ وجلَّ، وهذا هو التعليم الذي ينشِّط الناسَ في جميع أشغالهم اليومية، ويرتفع به مستوى سلوك الفرد وأخلاقه في المجتمع.

ويرى الشيخ التهانوي أن الفئة الثانية التي تعارض تعليم المرأة تعتمد في فكرتها على الأسباب التالية:

١ ـ هذه الفئة تؤمن بأن تعليم المرأة مُضِلّ، لأن المرأة المتعلمة تتورَّط سافرة في النطق والكتابة، حول الموضوعات غير الملائمة خلقياً، مما يؤدي بها إلى الوقوع في الفجور، الذي يقضي على ما تحمله من الحياء والوقار، ولا يتوقف الأمر ها هنا، بل يتأثر مزاجها النسائي، وتصبح منفتحة في طبيعتها، فيبدأ الجنس الخشن يستغلّها، وهي تتعرض لما لا يليق بمكانتها، وقد تقع فريسة الفُحش بسهولة لا يمكن تصورها.

٢ ـ إن فئة النساء إذا اختلطت بفئة الرجال بهذه الطريقة، توفَّرت جميع الإمكانات لنشوء الانحرافات الخُلقية، ويلاحظ أن المرأة المنفتحة بطبيعتها تتأخر عن إجابة الرجل البليغة، وفي بعض الأحيان تسكت وتحول طبيعتها النسائية وفطرتها الأنثوية دون إظهار رضاها وموافقتها، ويظن الرجل سكوتها رضاً منها، وهذه هي الأشياء التي أباحت لمؤيدي هذه الفكرة أن يذهبوا إلى الزعم بأن التعليم هو الذي سبّب هذه المشاكل كلها، وأن المرأة لو لم تكن متعلمة لما ظهرت هذه المشاكل، كما يؤكد هؤلاء أن من معايب المرأة المتعلمة أنها تقرأ كل شيء مكتوب على الصفحات، سواء أكان من الروايات الرومانسية، أو الكتب الماجنة، أو قصص الهوى، مما يثير فيها الرغبات الجنسية والغرائز البشرية، الأمر الذي قد يؤدي إلى افتتانها وإيجاد فضائح خلقية.

يقول الشيخ التهانوي: «إنه من الصعب جحود هذه الإمكانات، ولكننا إذا تدبرنا في هذا الأمر، وجدنا أن هذه المفاسد ليست ناتجة عن التعليم، وإنما المسؤول الوحيد فيها هو منهج التعليم، الذي يتسبب بخلق هذه المفاسد وإنشاء هذه الفتن، والحقيقة أن المرأة لم يتم تثقيفها بوسيلة الكتب النافعة والمفيدة لدينها ودنياها، ولم تنل حظها من الكتب التي تتناول مسائل الحلال والحرام، ومباحث الجزاء والعقاب، والآداب والأخلاق، وكذلك الترغيب والترهيب.

ولا يمكن اعتبارُ شخصٍ يعرف قراءة حروف الهجاء متعلّماً، ولا يعدّ هذا القدر من المعرفة تعليماً، وكذلك لا يمكن القولُ بأنَّ أحداً يصيرُ متعلماً بقراءة بعض الروايات أو القصص والمجلات، وأحياناً نجد أن منهج التعليم، والمقررات الدراسية جيدة ومفيدة، ولكن لا يتم تطبيقها عملياً، وهكذا تظل غايةُ التعليمِ بعيدةً عن التحقيق.

وأما ما يتعلق باتصال امرأة برجل ما نطقاً أو كتابةً، فيمكن التغلّب على هذه الظاهرة والقضاء عليها بالمراقبة الشديدة على عملية الاتصال».

والفئة الثالثة التي تؤيد تعليم المرأة في نطاق ضيق محدود، هي أيضاً مخطئة في بعض أفكارها، فهي تظنُّ أنَّ مجرد الإلمام بحروف الهجاء علم، تصوّرها للتعليم محدود جداً، وقلّما يتضمَّن بناء شخصية كاملة للمرأة، وفيه نقص للمعالجة العملية للتعليم، فهي تجنح لتدريس المرأة جميع مواد التعليم العصري مهما كانت طبيعتها وتأثيرها، وهي بسبب اتباع المعاصرة غير المعقولة

تسرف في موقفها، وتطلب من المرأة المسلمة بأن تقتفي آثار الغرب، والحق أنهم لم يفهموا الفرق بين الغايتين الأساسيتين لتصوّر التعليم عندنا وتصوّر التعليم عند الغرب، فالتعليم قد يكون عندهم وسيلة للحصول على الوظائف لإشباع رغباتهم المادية، ولكنَّ التعليم عندنا هو مصدر للهداية، يتشكل به بناء مجتمع سليم، وفوق ذلك، فإن التعليم يسترشد به الناس، ويتوصلون به إلى الحقيقة المطلقة، وهذه الضرورات لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق التعليم الديني.

ولكن المرأة التي يقع على عاتقها مسؤولية توفير نفقات أطفالها؛ تستطيعُ أن تدرس جميع الموضوعات التي تكون لها في ظروفها القاسية وسيلة جيدة للدخل، وبإمكان هذه المرأة وأمثالها الحصول على أي تعليم مهني، أو حرفة يدوية لسدّ حاجاتها المعيشية، ولكن يجب عليها أن لا تنسى قيمها الدينية، ولا تغفل عن تعاليمها الشرعية ومميزاتها الإسلامية في الملبس والمظهر، مهما كانت حرفتها أو مهنتها.

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله: «يرسل بعض الناس بناتهم إلى المعلّمات المنفتحات، المؤمنات بالتقدّمية للحصول على التعليم منهن، ولا شك أن الدراسة أو تحصيل العلم على أمثال هؤلاء المعلّمات لا يؤثر على المتعلّمات سلبياً فقط، بل هي تغير نظراتهن إلى الدين، والثقافة الإسلامية، ولا يمكن لأحد أن ينكر ما للمصاحبة من تأثير عميق، ويلوح أن الطالبات من هذه النوعية يفتخرن باتباع خطوات معلّماتهن اللاتي قلّما يؤمنّ بالنبل والكرامة، وهن يسحرن الطالبات، وبالتالي فلا تلبث الطالبات أن تجعلنهن قدوة لهن،

وتتورّطْن في عمل لا أخلاقي، دون أي تردد أو تخوف من أهلهن أو أسرتهن ومجتمعهن.

إنَّ المرأةَ المسلمةَ تُعرَف بالحياء والوقار، ولكنها في زماننا هذا وقعت فريسة الانحطاط الخلقي، والانهيار الديني، وذلك لما تتعرض له من الهجمات الشرسة تجاه دينها وعقيدتها، عند التحاقها بإحدى المدارس أو مراكز التعليم المسيحية، بدعوى تحصيل التعليم العالي، والاستزادة العلمية وتطوير الثقافة، بغضّ النظر عن كل ما تواجهه من المشاكل والمصائب في الحفاظ على شعائر الإسلام، وأصول الدين».

المنهج الأسلم لتعلّم البنات:

إذاً المنهج الأسلم لتعليم البنات كما يعتقد الشيخ التهانوي هو منهج يتوفر فيه تعليمهنّ في فصول خاصةٍ بهنّ دون أي اختلاط مع الذكور، وفي مجموعات صغيرة، كي تقلّ إمكانات وقوعهن في الصحبة السيئة، أو تعرّضهن لرفقة السوء، وإذا سنحت لهن فرصة الدراسة في بيوتهن على المعلّمات الصالحات فهذا أحسن وأفضل، كما أنَّ اقتناء الكتب الدينية المفيدة النافعة، واختيار المقرر الدراسي المناسب من أهم ركائز تعليم النساء.

يقول رحمه الله: «إنَّ هناك العديد من الكتب النافعة للنساء الراغبات في الحصول على التعليم الصحيح البنّاء، ويمكن أن ندرسهنّ اللغة العربية إذا وجدناهن حريصات عليها، كي يفهمن القرآن الكريم والحديث الشريف»، وكان رحمه الله واثقاً بأن إصلاح المجتمع يجب أن يكون عن طريق تعليم

المرأة، وكان غيرَ مقتنع بالمناهج الدراسية السائدة آنذاك، ومتأكداً بأن التعليم العصري للنساء لا يمكن أن تتم به إزالة المفاسد المتفشية في الأسرة المسلمة»[1]

وقد أيّد الشيخ التهانوي منهجاً يغرس في نفوس البنات التقوى، ويصلح إيمانهن وسلوكهن، ويقوّي صلتهن بالله العلي العظيم، مع الرغبة في الجنة والخوف من جهنم، وكان على يقين من أنه إذا نالت هذه المقاصد أولوية سيتغيّر المجتمع حتماً[2].

لقد أراد الشيخ التهانوي رحمه الله أن يرى المرأة المسلمة متعلّمة دينياً، فإن المنهج التعليمي الذي أوصى به الشيخ لا يهدف إلى تدريسهن بعض الكتب، بل يحث على التعليم الذي يقوم بتربية الأطفال خلقياً، وهذه هي السمات البارزة لمنهجه التعليمي:

«يلزم أن يكون مستهل تدريس الأطفال ـ الذكور والإناث ـ تلقين كلمة: لا إلـه إلا الله محمد رسول الله، مع تحفيظها عن ظهر القلب ولو بجزء منها إذا لم يمكن حفظها كاملاً، وكلّنا يحسب أنَّ هذا شيء بسيط، ولكن الواقع خلاف ذلك، فإنه بعيد الأثر وعميق التأثير، ويجب توجيه الأطفال أن يتعلّموا الدعاء، ويدعوا الله سبحانه وتعالى، كما يجب غرس بذور العقيدة الصافية في أذهانهم من السنّ المبكّرة، وترسيخ هذه الحقيقة في قلوبهم، وهي أنَّ الله جلَّ وعلا هو

---

(١) إصلاح النساء، ص٤٩ ـ ٦١.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٠.

الخالق والرازق ذو القوة المتين، وهو العليم الخبير الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير، وإذا صدر عن الطفل خطأ فيجب التذكير بأنَّ العمل الفلاني يُغضِبُ الله تعالى، كما يجب التنويه والإشادة بعملٍ صالحٍ يقوم به، ويُذكر له أنَّ الله تعالى يحبّه ويرزقه من الآلاء والنِّعَم»[1].

وأوصى الشيخ رحمه الله الأم أن تقوم بتعويد الطفل على حفظ قصار السّور منذ باكورة عمره[2]، كما يجب تأكيدها على أداء الصلاة إذا بلغ السابعة من عمره، ومعاقبته على التقصير إذا بلغ العاشرة، ويجب تدريسه القرآن الكريم بكل الاهتمام وبالاعتناء البالغ.

ومن المعروف لدى الجميع أنَّ الطفل له ذهن حساس، وهو يُجذَب إلى كل ما يحصل حوله، ونظراً إلى هذا الأمر الطبيعي تتوجب تربيته على خطة إسلامية، وسلوك نبيل من بداية عمره، وفي هذه المرحلة التي تتسم بالحساسية القصوى تستطيع الأم أن تمثل دوراً مرموقاً في تربيته، إذا وُفّقت في تربية أول طفل بنجاح، فلنتوقع أن هذا الطفل سيكون معلماً للآخرين فيما بعد، لأن الصغار يقلّدون الكبار[3].

كما نصح الشيخ التهانوي رحمه الله النساء عموماً باجتناب مطالعة الروايات، والقصص، وكذلك المجلاّت التي أصبحت ظاهرة لا يمكن

---

(١) إصلاح النساء، ص١٨٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص٢٨٢.

التغلّب عليها، والتي تقدّم في الأسواق كأداة للتسلية والتفكّه، وكذلك الكتب التي تحتوي على قصص خيالية، أو التي لها طابع غير أخلاقي، وحثّ على مطالعة الكتب الدينية والعلوم الشرعية، ومواصلة قراءتها.

هذه بعض أفكار الإمام التهانوي رحمه الله حول تعليم المرأة المسلمة، وتربيتها بمنهج يتفق ومزاج المرأة وطبيعة الدين، وبذلك تكون المرأة جزءاً أساساً لبناء مجتمع إسلامي سليم.

* * *

الفصل الثامن

صيانة المسلمين عن خيانة غير المسلمين

لقد فَطَر الله عزَّ وجلَّ الشيخ التهانوي رحمه الله على الشفقة على الخلق، والفكر الدائم في إصلاح الأمة، وصرف أقصى المجهودات، وكل أنـواع التضحيات في سبيل إرجاع المسلمين إلى دينهم من جديد، فكان رحمه الله إذا رأى منكراً يسود المجتمع المسلم، أو فتنة تصيب المسلمين، وتمسّ دينهم وعقيدتهم، لا يهدأ له بال، ولا يقرّ له قرار حتى يستعدّ لمعالجتها، وينهض للبحث عن حلها، ويرشد فيها الناس إلى ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، يقول الشيخ المفتي محمد شفيع ـ كبير علماء باكستان ـ رحمه الله:

«كلّما نزلت نازلة، أو وقعت واقعة على المسلمين، في أي زمان أو مكان، كان رحمه الله يغتمّ ويصيبه الهمّ والحزن، مثل الأب الحنون المشفق الذي يتألم ويقلق لما يصيب ابنه الحقيقي»[(١)].

وبهذا يمكننا أن نقدّر مدى شعوره البالغ، وإحساسه الدائم بمشاكل

---

(١) الشيخ التهانوي رحمه الله سيرته وخدماته وخصائصه، للشيخ نجم الحسن التهانوي، ص٢١.

الأمة، وعنايته الفائقة بشؤونها، فكيف يهنأ له طعام أو يحلو له شراب، أو ترى عينه النوم؟ ولعلَّ هذه الأوضاع الحرجة، والظروف القاسية التي كان يعاني منها المسلمون بين فينة وأخرى قد دفعت الشيخ التهانوي إلى النهوض والتشمير عن ساعد الجدّ، فخطر بباله أن يضع لهم دستوراً، ويقرّر لهم بعض الأصول الثابتة، المستقاة من منابع الدين الأصيلة، ومصادر الشريعة الغراء الحقيقية، المتمثلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والتي إذا عمل بها المسلمون، وساروا عليها، ونفّذوها في حياتهم الفردية والجماعية تتنزل عليهم رحمة الباري تعالى، وتغشاهم السكينة، وهذه الأصول بمثابة حل ناجع، ودواء نافع لكل المصائب والمشاكل التي تواجه المسلمين، وقد رتبها الشيخ رحمه الله على شكل موادّ وسمّاها (حياة المسلمين) وكان يفضّل كتابه هذا (مجموع هذه الأصول) على جميع مؤلفاته، وكان يقول: «هذه عُصارة جهودي الإصلاحية والدعوية، ورأس مالي في حياتي، وأرجو الله عزَّ وجلَّ أن ينفعني به في الحياة الدنيا والآخرة، ويتقبله مني ويجعله في ميزان حسناتي»[1].

وكان شعاره ومبدأ انطلاقه في تأصيل هذه الأصول هو قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

ثم قام رحمه الله بوضع نظام عملي، ومنهج منظّم قويم لتطبيق هذه الأصول وتنفيذها على كل المستويات، وتوسيع نطاق انتشارها بين المسلمين، وهذا النظام العملي يحتوي على واحد وثلاثين مادة، وقد تمّ إجراؤها في عام

---

(١) الشيخ أشرف علي التهانوي، سيرته وخدماته وخصائصه، ص٢٢.

١٣٥١هـ باسم (صيانة المسلمين عن خيانة غير المسلمين) وهكذا تمكّن الشيخ رحمه الله من خلال جهوده هذه من جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم، والأخذ بهم إلى رصيف واحد من الحبّ والولاء، وتكوين مجتمع مثالي أفضل، يعيش فيه الإنسان وهو يتمتع بكافة حقوقه وسائر مزاياه، ملتزماً بأحكام الله تعالى، خاضعاً مستسلماً لشريعته، متبعاً لسنة رسوله ﷺ، ومحافظاً على مبادئه الدينية، وقيمه الإسلامية.

وفيما يأتي نذكر نبذة يسيرة عن هذا النظام العملي مع ذكر بعض المواد التي يشتمل عليها هذا النظام:

«أما بعد الحمد والصلاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله منَ المؤمنِ الضعيفِ وفي كلٍّ خيرٌ»[1]، دلّ الحديث الشريف على وجوب الإعداد، واتخاذ كافة الوسائل الممكنة، والأسباب اللازمة للدفاع، والمحافظة، وأما الشيء الذي يدافَعُ عنه، أو يحافَظُ عليه فهو أمران:

١ - الدين وهو الأصل.

٢ - الدنيا وتتضمن المال والعرض والنفس.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب القدر برقم (٢٦٦٤)؛ وابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٢٨، (٥٧٢١)؛ والنسائي في السنن الكبرى: ٦/ ١٦٩، (١٠٤٥٧)؛ والبيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ٨٩؛ وابن ماجه في سننه، كتاب القدر (٧٩)، وباب التوكل واليقين، برقم (٤١٦٨).

وقد ورد النص على المحافظة عليه، والدفاع عنه، كما جاء في قول الرسول الكريم ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فهو شهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دونَ دمِهِ فهو شهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دونَ دينِهِ فهوَ شهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دونَ أهلِهِ فهو شَهيدٌ»[1].

ويشهد الواقع في ضوء التجارب أن الدفاع عن الدين، والمحافظة عليه لكلٍّ من الفرد والمجتمع لا يتحقق إذا تشتت شمل المسلمين، وتفرّق جمعهم، وعلى هذا مسَّتْ الحاجة إلى جمع شمل المسلمين، وتوحيد كلمتهم، والأخذ بأيديهم إلى نقطة مركزية موحدة وعلى مستوى واحد، ولتحقيق هذا الغرض النبيل والغاية العظيمة تم تأسيس هذا المجلس».

أهم ركائز المجلس وأصوله:

١ ـ العمل بكافة الأحكام الشرعية، إلاَّ ما تعذَّر العمل عليه، فيعذر صاحبه.

٢ ـ دعوة الآخرين إلى تطبيق سائر القوانين الشرعية، والأحكام الربانية والمواظبة عليها.

---

(١) رواه النسائي بهذه الألفاظ، كتاب تحريم الدم، باب من قاتل دون دينه، رقم (٤٠٩٥)؛ وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب من قتال اللصوص، (٤٧٧٢)؛ وأحمد في مسنده: ١/ ١٩٠، (١٦٥٢)؛ كما أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الديات برقم (١٤٢١)؛ وأخرجه مختصراً الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، برقم (٢٤٨٠)؛ ومسلم في صحيحه بنحوه، كتاب الإيمان، (١٤١).

٣ ـ صرف كل الطاقات، وبذل كل الجهود للعمل بالأمور التالية :

تعلّم الدين وتعليمه، تعلّم القرآن وتعليمه، حبّ الله تعالى وحبّ رسوله ﷺ أقصى ما يمكن، الإيمان بالقدر، التوكل على الله، الدعاء من الله تعالى والاستغاثة به في كل شأن من شؤون الحياة، اختيار الجليس الصالح، الدعاء للسلف الصالح بالمغفرة والرحمة، دراسة سيرة النبي الكريم ﷺ، شدة المراعاة لحقوق العباد، أداء حق النفس، الاعتناء الكامل بأركان الإسلام الخمسة، تعلّم الفروسية وما يقوم مقامها حسب متطلَّبات العصر للدفاع عن النفس وعن حياض الشريعة الغراء.

٤ ـ البدء في العمل بالنظام في كل مكان، سواء كان العدد قليلاً أو كثيراً.

٥ ـ لن يقبل أي عمل مخالف للشرع، أو أي رأي يناقض الدين الإسلامي الحنيف، وإذا تردَّد الأمر في شيء يراجَع العلماء وأصحاب الإفتاء للتحقيق فيه.

٦ ـ يتم تعيين بعض العلماء كدعاة ومرشدين، يدعون الناس إلى الله، ويبلِّغونهم سنّة المصطفى ﷺ، ويطلعونهم على هذا النظام. ويكون من واجبهم توجيه الدعوة إلى غير المسلمين، وترغيبهم بالدخول في دائرة الإسلام.

٧ ـ يتم نشر بعض الرسائل الدعوية والإصلاحية، من قسم النشر والإعلام للمجلس وذلك حسب المقتضيات والمتطلبات.

٨ ـ هذا المجلس منهجه ديني إسلامي محض، لا دخل فيه لأمور السياسة، كما أنَّ المجلس مسؤول عن استرداد الحق إلى ذوي الحقوق، سواء من الحكومة أم من الأفراد، وهذا لا يسمَّى سياسة، وإنما من باب إعطاء كل ذي حق حقه، وهذا من صميم الدين وعين الشريعة.

وختم رحمه الله قائلاً: هذه المواد ـ الأصول ـ كلُّها متطابقة مع روح الشريعة الإسلامية، فلا داعي للإطالة في بيان دلائلها، إلا أنَّ تأسيس هذا المجلس أمر اجتهادي، فلا يُلزَم أحد بالدخول فيه، وإنَّ الذي يرى العمل بمفرده، وبمنهجه الخاص فله ذلك، وأختم كلماتي بهذا الدعاء: «اللهمَّ اجعل هذه الجماعة صيانةً وحمايةً للمسلمين عن كلِّ خيانة ونكايةٍ من غير المسلمين».

كتبه: أشرف علي

٢٤ ربيع الأول الأغر المبجّل ١٣٤٩هـ

* * *

الفصل التاسع

الردّ على الفرق الضالّة

أولاً ـ الطبائعيون (النياچرة)[1]:

هم ينتسبون إلى الطبيعة، ويقدّمون ما يوافق الطبيعة على الأحكام الإسلامية، أو بتعبير آخر كانوا يعرضون أحكام الإسلام على طباعهم وعقولهم، فما وافقها قبلوه وإلا رفضوه، وهم أقرب إلى المعتزلة[2]، كما أنهم كانوا ينكرون المعجزات، ويحرّفون الآيات القرآنية، ويعبّرون عن الإسلام حسب ما تهوى أنفسهم وأذهانهم المنحرفة وأفكارهم الضالة، يقول الشيخ التهانوي رحمه الله في مستهلّ حديثه عن نشأة هذه الفرقة الضالّة:

(كما جرت سنة الله تعالى في هذا الكون أن يبعث في بداية كل قرن مَن يقوم بتجديد دينه، وإحياء شريعته، ويقضي على البدع والمستحدثات في الدين، ويسعى في استئصال جذورها، وقمع المنكرات، ودحض الأباطيل، مثل الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رحمه الله على رأس المئة الأولى، والإمام الشافعي على رأس المئة الثانية... وقس على هذا، كذلك

---

(١) النياچرة: جمع نيچري، منسوب إلى نيچر (nature) أي: الطبيعة.
(٢) العناقيد الغالية، ص٢٨٧.

يوجد في كل قرن من يتسبّب في تخريب الدين ومحو آثار الإسلام، وإيجاد البدع والخرافات؛ مثل الحجّاج الذي اشتهر ظلمه، وقهره الأبرياء بين العامة والخاصّة في المئة الأولى، و(المأمون) في المئة الثانية، الذي قال بخلق القرآن، وآذى العلماء بأنواع من الأذى. . . وقس على هذا، إلى أن حدثت هذه الفرقة في القرن الرابع عشر للهجرة في ديار الهند، وأعلنت تغليط علماء الإسلام كلهم، وشنّت هجوماً شرساً على الإسلام، ونالت من أصول الدين، وطعنتها، ورمتها بأنواع من اللعن والسوء﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] و﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢].

هذا وقد وصلتنا الأخبار من الجهة الموثوق بها أن رئيس هذه الفرقة من أصل كشميري، وقد عُرف بتأييده الخاص، وإخلاصه الكامل للاستعمار البريطاني، والحكومة الإنكليزية، الأمر الذي ساعده إلى الوصول إلى مناصب عالية، ونال به القرب من المسؤولين الإنكليز، وبدأ يرغّب المسلمين في إطاعة هؤلاء المستعمرين المحتلّين، وألّف كتاباً مفاده إثبات وجوب طاعة أولي الأمر ـ وهم المستعمرون البريطانيون ـ والرد على الخارجين ضدّهم، والدفاع عنهم وعن منهجم، وقام بترجمة (الإنجيل) إلى اللغة الأردية، وتوزيعه بين المسلمين، كل ذلك سعياً إلى إخماد نور الإسلام، وإبعاد المسلمين عن شريعتهم الغرّاء، ودعوتهم إلى النصرانية وعقائدها الباطلة المحرّفة، وهكذا تسنّى له السفر إلى بريطانية، وبعد عودته من هناك بدأت حركة قوية لدعوة الناس إلى الطبيعة، وما تقتضيه الطبيعة، حتى إذا وجدوا

مسألة مجمعاً عليها من قبل علماء المسلمين قالوا: هذه من أساطير الجاهلية. أما الأحاديث الشريفة فردوها مرة بعلّة (العنعنة) ومرة أخرى بعلة (الإرسال) و(الانقطاع)، وإن لم يجدوا شيئاً من هذه العلل الباطلة، رفضوها بدعوى مخالفتها للطبيعة، واعتبروا رواة الحديث كاذبين مفترين، أما في كلام ربّ العالمين فلم يستطيعوا تكذيبه، لكن ردّوه مرة بزعم القصة التمثيلية، وأخرى بآراء المخاطبين الجهّال، ومرة زعموا الإلهام فحرّفوا فيه، وهكذا جاؤوا بالأعاجيب، كسر الله شوكتهم، أو منَّ عليهم بالتوبة.

وفيما يأتي ذكر نماذج من عقائدهم الباطلة، وتفسيرهم الباطل للقرآن الكريم، مع الرد عليهم:

١ ـ ينكرون حقيقة الملائكة والشيطان وشجرة الجنة.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠ ـ ٣١]، و﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

٢ ـ ينكرون حقيقة عذاب القبر.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الغافر: ٤٦].

٣ ـ ينكرون الجنة بسبب عدم وجودها في خارطة الأرض.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٤ ـ ينكرون القيامة، وحشر الأجساد، والثواب والعذاب، والنـار، والحور والغلمان.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج: ٧]، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦]، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢]، ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [الإنسان: ١٩].

٥ ـ يُحلّون الطيور المنخنقة.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ [المائدة: ٣].

٦ ـ ينكرون مسألة التقدير.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]، وغيرها من الآيات والأحاديث.

٧ ـ ينكرون المعجزات والكرامات.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

٨ ـ كل الموحّدين ناجون، من أي مذهب أو دين كانوا، ومنكر التوحيد عندهم أيضاً موحد.

الـرد عليهم بقولـه تعالـى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

[آل عمران: ٨٥]، ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

٩ ـ لا تحريف في الكتب المقدسة إلا معنوياً.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

١٠ ـ لا استرقاق في الإسلام.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ . . .﴾ [النور: ٣٢]، وغيرها من الآيات والأحاديث التي لا تحصى ولا تعد ولا تحصر ولا تحدّ.

١١ ـ لا وجود للسماوات.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

١٢ ـ الإجماع ليس بحجة.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، أما ما رُوي عن الإمام أحمد أنه قال: «من ادعى الإجماع فهو كاذب»، فهو محمول على انفراد الناقل أو إجماع غير الصحابة، أو عند حدوث الإجماع، وإلا فإنه تمسك به في مواضع.

١٣ ـ كلُّ الناس مجتهدون لأنفسهم فيما لم ينص عليه في الكتاب والسنة.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقوله ﷺ: «اتخذ الناسُ رؤوساً جهَّالاً، فسُئلوا فأفْتَوا بغيرِ علم، فضلُّوا وأضلُّوا»[١]، فإن كان الاجتهادُ معتبَراً فما هو سبب الضلالة؟!.

١٤ ـ لا نسخَ في القرآن الكريم.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ...﴾ [النحل: ١٠١]، والعجب من هؤلاء أنهم قالوا بالنسخ في مسألة الاسترقاق، فهل هذا إلا هذيان أو جنون؟!.

١٥ ـ يُحلّون الخمر والخنزير.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣].

١٦ ـ إنكار حجة الأحاديث عموماً.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فلو لم يوجد حديث صحيح؛ فماذا يكون مصداق ﴿ما آتاكم﴾.

---

(١) رواه البخاري برقم (١٠٠)، في كتاب العلم؛ ومسلم، برقم (٢٦٧٣)، في كتاب العلم.

١٧ ـ ينكرون الرمي بالحجارة على أصحاب الفيل.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤].

١٨ ـ ينكرون وجود الجن.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧].

١٩ ـ ينكرون تأثير السحر.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٢٠ ـ إن الأنبياء يبلّغون الشيء الذي ثبت حسنه أو قبحه عقلاً.

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال الرسول ﷺ: «واللهِ لولا اللهُ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلّينا»[1]، أي: لولا هدايته.

٢١ ـ إن الإنسان ليبلغ إلى منزلة الأنبياء بالتفكّر في الكون والسنن الإلهية فيه

الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي المطالب الوفية: «وأدنى ذلك أن يعتقدَ امتيازَ الأنبياء من جميع

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤١٠٤)، كتاب المغازي؛ ومسلم في صحيحه برقم (١٨٠٢)، كتاب الجهاد والسير.

الخلق بصفات من الكمال»، وفي شرح العقائد النسفية: «لا يبلغُ وليٌّ درجةَ الأنبياء»)[1].

كانت هذه نماذج يسيرة من معتقدات هذه الطائفة، ولما نشأت هذه الفرقة نهض العلماء للردّ عليهم، ودحض أباطيلهم، وكشف النقاب عن معتقداتهم الباطلة المزيّفة، وألّفوا في ذلك كتباً ورسائل.

والشيخ التهانوي رحمه الله يأتي في مقدمة العلماء الذين تصدَّوا للرد على هذه الفرقة، فألّف رسالته المشهورة (نموذج من معتقدات أهل العوج)، وهذه الرسالة مطبوعة ضمن فتاويه، أما أهم الشخصيات التي تنتمي إلى هذه الطائفة فمنها:

ـ **السيد أحمد**[2]: (ولد في ١٢٣٢هـ وتوفّي في ذي القعدة ١٣١٥هـ)، **مهدي علي**[3]: (ولد في سنة ثلاث وخمسين ومئتين وألف، وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثلاث مئة وألف)، **كريم بَخْش**، **ذكاء الله**، **عنايت رسول**، **جراغ علي**، **عبيد الله**.

قال الشيخ التهانوي رحمه الله بعد ذكر جدول مختصر لمعتقدات هذه الطائفة ومصادرهم التي نقلت منها: «تم هذا الجدول، ووراء هذا عقائد لهذه

---

(١) إمداد الفتاوى، المجلد السادس، ص١٦٦ ـ ١٨٥.
(٢) انظر ترجمته المفصّلة في: نزهة الخواطر: ٨/ ٣٠ ـ ٣٧، وفيها نبذة عن أعماله ومعتقداته، وانتمائه إلى فرقة الطبائعيين.
(٣) انظر ترجمته في نزهة الخواطر: ٨/ ٤٨٣ ـ ٤٨٦.

الشرذمة التي هي كالأنعام بل هم أضلّ، حذفناها روماً للاختصار»[1].

أما أهم الكتب أو المصادر التي نُقلت منها هذه المعتقدات فهي:

١ ـ (تهذيب الأخلاق) مجلة شهرية أنشأها السيد أحمد خان، ٢ ـ (نور الآفاق)، ٣ ـ (أكمل الأخبار)، ٤ ـ (رهبر إسلام: المُرشد الإسلامي)، ٥ ـ (إمداد الآفاق)، ٦ ـ (ملحق نور الآفاق)[2].

ثانياً ـ البهائية:

نبذة عن حياة البهائية:

هي حركة هدّامة، خلفت البابية، ومؤسّسها حسين علي نوري بن عباس بن بزرك المازنداراني من بلاد فارس، ولد عام ١٢٣٣هـ الموافق ١٨١٧م، كان وشقيقه يحيى من أركان البابية، وقد بدأ ينشط بعد إعدام الباب علي محمد الشيرازي، أعلن المازنداراني دعوته البهائية في الكرخ ببغداد، وزعم أنه المقصود بدعوة (البيان) التي جاء بها علي محمد الشيرازي، وأنه قد حلّت فيه بعض الألوهية.

معتقدات البهائية:

من معتقدات البهائية ما يقوله البهاء عن نفسه في كتابه المسمّى (الأقدس):

---

(١) إمداد الفتاوى: ٦/ ١٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

«يا قوم لا يأخذكم إلا الاضطراب إذا غاب ملكوت ظهوري، وسكنت أمواج بحر بياني، إنَّ في ظهوري لحكمة، وفي غيبتي حكمة أخرى، ما اطلع بها إلا الله الفرد الخبير، ونريكم من أفقي الأبهى، وننصر من قام على نصرة أمري بجنود الملأ الأعلى، وقبيل من الملائكة المقرّبين».

ومن معتقداتهم: أنَّ دعوة البهائية جاءت لنسخ الإسلام، ومما قاله في كتابه (الإتقان): «إن ما تمسك به اليهود والنصارى، وكانوا يعترضون به على الجمال الأحمدي، هو بعينه ما قد تشبث به أصحاب الفرقان في هذا الزمان، ويعترضون به على نقطة البيان، روح من في ملكوت الأمر فداه، فانظر إلى هؤلاء الغافلين، الذين يقولون اليوم ما قاله اليهود وهم لا يشعرون».

والبهائيون قدموا ويقدّمون خدمة مهمة للاستعمار والصهيونية من خلال دعوتهم لنسخ الجهاد، وعدم استخدام السلاح، فإنهم بذلك يشلّون طاقات من يتبعهم عن المواجهة، ومقاومة الأعداء، ويزعمون بأن ظهور (البهاء) هو الإيذان بعصر سلام، تتوقف فيه كل أشكال القتال والصراع.

والبهائية حركة هدّامة، ومتبعها مرتد، وهو مذهب باطل ليس من الإسلام في شيء، بل إنه ليس من اليهودية والنصرانية، ومن يعتنقه من المسلمين يكون مرتداً مارقاً من دين الإسلام؛ لأن هذا المذهب قد اشتمل على عقائد تخالف الإسلام ويأباها كل الإباء[1].

---

(١) انظر للتفصيل: (البهائية نقد وتحليل) للشيخ إحسان إلـهي ظهير؛ و(البهائية=

هذا وقد قيّض الله تعالى لمقاومة هذه الفرقة، ودحض أباطيلها في الهند عدداً من العلماء، الغيارى على دينهم وعقيدتهم، وفي مقدمتهم الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، فألّف رسالة أبطل فيها دلائلهم وسمّاها (الحجّة النهائية على المحجّة البهائية)، وفعلاً لعبت هذه الرسالة الصغيرة دوراً بارزاً وملموساً في كشف النقاب عن معتقدات هذه الفرقة الضالة وإحقاق الحق وإبطال الباطل تجاهها. وقد طُبعت هذه الرسالة ضمن مجموع فتاويه رحمه الله[1].

ثالثاً ـ القاديانية:

نبذة عن القاديانية: نشأت هذه الحركة في عام ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنكليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم عموماً، وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وبالفعل ألغوا الجهاد، وأطاعوا الحكومة الإنكليزية طاعة عمياء، لأنها بزعمهم ولي الأمر بنصّ القرآن!.

وكان ميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٣٩م ـ ١٩٠٨م) هو أداة التنفيذ الأساسية لإيجاد القاديانية، وكان ينتمي إلى أسرة اشتهرت بخيانة الدين والوطن، وهو معروف عند أتباعه باختلال المزاج، وكثرة الأمراض، وإدمان

= الفكر والعقيدة) للأستاذة أمينة مصطفى الصاوي؛ و(نصائح الهدى في الرد على البهائية) لجواد البلاغي؛ و(البهائية) للشيخ مصطفى سعيد الخن.

(١) إمداد الفتاوى: ٦/ ١٢٤ ـ ١٢٧.

المخدّرات، وله أكثر من خمسين كتاباً ونشرة ومقالاً، ويعتقد القاديانيون بأن الميرزا غلام أحمد هو المسيح المنتظر، وأن النبوّة لم تختم بمحمد ﷺ، بل هي مستمرّة، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعاً، وأن جبريل عليه السلام ينزل على غلام أحمد، وأنه يوحى إليه، وإلهاماته كالقرآن، وأنه لا قرآن إلا الذي قدمه المسيح الموعود غلام أحمد، ولا حديث إلا ما يكون في ضوء تعليماته، ويعتقدون أن كتابهم المنزّل اسمه (الكتاب المبين) وهو غير القرآن الكريم، ويعتقدون بأنهم أصحاب دين جديد مستقل وشريعة مستقلة، وأن رفاق الغلام أحمد كالصحابة، وأن (قاديان) كالمدينة المنوّرة ومكة المكرمة، بل أفضل منهما.

وللقاديانية علاقة وطيدة مع إسرائيل، وقد فتحت لهم إسرائيل المراكز والمدارس، ومكّنتهم من إصدار مجلة تنطق باسمهم، وكانت مجلة (الأديان) التي تصدر باللغة الإنكليزية هي لسان هذه الحركة، وقد تأثروا بالمسيحية واليهودية والحركات الباطنية في العقائد والسلوك على الرغم من ادّعائهم الإسلام ظاهرياً، ومعظم القاديانيين يعيشون الآن في الهند وباكستان، وقليل منهم في فلسطين المحتلة والعالم العربي، ويسعون بمساعدة الاستعمار للحصول على المراكز الحساسة في كل بقعة من بقاع العالم، وهم ينتشرون خفية متستّرين وراء أسماء ودعوات مختلفة من صوفية باسم الطريقة الأحمدية وغيرها[١].

---

(١) لمزيد من التفصيل، انظر: (القادياني والقاديانية) لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الندوي، و(القاديانية ثورة على النبوة المحمّدية والإسلام) له =

ذكر من تصدّى للرد عليها: هذا وقد هيّأ الله تعالى لمواجهة هذا التيّار الجارف، والتصدّي لهذا التحدّي العنيف، ودحض أباطيل هذه المؤامرة المخططة ـ التي كانت تهدف إلى تشويه وجه الإسلام النيّر، وصورة الشريعة المشرقة، وقمع شوكة الإسلام، وطمس ملامحه الوضّاءة، وكانت ثورة علنية جهراء على نبوّة سيدنا محمد ﷺ ـ العلماء البواسل، والمجاهدين الأخيـار الذين كانت نفوسهم تفيض بحبّ العقيدة الربانية، وشرعة الإسلام الغـرّاء، وسـنّة المصطفى ﷺ البيضـاء النقيـة، وكانوا مستعدّين أن يقدّموا مهجهم وأرواحهم، ويضحّوا بغاليهم ورخيصهم في سبيل هذا الدين، والدفاع عن حياض الشريعة الإسلامية، والمجاهدة من أجله بالسيف والقلم، والكتابة والتحرير، وبكل ما يملكون من الوسائل والإمكانات، مستخدمين في ذلك المنابر والمنصّات، ومجالس المناظرات، وأجهزة النشر والإعلام، وأبرز هؤلاء: الشيخ محمد علي المونجيري[1] رحمه الله، الذي وقف نفسه وجهوده

= رحمه الله؛ و(القاديانية) للشيخ إحسان إلـهي ظهير؛ و(الرد على الأحمدية القاديانية) للشيخ طاهر الأتاسي، وكتب أخرى مستقلة في الموضوع نفسه.

(١) هو الشيخ العالم الفقيه الزاهد محمد علي بن عبد العلي، أحد الأفاضل المشهورين في الهند، ولد بمدينة (كانفور) لثلاثٍ خلونَ من شعبان سنة اثنتين وستين ومئتين وألف، وقرأ المختصرات على المفتي عنايت أحمد الكاكوروي، ثم لازم المفتي لطف الله الحنفي ببلدة (كانفور) وقرأ عليه سائر الكتب المدرسية، ثم ولي التدريس بمدرسة (فيض عام) فدرس بها زماناً، وسافر إلى الحجاز، فحجَّ وزار، وأقام بمكة المباركة سنة كاملة، ثم سافر إلى الحجاز مرة ثانية، وأقام بها سنتين، وهو الذي أسس ندوة العلماء سنة إحدى عشرة =

لهذا الغرض، فناظر وألّف في الردّ عليهم أكثر من مئة كتاب ورسالة، أولها وأحسنها كتاب (فيصله أسماني) (الحكم السماوي) في ثلاثة مجلدات، وكتابه (شهادت أسماني) (الشهادة السماوية).

ولا تنكر مجهودات الشيخ التهانوي رحمه الله في هذا الصدد، فقد ألّف رحمه الله كتابه المعروف المشهور (الخطاب المليح في تحقيق المهدي والمسيح)[1]، فنّد فيه شبهات القاديانيين ودعاويهم القائلة بأن: (الميرزا غلام

= وثلاثمئة وألف لإحياء المدارس العربية وإصلاح نظام الدرس، ورفع النزاع بين الفرق الإسلامية والذبّ عن الإسلام؛ فبارك الله في مساعيه، وأسس أعضاء الندوة مدرسة عظيمة بمدينة (لكنو) وهي التي اشتهرت بدار العلوم، وكان للشيخ رحمه الله منذ أيام الطلب والتدريس إلمام بما يجري حوله من حوادث وتيارات، وكان يتتبعها بعقلٍ واعٍ ونفس حساسة، ورأى نشاط القساوسة النصارى في نشر النصرانية، فأَقبل على دراسة النصرانية، وشمّر عن ساعد الجد للرد على القساوسة والمبشرين، وأصدر صحيفة لهذا الغرض باسم (منشور محمدي) وألّف كتباً قيّمة منها (مرآة اليقين) و(آئينه إسلام) و(دفع التلبيسات) ومن أهمها (الرسالة المحمدية)، كما ألّف حوالي مئة كتاب ما بين صغير وكبير في الرد على القاديانية، كان عالماً ربّانياً، ومصلحاً كبيراً، صاحب جذبة إلـهية ونسبة قوية، توفي رحمه الله في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين وثلاثمئة وألف. (نزهة الخواطر: ٨/ ٤٤٥ ـ ٤٤٩. الشيخ محمد علي المونجيري، للشيخ أبي الحسن الندوي).

(١) كما تناول رحمه الله الرد على القاديانية ودحض معتقداتها الفاسدة الباطلة في مواضع كثيرة من المجلد السادس من (إمداد الفتاوى) يراجع: ٦/ ٥٩ ـ ١٠٠ ـ ١١٥ ـ ١٣٩ ـ ٢٧٣.

أحمد القادياني)، هو المهدي والمسيح، وهـو النبي، نعـوذ بالله مـن ذلـك، وأثبت رحمه الله بدلائل قاطعة، وأسلوب رصين محكم، مسألة ختم النبوّة على نبينا محمد ﷺ، وقام بجهاد متواصل، وكفاح مستميت لأجل صيانة العقيدة، وإنقاذ المسلمين من شبكة دقيقة النسج.

رابعاً ـ الآغاخانية:

نبذة عن الآغاخانية: هي فرقة من الإسماعيلية النزارية، أيدوا نزاراً، الابن الأكبر للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، الذي نصّ على خلافته من بعده.

وتذكر المصادر الإسماعيلية النزارية أنَّ نزاراً استطاع أن يغادر الإسكندرية سرّاً مع أهل بيته، واتجه إلى بلاد فارس، حيث استقرّ في جبال طالقان بين رجال دعوته، وعمل مع الحسن بن الصباح على تأسيس الدول النزارية، وتوفي سنة ٤٩٠هـ الموافق ١٠٩٧م.

ثم انتقلت النزارية إلى الهند بعد القضاء على دولتهم على يد هولاكو، وانضم إليها الإسماعيليون من الهند والسند.

معتقداتهم: وعقيدتهم هي عقيـدة الإسماعيليـة النزاريـة، غير أنهم يعتقدون في (آغاخان) وهو اللقب الذي أطلقوه على إمامهم المعصوم (حسن علي شاه) المتوفى ١٢٩٨هـ = ١٨٨١م، وكان قد أعلن انتسابه إلى نزار بن المستنصر الفاطمي، وخرج في إيران، إلا أنه فشـل، وتم نفيـه بمسـاعدة الإنكليز، وفي بومباي بالهند اعترفت به الطائفة الإسماعيلية إماماً ولقب بالآغاخان.

والآغاخانية يقولون بعصمة الآغاخان، ويقدّسونه، ويقدّمـون إليـه خُمُسَ ما يكسبون، وهم موجودون في الهند وباكستان، وإيران وشرقي إفريقية وفي سورية[1].

هذا وقد تصدّى الشيخ التهانوي رحمه الله للرد على هذه الفرقة، وكشف النقاب عنها، وإنقاذ المسلمين من غوائلها وأباطيلها، وألّف رسالته المشهورة باسـم (الحكم الحقّاني في الحـزب الآغاخاني)، تناول فيها معتقدات هذه الفرقة الضالة، وحذّر منها، وبيّن للناس الطريق المستقيم، وأرشدهم إلى الحق المبين.

كانت هذه صفحة مشرقة من حياة الشيخ التهانوي رحمه الله في مجال الإصلاح الاجتماعي، وجهده المتواصل، وسعيه الحثيث في التصدّي للتيارات المعادية، والفرق المنحرفة الضالة، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ومما لا شك فيه أننا لو درسنا حياته الحافلـة بالأعمال الإصلاحيـة، والغنيـة بالعطاء المتواصل في مجال إصلاح العقيدة، والتحذير من البدع والخرافات: لوجدنا أن جهوده رحمه الله ـ بفضل الله وعونه ـ تكلّلت بالنجاح، وأثمرت ثماراً يانعة، وقد نفع الله تعالى بها آلافاً من الناس، وأنقذهم من ظلمات الغواية والضلال إلى نور الإسلام، ومصابيحه المشرقة النيّرة، وكان توفيق الله تعالى حليفه في

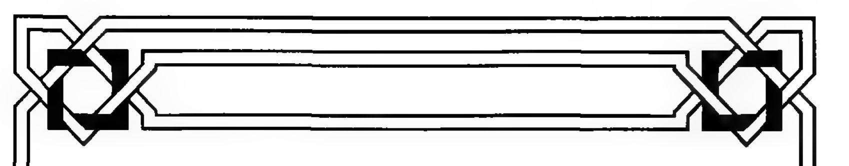
---

(١) يراجع لمزيد من التفصيل: المجلد السادس من (إمداد الفتاوى)، فقد تناول التهانوي، رحمه الله، عقائدهم وطُرق صلاتهم وعباداتهم، وكشف النقاب عنهم، وردّ عليهم رداً وافياً، (إمداد الفتاوى: ٦/ ١٠٤).

كل هذه الجهود، وبذلك يكون قد حقّق ما رماه واستهدفه رحمه الله من نقطة انطلاقه في هذه السبيل متخذاً شِعاره قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٨٨]، وقول الرسول ﷺ: «لأن يهدي اللهُ بكَ رجلاً خيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعَمِ...»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، (٢٩٤٢)، (٣٠٠٩)؛ وكتاب المناقب، (٣٧٠١)؛ وكتاب المغازي، (٤٢١٠)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، (٢٤٠٦)؛ وأبو داود في سننه، كتاب العلم، (٣٦٦١).



الباب الرابع

جهود الإمام التهانوي التجديدية

في مجال التزكية والإحسان والسلوك

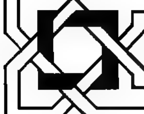
الفصل الأول : التزكية والإحسان في ميزان الإسلام .

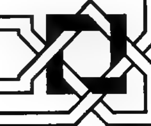
الفصل الثاني : تقرير حقيقة الأوراد والأذكار .

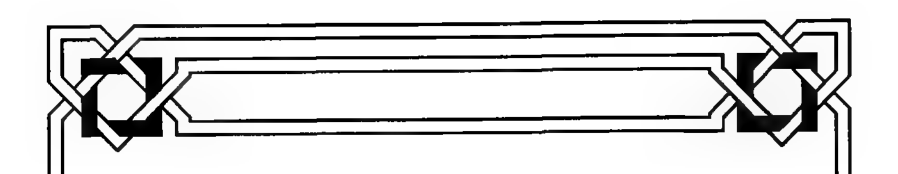
الفصل الثالث: تقرير حقيقة المجاهدة وتفنيد مزاعم المتصوّفة الجهلة .

الفصل الرابع: الكشوفات الصوفية لا قيمة لها في التقرّب إلى الله .

الفصل الخامس : الكرامة هي التي تظهر من متبع كامل في التقوى .

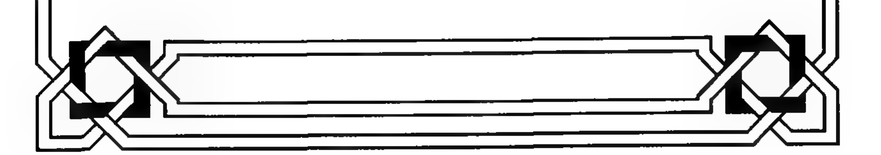






الفصل السادس : تقرير حقيقة البيعة .

الفصل السابع : الهدف الأصيل هو العبودية التي هي كمال العمل والطاعة .



الفصل الأول

التزكية والإحسان في ميزان الإسلام

التزكية شعبة من شعب الدين:

لو رجعنا إلى كتاب الله تعالى، وسنّة الرسول ﷺ، وعصر الصحابة والتابعين، وتأملنا في الآيات القرآنية، وجدنا القرآن الكريم ينوّه بشعبة من شعب الدين، ومهمّة من مهمّات النبوّة، يُعبّر عنها بلفظ (التزكية) ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها، يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وهذه التزكية التي ذكرها القرآن، هي تزكية النفوس، وتهذيبها، وتخليتها عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، تلك التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي الذي ليس له نظير في التاريخ، وتلك الحكومة العادلة الرشيدة التي لا مثيل لها في العالم.

الإحسان في لسان النبوّة:

وها نحن نجد لسان النبوّة يلهج بدرجة هي فوق درجة الإسلام والإيمان،

ويعبّر عنها بلفظ (الإحسان)، ومعناها كيفية من اليقين والاستحضار يجب أن يعمل لها العاملون، ويتنافس فيها المتنافسون، فَيُسأَلُ الرسول ﷺ ما الإحسان؟ فيقول: «أَنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ»[1].

ما أُثر عن الرسول ﷺ ينقسم إلى قسمين:

١ ـ أفعال وهيئات، وأمور محسوسة، كقيام وقعود، وركوع وسجود، وغيره، وقد تكفّل بها الحديث الشريف رواية وتدويناً، والفقه استخراجاً واستنباطاً.

٢ ـ كيفيات باطنة، كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء، وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وفي كل الأحوال، وهي: الإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والتضرع والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الدنيا، وإيثار الآخرة على العاجلة، وغنى القلب، والإيثار، والسخاء، والحياء، والخشوع في الصلاة، والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنة، هي بمنزلة الروح من الجسد، وتندرج تحت هذه العناوين التفاصيل والجزئيات، والآداب والأحكام، التي تجعل منها علماً مستقلاً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، (٥٠)؛ وكتاب تفسير القرآن، (٤٧٧٧)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (٨) و(٩)؛ والترمذي في سننه، كتاب الإيمان (٢٦١٠)؛ والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، (٤٩٩٠)؛ وأبو داود في سننه، كتاب السنة، (٤٦٩٥)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، (٦٢) و(٦٣).

فقه الظاهر، وفقه الباطن:

وفي ضوء هذا التفصيل قد سُمّي العلم الذي تكفَّلَ بشرح القسم الأول، وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر).

وأما القسم الثاني من أحكام الكتاب والسنة، الذي يتعلق بالأعمال الباطنة التي محلها القلوب والأرواح، فالعلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات، ويدل على طرق الوصول إليها سُمّي (فقه الباطن).

وكان الأجدر بنا أن نسمّي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها، وتحليتها بالفضائل الشرعية، وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية، ويدعو إلى كمال الدين والإيمان، والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنة وكيفياته الإيمانية، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسمّوه (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن).

إذاً فالتزكية والإحسان أو (فقه الباطن)، حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة، يُقِرُّ بها المسلمون جميعاً، ويُقرون بأنها روح الشريعة ولب لباب الدين، وحاجة الحياة، فلا كمال للدّين ولا صلاح للحياة الاجتماعية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة.

حدوث مصطلح (التصوّف) وجنايته على (التزكية والإحسان):

هذه التزكية التي تعتبر شعبة من شعب الإيمان، وهذا الإحسان الذي هو درجة فوق الإيمان والإسلام، قد اصطلح عليها العلماء في الزمن الأخير

بالتصوّف، وهذا المصطلح (التصوّف) قد جنى على الحقيقة الدينية الناصعة جناية عظيمةً، فقد حجبها عن أنظار كثيرة، وصدّ فريقاً كبيراً من الناس عن سبيلها، والحرص على تحصيلها، ثم جنى على هذه الحقيقة شيء آخر، وهو أنه دخل فيها دجّالون ومحترفون وباطنيّون ومُلحدون، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين، وإضلال المسلمين، وإفساد المجتمع، ونشر الإباحية، وتزعموا هذا الفن، وحملوا لواءه ـ وكل ذلك باسم التصوّف ومن وراء ستر المتصوّفين ـ فكان ذلك ضغثاً على إبّالة، وزهد فيه ونفر منه أهل الغيرة الدينية، والمحافظين على الشريعة الإسلامية، وجاءت طائفة أخرى من غير المحقّقين، لم يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها، ولم يميزوا بين الغاية والوسيلة، فخلطوا بينها، وألحوا على الوسيلة أحياناً وضيّعوا الغاية، أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفنّ وصلبه، وعدّوه من الكمالات، ومن الغايات المطلوبة، وعقّدوا المسألة، وجعلوا لُبّ الدين لغزاً وفلسفة، ورهبانية، لا يجرؤ عليها، ولا يطمع فيها إلا من نفض يده من أسباب الحياة، ورفض الدنيا وما إليها، وهكذا أصبح هذا المصطلح الذي كان يُعبّر عن حقيقة دينية مُهمّة، ودرجة كبيرة من صميم الشريعة، أصبح يُعبّر عن فساد في الدين، وعن التحريف فيه، وداعياً إلى الإلحاد وإفساد المجتمع، ونشر الإباحية، وإحداث مجموعة من البدع والخرافات، والطقوس والتقاليد غير الإسلامية، وتسميتها الدين والشريعة، ودعوة الناس إليها.

الحاجة إلى المجددين والمصلحين:

ونظراً إلى قلب الموازين وتغيير المقاييس في هذا الموضوع فقد مسّت

الحاجـة إلى مجدّدين ومصلحين ينفـون عن هذا الدين تحريف المغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويحرّرون هذه الشعبة المهمّة من شعب الدين، من أغلال البدع، وشوائب العجمية والفلسفة، وينفخون في الأمة روحاً جديداً من الإيمان والإحسان، ويجدّدون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأرواح، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربّانيّة، ويوجدون في الناس قوة مقاومة الشهوات، وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر، والقناعة باليسير، وغيرها من الأوصاف العالية والأخلاق الفاضلة، وهكذا يُمْكِنُهُم تحقيق ما نادى به الرب ذو الجلال والإكرام، حيث قال: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

هذا وقد قيّض الله سبحانه وتعالى للقيام بهذا العمل الجليل، وأداء هذه المسؤولية العظيمة، نحو التجديد في هذا الجانب من الحياة علماء صالحين متقنين، ونشطت حركة الإصلاح بواسطتهم، فجدّدوا هذا الفن، وسهّلوه لأهل العصر، ونقَّحوه مما التصق به من البدع، والزوائد، واستخلصوا منه خلاصته توافق نفوس أهل العصر، وطبائعهم، وتقرّب الطريق، وتيسّر الوصول، وعلى رأسهم الإمام الربّاني الشيخ أحمد السرهندي، مجدّد الألف الثاني، المتوفى سنة ١٠٣٤هـ(١)، وشيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف

---

(١) هو الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي، ولد بسرهند عام ٩٧١هـ، وتلقى العلوم النقلية والعقلية على أعلام عصره، وأخذ الطريقة النقشبندية، =

بالشيخ ولي الله الدهلوي[1]، المتوفى سنة ١١٧٦هـ، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، المتوفى سنة ١٢٤٦هـ[2]، والعالم الربّاني الشيخ رشيد أحمد

= وصار من أقطابها، مع نصرة السنة والالتزام الكامل بالشريعة، وهو القائل: «أغنتنا النصوص عن الفصوص، والفتوحات المدنية عن الفتوحات المكية». اشتغل بالتدريس والإصلاح، وحقَّق نجاحاً كبيراً بفضل الله أولاً، ثم بفضل حكمته وعلمه وصبره. من مؤلفاته كتاب (المكتوبات)، توفي في سرهند سنة ١٠٣٤هـ. انظر كتاب: الإمام السرهندي، للعلاّمة أبي الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ وهو الجزء الثالث من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، طبع دار القلم بدمشق.

(١) هو الإمام المحدِّث الفقيه العالم المجتهد أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي، ولد في عام ١١١٤هـ، طلب العلم في بلده ثم رحل إلى الحجاز عام ١١٤٣هـ، ورجع إلى الهند عام ١١٤٥هـ، وألّف تآليف نافعة أفضلها (حجة الله البالغة) نشر أعلام الحديث، وأخفق لواءه، وجدّد معالمه، حتى سلّم له الناس أعشار الفضل، وأنه رئيس المحدِّثين ونعم الناصر لسنن سيد المرسلين، قال الكتاني: وهو ممن ظهر لي أنه يعدّ من حفاظ القرن الثاني عشر، لأنَّه ممن رحل ورُحل إليه، وروى وصنف واختار ورجّح وغرس غرساً بالهند أطعم وأثمر وأكل منه خلق، توفي رحمه الله في عام ١١٧٦هـ، انظر: فهرس الفهارس: ٢/ ١١٢٢؛ ونزهة الخواطر.

(٢) هو السيد الإمام حجة الله بين الأنام، قامع الكفرة والمبتدعين، المجاهد الشهيد أحمد بن عرفان الحسني البريلوي، ولد في صفر سنة ١٢٠١هـ ببلدة (راي بريلي) ونشأ في تصون تام وتأله، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً برّاً تقيّاً ورعاً، تلقى العلم عن الشيخ عبد العزيز بن ولي=

الكنكوهي، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ، وقد كان من خلفائهم المصلح الكبير حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي، المتوفى سنة ١٣٦٢هـ[1]، وإن شاء الله سوف نتحدث عن أعماله التجديدية والإصلاحية في هذا الباب بشيء من التفصيل.

الشيخ التهانوي المجدّد:

وقد وفّق الله تعالى المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي، فقام بالتمحيص في هذا الباب، ونقح مثل هذه الأخطاء المختلقة، فكان عمله ذلك عملاً تجديدياً في باب التزكية والإحسان.

= الله الدهلوي، وأخذ عنه الطريقة، وفاق الأقران، وأتى بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم والمعرفة، ثم غلب عليه الشوق إلى الجهاد في سبيل الله، فذهب إلى معسكر الأمير المجاهد نواب ميرخان، ولبث عنده بضع سنين، ثم رجع إلى دهلي ووقف نفسه لنصرة السنة المحمدية والطريقة السلفية حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته، ودخل في بيعته كبار العلماء، وسافر إلى الحجاز، وحصلت له هناك الكشوف والكرامات، وانتفع به خلق كثيرون، ثم سافر إلى أفغانستان، وحرَّض المؤمنين على الجهاد فبايعه الناس، ونال درجة الشهادة العليا في معركة (بالاكوت) في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٤٦هـ واستشهد معه كثيرٌ من أصحابه، (نزهة الخواطر: ٧/ ٢٧ ـ ٣١).

(١) مقتبس من مقدمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله لكتاب (بين التصوّف والحياة)، ص٣ ـ ١٢، بشيء يسير من التعديل والاختصار.

ولم يقتصر رحمه الله على هذا الجانب السلبي، وإنما أضاف إلى ذلك الجانب الإيجابي، وهو أنه وُفّق إلى عرض هذا الجانب الديني المهم ـ جانب التزكية والإحسان ـ عرضاً صحيحاً إسلامياً، حتى تحقق أن التصوّف ليس إلا تعبيراً عن الشريعة الإسلامية وتفسيراً لها.

لم يؤد الشيخ رحمه الله هذا العمل التجديدي نظرياً وعلمياً، بل إنما قام بإحياء التصوّف عملياً، وحقّقه بوسائل التعليم والتربية في غاية من التحقيق والاجتهاد، وبعثه بعثاً جديداً، وقام ـ رحمه الله ـ نظراً إلى أهمية تجديد التصوّف، وضرورة تعليمه، وإبانة حقيقته، بتأليف رسائل كبيرة وصغيرة مفردة لهذا الموضوع، وغير مفردة، وبمواعظه وملفوظاته، وعرض في مؤلّفاته المختلفة هذا الموضوع بإيجاز وتفصيل وبعناوين مختلفة ومنوّعة.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي ـ رحمه الله ـ وهو يسلّط الأضواء على العمل التجديدي الذي رفع لواءه الشيخ التهانوي ـ رحمه الله ـ في هذا الباب:

«كان الشيخ التهانوي من أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة، والعمل، والرجوع إلى الله، وإصلاح النفس، وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان، وقد شرح الله صدره لتيسير هذه الطريقة ـ طريقة التزكية والإحسان ـ وتقريبها، وتنقيح الغايات من الوسائل، واللباب من القشور والزوائد، وبلغ فيها درجة الإمامة والاجتهاد، حتى أقرَّ له كبار العلماء، والشيوخ والمربّون بالتفرّد في هذا الباب، والتجديد لهذا الفن، ووفقه الله عن طريق التربية والتأليف والوعظ لتجلية حقيقة التصوّف، وإقناع الناس بأهميته،

والحاجة إليه، وتيسيره لكل فرد على حسب طبقته، وأشغاله، وثقافته وعقليته، حتى سهل مناله، ودنا جناه، وأقبل عليه العلماء والزعماء والمؤلفون والموظفون وكبار العلماء والمثقفين والمعلّمين في الجامعات، ممن تأثر بالحضارة الغربية، والفلسفة الحديثة، وتعرض للإلحاد والمروق من الدين، والعاطلون والمشتغلون، وأهل النبوغ والذكاء، وأهل الحرف والصناعات، وأصحاب النفوس القوية، وأهل الهمم الضعيفة، على السواء، حتى كان للتصوّف وإصلاح الباطن مكانة في الطبقة المثقّفة، ودولة في العهد المادّي»[1].

حقيقة التصوّف عند الشيخ التهانوي:

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله وهو يعبّر عن حقيقة التصوّف:

«إن الأعمال التي أمرت الشريعة الإسلامية بإتيانها، أو نهت عنها هي من نوعين:

بعضها **يتعلق بظاهر الجسد**، وبالحقائق المعروفة العامة مثل الشهادة باللسان والصلاة والصيام والحج والزكاة وخدمة الأبوين، وهي تسمّى (مأمورات) ومثل التكلم بكلمة الكفر، والإتيان بأعمال الشرك والزنى والسرقة وأكل الربا والارتشاء، وتسمّى (منهيات).

وأمرت بجوارها **بأعمال تتعلق بالباطن**، وهي الإيمان والتصديق،

(١) مقدمة كتاب (بين التصوّف والحياة) للأستاذ عبد الباري الندوي، ص١٢ ـ ١٣.

والعقائد الصالحة والشكر، والتوكّل، والرضا بقضاء الله، والتسليم والإخلاص له، ومحبّة الله ورسوله وما سواها من الأعمال الحسنة الأخرى، وهي (مأمورات وفضائل) أيضاً، أما العقائد الباطلة وعدم الصبر، والكفران والرياء والكبر والعجب وغيره، فهي (المناهي والرذائل) التي نهت عنها الشريعة الإسلامية، في القرآن الكريم تجد ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وتجد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وتجد ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وكما تجد في مواضع من القرآن ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، تجد كذلك في موضع آخر ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكما تجد في موضع ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، تجد في موضع آخر ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وكما تقرأ لوماً وتقريعاً على تارك الصلاة، ومانع الزكاة، تقرأ كذلك ذمّاً وإنكاراً على صاحب الكبر والعجب، وكل ذلك يوجد في الأحاديث النبوية أيضاً، فحينما نرى فيها أبواباً لبيان الصلاة والصيام، وشرح أحكام البيع والشراء، والزواج والطلاق، نرى أبواباً أيضاً في ذم الرياء وطلب السُّمعة والكبر وغيره»[1].

الأعمال الظاهرة لم تفرض إلا لتخدم الإنسان في تزكية باطنه:

ولو حققنا النظر في هذا الباب لعلمنا أنَّ الأعمال الظاهرة هي نفسها لم

---

(١) بين التصوّف والحياة، ص٢٦.

تفرض إلا لتخدم الإنسان في تزكية باطنه، ولعلمنا أنَّ تزكية الباطن هي غاية في محلّها، وهي مستوجبة لنجاة الرجل في الآخرة، وأنَّ فساد الباطن وقذارته يستوجبان الهلاك في الآخرة، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس: ٩ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

ومن هنا يتبيّن لنا أنَّ الغاية الوحيدة للإنسان هي تزكية القلوب، وأن القلب بمثابة الملك بين رعيّته وجنوده، والجوارح بمثابة الجنود والعبيد، وإذا صلح الملك تبعته في صلاحه أتباعه وطاوعوه، وهذا ما يُشير إليه قول الصادق المصدوق ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةٌ إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وهِيَ القَلْبُ»[1].

ومراد ذلك أن صلاح الجسد الظاهري وأفعاله، وفساد أعمال الجسد الظاهر وأفعاله، إنما يتوقفان على الصلاح القلبي والباطني وفساده، وليس الغرض من التصوّف أو التزكية أو (فقه الباطن) إلا إصلاح هذا القلب، وتزيينه، وصيانته من الشر، ومعالجته عند فساده ومرضه[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، (١٥٩٩)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن (٣٩٨٤)؛ والدارمي في سننه، كتاب البيوع (٢٥٣١).

(٢) بين التصوّف والحياة، ص٢٦.

التصوّف هو التزكية التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية واتباعها والامتثال لها:

يقول الشيخ عبد الباري الندوي رحمه الله، وهو يشرح لنا حقيقة التصوّف عند الشيخ التهانوي رحمه الله: «إن من الخطأ والالتباس العظيمين ما وقع فيه عض كبار العلماء، بأن حسبوا طرق التزكية السائدة اليوم هو التصوّف بعينه، رلذلك دخل الإشراقيون على وجه العموم، ورهبان البراهمة على وجه لخصوص في زمرة المتصوّفة، وهذا الالتباس الخاطئ لم يدخل في عقول لناس إلا من الكلمة المعروفة الذائعة: «أن الصوفي لا مذهب له»، فتحرّر لتصوف بذلك من قيد الإسلام، وجاز له أن يتحد إذا شاء مع كل عقيدة، ودين غير الإسلام.

قال أصحاب هذا الفكر الخاطئ: إن التصوّف هو أسمى وأرفع من أن يتقيد بظواهر الأعمال، وإنه لزعم فاسد لا حقيقة له، ولا نصيب له من الصحة، رقد استنكره شيخنا الشيخ أشرف علي التهانوي قائلاً: «ليست كل تزكية صوفاً، وإنما التصوّف هو التزكية التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية تحصل باتباعها والامتثال لها، وإنما هي التي تصلح للمرء أَمرَ آخرته، يُدخل صاحبها تلك الجنة التي وُعد بها المتقون، إن الله تعالى قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، وذلك باتباع الشريعة لإسلامية، لا بمخالفتها.

أما الرياضات الروحية، والمجاهدات البدنية الكثيرة التي يأتيها رهبان من البراهمة وغيرهم، فليست من التزكية والتصوّف في شيء، مهما قيل عنها،

ومهما سُمّيت بأسماء التصوّف، ولن تحمل تلك الأسماء والألقاب معنى، ولا حقيقة ولا شأن لها بالتصوّف، إنها ألفاظ مجردة ومردودة عند الله غير مقبولة، وبالتالي لا يمكن لرجل أن يحرز رحمة الله، وينال الفلاح يوم الآخرة، وحياته متعارضة مع الشريعة الإسلامية»[1].

إنكار الشيخ التهانوي على الجهلة من الصّوفية:

ومن هنا جاء إنكار الشيخ التهانوي رحمه الله على الجَهَلَةَ من الصّوفية، الذين غيّروا مفهوم التزكية رأساً على عقب، واختلقوا لها معنى ترضاه أهواؤهم، وشرحوها شرحاً لا يتفق إلا مع ميولهم ورغباتهم فحسب، ويظنّون أن تزكية القلب وإن كانت غير خاضعة للشريعة الإسلامية هي أرفع درجة من العبادات، والأعمال الظاهرة، مثل الصلاة والزكاة وغيرها، وأن هذه الأعمال أحطّ منزلة، وأقل قيمة من طرق التزكية السائدة المشهورة، ففَنّدَ الشيخ التهانوي رحمه الله مزاعمهم الباطلة، ودَحَضَ أباطيلهم، وأوضحَ بكل صراحة أن امتثال الشريعة الإسلامية، واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام هما أهم الأعمال وأوجبها، وأن الذي لا يخضع ولا يستسلم لها، ولا يحافظ على إكمالها، لا يمكنه أن ينال رضا الله سبحانه وتعالى، ولا أن يحرز ثوابه وجنته، ومما لا شك فيه أن الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى، هما غايتان منشودتان وهدفان جليلان لكل مسلم، أفليس التصوّف باطلاً إذا تحرر من الخضوع لأحكام الشريعة، ومن السعي للعمل بها كاملة؟! وكما أن كرامات الأولياء لا تصح ولا تقبل إلا

---

(١) المصدر السابق نفسه.

إذا كانت صادرة من رجل ورع تقي بار، كذلك التصوّف لا يصح ولا يقبل عند الله تعالى إلا إذا كان في رجل ورع تقي، عامل بالشريعة، خاضع لها، ولا بدعَ في ذلك، فقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وهم سادة الأولياء وأئمة الأبرار، يواظبون على جميع العبادات من صلاة وصوم وزكاة وجهاد وتلاوة القرآن، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، ويداومون عليها، ولذلك كانت قلوبهم صافية، ونفوسهم زاكية، لأنهم قاموا بهذه الأعمال كلها أحسن قيام، فرضي الله تعالى عنهم، وأثبت هذه الشهادة في كتابه حيث قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البيّنة: ٨].

فثبت أن التصوّف (الحقيقي) ليس إلا تزكية للباطن، مع الامتثال الكامل للشريعة الإسلامية، والاستسلام لها بكل معنى الكلمة[١].

إزالة سُوء الفهم:

كان الشيخ التهانوي رحمه الله قد جعل نُصب عينيه النظر إلى الغايات والأهداف دون الوسائل والأسباب، أو إلى الأعمال الظاهرة والقشور الزائفة، فنراه في مبحث (ذكر الله تعالى) يردّ على أولئك الذين لا يكون همّهم إلا ترديد كلمة لفظ الجلالة مئة ألف مرة، أو غير ذلك من الأعداد، دون أن يتأملوا في حقيقة الذكر، ويتعمقوا في الهدف من الذكر والغاية منه.

يقول رحمه الله: «يظن الناس بعد ترديدهم لكلمة (الله) مئة ألف مرة،

---

(١) بين التصوّف والحياة باختصار وتعديل، ص٣١ ـ ٣٢.

أنهم أتوا بالذكر، مع أنهم لم يأتوا بحقيقة الذكر، بل إنما أتوا بصورة الذكر وبأثر من آثاره، لأنهم لو كانوا أتو بحقيقة الذكر لم تَخْلُ حياتهم من الأعمال الحسنة الأخرى، بل نجد أنَّ كثيراً من الذين يردّدون كلمة (الله) مئة ألف مرة لا توجد فيهم الأعمال الأخرى بتاتاً».

وقال في موضع آخر وهو يبيّن فائدة استقرار ذكر الله في قلب الإنسان وتمكّنه منه: «من استقر ذكر الله في قلبه، فيكون رضا الله وعتابه ومحبّته وجلاله، وعقابه وثوابه نُصب عينيه في أحوال الحياة كلها، من حركات وسكنات، وبعد ذلك يجب على المرء أن لا يقع في المعاصي، وأن لا يتعمّد ذنباً، سواء كان صغيراً أو كبيراً، إلا لغفلة بشرية أو عند النسيان».

وأوضح الشيخ رحمه الله هذه الحقيقة في موعظة له تسمّى (بأكبر الأعمال)، عدّ الذكر فيها من أكبر الأعمال، يقول فيها: «إن الذكر حق الذكر هو ما يحمل على اجتناب جميع المعاصي، ويحضّ على الإتيان بجميع الأعمال الحسنة»[1].

* * *

(١) ينظر كتاب (قصد السبيل إلى المولى الجليل)، للشيخ التهانوي؛ وكذلك كتاب (بين التصوّف والحياة)، ص٥٧ ـ ٥٨.

الفصل الثاني

تقرير حقيقة الأذكار والأوراد

إصلاح خطأ جسيم في باب الذكر:

وقع كثير من الناس في خطأ جسيم في باب الذكر، إذ حسبوا أن مجرّد الذكر يكفي لإصلاح جميع الأعمال والأخلاق، وهم أشدّ خطأ حينما يحتجّون لزعمهم هذا بأنه قيل: «أنا جليس من ذكرني»[1] فيظنون أن هذا يدل على أن العبد يتقرب إلى الله بالذكر، فإذا تقرب إلى ربه فكيف يمكنه أن يعصيه، أو يأبى أوامر ربّه؟! فإذاً لا حاجة إلى وسائل أخرى لإصلاحه، وقد عمّت هذه الفكرة الخاطئة حتى عند المشايخ العظام، فإذا أخذوا البيعة ولقّنوا عدة أذكار فكأنهم انتهوا من عملهم، فلا صدّ لفساد الأعمال والأخلاق ولا عتاب ولا استجواب، ولا مداواة ولا تدبير، بل إذا عرض الطالب على شيخ من هؤلاء المشايخ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ١/١٠٨، (١٢٢٤) عن كعب قال: «قال موسى: أي رب، أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني..». ونحوه في: ٧/ ٧٣، (٣٤٢٨٧)؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ١/ ٤٥١، (٦٨٠)؛ وابن أبي عاصم في الزهد، ص٦٨؛ وأحمد بن حنبل في الزهد، ص٥٧؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء: ٦/ ٣٧ ـ ٤٢؛ وذكر طرقه بالتفصيل الإمام العجلوني في كشف الخفاء: ١/ ٢٣٢، (٦١١).

مرضه، وطلب منه علاجه، يقترح عليه ذكراً أو ورداً.

أما الشيخ المجدّد التهانوي رحمه الله فمختلف عن هؤلاء في هذه الناحية، إذ قام بتغيير جليل في كيان التصوّف السائد، ولذا نعدّ ذلك مجهوداً كبيراً، له قيمة ومكانة كبيرة، فقد جعل المؤاخذة والمداواة في الأعمال والأخلاق في الدرجة الأولى، بالنسبة إلى الأذكار المعروفة، والأعمال والأوراد السائدة، وجعل هذه الأذكار وما إليها في الدرجة الثانية، بل الثالثة، فلم يكن الحديث عنها يأتي في مجلسه إلا نادراً.

أما النقد للأعمال والأخلاق، فقد كان كثيراً ما يقول رحمه الله وهو يردّ على القائلين بأن الذكر هو كل شيء ولا حاجة إلى إصلاح الأعمال: «وهذا خطأ فاحش، لأن وسائل الإصلاح داخلة في كلمة (ذكرني)، فلا يثبت (ذِكرُ اللهِ) بدون معالجة الأمراض ومداواتها، اقرأ (الحصن الحصين) تجد فيه (بل كل مطيع لله ذاكر) فمعنى الذكر التذكير، والتذكير يأتي من طرق مختلفة، لا أن ينطق باسم شيء، ويردده فقط! أفيعد ذكراً أن لا يكاتب ولا يراسل، ولا يكلم ولا يزور، ولا يمتثل الأوامر؟! كلا؛ إنه ليس من الذكر في شيء، أما الذكر الذي لا يصحبه الإصلاح فليس إلا مثل هذا».

وقال رحمه الله في مناسبة من المناسبات: «إن مجرد الورد لا يكفي أبداً، أحلف بالله أن شيوخ الأوراد المجرّدة لا يوجد لديهم الإصلاح، والإصلاح لا يأتي إلا باختيار طرق الإصلاح».

وقال: «إن الناس في هذه الأيام يغرمون بالأوراد، ولا يقبلون على الشيء الأصيل، وهو الدعاء، مع أنه روح ولب لجميع العبادات».

ثم يردّ على الجهلة من المتصوّفين قائلاً: «وهكذا تجد كثيراً من الجهلة يحسبون الأذكار والأشغال والمراقبات والرياضات أو الأحوال، غايات ومنشودات أصيلة للتصوّف والولاية، وهذه جهالة خالصة، لأن المقصود هو أعمال الظاهر والباطن لا غير، أما بقية الأذكار والأشغال المتعارفة أو الرياضات والمراقبات، فليست إلا تدابير ووسائل لإصلاح الأعمال، وأما الأحوال فهي الثمرات التي ليست بلازمة، أي الثمرات التي لا يلزم أن تظهر، وليس تحصيلها بواجب ولا منشود»[1].

مبدآن أساسيّان للتجديد في مجال التصوّف:

يقول الشيخ عبد الباري الندوي رحمه الله: «أما أساس تصوّف شيخنا رحمه الله الذي يعدّ بحق تجديداً وإصلاحاً عظيماً في التصوّف فهو مبدآن، يجب التجنب فيهما في جميع الأوقات لأمرين:

أحدهما: الغفلة، وعلاجها الذكر.

ثانيهما: المعصية.

ويرى عامة أهل الدين، وأصحاب العلم الظاهري أنَّ المعاصي هي الكبائر من الذنوب، وما تقترفه جوارح الرجل، أما صغائر الذنوب وما يخصّ القلب والباطن منها، فلا يكترثون لها كثيراً.

---

(١) بين التصوّف والحياة، ص١٩٤ ـ ٢١٩.

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله: «الغفلة تجرف النورانية والإشراق من القلب، والمعصية تضيف إلى ذلك، بأن تزيده في السقوط عن التقرب، والقبول عند الله، فلا شك أن هذه خسارة كبيرة».

ولأجل ذلك ألحّ الشيخ على العناية الفائقة في ذلك، وأنه يجب على المرء إذا بدرت منه هفوة أو معصية، سواء كانت قولية أم فعلية بسبب من غفلته، أو خبث من نفسه، فعليه أن يستغفر ربه بكل ضراعة، ويندم على فعله، ويتوب إلى الله، بيد أن بعض المعاصي أعظم ضرراً وأكبر خطراً، فيجب على الطالب في صددها أن يكثر حذره واحتياطه فيها، وتجد من هذه المعاصي الرياء والاستكبار، ويتولد منها أحياناً الفخر، سواء كان هذا الفخر على فضيلة دنيوية أو فضيلة دينية، وتجد من هذه المعاصي الغيبة والوشاية والنقد والطعن والاعتراض، وكثيراً ما يرزأ الهجر من الكلام وفضوله صاحبه، ويسلب شيئاً كثيراً من نور قلبه، ولذلك يحسن بطالب الحق أن يجتنب إكثار مخالطة الناس، والتآلف معهم، إلا إذا مسّت الحاجة إلى ذلك.

ومن هذه المعاصي التفات الرجل إلى موضع لا يجوز له الالتفات إليه برغبة أو شهوة، سواء كان هذا الالتفات بالنظر أم بخاطر يخطر بالقلب.

ومن هذه المعاصي تجاوز الحد المشروع في الغضب، أو إتيانه بالغضب في غير موضعه، أو تعرضه لأحد بغلظة أو قسوة[١].

* * *

---

(١) بين التصوّف والحياة، ص٧٨ ـ ٨١.

الفصل الثالث

تقرير حقيقة المجاهدة
وتفنيد مزاعم الجهلة من المتصوفة المتعسّفين

إن حقيقة المجاهدة هي التدريب على إنكار الذات ومخالفة النفس، ليمكن التغلّب على الشهوات، وعلى ميل النفس إلى الرغائب، من نعمة الجسد، ووفرة المال، واكتساب الجاه، وقد عبّر عنه القرآن بالجهاد بالأنفس والأموال، ووعد بالهداية والرشد على هذه المجاهدة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ونجدُ عند الشيخ التهانوي رحمه الله تقرير هذه المجاهدة وتجديدها بقوله: «مطالب النفس اثنتان: أحدهما: **الحقوق**، وآخرهما: **الحظوظ**، أما الحقوق فلا يقوى الجسم إلا بها، ولا تكون بدونها، وأما الحظوظ فهي فاضلة عليها، وتأتي بعدها، فغاية المجاهدة هي أن تبقى الحقوق وتفنى الحظوظ»[١].

لا إفراط ولا تفريط:

وكما أفرط الناس في جانب ترفيه النفس، حيث يقتصرون حياتهم كلها

---

(١) التكشف بمعرفة أحاديث التصوّف، ص٦٤؛ وانظر: أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة، ص٧٥.

على هذا الجانب، من إمتاع النفس، واقتناص الملذّات، فكذا أفرط غيرهم ممن كانوا على عكسهم، في التقصير في الاستجابة لمطالب النفس الحقيقية، التي لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها، فإنهم يحرمون النفس حقوقها، والكفاف من قوتها، كاليوغا والإشراقيين، وحسبوا أن المجاهدة هي أن تبخس حقوق النفس، وتمحق مطالبها جمعاء، ويحسبون ذلك طريقاً إلى نجاة الروح وفلاحها.

يقول الشيخ رحمه الله وهو يردّ على الفكرة الصوفية الخاطئة:

«فأصبح الصوفية يزعمون أيضاً أن رضا الله لا يحصل إلا بمخالفة النفس، وكلما كانت هذه المخالفة أشد، كان رضا الله أعظم وأقوى، ولو كانت هذه المخالفة لا تتفق مع الشريعة الإسلامية، حتى إنه قد يبدو لبعضهم، فيحرّمون على أنفسهم اللحم، فلا يأكلونه، ويمتنعون عن البارد من الماء فلا يشربونه، ومنهم من يجتنب الفراش الوثير فلا يضطجع فيه، وغلت طائفة ممن حرمت نعمة الإسلام، فتجاوزت إلى حدّ أنهم قد يجفّفون جوارحهم ويميتونها. . .».

فهذه كلها أعمال أحرى بها أن تنسب إلى الجهالة العمياء، ولا تجد الاعتدال والقصد إلا في أولئك الذين جاهدوا مجاهدة في تقويم النفس وإصلاحها، محتفظين بالأوامر الشرعية، فلا يتعدون حدود الإباحة، ولا يباشرون هذه المجاهدة إلا بصفتها علاجاً ومداواةً، وأنها أسباب التقرب إلى الله، ولا يدع أحدهم طعاماً إلا إذا رأى فيه ضرراً طبياً، وما أشبه ذلك، وإذا

تركوه فلا يعدون تركهم له شيئاً من التحنث، وأما إذا تركوه ظانين أن تركه عبادة ونسك، ورجوا من هذا العمل جزاءً ومثوبة، فقد أذنبوا؛ لأنهم أضافوا بذلك إلى الشريعة الإسلامية حكماً لم يكن فيها من قبل، وهذا هو السرّ في فساد البدعة وقبحها، فهؤلاء إذا هجروا شيئاً لا يهجرونه إلا للوقاية من مرض أو للاحتراز من ضرر مادي، أما أولئك الناس فلا يتركونه إلا لأنهم يحسبون هذا العمل عبادة وذريعة إلى التقرب إلى الله، ووسيلة من وسائل المثوبة.

فعلى كلٍّ إنَّ منحَ الجسد قسطه من الراحة، وحظَّه من الترفيه، وبهجة النفس وتأدية ما لها من حقوق، لا يسع أحداً إنكاره، ولذلك وضعت الشريعة الغراء لكل شيء حداً ينتهي إليه، فكان سيدنا أبو الدرداء يطيل السهر بالليل، فنهاه سلمان الفارسي رضي الله عنه عن ذلك حتى بلغ ذلك الرسول ﷺ فقال: «صدق سلمان»، وقال: «إنَّ لنفسكَ عليك حقاً»[1].

المتصوّفة الجهلة المتعسّفون زيّفوا التصوّف وأفسدوه:

يقول رحمه الله: «أسفاً لهؤلاء المتصوّفة المتعسّفين الجهلة، فقد زيّفوا التصوّف وأفسدوه، وجعلوه مُخيفاً موحشاً، يقترحون الاعتكاف الصوفي، ويشيرون بتطليق الأزواج، وينصحون بالتبتّل عنهن، وإقصاء الأهل والأولاد،

---

(١) انظر: أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة، ص٢٣٦ ـ ٢٣٨؛ وكذلك تقليل الطعام، ص٤٩ ـ ٦٢؛ والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم (١٩٦٨)؛ وكتاب الأدب، (٦١٣٩)؛ والترمذي في سننه، كتاب الزهد، (٢٤١٣).

وكانت تؤخذ أربعون حبة حمص، فلا يتناول منها إلا حبة كل يوم، وقالوا: إن الولايـة والوصول إلى الله لا تتأتى بغير هذا، أما أنا فأقول بكل صراحـة: **إن الولاية تحصل حتى على البسط الناعمة والوسائد اللينة، وفي الإمارة، ومع اللذائذ من الأطعمة**، لكن يشترط أن يكون الطالب خارج البيت وفي خدمة شيخ كامل»، وقال رحمه الله: «إن السالك لا يحتاج إلى كساء غليظ وثوب مرقع، بل تحصل له المشيخة إذا أراد في الخلع الفاخرة، والملابس الناعمة، وفي الملوكية كذلك، لكن بشرط أن يكون طلبها بطريقها».

وقال في موضع آخر: «فليس الإقلال من الأكل زهـداً، وليس غايـة منشودة؛ لأننا إذا زهدنا في شيء، لم نستطع أن نزيد في خزائن الله شيئاً، مع أنه يجب أن لا يأكل الرجل إلى أن يتخم أو يتألم من بطنه، **أما الشيخ إمداد الله رحمه الله فكان من رأيه أن يمتع الرجل نفسه، ويلبّي رغبته، ثم يستخدمها في أعمال الخير ويجهدها، وحقاً إذا عرف الرجل أنه قد أعد له طعام شهي، فإن نفسه تنشط لإكمال العمل وإتقانه، وتسرّ لتدرك هذا الطعام الشهيّ، فلا بد للنفس من حافز....**

لذلك تجد صيانة الصحة والمحافظة عليها من أوجب الأمور، وذلك بترفيه الدماغ والقلب، وتقويتهما بمداومة تغذيتهما ومداواتهما، فلا يحسن الزهد في الغذاء، حتى يسري الوهن، ويتولد اليُبس في الدماغ، كما يجب أيضاً أن لا يفرط الرجل في تناول الغذاء، فتختل قوة الهضم، فإذاً من اللائق به أن لا يتناول طعاماً إلا إذا كانت عنده شهية صادقة، كما عليه أن ينصرف عنه، وفي النفس رغبة إلى لقمة أو لقمتين، ويجب عليه أيضاً أن يسلك مثل ذلك

الاعتدال في النوم، فلا يفرط فيه، لئلا يكسل ولا يقصر فيه كذلك، لئلا يطرأ على قواه الجفاف والتخدير»[1].

* * *

(١) يراجع: أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة، ص٧٦ ـ ٨٥؛ وكذلك بين التصوّف والحياة، ص٨٦ـ ٩٢.

الفصل الرابع

الكشوفات الصوفية لا قيمة لها في التقرب إلى الله

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله: «إنَّ الناس يعدّون الكشف من أجلّ الكمالات، مع أنه لا قيمة له في التقرّب إلى الله، وتتفق طبائع بعض الناس مع الكشف دون غيرهم، كما أنَّ عيون بعض الناس نافذة بعيدة النظر، في الوقت الذي لا يُبصر الآخرون إلا الشيء القريب»، وقال مشيراً إلى فسقية المسجد:

«هَبُوا أن امرأ لا يجاوز بصره هذه الفسقية، مع أن بصر رجل آخر غيره يجاوزها إلى الشارع في الخارج! أفبهذا يُعدّ الرجل الذي يبلغ نظره إلى الشارع من المتقربين إلى الله؟ كلا! بل إن هذا نوع من البصر لا علاقة له بالقربات، وأحلف بالله أنه مهما حصل لامرئ ما من ألوف الكشوف، أو أكثر من ذلك، فإنه إذا رجع إلى وجدانه لشعر أنه لم يكسب في التقدم ولو قدراً يسيراً، غير أنه إذا سبّح الله ثلاث مرات، ثم رجع إلى وجدانه أحسّ أنه قد تقدم في القرب إلى الله، فليختبر هذا من شاء من أهل الذوق وأصحاب الوجدان».

وها هو الشيخ عبد الباري الندوي أحد تلامذة الشيخ التهانوي رحمهما الله ينقل لنا ملخص كلام شيخه: «كيف يكون الكشف من علائم القرب والولاية إذا لم يشترط فيه كون المرء مؤمناً؟! فإنه يحصل للمؤمن والكافر والملحد

ولغيرهم على السواء، فالحقيقة أن الكشف ليس بشيء عظيم ؛ لأن الكافر أيضاً إذا جاهد وتروّض حصل له، ويحصل للمجانين أيضاً، والكشوف إذا كانت موافقة للقواعد الشرعية صح العمل بها، وإلا وجب تركها»[1].

* * *

(١) بين التصوّف والحياة، ص١٠٧ ـ ١٠٨.

الفصل الخامس

الكرامة هي التي تظهر من متبع كامل في التقوى

لقد تكلّم الشيخ رحمه الله عن الكرامات، وبيّن حقيقتها، وردّ مزاعم الجهلة في هذا الصّدد، فقال:

«الكرامة هي التي تظهر من متبع كامل، ولا تطَّرد اطّراداً، لأنها إن اطّردت لم تعد كرامة، وإن لم تخضع الكرامة التي ظهرت منه بشريعة نبي من الأنبياء، لم تعد كرامة، مثل (اليوغا) و(السحرة) الذين تصدر عنهم مثل هذه الأحوال، ولو كان يدّعي ويقول: إنه متّبع نبيّ، لأن عمله يخالف شريعة الأنبياء، وسواء كان الاختلاف في الأصول كأهل البدع، أو كان في الفروع، كالفاسقين والفجّار، والكرامة من هؤلاء لن تسمّى إلا استدراجاً، ولا يسمّى كرامة إلا ما يصدر من متّبع كامل في التقوى.

وأصبح الحال في عصرنا أن الناس يلقّبون كل رجل تظهر منه كرامة قطباً وغوثاً، أياً ما كانت عقيدته وأعماله، وقد صرّح السلف بأنك إذا رأيت أحداً يحلّق في الفضاء أو يجري على الماء، ولا يحافظ على الشريعة فلا تحسب له حساباً، وقال الصلحاء: إنّ ستر الكرامة واجب على المرء، إلا إذا كان محتاجاً إلى إظهارها».

وقال في موضع آخر: «الولاية لا تفتقر إلى خوارق، ولم تظهر الخوارق من بعض الصحابة، ولو مرة واحدة في حياتهم، والخوارق تظهر في أكثر الأحيان من (اليوغا) وهي من نتائج الرياضة، ودرجة خرق العادة أقل من الذكر القلبي، وقد كتب صاحب (العوارف) عن الذين لا تصدر منهم الخوارق أنهم أفضل من أهل الخوارق، إن من أكبر كرامات العارفين أن يستقيموا على جادة الشريعة، ومن أعظم كشوفهم أن يتبيّنوا استعداد الطالبين، ثم يربّوهم وفق ذلك»[1].

وقد ردّ الشيخ رحمه الله على مزاعم بعض المهووسين في هذا الباب فقال: «وبعض الناس يظنون أنهم سيرون أنواراً وسطعات إذا ما ذكروا واشتغلوا. أو أنهم سيسمعون أصواتاً، فليس هذا كله إلا هوساً وبلاهة، إنه لا يجوز **أولاً**: أن تحصل تلك الآثار على الذكر والشغل، ولا يحتاجان إلى ذلك، **وثانياً**: لا تكون تلك الأنوار والأصوات في بعض الأحيان إلا وليدة ذهنه، وليست شيئاً آتياً من عالم الغيب، **وثالثاً**: لو انكشفت أشياء ذلك العالم، فأية فائدة من ذلك؟ إذ لا يزداد التقرب بتكشف عالم، إنما خلق الله للتقرب إليه الطاعات، قد يرى الشياطين الملائكة في بعض الأحيان، ولا يزال هؤلاء الشياطين شياطين، ثم ستنكشف حقائق ذلك العالم بعد الموت، للمؤمن والكافر على السواء، أفيحصل بذلك القرب المقصود لكل أحد؟!».

* * *

---

(١) انظر: الكرامات الإمدادية، للشيخ التهانوي رحمه الله.

الفصل السادس

تقرير حقيقة البيعة

الإفراط والتفريط في فهم حقيقة (البيعة):

لقد وقع الناس فريسة إفراط وتفريط في فهم العلاقة بين الشيخ ومريده، نجد في جانب أنَّ الناس عدُّوها حدثاً في الدين، وفي جانب آخر اتخذها الناس طقساً من الطقوس بأن اكتفوا بأن يقبّلوا اليد والرجل، ولا يرغبوا في عمل أو فهم، ولا يحتاجون إليه، **وإن كانت العلاقة بين الشيخ ومريده لا تُجدي نفعاً، ولا ينفع الإنسانَ إلا عَمَلُه**.

وليست حقيقة (البيعة) سوى اختيار رفيق أو دليل عارف للوصول إلى الهدف والغاية، وفي لفظ آخر يمكن أن يقال: إنها تفويض النفس وتسليمها ليد رجل أعلم منه وأمهر، ومربّ ومرشد، كما يسلم البائع ماله لمشتريه، أو كما يفوّض مريض نفسه إلى طبيب، ولا يعمل إلا بما يوصيه الطبيب به، أو يقترح به عليه، عملاً كاملاً، قد كان ذلك أمراً واضحاً بيّناً وعادياً، ولم يكن في حاجة إلى هذا الإفهام والتمثيل الضافيين، إلا أنَّ السلفية الجافة، والصوفيّة التقليدية كانتا على طرفي نقيض في التصوّف في ماض من الزمن، فالطائفة الأولى رأت البيعة من المحرّمات والمبتدعات المحضة، والفريق الآخر أوجب البيعة، وبالأخص طقوسه وتقاليده بعينها.

هذا وقد عبّر الشيخ التهانوي رحمه الله عن هذا بعقْدِ عهدٍ بين الشيخ والتلميذ، أو المرشد والمريد، يتعهد فيه الشيخ بالإصلاح والإرشاد، والطالب بالاتباع والتقليد، وإن البيعة التقليدية ليست من الواجبات في شيء، وكان رحمه الله يقول مراراً:

«إني لا أعرف من دخل في بيعتي، وإني لا أحفل ولا أرى إلا الذي له صلة بالعمل والجُهد»، وكان يطرح على المبايع تلك الأسئلة الشديدة التي تكشف حقيقة البيعة وغايتها؛ لأنه ليس في أذهان الناس من أهداف البيعة إلا ملخّصها، بعضهم يبغون أن يصبحوا من أصحاب الكشوف والكرامات، فإنها لا تلزم حتى للمرشد، فكيف يحسن بالمريد أن يحرص عليها؟! وبعضهم يظنون أن الشيوخ سيكفلون ويشفعون، مع أن رسول الله ﷺ نفسه قال لفاطمة رضي الله عنها: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً»[1]، فكيف يمكن أن ينقذ شيخٌ مريدَه، إذا لم يرضَ المريد بذلك».

وكان يقول: «ويظن بعض الناس أنَّ الشيخ سينقل مريده في نظرة واحدة إلى الكمال، فلو كان الأمر هكذا، لما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلى أي جهد، إذ لم يكن في الناس أكمل نظراً، وأعظم تأثيراً من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو وقع ذلك حيناً ما خرقاً للعادة، فلا يقع

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (٢٠٤)؛ والبخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، (٢٧٥٣)؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، (٣١٨٥)؛ والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، (٣٦٤٤).

مراراً، فإن الخوارق ليست دائمة لازمة، ومن الخطأ العظيم أن يتكل عليه الإنسان».

لا لزوم لصورة البيعة التقليدية:

أما أخذ اليد حسب العادة والتقليد، أو تناول يد مرشد، وبالأخصّ يد شيخ بالاسم، فهو أقرب إلى الهزل منه إلى الجِدّ، وقد تحدث الشيخ رحمه الله عن ذلك في حماسة وقوة فقال:

«لا طائل تحت هذا التعلّق الفارغ، ولا تحت هذه البيعة الاسمية الرسمية، ولا لزوم لصورة البيعة، الأصل هو روح البيعة، أي الاتباع، ولا حاجة أن يدخل الإنسان في إرادة شيخ، ابدأ عملك بتوجيه المرشد، وقد تحققت العلاقة بينك وبينه، وستجد حتماً ذلك النفع الذي تعتقده في (البيعة) و(الإرادة)، وإني لأعجب للناس أنهم لا يعملون إذا أُمروا بالعمل، ولا يريدون إلا اسم البيعة، لذلك ترى أن المرشدين الذين يأخذون البيعة ولا ينصحون بعمل تجد مريديهم أعظم سروراً بذلك، لأن العمل شاق على النفوس، والبيعة التي لا تكلف شيئاً ترغب فيها الطباع، أما أنا فلا أبايع بل أنصح بالعمل فيُسخطهم ذلك»[1].

يقول الشيخ عبد الباري الندوي وهو يشرح وجهة نظر الشيخ التهانوي رحمه الله حول البيعة التقليدية:

«وكثير من الناس حسبوا (الإرادة) و(الشياخة) و(البيعة) لازمة للتصوّف،

---

(١) بين التصوّف والحياة، ص١٢٦.

أو حسبوا البيعة الصرفة كافية، وهي جهالة خالصة، أما الغرض الحقيقي من الشياخة والإرادة فهو إصلاح الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلى الأخصّ علاج الأمراض النفسية، ولو كان الشيخ والمريد معنيّين بالإصلاح والعلاج عناية تامة، فالبيعة التقليدية الصرفة ليست بواجبة إذاً، غير أن الإنسان كما يلتمس لأمراضه الجسدية طبيباً نظامياً أعلم من يوجد، ثم يراجعه في مشاكله الصحية، كذلك يجب الاعتناء بذلك في طبيب الباطن الذي يداوي الأسقام النفسية»[1].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص٢١٩.

الفصل السابع

الهدف الأصيل هو العبودية
التي هي كمال العمل والطاعة

خلاصة التصوّف والهدف الأساس منه:

والمقصد العظيم، والهدف الجليل من هذه العناوين والتعبيرات والاصطلاحات هو إبانة العلاقة بين العبد والربّ بالعبادة والعبودية والتفاني والتسليم، والذي يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهو إظهار لذلك، وإدماج في الحياة العملية، لتكون علاقتنا بالله تعالى علاقة العبد الرقيق الخاضع، الذي يظل مشمّراً ومستعداً لطاعة سيّده في كل وقت، وكذلك تتحصل صبغة من (الإحسان) من معرفة الذات والصفات والإحاطة والمعية، والقرب والأقربية التي نفهمهما من قوله ﷺ: «فإنْ لَمْ تكُنْ تراهُ فإنَّهُ يَرَاكَ»[1].

---

(١) قطعة من حديث جبريل المشهور؛ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، (٥٠)؛ وكتاب تفسير القرآن، (٤٧٧٧)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (٨) و(٩) و(١٠)؛ والترمذي في سننه، كتاب الإيمان (٢٦١٠)؛ والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، (٤٩٩٠) و(٤٩٩١)؛ وأبو داود في سننه، كتاب السنة، (٤٦٩٥)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، (٦٣ و٦٤).

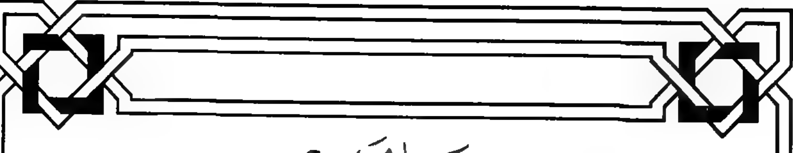
إن الكمال المقصود للشريعة والطريقة كلتيهما هي العبودية التي قيل عنها فيما سبق: إنها قرب الرضا، وهو أن يُذيب العبدُ مرضياتِ نفسه في مرضيات ربه، وأن يجعل أعماله كلها تبعاً لأوامر الله سبحانه وتعالى كلياً، ولذلك لا يمكن حصول هذا القرب والوصول إلا بطريق الإسلام، لأن معرفة أوامر الله سبحانه وتعالى ومرضياته الصحيحة الموثوق بها لا توجد إلا في دين الإسلام، وإذا حصل القرب والوصول بدون اتباعها، فمثلها مثل اللص والثائر، إذا دخل على الملك في مخدعه من طريق خلفية غير عادية، ثم حسب نفسه من مقرّبي الملك.

كانت هذه هي الموضوعات الرئيسة، والعناوين المهمّة في باب خلاصة ما قام به الشيخ التهانوي رحمه الله من التجديد والإصلاح والتحقيق في هذا الموضوع، وعصارة جهوده رحمه الله في هذا الصدد[1].

* * *

---

(١) معظم موضوعات هذا الباب مستفادة ومستقاة من كتاب الأستاذ الكبير عبد الباري الندوي رحمه الله (بين التصوّف والحياة)، الذي ألّفه رحمه الله لبيان جهود حكيم الأمة التهانوي التجديدية والإصلاحية في مجال التصوّف والتزكية والإحسان، وذلك بمراجعة كتب الشيخ رحمه الله المؤلفة في هذا الموضوع، لا سيما كتابه (أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة)، و(قصد السبيل إلى المولى الجليل)، و(الكرامات الإمدادية)، ومعروف أن الأستاذ عبد الباري الندوي رحمه الله كان من كبار تلاميذ وأجلّ خلفاء الشيخ التهانوي رحمه الله، والمستفيدين منه، وإن شاء الله سوف نتحدث عن ترجمته وسيرته بالتفصيل ضمن باب (أشهر خلفائه).



الباب الخامس

نبذة عن مشاهير خلفاء التهانوي

تمهيد : الميزة الخاصّة .

الفصل الأول : العلاّمة السيد سليمان الندوي .

الفصل الثاني : العلاَّمة ظفر أحمد العثماني التهانوي .

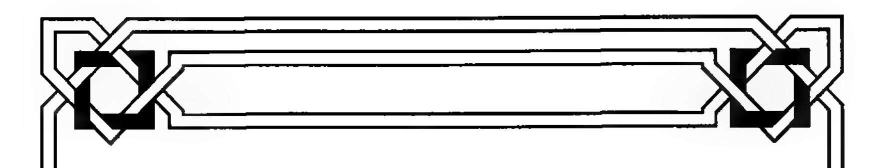
الفصل الثالث : العلاَّمة المفتي محمد شفيع .

الفصل الرابع : الشيخ المقرئ محمد طيب .

الفصل الخامس : الأستاذ الشيخ عبد الباري الندوي .

الفصل السادس : الشيخ عبد الماجد الدريابادي .

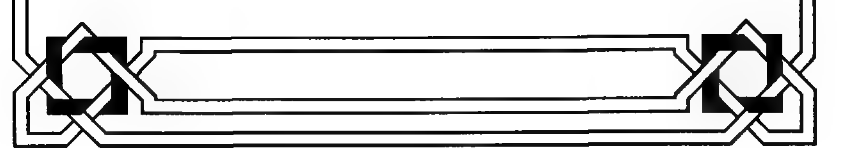
الفصل السابع : الشيخ وصي الله الفتحفوري .



الفصل الثامن : الشيخ عبد الحي السهارنفوري .

الفصل التاسع : الشيخ عبد الغني الفولفوري .

الفصل العاشر : الشيخ محمد يوسف البنوري .



تمهيد

إن استيعابَ أولئك الذين نهلوا من معين التهانوي العلمي والروحي، وتلقوا التربية الدينية، وقطعوا مفاوز السلوك عليه، واستقَوا من بحار علمه وصلاحه، وارتووا من عيون فيوضه وأنهار بركاته، وإحصاءَ مآثِرِهم ليس أمراً ميسوراً، فقد بلغ عددُهم الآلاف، وتفرقوا في أقطار العالم، يحملون هذه الدعوة، وينشرون هذه الحركة ـ حركة الإصلاح والتجديد ـ التي حمل لواءها الشيخ التهانوي رحمه الله.

ويمكننا أن نقدّر ذلك القبول العظيم، والانتشار الواسع الذي أحرزته طريقة الشيخ التهانوي، وكيف أثمرت جهوده الإصلاحية والتجديدية، وآتت أكلها يانعة شهية ـ بأن معظم ـ كبار العلماء، وأصحاب الفضل، والشرف والكمال من شبه القارة الهندية ـ الهند وباكستان وبنجلاديش ينتمون إلى الشيخ التهانوي وطريقته، وينتهجون نهجه.

أما المستفيدون من دعوته، وتربيته وإصلاحه وإرشاده ـ عامة ـ فهم منتشرون في كل أنحاء العالم، ولكن هناك عدد كبير من خلفائه الذين اعتمد عليهم الشيخ رحمه الله للتربية والإرشاد، واختارهم للقيام بهذه الخدمة العظيمة الجليلة، فقاموا بكل ما ألقي عليهم من المسؤوليات خير قيام، في مجال التربية والإصلاح، وأسسوا المراكز الروحية التربوية، واستفاد منهم العلماء والعامة من فوائد العلم والتزكية، ولا يمكن كل ذلك إلا بالتأييد

الربّاني، والإرادة الإلـٰهية، والقبول من الله سبحانه وتعالى، وغاية الإخلاص والصفاء، واتباع السنة النبوية والشريعة الغرّاء.

وهكذا تغلغل صدى التوحيد في كل الأوساط والمجتمعات، وأضاءت شموع الدين في محافل المسلمين.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله: «وصار مرجعاً في التربية والإرشاد، وإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، يشدّ إليه الرحال، ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد وأدانيها، وانتهت إليه الرئاسة في تربية المريدين وإرشاد الطالبين، والاطلاع على غوائل النفوس ومداخل الشيطان، ومعالجة الأدواء الباطنة والأسقام النفسية».

وقال في موضع آخر:

«وقد كان من كبار العلماء الربانيين الذي نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم، وقد بلغ عدد مجالس وعظه التي دُوّنت في الرسائل، وجُمعت في المجامع إلى أربعمئة مجلس، وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه كثيراً في إصلاح العقيدة والعمل، واستفاد منه ألوف من المسلمين، ورفض عدد لا يُحصيه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية...»[1].

هذا ولم يكن المستضيؤون بأنوار علومه وبركات فيوضه، والمستفيدون

---

(١) من تعليقه على كتاب (نزهة الخواطر) ضمن ترجمة الشيخ التهانوي رحمه الله، ص٥٨، المجلد الثامن.

من دعوته وإرشاده أشخاصاً من طبقة خاصة أو طائفة محدّدة، وإنما سادت أشعة دعوته، وأنوار إصلاحه كل الطبقات البشرية والكتل الإنسانية، وعمّت كل المستويات، وها هو سماحة العلاّمة أبو الحسن علي الندوي يسلّط الأضواء على المستفيدين منه رحمه الله، فيقول:

«وأقبل عليه العلماء، والزعماء، والمؤلفون والموظفون، وكبار المثقّفين والمعلّمين في الجامعات، وممن تأثر بالحضارة الغربية والفلسفة الحديثة، وتعرض للإلحاد والمروق من الدين، والعاطلون والمشتغلون. وأهل النبوغ والذكاء، وأهل الحرف والصناعات، وأصحاب النفوس القوية، وأهل الهمم الضعيفة على السواء. حتى كان للتصوّف وإصلاح الباطن مكانة في الطبقة المثقّفة، ودولة في العهد المادّي»[1].

الميزة الخاصة:

إنَّ من أهم مميّزات دعوة الشيخ التهانوي رحمه الله، وتربيته وإصلاحه، أنه قد اجتمع حوله نخب من كل الطوائف، وصفوة من شتى الجماعات، فربّاهم خير تربية، وسعى في إصلاح باطنهم، وقام بذلك خير قيام، فلم يأمر رحمه الله الأغنياء الأثرياء أن يتجرّدوا مما رزقهم الله تعالى من الخيرات والأموال، وما منحهم من عيش هنيء رغيد، ولم يأمرهم أن يعزلوا أنفسهم عن الناس، وينقطعوا عن الدنيا، ويتخذوا لهم زاوية خاصة يحبسون أنفسهم فيها، ولم ينصح بعزل الأولاد والأزواج، والتنحّي عن الأقارب والأصدقاء، بل نفخ

---

(١) من مقدمته لكتاب (بين التصوّف الحياة)، ص١٣.

فيهم روح العبادة لله وحده، واتِّباع السنة النبوية، واختيار منهج السلف الصالح، مع البقاء والاستمرار في نعم الله، والتمتع بما وهبهم الله تعالى من خير الدنيا، وهكذا جمع رحمه الله بين الحسنيين، وقدّم نموذجاً رائعاً ومثالاً حيّاً لنيل أعلى درجات التقرّب إلى الله، والوصول إلى أسمى مكانة من الصّلاح والسعادة والشرف، وذلك للمسلمين أجمعين دون أي تمييز أو تفرقة، أيّاً كانت حرفهم ومهنهم، سواء كانوا من طبقة العلماء، أو من جماعة التجّار، أو من أصحاب الفكر والفلسفة، أو المعجبين بالثقافات الغربية، إنَّ ميّزة الجمع والشمول هذه قد لا نجدها عند غيره من المصلحين والمربّين المرشدين.

ولقد قال رحمه الله وصرّح بهذه الحقيقة في مناسبة من المناسبات، أثناء ذكره لمن نالوا شرف التربية في ظلّه وحازوا المكانة العلياء في مدرسته الإصلاحية والتربوية، بالكلمات الآتية:

«انظروا إلى كل من تلقى عندنا دروس الإصلاح، ونال التربية الدينية، تجدون فيهم كل الطوائف، وسائر الجماعات، فيهم من هو موظف في الدولة، وفيهم من هم من العلماء والمدرّسين، والأطباء والدكاترة، ورجال القانون والمحاماة، والمهندسين والتجّار، وتشاهدون آثار هذه التربية في الأغنياء وأصحاب الثروات والموسرين، والفقراء والمعسرين، إنكم لا تعيشون عصراً أشد فتنة وأعظم محنة من هذا العصر، فلا تصدّنّكم هذه الفتنة العمياء عن اتّباع دينكم، استمسكوا به وعضّوا عليه بالنواجذ».

وأضاف قائلاً: «إن الدين سهل ميسّر، وكل هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى مختلف الطبقات وشتى المهن يشتغلون في وظائفهم ولا يمنعهم مانع من

امتثال الدين والاستسلام لشـريعة الله، إنهم يقومـون بواجباتهم، ويـؤدون مسؤولياتهم على أكمل وجه، وأمثل طريقة، مع احتفاظهم بالامتثال لأوامر الله واتباع شريعته، تراهم مشغولين في كسب المعاش وحصول الرزق، وابتغاء فضل الله، دون أي صعوبة تواجههم أو مشكلة تعانيهم، في القيام بواجباتهم نحو ربهم ودينهم وشريعتهم، وبالتالي فلا يُعذر أحد منكم الآن، بعد اتضاح الحق وتبيّن الواقع، وستشعرون جيداً بمدى سهولة الدين ويسْره، وكونه قابلاً للعمل، وملائمـاً لطبيعة البشرية جمعاء، ومسـايراً للركب البشـري بكل مقتضياته ومتطلّباته»[1].

وها نحن نسعد بذكر نخب وصفوة من أولئك الخلفاء الذين تربّوا في كنف الشيخ التهانوي رحمه الله، ثم قاموا بنشر دعوة مربّيهم في العالم بأسره، ووقفوا حياتهم في هذا السبيل، وأنفقوا كل طاقاتهم، وصرفوا كل إمكانياتهم لتحقيق هذا الغرض النبيل.

أجلّ وأشهر خلفائه:

وكما سبق أن ذكرنا أن أعدادهم لا يمكن أن تُحصى بسهولة، ولذا نكتفي بذكر بعضهم، لِمَا تحوي حياتهم وشخصياتهم من مزايا علمية ودعويـة، وخصائص وصفات قد لا نجدها في غيرهم:

* * *

الفصل الأول

العلاّمة السيّد سليمان الندوي رحمه الله

(١٨٨٤ ـ ١٩٥٣م)

هو العلاَّمة النحرير، المفسّر الشهير، المحدّث الفقيه، والكاتب القدير، النابغة في الإنشاء والأدب والتحرير سليمان بن أبي الحسن بن محمد شير المعروف بالحكيم محمدي، يصل نسبه الشريف إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولد هذا الإمام العلاَّمة في أسرة علمية ودينية عريقة حسينية النسب، شهيرة بالعلم والتقوى والفضل والصلاح، بقرية ديسنة من ولاية (بيهار) الهند، يوم الجمعة لسبعٍ بقينَ من صفر سنة اثنتين وثلاثمئة وألف من الهجرة، الموافق الثاني والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر سنة أربع وثمانين وثمانمئة وألف الميلادي.

نشأته: نشأ رحمه الله على حُبّ الاطلاع والعكوف على العلم، كان منذ نعومة أظفاره ومستهلّ طفولته على دأب نادر في اكتساب العلوم والمعارف، فكانت تلوح على جبينه علائم الرشد، وتتجلى فيه بوارق الذكاء، حتى تفرس بعضُ ذوي البصيرة أنه سيكون له شأن كبير ومكانة عالية رفيعة.

ترعرع رحمه الله في بيئة علمية وأدبية يسودها جوّ من الصلاح والتقوى، ونشأ على أيدٍ أمينة ربته على عقيدة صافية زكية لا تشوبها بدع أو خرافات.

طلبه للعلم: تلقى رحمه الله العلوم الابتدائية من حضرة والده وشقيقه الأكبر السيد أبي حبيب النقشبندي (ت١٩٢٧م) ثم ارتحل رحلته العلمية الأولى إلى (فلواري شريف) إحدى ضواحي العاصمة بتنه (Patna)، ومكث هناك عاماً حيث قرأ على الشيخ محيي الدين المحبّي، وغرس فيه التذوّق للأدب والشعر، كما أخذ دروس المنطق من العلاّمة سليمان الفلواروي، ثم ارتحل إلى المدرسة الإمدادية في مديرية (دربنجه) بولاية بيهار، ودرس هناك كتاب (الهداية) للمرغيناني في الفقه الحنفي على الشيخ مرتضى حسين الديوبندي و(شرح التهذيب) في المنطق على الشيخ فدا حسين الآروي.

التحاقه بدار العلوم لندوة العلماء لكنو: التحق بدار العلوم لندوة العلماء لكنو في عام ١٩٠١م وارتوى من علوم أهلها ومعارفهم لمدة خمس سنوات، وكانت ساحة ندوة العلماء إذ ذاك مزدانة مستنيرة بالعلم، تتلألأ بجهابذة العلماء الربّانيين، وكبار المشايخ من المحدِّثين والفقهاء والمفسّرين، فسنحت الفرصة للعلامة الندوي أن ينهل من علومهم، ويرتوي من معارفهم، ويكسب فيوضهم وبركاتهم، ويروي غليله العلمي في الظل الوارف من هؤلاء العباقرة، حتى كسته صحبتُهم علماً غزيراً، وروعة وبهاءً في الأخلاق والآداب واكتملت ثقافته هناك.

نبوغه وعبقريته ومكانته العلمية: كان رحمه الله عالماً موسوعياً بمعنى

الكلمة، يحمل في صدره مكتبة واسعة في العلوم والفنون، وكانت ذاكرته تذخر بأنواع من الدرر واللآلي من جميع الفنون، فإذا بحثنا عنه في مجال كتاب الله رأيناه دائم التدبّر فيه، إيماناً منه بأن ثمرة التلاوة التدبّر والتذكّر، مع الاهتمام الكبير باستنباط المسائل العقدية والفقهية والخلقية والسياسية، من آي القرآن الكريم، وشرح لطائفه الأدبية، وتحقيق مباحثه التاريخية، وكتابه (أرض القرآن) خير دليل على ذوقه هذا، بالإضافة إلى ذلك كانت له دروس منتظمة في تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً تحقيقياً دقيقاً، كما كانت لديه خطة لتدوين المسائل القرآنية وترتيبها وفق الأسلوب العصري، وإفراد الآيات القرآنية المتعلقة بالقضايا والشؤون العقائدية، والأحكام الفقهية، والمباحث الاقتصادية، كل منها على حدة.

وأما الحديث الشريف فلم يكن نصيبه فيه أقل من الفنون الأخرى، وكان كثير الاشتغال بكتب الأحاديث والسنن والآثار، ومن حبه للسنن والآثار والاشتغال بها، كان دائم الحرص على اقتناء كتب السنة والحديث في دار المصنّفين، حتى أصبحت خزانة دار المصنّفين حافلة بكتب الحديث ورجاله.

وإذا نظرنا إليه كفقيه نجده يتمتع ببصيرة فقهية تامة، وقد توفرت له وسائل تحقيق المذاهب والاجتهاد، لما آتاه الله تعالى من الملكة في معرفة اللغة العربية وآدابها، والعلم الواسع الدقيق بالقرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف، والناسخ والمنسوخ، والاطلاع العميق على مصادر الفقه وأصوله وقواعده، ومذاهب الأئمة وآراء الفقهاء.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الشيخ رحمه الله كان من أول عهده بالبحث

والتحقيق محققاً في المذهب، لا يتقيد بمذهب، سلفي النزعة في العقائد، يؤمن كما آمن السلف الصالح، من غير تكييف ولا تعطيل، وما زال يكتب ويحاضر متشبعاً بهذا المنهج الفكري، إلى أن أربى على الخمسين من عمره، ثم جعل يميل شيئاً فشيئاً إلى التنسّك والتصوّف، فمن ذلك اليوم بدأت تظهر فيه آثار التدرّج نحو مذهب الحنفية والمتصوّفة في كثير من المسائل، وكذلك تغيرت وجهة نظره في كثير من المسائل المستحدثة، والمشاكل الجديدة المتنوّعة، يقول رحمه الله:

«إني ملتزم بالسنَّة، ومتبع للتوحيد الخالص، أرى السنَّة دليلي، وبابَ الاجتهاد مفتوحاً دائماً للعلماء، ولا أرى الحق منحصراً في أحد من أئمة السلف».

ويقول في إحدى خطبه: «من مفاسد هذا العصر الجمود المشين على آراء الفقهاء المتأخرين وفتاواهم، كأنهم معصومون عن الأخطاء والزلاّت، وعدم الرجوع إلى المرجعين الأصليين، القرآن والسنة، واجتهادات أئمة السلف في البحث عن الحلول للمشاكل المدنية والقضايا الدينية، والقول بإغلاق باب الاجتهاد للأبد».

أما التاريخ والاعتناء بالسيرة فكما قال الشيخ أبو الحسن علي الندوي: «إن السيد سليمان الندوي يستحقّ دون مراء أن يُعدّ مؤرّخ وباحث عصره، وإن كتبه (الخيّام) و(الصلات بين الهند والعرب) و(الملاحة عند العرب) و(حياة الإمام مالك) و(سيرة أم المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها) خير نموذج

للكتابة في التاريخ والبحث العلمي، وكتابه (أرض القرآن) لا يزال كتاباً فريداً لم يُنسج على منواله في موضوعه، وهو ثروة غنية في المواد العلمية»[1].

كما أنه رحمه الله كان ضليعاً بالفلسفة وعلم الكلام، وخير دليل على ذلك كتابه (سيرة النبي ﷺ) فإنه حقق بالسيرة والتاريخ أهدافاً لا تحقق إلا بعلم الكلام، فأسس علم كلام جديد يفوق علم الكلام القديم في التأثير على الذهن الجديد وإقناعه، وفي زيادة الثقة بالشخصية النبوية، والشريعة الإسلامية، وهو أكثر سداداً للحياة العلمية المعاصرة.

أما اللغة العربية فكان رحمه الله من كبار الأدباء، وإنه أتى في حقل الأدب العربي بالعجائب، وخلّف آثاراً في القول المنظوم والمنثور، مما يعجز عن مثله نوابغ أدباء الهند وشعرائها.

أهم مآثره العلمية وجلائل أعماله الخالدة:

من أبرز أعماله العلمية، وأرفعها ذكراً، وأسماها مكانة، إكماله لكتاب (سيرة النبي ﷺ) الذي كان بدأ تأليفه أستاذُه ومربّيه المحقّق العلاَّمة شبلي النعماني رحمه الله، وفعلاً كان التلميذ خير مكمِّلٍ لما بدأ به أستاذه، فخرج الكتاب أمام العالم من عيون ما ألّفه علماء الإسلام منذ قرون، ومن غرر ما أتحف به علماءُ الهند المكتبةَ الإسلامية العامةَ، وتفتخر به المكتبات الإسلامية، والكتاب في سبع مجلدات كبيرة.

---

(١) شخصيات وكتب، للعلاَّمة السيد أبي الحسن علي الندوي رحمه الله، ص٧٠ ـ ٧١.

وله مصنفات علمية أخرى فريدة من نوعها، ومنها: (أرض القرآن) وهذا الكتاب بمثابة مقدّمة لكتاب (سيرة النبي ﷺ) وهو في جزأين، وهو كتاب فريد من نوعه، من أهم مزاياه دراسته لأوضاع العرب السياسية والتاريخية والحضارية في ضوء القرآن الكريم، مع الاستفادة من المصادر الأجنبية؛ مثلاً العبرية والإنكليزية والمصادر الإسرائيلية والرومية واليونانية، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ الدكتور محمد أكرم الندوي، وهو قيد الطباعة في دار القلم بدمشق.

(سيرة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها) هذا الكتاب العظيم أولى المحاولات من نوعها بصدد دراسة حياة أم المؤمنين رضي الله عنها دراسة علمية وافية، وكشف الستار عن مكانة هذه العبقرية الفذة، وقد تم نقل الكتاب إلى اللغة العربية مع دراسة وتحقيق وتخريج الأحاديث، وطبعته دار القلم بدمشق.

و(محاضرات مدراس)[1] و(حياة الإمام مالك) و(الملاحة عند العرب) و(رسالة أهل السنة والجماعة) بالإضافة إلى عشرات المؤلفات التي فاض بها قلمه السيّال، وهي كلها نافعة تتّسم بأقصى درجة من البحث والنظر والتدقيق والتحقيق.

---

(١) وقد نقل الكتاب إلى العربية مع تخريج أحاديثه كاتب هذه السطور تحت عنوان (الرسالة المحمدية)، وقد طبع في دار القلم بدمشق.

التربية وإصلاح النفس ومبايعة حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي:

ولما بلغ رحمه الله ذروته في النبوغ والكمال في العلوم والآداب، وذيوع الصيت والشهرة في أنحاء الهند، وأكناف العالم، وأصبح ملجأ العلماء والمثقفين، ومأوى الكُتّاب والباحثين حملته نفسه الطامحة إلى أن يُعنى بإصلاح باطنه وتزكية نفسه، ليبلغ درجة الإحسان، فاختار أن يصحب العالم الربّاني والمرشد الديني الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي.

يقول سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: «أعتقد أنه لم يكن في العلماء المعاصرين، وعلى الأقلّ في خرّيجي المدارس الدينية في الهند من عاش معركة العقل والقلب، والقديم والجديد، والشرق والغرب، والدين والأدب، أو الدين والفلسفة، مثل ما عاشها أستاذنا العلاّمة (السيد سليمان الندوي) الذي كان من خرّيجي دار العلوم لندوة العلماء، ومؤلف سيرة النبي ﷺ، وسياسياً خبيراً وأديباً بصيراً، تجول في أوروبة، وكان قد سقى شجرة العلم بنبعه الفيّاض، واستظل بظلّها الظليل سنين طوالاً، وتناول موضوعات التاريخ، وتحدث عن فلسفة مدّ العلم وجزره، وتطوّره وانحطاطه، ولكن قلبه السليم وروحه الوثّابة كانت تشهد بأنه لم ينهل بعد من نميره الصافي الفيّاض، وكانت مؤلفاته وخاصة (محاضرات مدراس)، (سيرة النبي ﷺ)، (سيرة أم المؤمنين السيدة عائشة)، قد أذكت في قلوب آلاف الناس شعلة الإيمان، فذاقوا حلاوته، ولكن همته البعيدة، وعزمه وطموحه كان يحثه

على البحث عن تلك المنزلة التي عبّر عنها الحديث الشريف بالإحسان، والقرآن الكريم بالتزكية، وكان يشعر بحاجة إلى من يرشده إلى دقائق إصلاح النفس، وكمال الإخلاص والتحقيق، فساقه التوفيق والمناسبة العلمية إلى مولانا أشرف علي التهانوي، وبايعه في شهر رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمئة وألف، وأذعن له بالثقة والاعتماد، والتفويض والانقياد، ونال عند شيخه الزلفى في أقل مدة، فأجازه، واستخلفه لعشرٍ خلونَ من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمئة وألف»[1].

وفاته:

بعدما أمضى عمره الحافل بالعمل الدؤوب، والمآثر الخالدة، والخدمات العلمية والدينية وافاه الأجل بباكستان في غرة شهر ربيع الثاني عام ١٣٧٣هـ الموافق ٢٢ من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٥٣م، رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

---

(١) انظر: شخصيات وكتب للشيخ أبي الحسن علي الندوي، ص٧٥ ـ ٧٦؛ ونزهة الخواطر: ٨/ ١٦٥؛ وكتاب الأستاذ الدكتور محمد أكرم الندوي (السيد سليمان الندوي، أمير علماء الهند في عصره وشيخ الندويين).

الفصل الثاني

العلاَّمة الكبير الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي

هو العلاَّمة المحقق والبحَّاثة المدقق، والثبت الحجة، المفسّر المحدِّث، الفقيه الأصولي البارع، المؤرِّخ الأديب، والورع الزاهد، **ظفر أحمد بن لطيف العثماني التهانوي**.

ولد في ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٠هـ، بدار آبائه بقرب دار العلوم في ديوبند، أعظم مراكز العلم في البلاد الهندية، وتوفيت أمه وهو ابن ثلاث سنين، فربّته جدته أحسن تربية، وكانت امرأة تقيّة صالحة، فتلقن منها صلاحها وتقواها، ولما تمّ له من العمر خمس سنوات، شرع في قراءة القرآن الكريم عند كبار حفظته في ديوبند، ولما أتمّ السابعة شرع في قراءة الكتب الأردية والفارسية وكتب الحساب والرياضيات عند الشيخ الجليل مولانا محمد ياسين، وهو والد كبير علماء باكستان العلاَّمة الشيخ محمد شفيع الديوبندي، المفتي الأعظم في كراتشي ومؤسس دار العلوم الإسلامية فيها، ثم انتقل من ديوبند إلى مجلس خاله (الشيخ التهانوي) وشرع في قراءة الكتب العربية عند العلاَّمة المتمكّن مولانا محمد عبد الله الكنكوهي، وسمع من خاله شيئاً من علم التجويد، ونبذاً من التلخيصات العشر، وأجزاءً من (المثنوي).

ثم لما اشتغل خاله في تأليف كتابه العظيم (بيان القرآن) بالأردية، ذهب به إلى (كانفور) وأدخله في مدرسة (جامع العلوم) وفوّض تدريسه وتعليمه إلى أرشد تلامذته: مولانا محمد إسحاق البردواني، ومولانا محمد رشيد الكانفوري، فقرأ عندهما كتب الحديث المقررة ـ الكتب الستة ـ و(مشكاة المصابيح)، مع ما يعزز دراستها من كتب المصطلح وعلوم الحديث، كما قرأ عندهما كتب الفقه والتفسير والأدب المقررة بكاملها.

ولما فاز بسند العلوم الشرعية والنقلية، متميزاً بمواهبه وجِدّه على سواه من الطلبة النابهين، انتقل إلى سهارنفور، وجلس في مدرسة (مظاهر العلوم) وحضر دروس الحديث الشريف عند العارف بالله، الإمام المحدّث الفقيه مولانا خليل أحمد السهارنفوري، مؤلف (بذل المجهود في شرح سنن أبي داود).

وبعد مدة من ملازمته لهذا المحدِّث الإمام أجازه بالحديث وعلومه وبسائر العلوم النقلية والعقلية، وفاز بسند الإتمام والفراغ من الدراسات العليا في سنة ١٣٢٨هـ، وكانت سنه حينئذٍ ١٨ سنة، وهي سن صغيرة لا يرتقي فيها إلى ذروة هذه المرتبة إلا الأفذاذ النابغون، ونظراً لمزيد تفوقه، وبالغ ذكائه، ونبوغه؛ عُيّن مدرساً في المدرسة المذكورة، فدرّس فيها زهاء سبع سنين علم الفقه والأصول والمنطق، ثم فوّض إليه الشيخ التهانوي تأليف كتاب (إعلاء السنن) مع الإفتاء والتدريس، فقام بكل ذلك خير قيام، وبقي في تأليفه نحو عشرين سنة، فألفه في (١٨) مجلداً، ثم أمره الشيخ التهانوي بتأليف (دلائل

القرآن على مسائل النعمان) على منوال (أحكام القرآن) للجصّاص، وقد ألّف منه مجلدين كبيرين انتهيا بسورة النساء، وألف كتباً عديدة بالأردية منها: (القول المتين في الإخفاء بآمين) و(شق الغين عن حق رفع اليدين) و(رحمة القدوس في ترجمة بهجة النفوس) و(فاتحة الكلام في القراءة خلف الإمام).

وأخيراً استقر في دار العلوم الإسلامية في أشرف آباد غربي باكستان، يدرّس فيها صحيح البخاري.

كان رحمه الله مع ضعفه ومرضه ملتزماً بالأذكار والنوافل، يشهد جميع الصلوات في المسجد، ويتحمل لذلك عناءً كبيراً، وكان لسانه في أواخر عمره رطباً بذكر الله في أكثر الأوقات، وفي شهر رمضان سنة ١٣٩٤هـ قد منعه الأطباء من الصيام، لأمراضه المتواردة، ولكنه لم يرضَ بذلك، وقال: إن عياضاً رضي الله عنه لم يترك الصيام وهو في التسعين من عمره، وكان يلقى من الصوم شدةً وعناءً، حتى كان يجلس في مركن من الماء، ولا يرضى بالافتداء، فكيف أرضى بالفدية؟!.

وهكذا عاش رحمه الله حتى توفاه الله تعالى في ذي العقدة سنة ١٣٩٤هـ، أسكنه الله تعالى في رحمته ورضاه[١].

* * *

---

(١) تقدمت هذه الترجمة ضمن فصل أهم تلامذة الشيخ التهانوي، وأعدتها هنا إتماماً للفائدة.

الفصل الثالث

العلاّمة الشيخ المفتي محمد شفيع رحمه الله
المفتي الأعظم بباكستان سابقاً

يعتبر مولانا العلاَّمة الشيخ المفتي محمد شفيع رحمه الله من كبار علماء الهند وباكستان، الذين حملوا في هذه الديار لـواء الدين الحنيف، وبذلـوا لإعلاء كلمته حياتهم وقوتهم، وأناروا في ديوبند ـ الهند ـ مصابيح التجديد الباهرة الشعلة، الساطعة النور، حتى لا تزال قافلة الإسلام تتقدم، مبدّدة دياجير الكفر والإلحاد، وباعثة للأمل الحي في نفوسٍ أماتها اليأس والقنوط.

ولد الشيخ رحمه الله تعالى في الواحد والعشرين من شعبان المعظّم سنة ١٣١٤هـ، وترعرع في حجر العلم والعرفان، إذ عكف على تلقّي العلم من العلماء الكبار منذ نعومة أظفاره، والتزم صحبة العارفين من بداءة عمره.

التحاقه بدار العلوم ديوبند:

قد دخل دار العلوم في ديوبند بعدما قرأ القرآن الكريم في سنة ١٣٢٥هـ وهو في ميعة صباه، ولم يزل مشتغلاً بدراسته مدة عشر سنوات، مكباً على تلقي العلوم من العلماء الأفاضل، الذين سارت بصيتهم الركبان في أنحاء الهند وخارجها.

أشهر أساتذته:

(١) ـ الإمام الحافظ المحدّث العلاَّمة المحقق مولانا الشيخ أنورشاه الكشميري، وكان بحراً زاخراً بالعلوم والمعارف، نابغة في كل فن، آية من آيات الله في الحفظ والإتقان، قرأ عليه الشيخ محمد شفيع: (الجامع الصحيح) للبخاري، و(سنن الترمذي)، وكتاب (الشمائل)، و(العلل)، وكتاب (الفلسفة الجديدة)، و(شرح النفيسي في الطب)، وهو من تلامذته المبرزين، وكان حضرة الإمام الكشميري يحبّه حتى جعله من أصحابه الأصفياء، الذين ساعدوه في مهمة الردّ على (القاديانية) وبأمره ألّف الشيخ رحمه الله كتاب (ختم النبوة) باللغة الأردية، و(التصريح بما تواتر في نزول المسيح)، و(هدية المهديين في آيات خاتم النبيين) باللغة العربية.

(٢) ـ الإمام الفقيه مولانا الشيخ المفتي عزيز الرحمن، وكان من أعلام العلماء والفقهاء، قرأ عليه الشيخ: (موطأ الإمام مالك) برواية يحيى بن يحيى، وبرواية الإمام محمد بن حسن الشيباني، و(شرح معاني الآثار) للإمام الطحاوي و(تفسير الجلالين) للسيوطي والمحلي، و(مشكاة المصابيح) للتبريزي، و(شرح نخبة الفكر) للحافظ ابن حجر العسقلاني، رحمهم الله تعالى.

(٣) ـ الإمام الزاهد مولانا الشيخ السيد أصغر حسين الهاشمي الحسني، وكان رحمه الله من أعيان علماء عصره، فيه أنموذج صالح للأخلاق الإسلامية الكريمة من التواضع وخشية الله، قرأ عليه الشيخ محمد شفيع: (سنن أبي داود)، و(السنن الكبرى) للنسائي، وجزءاً من أواخر (سنن الترمذي).

(٤) ـ الإمام الداعية الكبير شيخ الإسلام مولانا شبير أحمد العثماني صاحب (فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم)، قرأ عليه الشيخ رحمه الله (صحيح الإمام مسلم)، وشطراً من كتاب (الهداية).

(٥) ـ الإمام الفاضل شيخ الأدب والفقه مولانا إعزاز علي، وكان رحمه الله بارعاً في سائر العلوم، لا سيما العلوم الأدبية، قرأ عليه الشيخ المفتي شفيع سائر الكتب الأدبية، و(شرح هداية الحكمة) للميبذي، و(شرح العقائد النسفية) للتفتازاني، و(شرح الوقاية) لصدر الشريعة، وبعض الرسائل الأخرى.

(٦) ـ الإمام الفيلسوف مولانا الشيخ محمد إبراهيم البلياوي، وقد قرأ عليه الشيخ كتاب (الصدرا) و(الشمس البازغة)، وفرغ من دراسته في سنة ١٣٣٥هـ، ولما كان من الطلاب المتفوّقين زمن دراسته اختاره أساتذة دار العلوم ليكون مدرساً لها، فشرع في التدريس سنة ١٣٣٦هـ، وسرعان ما اشتهر تدريسه في أوساط الطلبة، ولم يزل يدرّس الحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الدينية الرائجة مدة ست وعشرين سنة، وتتلمذ عليه في هذه المدة خلق كثير، واستفادوا من علومه وعرفانه، ونهلوا من معينه العذب النمير.

استرشاده بمشايخ الطريقة ولا سيما الشيخ أشرف علي التهانوي:

كان الشيخ محمد شفيع منذ ميعة صباه في اشتياق شديد نحو الاستفادة من صحبة أساتذته ومشايخه الكرام، فكان كثيراً ما يحضر مجالس الإمام الداعية المجاهد الكبير شيخ الهند مولانا محمود الحسن، ويستفيد من بحار عرفانه، ثم لما اعتقل الشيخ بجزيرة (مالطة) راجع شيخ مشايخ الوقت، حكيم الأمة

مولانا التهانوي، وبعدما رجع شيخ الهند إلى (ديوبند) بايع على يده بيعة السلوك في سنة ١٣٣٩هـ، ولم يزل يلازمه حتى توفاه الله، ثم بعد وفاته رحمه الله، راجع حكيم الأُمة الموصوف مرة ثانية، وجدّد البيعة على يده في سنة ١٣٤٦هـ، ثم لازمه مدة ست وعشرين سنة، وكان حكيم الأمة يحبّه، ويعتبره من أصحابه الأصفياء، ويشاوره في كل مهمة دينية، وساعده حضرة الشيخ في تأليف كثير من الكتب مثل (الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة) وهو كتاب قيّم يحتوي على أحكام زوجة المجنون والمتعنّت والمفقود والعنّين، وكان مذهب الحنفية فيها ضيّقاً فراجعوا علماء المالكية وكتبهم، وأفتوا بمذهبهم، وبالجملة فقد لازم الشيخ حكيم الأمة التهانوي رحمه الله إلى سنة ١٣٦٢هـ، وفي سنة ١٣٤٩هـ أعطاه حكيم الأمة خلافته في هذا الطريق.

عنايته بالإفتاء:

كان الشيخ محمد شفيع رحمه الله يعتني بالفقه والفُتيا اعتناءً بالغاً منذ زمن تدريسه بدار العلوم ديوبند، فكان كثيراً ما يساعد شيخه المفتي عزيز الرحمن ـ رئيس هيئة الإفتاء ـ ثم لما توفّاه الله تعالى، رشّحه الأساتذة لكي يتبوّأ منصب رئيس هيئة الإفتاء بدار العلوم، ليملأ الفراغ الناشئ من وفاة الشيخ عزيز الرحمن، فلم يزل يشغل هذا المنصب الجليل فيما بين الفترة ١٣٥٠هـ ـ ١٣٦٢هـ، ثم هاجر رحمه الله إلى باكستان في ١٣٦٧هـ الموافق ١٩٤٨م وأسس دار العلوم في كراتشي، وهي جامعة شعبية دينية، وتعتبر الآن من أكبر مراكز العلوم الدينية في باكستان.

مؤلفاته:

قد فاض بقلمه السيَّال، وفكرته الناضجة ووجهة نظره الدعوية والعلمية لآلئ منثورة، ودررٌ ثمينة غالية، وألّف رحمه الله في كل فن من الفنون التفسير والحديث والفقه والتصوّف والأدب والعقائد والآداب الاجتماعية وغيرها، وفيما يأتي نتطرّق إلى ذكر بعض الأهم منها:

١ ـ **(معارف القرآن)**: وهو تفسير للقرآن الكريم، ألّفه الشيخ باللغة الأردية في ثمانية مجلدات، شرح فيه معاني القرآن الكريم بأسلوب سهل رائع، وتطرّق إلى الأحكام المستنبطة من الآيات، كما أنَّ هذا التفسير يحتوي على مباحث علمية نادرة أحدثها العصر الحديث، وقد ترجم التفسير إلى عدة لغات كالفارسية والبنغالية، وقد شرعت جماعة في ترجمته إلى اللغة الإنكليزية وأخرى إلى اللغة العربية.

٢ ـ **(جواهر الفقه)**: وهي مجموعة قيّمة لرسائل فقهية حول موضوعات يكثر التساؤل عنها، وأبحاث علمية نفيسة حول موضوع (رؤية الهلال) و(مواقيت الإحرام) و(بيع حقوق الطبع) و(الذبح بالمكائن) وما إلى ذلك من موضوعات تهمّ المسلم المعاصر، وقد بلغت هذه الموضوعات أكثر من أربعين.

٣ ـ **(ختم النبوّة)**: وهو كتاب حافل للرد على الدجاجلة القاديانيين.

٤ ـ **(سيرة خاتم الأنبياء)**: وهو كتاب وجيز جامع لسيرة رسولنا الحبيب المصطفى ﷺ.

٥ ـ **(الآلات الجديدة)**: رسالة تتحدث عن أحكام المخترعات الحديثة والنوازل الجديدة.

٦ ـ **(أحكام الأراضي)**.

٧ ـ **(إمداد المفتين)**: وهي مجموعة لبعض فتاويه التي أفادها زمن إقامته بدار العلوم ديوبند، وطبعت في أربعة مجلدات ضخام.

٨ ـ **(التصريح بما تواتر في نزول المسيح)**: رسالة وجيزة باللغة العربية ألّفها الشيخ بأمر من أستاذه وشيخه العلاّمة الإمام الشيخ أنور شاه الكشميري، جمع فيها الأحاديث الواردة عن المسيح عليه السلام وصفاته.

٩ ـ **(هدية المهديين في آيات خاتم النبيين)**: رسالة أخرى في الرد على القادياني الكذّاب، ألّفها رحمه الله بأمر من شيخه العلاّمة الكشميري السابق الذكر.

وفاته:

توفّاه الله تعالى ليلة الحادي عشر من شوّال سنة ١٣٩٦هـ، الموافق تشرين أول أكتوبر عام ١٩٧٦م، وشهد جنازته نحو خمسين ألف رجل، رحمه الله رحمة واسعة، وتقبل منه سعيه المشكور، ورفع درجاته في أعلى عليين[١].

* * *

---

(١) انظر ترجمته المفصّلة: في مقدمة (اليانع الجلي في أسانيد الشيخ عبد الغني) للشيخ محمد تقي العثماني حفظه الله؛ ومقدمة (أحكام القرآن) المجلد الثالث؛ وكاروان تهانوي، ص١١٣ ـ ١١٦.

الفصل الرابع

الشيخ المقرئ حكيم الإسلام محمد طيب

١٣١٥ ـ ١٤٠٣هـ = ١٨٩٧ ـ ١٩٨٣م

نسبه ومولده وتعليمه:

هو العالم الهندي الكبير الذي انتهت إليه رئاسة الخطابة الدينية في العهد الأخير، والذي جمع بين الشرف في النسب الديني، والنسب العائلي معاً، وتمتّع بالشعبية غير العادية عبر شبه القارة الهندية، فهو حفيد الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفى ١٢٩٧هـ = ١٨٨٠م الذي كان رئيس الطائفة المؤمنة والكتيبة الربانية التي أسست جامعة ديوبند الشهيرة، والذي ينتهي نسبه إلى سيدنا **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه، وهو النجل الأكبر للشيخ الحافظ محمد أحمد بن الإمام النانوتوي المتوفى ١٣٤٧هـ، الموافق ١٩٢٨م، الذي رأس جامعة ديوبند مدة أربعين عاماً في الفترة ما بين ١٣١٣ ـ ١٣٤٧هـ.

في هذا البيت العلمي، والوسط الديني ولد الشيخ محمد طيب رحمه الله في محرم ١٣١٥هـ الموافق لأيار مايو عام ١٨٩٧م في مدينة (ديوبند)، بمديرية (سهارنفور) بولاية (أترابراديش) الهند، وسُلّم للكتّاب وهو ابن سبع سنين، وانتهى من حفظ القرآن الكريم مع إتقان التجويد والقراءات في ظرف

سنتين، حتى تخرج منها عالماً متضلعاً عام ١٣٣٧هـ، الموافق ١٩١٩م، وهو ابن نحو (٢٢) سنة فقط.

شيوخه وأساتذته:

وكان من بين الشيوخ الأجلاّء الذين قرأ عليهم في جامعة ديوبند، الشيخ **محمود حسن الديوبندي** المعروف بـ(شيخ الهند) المتوفى ١٣٣٩هـ، الذي أسَّس لتحرير الهند من مخالب الاستعمار البريطاني (حركة الرسائل الحريرية) المعروفة جداً في تاريخ تحرير الهند، والشيخ **خليل أحمد السهارنفوري** المدني المتوفى ١٣٤٦هـ، صاحب (بذل المجهود في حلّ سنن أبي داود) والمفتي الأكبر بجامعة ديوبند الشيخ **عزيز الرحمن العثماني الديوبندي**، المتوفى ١٣٤٧هـ، والمحدّث الكبير الشيخ العلاّمة **أنور شاه الكشميري**، المتوفى ١٣٥٢هـ، الذي انتهت إليه رئاسة الحديث في عصره، والشيخ حبيب الرحمن العثماني الديوبندي صاحب التفسير الشهير للقرآن الكريم، والعالم الربّاني الشيخ السيد **أصغر حسين**، المتوفى ١٣٦٤هـ، وكثير آخرون.

وتخرج في التزكية والإحسان على الشيخ **محمود الحسن الديوبندي**، والشيخ الكبير حكيم الأمة العلاّمة **أشرف علي التهانوي** رحمهم الله، حيث بايعه بعد وفاة الشيخ محمود حسن رحمه الله في عام ١٣٥٠هـ.

يقول رحمه الله متحدثاً عن البيئة التي نشأ فيها: «قد ولدت في مستهلّ القرن الرابع عشر الهجري، ومنتهى القرن الثامن عشر الميلادي، في بيئة شهدت انقلاب موازين الحضارة المتوارثة، وكان وقعُ حضارةٍ جديدةٍ، وثقافة

حديثةٍ، بدأ يقرع الآذان، وقد كانت ولادتي في أسرة جدّي الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، الذي كان محيي العلم والدين في عصره، وكانت حياته مثالاً للبساطة والتوكل والاكتفاء بأقل ما يمكن من الأسباب، والاقتصاد والجدّ والكدّ. وكانت زوجة (جدّي) قد تشبعت مباشرة بتربيته وصحبته المؤثرة، فكانت نسيج وحدها في المجاهدة في العبادة، والسخاء والسماحة، والتمسّك بشعائر الدين، والمحافظة على الصلاة والصيام والأوراد».

عمله أستاذاً ونائب رئيس ثم رئيساً لجامعة دار العلوم ديوبند:

وبعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند عُيّن أستاذاً فيها، فدرّس كتب شتى العلوم والفنون عن جدارة وأهلية، بما فيها كتب التفسير والحديث والفقه والصرف والنحو والبلاغة والمنطق والفلسفة، وكتاب أسرار الشريعة (حجة الله البالغة) للإمام وليّ الله الدهلوي (المتوفى ١١٧٦هـ).

وبرغم تولّيه بعدئذٍ رئاسة الجامعة لمدة ستين عاماً تقريباً ظل يقوم بالتدريس، ولا سيّما كتاب (حُجة الله البالغة)، وعُيّن رئيساً للجامعة بالنيابة عام ١٣٤١هـ، وعُيّن رئيساً مساعداً للجامعة لفترة قصيرة بعد وفاة الشيخ حبيب الرحمن العثماني، ثم رئيساً مستقلاً لها في ٢١ شوّال سنة ١٣٤٨هـ.

هذا وقد شهدت الجامعة على عهده تقدماً كبيراً، جديراً بكل نوع من الإشادة والتقدير، بالإضافة إلى أنَّ صيتها طبّق الآفاق بشكل غير مسبوق،

وتخرّج في عهده أكبر عدد من دُفعات العلماء والدعاة والمفتين والمفكّرين من هذه الجامعة.

دفاعه عن الإسلام والمسلمين:

وبالإضافة إلى جانب هذا التقدّم الهائل الذي شهدته الجامعة على عهد رئاسته على كافة الأصعدة البنائية والإدارية والتعليمية وعلى صعيد السُّمعة المطبّقة والصيت الذائع، إلى جانب ذلك كان دوره طليعياً في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وذلك انطلاقاً من أسوة مشايخ الجامعة الذين ظلّوا يحاربون الاستعمار الإنكليزي بكافة الأسلحة، ثم ظلّوا في طليعة المحاربين للفرق الضالّة والطوائف المنحرفة، بما فيها القاديانية والبريلوية والحركات المستهدفة للإسلام، من قِبل الإحيائية الهندوسية والتبشير المسيحي.

أما بالنسبة للقاديانية فقد شارك مع مشايخه وزملائه في كثير من المناظرات والمقاومات، كما كتب وخطب طويلاً في هذا الموضوع. وأما بالنسبة للبريلوية فقد كان لساناً ناطقاً ضدها بخطاباته التي لا تُحصى، والتي قلّما بقيت مدينة أو قرية في شبه القارة الهندية لم تستمع لها، وكانت معظم خطاباته تدور حول غرس الحقائق الأصيلة للإسلام في قلوب الجماهير.

مكانته في الخطابة:

لم يُـرَ له مثيلٌ في شبه القارة الهندية، في مجال الخطابة، كان يجلس على منصّة الخطابة والوعظ، فيمتلك مشاعر المستمعين وقلوبهم، بغزارة

علمه، ووفرة اطّلاعه، وكثرة محفوظاته، وتعمقه في الكتاب والسنة، وتشبّعه بأسرار الشريعة، وبروعة عرضه للدلائل على حقّية الإسلام وأحكامه وشرائعه، وبعذوبة منطقه، وجمال مظهره، وحسن هندامه، وبديع بيانه، وسلاسة لسانه، كأن عندليباً يغنّي، أو ملكاً يتكلّم، يجري في خطاباته في هدوء، وعلى نسقٍ واحد، كالأنهار الجارية في السهول.

هذا وقد اعترف بفضل الشيخ محمد طيب رحمه الله في مجال الخطابة، نوابغ الخطباء وعباقرة اللّسن المعاصرين، وعلى رأسهم الخطيب الإسلامي البليغ الشيخ **عطاء الله شاه البخاري**، المتوفى ١٣٨١هـ، وأديب الأردية وخطيبها المصقع، وكاتبها الفريد الشيخ **أبو الكلام آزاد**، وزير التعليم الهندي الأول بعد الاستقلال، المتوفى ١٣٧٧هـ، الموافق ١٩٥٨م.

مؤلفاته:

وإلى جانب ذلك كله كان رحمه الله كاتباً قديراً، باللغة الأردية، وشاعراً مطبوعاً باللغتين الأردية والفارسية، ودبَّجت يراعته مئات من المقالات والبحوث العلمية والفكرية والدعوية، نشرتها شتى المجلاّت الأردية في شبه القارة الهندية وخارجها، كما ألّف رحمه الله كتباً بالأردية في مختلف الموضوعات الإسلامية، ونقل بعضها إلى اللغتين العربية والإنكليزية، ومن أهم مؤلفاته:

١ ـ التشبّه في الإسلام.

٢ ـ أسباب تقدّم الأمم وانحطاطها.

٣ ـ الدين والسياسة.

٤ ـ مبادئ الدعوة الإسلامية.

٥ ـ المساواة الإسلامية.

٦ ـ الإسلام والعلم.

٧ ـ الاجتهاد والتقليد.

شمائله:

جمع الله فيه إلى جانب روح العمل، لين العريكة، ومرونة الخلق، وكرامة النفس، والمروءة والسماحة، وطلاقة الوجه التي كانت تعلو محيّاه كلّ وقت، فقد ظلّ متوفراً على دراسة كتب الإمام الغزالي، (المتوفى ٥٠٥هـ) والإمام وليّ الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦هـ، وجدّه الإمام محمد قاسم النانوتوي، المتوفى ١٢٩٧هـ، والعلاّمة حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمهم الله.

وفاته:

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة تماماً من يوم الأحد ٦ شوال ١٤٠٣هـ الموافق ١٧ تموز يوليو ١٩٨٣م، استأثرت به رحمة الله تعالى، وصُلّي عليه في داخل الحرم الجامعي بعد صلاة العشاء، ودفن في المقبرة القاسمية الملاصقة للجامعة. وكان رحمه الله لدى وفاته في الثماني والثمانين

من عمره، وفعلت فيه الشيخوخة ما تفعل فيمن يبلغ هذه السنّ، وأنهكته الأمراض التي أصابته في الأيام الأخيرة، إلا أن قواه الفكرية لم تزل على ما هي عليه حتى آخر لحظات حياته[1].

* * *

(١) من مقدمة الشيخ الأستاذ نور عالم خليل الأميني لكتاب (علماء ديوبند اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي)، للشيخ محمد طيب رحمه الله، ص٢٥ - ٦٩ باختصار وتلخيص وتعديل.

الفصل الخامس

الأستاذ الشيخ عبد الباري الندوي

هو الشيخ عبد الباري بن الحكيم عبد الخالق، أحد العلماء المشهورين بمعرفة الأدب والفلسفة الإسلامية، ولد في ١٤ من ذي الحجة ١٣٠٦هـ، الموافق آب أغسطس عام ١٨٩٠م، في قرية (ستركهو) بمديرية (باره بنكي) ثم استوطن والده مدينة (لكنو).

كان والده من العلماء المشهورين في عصره، ومن أجلّ خلفاء الشيخ **محمد نعيم**[1] **فرنكي محلي**، يصل نسبه الشريف إلى الصحابي الجليل عبد الله الأنصاري رضي الله عنه.

اشتغل بالعلم على الشيخ فرنكي محلي، والشيخ **توكّل حسين** في

---

(١) هو الشيخ الفاضل الكبير محمد نعيم بن عبد الحكيم بن عبد الرب بن ملك العلماء بحر العلوم عبد العلي محمد الأنصاري اللكنوي أحد كبار العلماء، كان عالماً كبيراً فقيهاً أصولياً متكلماً ناصحاً مفيداً مع البر والدين، والتودد والتواضع والحلم والأناة والاستقامة، كان غاية في الزهد والقناعة والتوكل على الله والتبتّل إليه، توفي إلى رحمة الله، لتسعٍ بقينَ من ربيع الثاني سنة ١٣١٨هـ، بلكنو (نزهة الخواطر: ٨/ ٤٥٩).

قريتـه، وقرأ عليهما الكتب الابتدائية، ثم التحق بدار العلـوم التابعـة لندوة العلماء لكنو في عام ١٣١٩هـ، وقرأ بعض الكتب على الشيخ **محمد إدريس الندوي**، واستفاد منه في شتى العلوم والفنون، وظل عاكفاً على الاستزادة العلمية تحت إشراف ورعاية العلاَّمة **شبلي النعماني**[١]، رحمه الله، وفي ظلّه الوارف، بندوة العلماء.

كما سنحت له فرصة الاستفادة من شيوخ وأساتذة ندوة العلماء الآخرين آنذاك، وعلى رأسهم العلاَّمة السيد **سليمان الندوي** رحمه الله، والشيخ **عبد الحفيظ**، والشيخ **عبد السلام الندوي**، رحمهم الله.

كان رحمه الله من باكورة سنّه معجباً بعلوم التاريخ والآداب والفلسفة والعلوم العقلية، ولهذا السبب كان من عُشّاق العلاّمة شبلي النعماني والمعجبين به. تخرج من ندوة العلماء عام ١٩١٠م ثم توجّه إلى تعلّم اللغة الإنكليزية حتى برع فيها، وترجم عدة كتب في الفلسفة إلى اللغة الأردية، ثم تصدّر للتدريس،

---

(١) هو الشيخ الفاضل العلاّمة شبلي بن حبيب الله البندولي، فريد هذا الزمان، المتفق على جلالته في العلم والشأن، كان قوي الحفظ، سريع الملاحظة يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك أسرار السرائر، دقيق النظر، قوي الحجة، ذا نفوذ عجيب على جلسائه، كان واسع الاطلاع على تاريخ الإسلام والتمدّن الإسلامي، كثير المحفوظ من الأدب والشعر، كثير المطالعة، لم يفته كتاب في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم إلا طالعه، توفّي إلى رحمة الله في ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ. (نزهة الخواطر: ٨/ ١٧٤). و(شبلي النعماني) للدكتور أكرم الندوي، ضمن سلسلة علماء المسلمين الصادرة عن دار القلم بدمشق.

وعُيّن محاضراً في كلّية (بونا) التابعة لجامعة بومباي ـ خَلَفاً لأستاذه العلاَّمة السيد سليمان الندوي ـ رحمه الله ـ حيث سنحت له الفرصة للدراسة المتواصلة والعميقة، والاستزادة العلمية في مجال الفلسفة والتاريخ، الموضوع المحبّب إليه، والذي أَلِفَه ذهنه وعلق فيه قلبه.

الدين والعقلانية:

ثم آن الأوان أن تتجلى الموهبة الربّانية، وما أودعه الباري تعالى في عبده من صلاحيات، وعُقد المؤتمر التعليمي لعموم الهند، وشارك فيه كبار الزعماء والساسة، والشخصيات العلمية الموقّرة من جميع أنحاء الهند، وبطلب وإلحاح شديد من الشيخ حبيب الرحمن خان شيرواني، ألقى الشيخ عبد الباري الندوي فيه محاضرته القيّمة الغنية بالمادة العلمية القويمة، والأسلوب الرشيق الحلو الجذّاب حول موضوع (الدين والعقلانية)، وقد استقبلت المحاضرة بالقبول والإعجاب المنقطع النظير لدى الحضور، ونالت شهرة علمية فائقة في أوساط العامة والخاصّة، حتى ازداد إقبال الناس على طلبها، ونشرها وتوزيعها، فتمّت طباعتها باسم (الدين والعلوم العقلية).

هذا وقد اطلع عليها أستاذه الروحي ومرشده الديني الشيخ حكيم الأمة العلاَّمة أشرف علي التهانوي رحمه الله، ومدحها وأشاد بمحتواها، وأثنى عليها قائلاً: «إنّ هذه المحاضرة القيّمة بمثابة القلعة الحديدية للدين الإسلامي»، وهكذا تواصل عطاؤه للأمة الإسلامية، وانتفع به العلماء والعامة.

رحلاته العلمية والدعوية:

ثم سافر الشيخ رحمه الله إلى حيدر آباد (الدكن) حيث التقى هناك بالعلاّمة الشيخ **محمد حسين الحيدر آبادي** رحمه الله، وبقي معه يستفيد منه عدة أشهر، ثم غادر (حيدر آباد) متوجهاً إلى دار المصنّفين في (أعظم كره) بدعوة من العلاّمة السيد **سليمان الندوي**، وتولّى هناك مسؤوليات علمية، مشتغلاً بأعمال البحث والدراسة والتحقيق، إلى آب أغسطس عام ١٩٢٢م، وفي شهر أيلول سبتمبر عام ١٩٢٢م رجع إلى (حيدر آباد) مرة ثانية، حيث عُيّن أستاذاً للفلسفة والأدب والتاريخ في جامعة حيدر آباد بشكل دائم، واستمرّ هناك حوالي ثلاث وعشرين سنة، يفيد آلاف الطُّلاب، وانتفع به عدد كبير من عُطْشان العلم ومحبّي المعرفة والباحثين والدارسين في مختلف المجالات[١].

يقول سماحة العلاّمة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: «كان معلّماً للفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد، ومؤلف كتاب (بين الدين والعقليات) المشهور، وعاش في الوسط الديني والعلمي، وتخرج في معهد ديني كبير، وصحب كبار العلماء والمؤلفين والكتّاب في الهند، وعاصر دور العقلية والتنور والحرية الفكرية في هذه البلاد، ودرس الفلسفة الحديثة بتعمّق وتوسّع، ثم مارس التعليم في جامعة من أرقى جامعات الهند، ودرّس طوائف من الشباب الأذكياء والنابغين الفلسفة وعلوم الدين، واجتاز مراحل القلق الفكري، والارتيابية والسوفسطائية، وكان متصلاً بالمدارس الفكرية

---

(١) كاروان تهانوي، ص٦٣ ـ ٦٤.

الحديثة في أوروبة. . .»[1].

علاقته مع حكيم الأمة الشيخ التهانوي ومبايعته له:

كان رحمه الله من أجلّ خلفاء حكيم الأمة، والناشرين لدعوته الإصلاحية والتربوية والداعين إليها، وقد بايعه في حزيران يونيو عام ١٩٢٨م، ومنذ ذلك الوقت تواصلت زياراته لزاوية شيخه (تهانه بهون) وتوطدت العلاقة الروحية إلى درجة أنّ الشيخ عبد الباري لم يكن يرضى أن يضيّع أي فرصة سانحة حتى إجازته الصيفية كان يقضيها في خدمة شيخه، حرصاً منه على ملازمته ومصاحبته لكي تتسنّى له الاستفادة والاستزادة العلمية، ويتمكن من الارتواء من منهله الصافي ومعينه العذب النمير في مجال التربية والإصلاح والتزكية والإحسان[2].

يقول العلاّمة أبو الحسن علي الندوي متحدثاً عن علاقة الشيخ عبد الباري مع حكيم الأمة: «ثم ساقه سائق التوفيق إلى شيوخ مخلصين، في مقدمتهم الشيخ أشرف علي التهانوي الذي خصّ الأستاذ بالثقة والعناية، لذكائه وسلامة فهمه، وصدق طلبه حتى حصلت له الإجازة منه، ودامت الصلة بينهما، وازدادت توثيقاً وإحكاماً، ولم تزده الأيام والتجارب إلا إعجاباً بشخصية شيخه وثقة بفهمه واجتهاده، واستمرّ اللقاء والمراسلات حتى استأثرت بالشيخ

---

(١) من مقدمته لكتاب (بين التصوّف والحياة)، للشيخ عبد الباري الندوي، ص١٣ ـ ١٤.

(٢) كاروان تهانوي، ص٦٥.

رحمة الله عام ١٣٦٢هـ»[1].

وها هو الشيخ عبد الباري يتحدث لنا عن مدى حنينه وشوقه الشديدين للإقامة مع مرشده، فيقول رحمه الله: «كانت نفسي تتوق دائماً أنْ أقيم إقامة دائمةً في (تهانه بهون) لكن كسر سلاسل الوظيفة لم يكن سهلاً ميسوراً، وبالرغم من أنَّ الشيخ التهانوي رحمه الله قد أرسل بنفسه رسالة إلى والي وحاكم حيدر آباد يشفع لي فيها، لكن الجامعة العثمانية رفضت الطلب قائلة بأنها إلى الآن لم تجد من ينوب عني ويتولى مسؤولياتي، فاعتذرت عن قبول استقالتي، وإعفائي من العمل».

ويقول رحمه الله وهو بصدد ذكر عناية حكيم الأمة رحمه الله به وأفضاله عليه:

«إنَّ من جملة الأفضال، وأصناف العنايات التي كنت تمتعت بها من مرشدي حكيم الأمة رحمه الله والتي لم ينلها آخرون إلا قليلاً، هو شرف ضيافته رحمه الله لي، وذلك أني كلّما أتشرّف بالحضور في خدمته من (حيدر آباد) في إجازتي الصيفية، وأمكث عنده حوالي أسبوع أو أسبوعين، يتفضّل علي الشيخ رحمه الله قائلاً: لماذا لا تكون عندي ضيفاً؟ فأسرعت بقبول هذا الشرف العظيم، ولا شك أن هذه كانت عناية كبيرة منه رحمه الله بهذا العاجز».
وأضاف رحمه الله قائلاً: «إن من أهم الجوانب وأعظم الصفات التي تأثرت بها

---

(١) بين التصوّف والحياة، ص١٤.

في حياة الشيخ رحمه الله هو جانب التقوى والورع، الذي جعله يعتبر الكتاب المبين الشرط الأساس والركن الأصيل والركيزة الحقيقية لهداية المتقين ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وعندما حضرت في خدمة الشيخ رحمه الله كنت مصاباً بشتى أنواع الأمراض المزمنة والأسقام المهلكة من النواحي الدينية والروحية، فمنّ الله تعالى عليّ إذ أكرمني بحكيم الأمة، فداواني من هذه الأمراض، وكل ما حصل لي من الشفاء، وما تلقيته من العلاج الديني والروحي يرجع فضله بعد الله سبحانه وتعالى، إلى حكيم الأمة رحمه الله».

وكان يقول: «إن هذا العاجز ـ كاتب هذه السطور ـ ليس لديه علم بالشريعة، ولا معرفة بالسلوك والطريقة، ولكني أقول وحُقّ لي أن أعبّر عن هذه الحقيقة الساطعة، وذلك في ضوء ما فهمه ذهني ووعاه قلبي من خدمة هؤلاء المشايخ: من أراد أن تقرّ عينه بمشاهدة أقصى درجات الاتزان، وأعلى مراتب الاعتدال في الجمع بين الشريعة والطريقة فليأت الخانقاه الإمدادي، ليرى فيه العجب العجاب، ويجد فيه بغيته المنشودة وضالّته المتوخّاة»[1].

خدمته لمآثر حكيم الأمة العلمية والدعوية والإصلاحية:

كان الشيخ عبد الباري الندوي من أولئك العلماء الأفذاذ الذين اختارهم الله تعالى لعرض دعوة حكيم الأمة، ونشر فكره، وقد أنفق رحمه الله كل

---

(١) مصابيح المحافل الأشرفية، ص٢٧٨ ـ ٢٨٣.

طاقاته، وصرف كل ما كان يملكه في مجال نشر هذه اللآلئ، والنوادر الثمينة، والذخائر العلمية والدعوية والإصلاحية القيّمة، وقام بجمع وتدوين عصارة مواعظ حكيم الأمة ومذكّراته وملفوظاته بجدارة فائقة، ووُفّق لتسهيلها أمام الناس، وجعلها في متناول الجميع؛ حتى يعم نفعها، وتتم فائدتها، ويستفيد منها خلق الله في مشارق الأرض ومغاربها.

وها هي عصارة ولُبّ لباب التعليمات الأشرفية تتجلّى أمام الناس في أربعة أقسام، منقّحة مهذّبة ومرتبة، وهي:

١ ـ تجديد إحياء الدين.

٢ ـ تجديد التصوّف (التزكية والإحسان).

٣ ـ تجديد المعاشرة (الحياة الاجتماعية).

٤ ـ تجديد التعليم والتبليغ[١].

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي: «اختار الله لعرض دعوة حكيم الأمة وفكرته ـ التي احتوتها آلاف من الصفحات ـ أستاذَنَا الكبير الشيخ عبد الباري الندوي، أحد تلاميذه الروحيين، وقد كان من أجدر الناس بهذا العمل الجليل».

وقال في موضع آخر: «وانقطع الشيخ بعد ما أُحيل إلى المعاش سنة

---

(١) كاروان تهانوي، ص٦٥.

١٩٤٥م إلى تلخيص مؤلفاته والاقتباس منها، والتقاط الدرر من بحارها، ونظمها في أسلوب كتابي عصري، وعُني بعرض فكرته كفكرة جامعة وصورة كاملة في مؤلفاته»[١].

وفاته:

وبعد عمر حافل بالخدمات العلمية والدعوية والمآثر الإصلاحية والتربوية استأثرت به رحمة الله ووافته المنية في ٢٨ المحرم الحرام سنة ١٣٩٦هـ، الموافق ٢٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٦م، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. رحم الله الفقيد رحمةً واسعةً وأسكنه فسيح جنانه.

* * *

(١) من مقدمته لكتاب (بين التصوّف والحياة)، ص١٣ ـ ١٤.

الفصل السادس

الشيخ الأديب الكاتب عبد الماجد الدريابادي

١٣٠٩ ـ ١٣٩٧هـ = ١٨٩٣ ـ ١٩٧٧م

هو الشيخ الفاضل، الأديب البارع، الكاتب القدير، المفسّر العظيم عبد الماجد الدريابادي، ولد بقرية (درياباد) من أعمال (باره بنكي) (بولاية أترابراديش الهند) في ١٨٩٣م، أخذ العلوم الابتدائية في قريته، ثم سافر إلى لكنو، حيث أكمل هناك دراسته الجامعية، وفي عام ١٩٣٠م التحق بدار الترجمة التابعة للجامعة العثمانية بحيدر آباد الدكن، ثم عاد إلى لكنو بعد فترة قصيرة، وأنشأ مجلة أسبوعية باسم (الصدق) ثم سمّاها (الصدق الجديد).

يقول الشيخ المفتي محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى:

«إنّ عبقرية الشيخ عبد الماجد الدريابادي غنية عن التعريف في شبه القارة الهندية، كان رحمه الله أديباً بارعاً، صاحب أسلوب رشيق، صحفياً قديراً، ومؤلفاً متضلعاً كبيراً، ذا كعب عالٍ من العلوم الشرعية، كانت له ملكة نادرة في تفسير القرآن الكريم، وترجمته إلى لغات مختلفة، متقناً لعدة لغات أجنبية.

كانت حياته الابتدائية مصابة بأنواع من الانحرافات الفكرية، وواقعة

فريسة الشكوك والشبهات تجاه العقائد الإسلامية، ثم هداه الله تعالى إلى الصراط المستقيم، وتجلّت أمام عينيه الحقائق الربّانية، وساقه التوفيق الإلـٰهي إلى معرفة الحق والصدق، وتحرّر عقله وذهنه من سلاسل الفلسفات الحديثة، وأغلال العقلانية الجامدة، وأسعده الله بفلاح الدارين، حتى سعد بلقاء حكيم الأمة العلاّمة **أشرف علي التهانوي**، وتشرّف بالمبايعة على يد الشيخ المحدّث السيد **حسين أحمد المدني** رحمه الله، وقضى فترة طويلة في ظل التربية العالية من حكيم الأمة، ينهل من معينه العذب الثرّ، ويروي غليله من منبعه الفيّاض.

كان رحمه الله قد أُودع في روعه عشق حكيم الأمة وحُبّه الشديدين، ويذكره دائماً في كتاباته بـ(المرشد التهانوي) وظلّت هذه العلاقة تربطه بمرشده إلى آخر لحظات حياته.

هذا ولم تمنعه هذه العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة من أن يختلف مع شيخه في بعض المسائل، وتتباين وجهة نظره فيها بالنظر إلى تحقيقه وبحثه، إلا أن هذا الخلاف العلمي الذي كان منبثقاً من هدف الوصول إلى الحق أينما كان وحيثما كان، لم يؤثر شيئاً ما على هذه الرابطة القوية التي تربطهما»[1].

ويقول الشيخ العلاّمة محمد يوسف البنّوري:

«كان الشيخ الفقيد عبد الماجد الدريابادي رحمه الله من المفكّرين

---

(١) كاروان تهانوي، ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

الكبار، وأصحاب الفضل وأولي البصيرة، وقد عرف الحقيقة عن كثب، إنه لم يضيّع لحظة واحدة من ستين سنة من أواخر عمره، وشخصيته منقطعة النظير، ولا يوجد له مثيل في غاية الانتظام والانضباط والترتيب المناسب لكل الأمور، وكل ذلك مع الاشتغال بالعلم، والعكوف على البحث والدراسة.

كان قد وهبه المَلِك الوهّاب الحظّ الوافر من أفضاله، وأكرمه بالنعم التي لا تعادلها نعمة، كان صاحب أسلوب أدبي فصيح نادر في اللغة الأردية، وكاتباً قديراً بارعاً ممتازاً، يتّسم أسلوبه برزانة علمية، وغزارة مادة، قلما يدانيه كاتب، أو يجاريه مؤلِّف، في سهولة أسلوبه، وجمال تحريره، ونباهة فكره، وعُمق نظره، وسُموّ عقله، كان واحداً من الكُتّاب الذين يأتون في رأس القائمة من شبه القارة الهندية.

كان رحمه الله موفقاً في استنباط نوادر النكات الإصلاحية، واستخراج الفوائد الدعوية والدقائق التربوية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، فاق أقرانه وحاز قصب السبق في هذا المجال على زملائه.

لم يكن رحمه الله متخرجاً من مدرسة دينية، ولكنه كان خائضاً في بحار العلم وكنوز المعرفة بكل معنى الكلمة، وفعلاً فإنه استخدم صلاحياته ومواهبه في خدمة العلم الديني، ومؤلفاته القيّمة وكتاباته العلمية والدعوية خير دليل على ما قلناه. وتفسيره الرائع بالأردية وترجمته للقرآن الكريم في ثلاثة مجلدات، نموذج رائع، ومثال حي لذوقه الأدبي الرفيع، ومكانته السامية، وكعبه العالي الراسخ في مجال العلم والأدب والمعرفة، وقد منّ رحمه الله

على طلبة العلم العرب إذ جاء في تفسيره بالعبارات العربية منقولة من التفاسير المشهورة»[1].

بعد عمرٍ حافل بالأعمال الدعوية والإصلاحية، وخدمة العلوم الدينية، استأثرت به رحمة الله تعالى في صفر الخير ١٣٩٧هـ، الموافق شباط (فبراير) عام ١٩٧٧م، إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله الفقيد رحمةً واسعةً وأسكنه فسيح جنانه.

* * *

---

(١) بصائر وعبر، المجلد الثاني، ص٧١٨؛ وكاروان تهانوي، ص٢٨٠.

الفصل السابع

المُصلح الشيخ وصي الله الفتحفوري

١٣١٤ ـ ١٣٨٧هـ

هو الشيخ الفاضل العالم الكبير المُصلح المُربِّي وصي الله الفتحفوري، أحد مشاهير العصر، وُلد ونشأ بقرية من أعمال (فتح فور) (أعظم كره) بولاية (أترابراديش) الهند، في عام ١٣١٤هـ، قرأ الكتب الابتدائية من العربية والفارسية في بيته، وعلى أساتذة وعلماء قريته، وأكمل حفظ القرآن الكريم وهو ابن اثني عشر عاماً، ثم التحق بجامعة دار العلوم بديوبند في سنة ١٣٢٨هـ، ومكث هناك حوالي سبع سنوات، حتى تخرج فيها في سنة ١٣٣٥هـ.

وقد هيّأ الله سبحانه وتعالى له فرص الاستفادة من جبال العلم في عصره، وكبار الشيوخ، وجهابذة العلماء من المحدّثين والفقهاء والمحققين، وعلى رأسهم المحدّث الكبير، إمام العصر، العلاّمة **أنور شاه الكشميري** رحمه الله، وشيخ الهند العلاّمة **محمود حسن الديوبندي**، والمفسّر الكبير والأديب النابغ الشيخ **شبير أحمد العثماني**، وشيخ الحديث حسين أحمد المدني، رحمهم الله تعالى.

كان رحمه الله منذ سنّه المبكّر دائم الفكر في إصلاح الأعمال، معتنياً بتلقّي التربية الدينية، مهتماً بجانب تزكية النفس، وكان من حسن حظّه رحمه

الله أنه وُفّق للقاء حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، والاستماع إلى محاضراته ومواعظه، والاستفادة منه بين فينة وأخرى كلما سنحت له الفرصة أثناء دراسته في ديوبند، حتى أصبح من كبار الملازمين له بعد تخرّجه من ديوبند مباشرة، وازدادت حياته رونقاً وبهاءً، وعلماً وعملاً بحُسن صحبة حكيم الأمة، والتظلل بظلّه الوارف، وتربيته الرشيدة.

هذا وبعد وفاة حكيم الأمة وانتقاله إلى رحمة الله تعالى، كتب الله لشخصيّة الشيخ وصيّ الله قبولاً عاماً، ونالت إعجاب العامة والخاصة، حتى أصبحت مرجعاً في التربية والإرشاد، وإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، يقصده الراغبون، ويتوجه إليه المسترشدون من مختلف الأرجاء وشتى الأطراف، ولا سيّما سُكّان منطقة (فتح فور) و(غوركهفور) والقرى المجاورة لها، فإنهم قد استضاؤوا من أنوار علومه، وتربّوا في كنفه، واستفادوا من توجيهاته وإرشاداته.

ثم انتقل رحمه الله إلى مدينة (إلـه آباد) الشهيرة، وأقام هناك حيث كتب الله له القبول، ونالت دعوته وتربيته الإعجاب لدى كل الأوساط، وقصده جمّ غفير من الناس من كل حدب وصوب.

من مزايا تربيته وإصلاحه:

كان الشيخ وصيّ الله رحمه الله يوصي ويؤكّد على كل من زاره وتتلمذ عليه بتلاوة القرآن الكريم بالتجويد والترتيل، ودائماً يوصيهم بتجنّب مرض النفاق والاستعاذة بالله من هذه الموبقة، ويعلّمهم محاسبة النفس. وكانت

طريقة تربيته، ومنهج دعوته وإرشاده وإصلاحه تُشبه طريقة شيخه ومرشده حكيم الأمة التهانوي رحمه الله، فمن كان يأتيه طالباً للإصلاح، ناوياً في تزكية النفس، ونيل التربية الدينية واكتساب المنهج الصحيح، كان رحمه الله يصرف عليه كل جهده، ويراقبه مراقبة شديدة ويوصيه بمحاسبة النفس.

هذا ولم يكن المستفيدون منه من طبقة خاصة، وجماعة واحدة، وإنما كانوا موزّعين في كل الطوائف والجماعات، كان منهم القضاة والمحامون البارعون، والمهندسون المتقنون، والعلماء الكبار الراسخون، والموسرون والمعسرون، وبالجملة فكان نفعه عاماً في الجميع دون أي تفريق بين شخص وشخص، أو طائفة دون طائفة.

كتاباته الدعوية ومؤلفاته الإصلاحية:

ومن أجل تحقيق هذا الغرض النبيل، وهذه الغاية المنشودة، قام الشيخ رحمه الله بتأليف عدة مؤلفات ضمّنها فوائد علمية قيّمة نادرة، ونكات دقيقة غالية، وهي هدية مباركة للطُّلاّب والباحثين، وشداة العلم والمعرفة، والقائمين بأعمال الإصلاح والتربية والدعوة والإرشاد، وهذه المؤلفات متداولة بين الأوساط العلمية والدعوية، ومنها: ١ ـ **وصيّة السالكين**. ٢ـ **وصيّة الإخلاص**. ٣ ـ **وصيّة الأخلاق**. ٤ ـ **توقير العلماء**. وغيرها من الكتب النافعة، التي خلّفت آثاراً عميقة في قلوب المسترشدين، والسالكين لطريق الحق، وفتحت لهم طرق الخير والصلاح، ومهّدت السبيلَ إلى اقتناء ثمار الدعوة، كانت أوقاته منظّمة مرتبة مضبوطة، فقد خصّ رحمه الله مجلس الصباح بالطلاّب والعلماء يجلسون معه، ويسألونه ويستفيدون

منه، ويناقشونه مسائل دينية وأحكاماً شرعية، أما جلسة الظهر فكانت عامة للجميع، وها هو زميله الشيخ العلاّمة المفتي محمد شفيع (كبير مفتي باكستان سابقاً)، رحمه الله، يتحدث إلينا حول علاقته الخاصة بحكيم الأمة، رحمه الله فيقول:

«كان الشيخ وصي الله من كبار وأجلّ خلفاء حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله، إذ كان يتمتع بعنايته الخاصة، وكان ملازماً له منذ ١٣٤٦هـ إلى أن توفّاه الله، وله فضل المشاركة في كل مجالس حكيم الأمة ومحافله العامة والخاصة، ونظراً إلى هذه المكانة العالية التي كان يحتلّها الشيخ وصيّ الله لدى حكيم الأمة، حظي باحترام وتوقير كبيرين في صميم قلوب زملائه وأقرانه، واعترفوا بمكانته العالية ودرجته السّامية، رحمه الله».

وفاته:

بعد عمر حافلٍ بالأعمال الدعوية، وغني بجهود الإصلاح، والتربية والإرشاد، وحثٌّ على اتباع السنّة، والتحذير من البدع، استأثرت به رحمة الله تعالى ووافته المنية في ٢٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٦٧م، وهو على الباخرة في رحلته المباركة للحج، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

* * *

---

(١) أكابر ديوبند؛ وكاروان تهانوي، ص١٤١ ـ ١٤٣؛ وانظر كذلك: مصابيح المحافل الأشرفية، ص٦٤؛ وصيّة العرفان للشيخ قمر الزّمان؛ وكتاب الشيخ محمد إعجاز الأعظمي، كتابان مستقلاّن بترجمته رحمه الله.

الفصل الثامن

الشيخ عبد الحي السهارنفوري ثم الحيدر آبادي

هو الشيخ الفاضل عبد الحي بن عبد الرحمن بن أحمد علي بن لطف الله الأنصاري السهارنفوري ثم الحيدر آبادي، أحد العلماء المبرزين في العلوم الأدبية، قرأ العلم على والده وعلى غيره من العلماء بحيدر آباد، ثم قدم لكنو، وأخذ عن الشيخ فاروق بن علي الجرياكوتي، وتطبّب على الحكيم عبد الولي اللكنوي، ثم رجع إلى حيدر آباد، وولّي التدريس بدار العلوم في عام ١٩١٣م. وبعدما أنشئت الجامعة العثمانية بحيدر آباد ولّي تدريس اللغة العربية فيها، وبقي على هذا المنصب إلى آخر حياته.

له براعة في الشعر والأدب، واللغة والنحو، شرع في تأليف كتاب كبير في أمثال العرب وتعبيراتهم، سمّاه (معجم الأمثال) طبع منه جزء لطيف، وقد حفظ القرآن الكريم في آخر حياته[1].

علاقته بالشيخ أشرف علي التهانوي ومبايعته له:

ارتبط مع حكيم الأمة التهانوي رحمه الله بالعلاقة الإصلاحية والتربوية

---

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ٢٣٩.

في عام ١٩١٨م أو ١٩١٩م، وبايعه ونال منه الإجازة، وقد تحدث حكيم الأمة التهانوي رحمه الله بنفسه عن قصة علاقة الشيخ عبد الحيّ به، وذلك في الإفاضات اليومية، فقال: «لما غادر السيد عبد الحي حيدر آباد، باحثاً عن شيخ يرتبط معه بالإصلاح والتربية أو مرشد يبايعه، كان قد اشترط لذلك شروطاً، فإن وجد أحداً مستوفياً هذه الشروط مضى قُدماً وربط به علاقته الإصلاحية، ومن تلك الشروط:

١ ـ أن لا تكون البيعة عنده شرطاً للتعليم.

٢ ـ أن لا يكون المرشد جاهلاً أمّياً.

٣ ـ أن لا يكون قد أصابه الكبر وبلغ سنّ العجز.

وقد وجد هذه الشروط متحققه مستوفاة لدى حكيم الأمة التهانوي في (تهانه بهون) واقتنع بشخصيته رحمه الله، واستعدّ لربط العلاقة به».

وقال حكيم الأمة التهانوي رحمه الله في مناسبة أخرى: «إن المولوي عبد الحي قد جاء من حيدر آباد، وهو حفيد العالم المحدّث الشيخ أحمد علي السهارنفوري[1]، وأستاذ اللغة العربية في الجامعة العثمانية بحيدر آباد، وقد

---

(١) هو الشيخ العالم الفقيه المحدّث أحمد بن علي بن لطف الله الحنفي السهارنفوري، أحد كبار الفقهاء الحنفية، ولد ونشأ بمدينة (سهارنفور) وقرأ=

ذكرت له مرة من المرات أني لم أدرس إلا كتب المقرّرات الدراسية، فبدأ يقول لي مستغرباً وفي غاية من الاستعجاب: كنت أظن أنك طالعت آلاف الكتب».

كان رحمه الله مواظباً على زيارة شيخه حكيم الأمة التهانوي كل عام، ومستديم المراسلة معه، شديد الاحترام والتوقير له، حتى إنه كان يخاطب شيخه دائماً بصفات عالية ويلقبه بـ(جامع الكمالات العلمية والعملية).

وكان يقول دائماً: «إن شيخنا حكيم الأمة بمثابة الإمامين الغزالي والرازي في عصرنا هذا».

كما أنه قام بتلخيص وتسهيل كتاب حكيم الأمة (تربية السالك) وجعله في متناول الجميع، سهل الاستفادة.

= شيئاً نزيراً على أساتذة بلدته، ثم سافر إلى (دهلي) وأخذ عن الشيخ مملوك علي النانوتوي، وأسند الحديث عن الشيخ وجيه الدين السهارنفوري، ثم سافر إلى مكة المباركة فتشرف بالحج وقرأ الأمهات الست على الشيخ إسحاق بن محمد أفضل الدهلوي المهاجر المكي سبط الشيخ عبد العزيز بن ولي الله، ثم رجع إلى الهند، وتصدّر بها للتدريس مع استرزاقه بالتجارة، وكان عالماً صدوقاً أميناً ذا عناية تامة بالحديث، صرف عمره في تدريس الصحاح الست وتصحيحها، ولاسيما صحيح الإمام البخاري، خدمه عشر سنين فصحّحه وكتب عليه حاشية مبسوطة، توفي بالفالج لستٍّ خلونَ من جمادى الأولى سنة سبع وتسعين ومئتين وألف بمدينة سهارنفور، فدفن بها. (نزهة الخواطر: ٧/ ٤٣).

وفاته:

وقد وافته المنية لليلتين بقيتا من رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة وألف بالطاعون في حيدر آباد، ودفن بها، إنا لله وإنا إليه راجعون[1].

* * *

(١) كاروان تهانوي، ص٧٠ ـ ٧١؛ مصابيح المحافل الأشرفية، ص٢٤٨؛ نزهة الخواطر: ٨/ ٢٣٩.

الفصل التاسع

الشيخ عبد الغني الفولفوري
١٢٩٣ ـ ١٣٨٢هـ

هو الشيخ العالم الربّاني، الزاهد الكبير، عبد الغني الفولفوري رحمه الله، ولد في مدينة (أعظم كره) عام ١٢٩٣هـ، واشتهر بالفولفوري، لأنه قضى معظم فترة حياته في (فولفور)، قرأ الكتب الابتدائية في مدرسة قريته، ثم أخذ به والده إلى مدينة (جونفور) حيث كان يقيم الشيخ أبو الخير المكّي ابن الشيخ سخاوت علي الذي كان من خلفاء المجاهد العلاّمة السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، فقرأ عليه واستفاد منه حوالي سنتين.

ثم انتقل إلى الشيخ السيد أمين الدين النصير آبادي، ودرس عليه بعض الكتب الدينية، ثم ارتحل إلى (كانفور) حيث التحق بمدرسة (جامع العلوم) ودرس هناك كتب الحديث الشريف، وفي أثناء دراسته بجامع العلوم قام حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله بزيارة لمدينة كانفور فتشرف الشيخ عبد الغني بلقائه، وسعد بزيارته، وأعجب به أيما إعجاب، حتى جاش في قلبه شوق اللقاء به، والحنين إلى توثيق الصلة به وتوطيد العلاقة معه.

فلما تخرج من مدرسة (جامع العلوم) ازدادت رغبته في لقياه وملازمته،

وعزم على مبايعته، ولكن لم تتحقق أمنيته هذه في الوقت نفسه، وساقته رغبته الشديدة في تعلّم المعقولات من الفلسفة والمنطق إلى (رامفور) حيث كانت المدرسة العالية، المركز الكبير الخاص بالعلوم العقلية، وبعدما تخرج من هناك ولي التدريس في المدرسة العربية بمدينة (ميتافور) وحاز منصب رئاسة التدريس هناك، وبقي في هذا المنصب لمدة خمس سنوات.

ثم سنحت له الفرصة للقاء الشيخ حكيم الأمة التهانوي في إحدى المناسبات بمدينة (أعظم كره) في عام ١٣٣٨هـ، حيث ألقى فيها حكيم الأمة خطبة عظيمة ملأت القلوب بالمعارف، وأشعلت في النفوس نيران الحب والإخلاص والمودّة لله، والتفاني في سبيل الله، وقد كانت الساعة المباركة، تلك التي كان ينتظرها الشيخ عبد الغني منذ فترة طويلة، وآن الأوان أن يمدّ إلى حكيم الأمة يده للمبايعة، فبايعه حكيم الأمة، ثم واصل الشيخ خدمة الدين، والاشتغال بالدعوة والإرشاد، والأعمال الإصلاحية العظيمة، طوال حياته، عن طريق تأسيس المدارس، وبناء المراكز التعليمية والتربوية.

كانت حياته رحمه الله ساذجة بكل ما يحمل من المعاني، زاهداً في الدنيا وزخارفها، لقد أكرمه الله تعالى بنعمة القناعة والصبر والإخلاص، لم يرضَ لنفسه أخذ أي راتب من المدرسة، ولاذاق طعاماً فيها قط، وإذا أراد أن يبقى في المدرسة يوماً كاملاً بغرض النظر في أمورها وتفقّد شؤونها، حمل معه الدقيق والملح.

كان رحمه الله قد فُطر على تحمّل المشاق، وتجشّم التعب والنصب،

فكان يقطع مسافة عشرة أميال مشياً على الأقدام، لابتغاء وجه الله ونيل مرضاته، ولعلَّ هذا هو السبب في أن حكيم الأمة التهانوي رحمه الله كان دائماً يثني عليه ويمدحه، ويقول:

«إن المولوي عبد الغني ما شاء الله عليه، رجل صاحب همة عالية، وجرأة فائقة، ذو استعداد عالٍ، قوي، وقد بلغ ذروة الكمال في العلم والعمل».

ونظراً إلى مكانة (الجهاد) العظيمة في الإسلام، وكونه (ذروة سنام الإسلام)، وانطلاقاً من مبدأ قول رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ»[1]، كان رحمه الله منذ سنه المبكر يحدث نفسه بالجهاد في سبيل الله، ودائماً يدعو الله جلّ وعلا أن يوفقه لتحقيق هذه الأمنية المباركة النبيلة، وإحياء هذه الفريضة الغالية، وقد تعلّم الفنون العسكرية من أجل هذا الغرض والهدف السامي، كما أنه كان يدرّب زملاءه وأصحابه على هذا الفن العظيم، وقام بتوظيف أستاذ في المدرسة يدرّب الطلاب على الشؤون العسكرية.

وكان شيخه ومرشده حكيم الأمة التهانوي رحمه الله يشجّعه عليه ويمدحه ويرفع معنوياته، ويسرّ كثيراً إذ يرى ثمار تربيته الرشيدة متحققة أمام

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب القدر، (٢٦٦٤)؛ وابن ماجه، في سننه كتاب المقدمة، (٧٩)؛ وفي كتاب الزهد، (٤١٦٨)؛ وأحمد في مسنده: ٢/ ٣٦٦، (٨٧٧٧)، ٢/ ٣٧٠، (٨٨١٥).

عينه، وكان الشيخ عبد الغني رحمه الله من شديدي التمسّك بأوامر الله، والاعتصام بحبل الله المتين، وتنفيذ شرائعه، وأحكامه، ولا ترضى نفسه أن يرى أحداً يخالف شريعة الإسلام، ولو رأى أحداً يخالف أمر الله، أو ينتهك حرمات الله، يتغيّر وجهه، ولا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال إلا بعد القيام بإصلاح هذه المخالفة، وقطع جذورها.

ونظراً إلى هذه الصفات العالية الرفيعة، والأخلاق الحسنة الطيبة، والفضائل المباركة، كانت له مكانة مرموقة عالية في قلب مرشده حكيم الأمة التهانوي رحمه الله، وكان يسرّ بزيارته ويفرح بقدومه.

هذا وقد ألّف رحمه الله بعض الكتب الإصلاحية والدعوية والتربوية، ومنها:

١ ـ **المعرفة الإلـٰهية**: وقد ضمّنه فوائد علمية، ونكات دعوية، ودقائق تربوية، كلها منتقاة ومستفادة من أمالي الشيخ التهانوي رحمه الله.

٢ ـ **المعية الإلـٰهية**: تحدث فيه الشيخ رحمه الله عن قيمة الصحبة وأهميتها في تكوين الشخصية، وأوضح أن حصول القربة الإلـٰهية، وابتغاء رضوان الله تعالى، لا يمكن بقراءة محضة للكتب العلمية، ودراسة جامدة للمؤلفات الكبيرة، وإنجاز البحوث والدراسات النادرة، وإنما يحتاج المرء لذلك إلى صحبة أولياء الله، وملازمة المتقين والصالحين من عباد الله.

٣ ـ **الصراط المستقيم**: كتاب يتحدث عن معرفة الله تعالى وحبّه.

٤ ـ **الملفوظات**: مجموعة خطبه ومواعظه التي ألقيت ضمن مناسبات وفي مختلف المحافل.

٥ ـ **البراهين القاطعة**: يتحدث عن توحيد الباري تعالى، وفيه تقرير للرسالة، والقيامة.

وفاته:

وبعد عمر حافل بالأعمال الدينية والمجهودات الدعوية والإصلاحية، وعكوف على التدريس والتعليم، استأثرت به رحمة الله تعالى في آب (أغسطس) ١٩٦٢م، رحمه الله رحمةً واسعةً وأسكنه فسيح جنانه[١].

* * *

---

(١) انظر ترجمته في: (كاروان تهانوي)، ص٨٥؛ ومصابيح المحافل الأشرفية، ص١٠٤.

الفصل العاشر

الشيخ العلاّمة المحدّث محمد يوسف البنّوري

١٣٢٦ ـ ١٣٩٧هـ

اسمه ونسبه:

هو السيد محمد يوسف بن محمد زكريا بن ميرمزّمل شاه البنوري رحمه الله، يصل نسبه الشريف إلى سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

مولده وموطنه:

ولد رحمه الله ليلة الخميس، السادس من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمئة وست وعشرين من الهجرة، الموافق سنة ألف وتسعمئة وثمانية للميلاد، في قرية (مهابت آباد) من أعمال مروان باكستان، وكان جدّه الأعلى السيد آدم رحمه الله أقام في قرية (بنّور) من مديرية (أنباله) (الهند) ولذا تنسب هذه الأسرة الكريمة إلى (بنّور).

أسرته:

والأسرة البنّورية أسرة جمع الله فيها العلم والعمل، والتقوى والورع، والخير والصلاح، والزهد والقناعة، والإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، كان والده رحمه الله عالماً ورعاً، زاهداً تقياً، عابداً، وورث كلَّ ذلك ابنُه البار الصالح، ورزق مع حسن الخلُق حسن الصورة.

رحلته للعلم:

تعلّم القرآن الكريم، والمبادئ على والده السيد **محمد زكريا**، وخاله الشيخ **فضل حمداني البنّوري**، وقرأ كتب النحو والصرف على الشيخ **عبد الله البشاوري** المتوفى سنة ١٣٤٠هـ، وقرأ الكتب المتوسطة في الفنون المختلفة من الفقه والأصول والمنطق، والمعاني والبديع على علماء بشاور وكابل، ومن أكبر مشايخه في هذه الفنون الشيخ **عبد القدير اللمقاني الأفغاني**.

التحاقه بدار العلوم ديوبند:

وحضّه هيمانه بالعلم، وشوقه إلى الاستزادة العلمية إلى السفر إلى الديار الهندية للالتحاق بجامعتها الغرّاء (دار العلوم ديوبند) فالتحق بها سنة ١٣٤٥هـ، وكمّل فيها دراسته العليا في التفسير والحديث والفقه والأصول، وبقي فيها إلى سنة ١٣٤٧هـ، ومن أكبر مشايخه في الحديث محقق العصر الشيخ **شبير أحمد العثماني** (صاحب فتح الملهم شرح صحيح مسلم) رحمه الله، وإمام العصر، المحدث الكبير الشيخ **محمد أنور شاه الكشميري** رحمه الله تعالى.

مناصبه ورئاسته للتدريس:

ولازم العلاَّمة الكشميري، ورافقه حتى صار أميناً لعلومه، وشارحاً لثروته العلمية، وتراثه الحديثي، واعترافاً بمكانته العلمية، ومواهبه الخاصة في مجال البحث والتحقيق انتخب مدرساً في الجامعة الإسلامية بدابيل في مقاطعة بومباي (الهند) بعد وفاة شيخه رحمه الله، إلى أنْ صار فيها شيخ

الحديث، ورئيس الأساتذة والمدرّسين.

وانتخب عضواً للمجلس العلمي في الجامعة الإسلامية، وقد بعثه المجلس العلمي مندوباً له إلى القاهرة للإشراف على طبع عدة كتب عام ١٩٣٧م، كما عُيِّن رئيساً لجمعية علماء الهند في بلاد (كجرات) و(بومباي)، وكذلك كان عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق وعضواً لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، وقد دعاه العلاَّمة السيد سليمان الندوي إلى الجامعة الأحمدية بولاية (بوفال) الهند لمنصب رئيس قسم الحديث، ولكنه أحبّ البقاء بدابيل حفظاً لأمانة شيخه الكشميري.

تاسيس (المدرسة العربية الإسلامية):

وبعد هجرته إلى باكستان في يناير كانون الثاني عام ١٩٥١م أقام حوالي ثلاث سنوات رئيساً لقسم التفسير في دار العلوم الإسلامية، ثم أسس في (نيوتاون) بكراتشي جامعة باسم المدرسة العربية الإسلامية.

مؤلفاته:

إن مؤلفات الشيخ يوسف رحمه الله كلها باللغة العربية الفصحى، تمتاز بعبارة رائقة، وأسلوب بديع، ومنها:

١ ـ بغية الأريب في مسائل القبلة والمحاريب.

٢ ـ نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ محمد أنور.

٣ ـ يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن.

٤ ـ معارف السنن شرح سنن الترمذي.

علاقته بحكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي:

كان الشيخ يوسف رحمه الله قد ربط علاقته الروحية مع الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، وسعد بالحضور في (تهانه بهون) لأول مرة في سنة ألف وثلاثمئة واثنتين وخمسين من الهجرة، ثم واصل مكاتباته مع الشيخ رحمه الله بعد زيارته الثانية له في عام ١٣٥٤هـ ليستفيد في مجال التزكية والإحسان، وفي عام ١٣٥٨هـ أصبح من خلفائه رحمه الله، وقد سبق أنه بايع على يد الشيخ شفيع الدين خليفة الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي رحمهم الله.

كان من المعجبين بذكاء الشيخ التهانوي، وحسن انتظامه للأمور، واستغلال الوقت وحسن استخدامه، وانتهاز الفرص المتاحة، وكمال التربية والإصلاح، كما أنه كان دائماً يذكره بذوقه الاجتهادي ومكانته العالية وجهوده العظيمة في مجال تجديد التصوّف، وتطهيره من الخرافات والأباطيل(١).

وفاته:

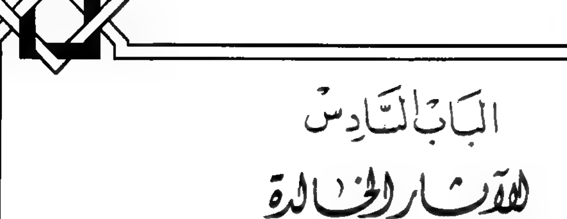
وقد رحل هذا المجاهد العظيم، والعالم الجهبذ الكبير إلى الدار الآخرة، وكان في سفر إلى إسلام آباد للحضور في المجلس الإسلامي الاستشاري، واستأثرت به رحمة الله إثر نوبة قلبية، وذلك يوم الإثنين الثالث من ذي القعدة

(١) انظر: مصابيح المحافل الأشرفية، ص٣٠ ـ ٣٢؛ كاروان تهانوي، ص١٩٦.

عام ١٣٩٧هـ، الموافق ١٧ تشرين الأول أكتوبر عام ١٩٧٧م، ونقل جثمانه إلى كراتشي، ودُفن في رحاب جامعته التي هي من أكبر مآثره الخالدة، رحمه الله رحمةً واسعةً وتغمده بعفوه وغفرانه[١].

* * *

(١) انظر: مقدمة معارف السنن: ١/ ٢ ـ ٥٤ للشيخ محمد حبيب الله، وانظر كذلك: العدد الممتاز لمجلة (بيّنات) الصادرة من كراتشي باكستان.



الفصل الأول : كلمة عامة عن مؤلفات التهانوي

الفصل الثاني : سرد إجمالي لأشهر مؤلفات التهانوي

الفصل الثالث : دراسة موجزة لأهم مؤلفات التهانوي :

١ ـ تفسير بيان القرآن

٢ ـ إمداد الفتاوى

٣ ـ كشف الدجى عن وجه الربا

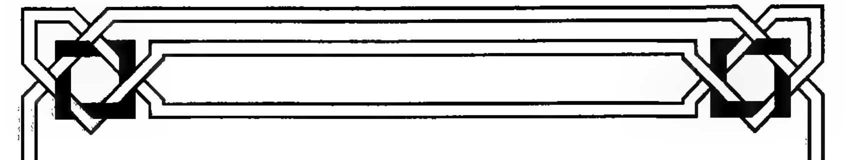
٤ ـ استحباب الدعوات عقيب الصلوات

٥ ـ الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة

٦ ـ حلية أهل الجنة

٧ ـ تعليم الدين مع تكميل اليقين

٨ ـ المصالح العقلية للأحكام النقلية



٩ ـ نهاية الإدراك في أقسام الإشراك

١٠ ـ إصلاح الرسوم

١١ ـ تمهيد الفرش في تحديد العرش

١٢ ـ جزاء الأعمال

١٣ ـ إحياء السنن أو جامع الآثار

١٤ ـ إعلاء السنن

١٥ ـ أحكام القرآن

١٦ ـ مسائل السلوك من كلام ملك الملوك

١٧ ـ إصلاح انقلاب الأمة

الفصل الأول

كلمة عامة عن مؤلفاته

إنَّ التراث العلمي القيّم الذي خلّفه حكيم الأمة التهانوي رحمه الله لينوء بالأكاديميات الكبرى، والمجامع العلمية الفخمة، فقد أودع الله تعالى فيه قـدرة فائقـة، وكفاءة كبيرة في البحث والتحقيق، وملكـة عاليـة في الكتابـة والتأليـف، إلى جانب تربيتـه وإصلاحـه واهتمامـه بعـدد كبيـر مـن أولئـك المسترشدين، الذين كانوا يَرِدُون منهله العذب الصافي، بالإضافة إلى أعماله الدينية الأخرى من إرشاد المجتمعات والقيام بزيارات دعوية، وجولات إصلاحية وتربوية في كل أنحاء الهند المترامية الأطراف.

لقد قام حكيم الأمة التهانوي رحمه الله بتأليف كتب قيّمة نافعة تتّسم بالأصالة في البحث والتحقيق، والعمق في النظر والتدقيق، وأنجز من الأعمال العلمية الهائلة ما لا تستطيع الأكاديميات الكبيرة إنجازها، وقد صدق سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله إذ قال كلمته التي تعبّر عن الواقع بكل ما له من معنى، ووصفه بما يأتي: «المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي، الذي هو من كبار علماء هذا العصر الربانيين، وأعظم مؤلف في هذا العصر بالإطلاق»[1].

---

(١) مقدمة لكتاب (بين التصوّف والحياة)، ص١٢.

وقال رحمه الله في موضع آخر، وهو يتحدث عن مؤلفات حكيم الأمة رحمه الله:

«ولـه مصنّفات كثيـرة ممتعـة، ما بين صغير وكبيـر، وجزء لطيف، ومجلدات ضخمة، أحصاها بعض أصحابه فبلغت إلى نحو ثمانمئة، فيها نحو اثني عشر كتاباً بالعربية، منها: (أنوار الوجود في أطوار الشهود)، و(التجلّي العظيم في أحسـن تقويم) و(سـبق الغايات في نسـق الآيات)، وغيرها من مصنفاته في غير العربية (الإكسير في ترجمة التنوير)، و(التأديب لمن ليس له في العلم والأدب نصيب) و(تحذير الإخـوان عن تزويـر الشيطان) و(القـول البديع في اشتراط المصر للتجميع)...»[1].

وأضاف رحمه الله قائلاً: «وقد كان من كبار العلماء الربّانيين الذي نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم، وقد بلغ عدد مجالس وعظه التي دُوّنت في الرسائل، وجُمعت في المجاميع إلى أربعمئة مجلس، وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل»[2].

ويقول الشيخ محمد تقي العثماني حفظه الله:

«كان حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله أكثر الناس تأليفاً في عصره، ولا يوجد في هذا القرن من يجاريه أو يدانيه في كثرة المؤلفات، فإنه قد ترك

---

(١) نزهة الخواطر: ٨/ ٥٨ـ٥٩.
(٢) المصدر السابق نفسه.

خلفه نحو ألف كتاب مطبوع ما بين صغير وكبير، ولا يوجد موضوع ديني يحتاج إليه المسلمون في هذا العصر إلا وله فيه كتاب أو رسالة، أو موعظة مطبوعة»، ولا نبالغ إذا قلنا: إن شخصيته رحمه الله لتحيي لنا مثالاً رائعاً، ونموذجاً حياً، وذكرى مباركة لأئمة السلف، وكبار المؤلفين؛ أمثال الغزالي والرازي والسيوطي رحمهم الله، الذين وقفوا حياتهم لهذا الغرض، ها نحن الآن سعداء بذكر ما فاض به قلمه السيّال، ودبجه يراعه من كتاب أو رسالة.

علماً أنَّ كل كتاباته رحمه الله، وجميع مؤلفاته يرتبط بموضوع علمي، وجهد دعوي، وإبراز نقطة تربوية مهمة، ولا يسعنا في هذه العجالة أن نتطرق لجميع ما حررته يده الشريفة، وإنما نكتفي بما هو معروف ومتيسّر لدينا.

* * *

الفصل الثاني

سرد إجمالي لأشهر مؤلفات التهانوي

لقد قسّمنا مؤلفات حكيم الأمة حسب الموضوعات التالية[1]:

أ ـ التفسير وعلوم القرآن الكريم:

١ ـ ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية.

٢ ـ تفسير القرآن الكريم المسمى (بيان القرآن) في أربعة مجلدات ضخمة.

٣ ـ جمال القرآن (في بيان قواعد التجويد والقراءات).

٤ ـ تجويد القرآن.

٥ ـ آداب القرآن.

٦ ـ متشابهات القرآن لتراويح رمضان.

٧ ـ ظهور القرآن من صدور الصبيان.

٨ ـ إصلاح الترجمة الدهلوية للقرآن الكريم.

---

(١) ما عرَّفتُ به من المؤلفات أثبت بالحرف الأسود.

٩ ـ التواجه بما يتعلق بالتشابه .

١٠ ـ سبق الغايات في نسق الآيات (باللغة العربية) .

١١ ـ التقصير في التفسير :

انتقد فيها بعض التفاسير العصرية ، وشرح فيها قواعد نفيسة من أصول التفسير ، مما يغفل عنها كثير من الناس في عصرنا .

١٢ ـ رفع الخلاف في حكم الأوقاف .

١٣ ـ وجوه المثاني مع توجيهات الكلمات والمعاني (بالعربية) .

١٤ ـ تنشيط الطبع في إجراء السبع .

١٥ ـ أحكام القرآن :

ألّفه نخبة من العلماء والمفسّرين في ضوء ما أفاده الشيخ التهانوي رحمه الله ، يقع في خمسة مجلدات (بالعربية) .

١٦ ـ ملاحة البيان في فصاحة القرآن .

١٧ ـ دفع الاعتساف عن آية الاستخلاف .

١٨ ـ العنوان في آيتي سورة الامتحان .

١٩ ـ تنزيه علم الرحمن عن سمة النقصان .

٢٠ ـ نور الناظرين في تقريرات الجلالين .

ب ـ الحديث الشريف وعلومه:

٢١ ـ إحياء السنن أو جامع الآثار (بالعربية)، وعليه حاشية باسم تابع الآثار .

٢٢ ـ حفظ الأربعين .

٢٣ ـ المسك الزكي شرح أحاديث سنن الترمذي . (مجموعة أماليه على سنن الترمذي) .

٢٤ ـ الثواب الحلي .

٢٥ ـ إطفاء الفتن ترجمة إحياء السنن .

٢٦ ـ التشرف بمعرفة أحاديث التصوّف (بالعربية) .

٢٧ ـ إعلاء السنن :

تأليف المحدّث الشيخ ظفر أحمد العثماني على ضوء ما أفاده الشيخ أشرف علي التهانوي يقع في ثلاثين جزءاً .

٢٨ ـ فوائد موطأ الإمام مالك .

جـ ـ العقائد وما يتعلق بها من الموضوعات:

٢٩ ـ الإدراك والتوصّل إلى حقيقة الإشراك والتوسُّل .

٣٠ ـ نهاية الإدراك في أقسام الإشراك .

٣١ ـ جزاء الأعمال .

٣٢ ـ الإكسير في إثبات التقدير .

٣٣ ـ جمع الدعاء والرضا بالقضاء .

٣٤ ـ فروع الإيمان.

٣٥ ـ حفظ الإيمان.

٣٦ ـ بسط البنان لكفّ اللّسان عن كاتب حفظ الإيمان.

٣٧ ـ أحكام التجلّي من التعلّي والتدلّي.

٣٨ ـ ظهور العدم بنور القدم.

٣٩ ـ إقامة الطامة على زاعم بقاء النبوّة العامّة.

٤٠ ـ الانتباه المفيد في الاشتباهات الجديدة:

وهو كتاب فريد في بابه جمع فيه الشبهات التي أوردها الملحدون على الإسلام، والتحريفات التي ارتكبها الذين يحاولون السير في ركاب الغربيين، وردّ عليهم رداً بليغاً ناجعاً، وأثبت العقائد الإسلامية الأساسية بأدلة عقلية تقنع كل ذي عقل سليم وطالب حق، وقد نقل الكتاب إلى اللغة الإنكليزية.

٤١ ـ المصالح العقلية للأحكام النقلية.

٤٢ ـ شهادة الأقوام على صدق الإسلام:
جمع فيه ثناء الكفار على الإسلام وتعاليمه.

٤٣ ـ إصلاح الخيال.

٤٤ ـ أشرف الجواب.

٤٥ ـ تعليم الدين مع تكميل اليقين.

٤٦ ـ الخطاب المليح في تحقيق المهدي المسيح .

٤٧ ـ قائد القاديان :

ردّ على غلام أحمد القادياني ، زعيم القاديانية .

٤٨ ـ القول الفاصل بين الحق والباطل .

٤٩ ـ الفتوح بما يتعلق بالروح .

٥٠ ـ شق الجيب في حق الغيب .

٥١ ـ بلوغ الغاية في تحقيق خاتم الولاية .

٥٢ ـ رفع الزحمة عن وسع الرحمة .

٥٣ ـ خلود الكفار في النار جزاءً على الإصرار .

٥٤ ـ ذيل على (شرح العقائد النسفية) (بالعربية) .

٥٥ ـ دراية العصمة في الرد على فلسفة (هداية الحكمة) .

٥٦ ـ تدوير الفلك في تطهير الملك .

٥٧ ـ القول الأنفع في تحقيق إمكان الأبدع .

٥٨ ـ نعم العون في تحقيق توبة فرعون .

٥٩ ـ نافع الإشارة إلى منافع الاستخارة .

٦٠ ـ إحكام الإيقان لأقسام الاطمئنان .

د ـ الفقه والفتاوى:

٦١ ـ إمداد الفتاوى:

في ستة مجلدات ضخمة (باللغة الأردية).

٦٢ ـ التحقيق الفريد في حكم آلة تقريب الصوت البعيد.

٦٣ ـ تفصيل الكلام في حكم تقبيل الأقدام.

٦٤ ـ إصلاح المعتوه في تعريف الحرام والمكروه.

٦٥ ـ تصحيح العلم في تقبيح الفلم.

٦٦ ـ كلمة القوم في حكمة الصوم.

٦٧ ـ الحق الصراح في تحقيق أجرة النكاح.

٦٨ ـ تحذير الإخوان عن الربا في الهندوستان.

٦٩ ـ رافع الضنك عن منافع البنك (في تحقيق مسألة الربا).

٧٠ ـ الاقتصاد في التقليد والاجتهاد.

٧١ ـ الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة.

٧٢ ـ كشف الغشوة عن وجه الرشوة.

٧٣ ـ كشف الدجى عن وجه الربا.

٧٤ ـ جلائل الأنباء في حرمة حلائل الأبناء.

٧٥ـ ردّ التوحد في طلاق ذات التعدّد .

٧٦ـ تحقيق التشبه بأهل السفاح لمن لا يريد أداء المهر في النكاح .

٧٧ـ تعديل أهل الدهر في درجة تقابل المهر .

٧٨ـ ترجيح الراجح .

٧٩ـ إرشاد الهائم في حقوق البهائم .

٨٠ـ رفع الارتياب عن مسألة ثبوت الأنساب .

٨١ـ القول الصواب في مسألة الحجاب .

٨٢ـ كثرة الأزواج لصاحب المعراج .

٨٣ـ كسوة النسوة .

٨٤ـ ثبات الستور بذوات الخدور .

٨٥ـ خلاصة الكلام في أذان الجمعة بين يدي الإمام .

٨٦ـ المقالات المفيدة في حكم أصوات الآلات الجديدة .

٨٧ـ القول البديع في اشتراط المصر للتجميع .

٨٨ـ زكاة الفرض في نبات الأرض .

٨٩ـ الصلاة على الميت الصبي المتولّد بين مسلم وكافر بغي .

٩٠ـ قول السداد في الخضاب بالسواد .

٩١ ـ إلقاء السكينة في تحقيق إبداء الزينة .

٩٢ ـ استحباب الدعوات عقيب الصلوات (بالعربية) .

هـ ـ كتب التزكية والإحسان:

٩٣ ـ مسائل السلوك من كلام ملك الملوك (باللغة العربية) :

استنبط فيه مسائل السلوك من القرآن الكريم .

٩٤ ـ التشرّف بمعرفة أحاديث التصوّف :

جمع فيه الأحاديث التي يستنبط منها مسائل التصوّف ، وشرحها شرحاً وافياً ، مع ذكر أصول التصوّف ومسائله الأساسية .

٩٥ ـ شرح المثنوي لمولانا الرومي (في مجلدين) .

٩٦ ـ معارف العوارف (في مجلدين) .

٩٧ ـ التكشف عن مهمّات التصوّف .

٩٨ ـ تلخيص البداية للغزالي .

٩٩ ـ تربية السالك وتنجية الهالك .

وهي مجموعة لما كتب إلى مسترشديه جواباً على أسئلتهم في أمراضهم النفسية ، وتحوي على نكات بديعة في إدراك العلل النفسية وعلاجها .

١٠٠ ـ قصد السبيل إلى المولى الجليل .

١٠١ ـ حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة.

١٠٢ ـ الابتلاء لأهل الاصطفاء.

١٠٣ ـ الجلاء والشوف في الرجاء والخوف.

١٠٤ ـ أرضى الأقوال في عرض الأعمال.

١٠٥ ـ شمس الفضائل لطمس الرذائل.

١٠٦ ـ لامع علامات الأولياء، (تلخيص جامع كرامات الأولياء للنبهاني).

١٠٧ ـ الاعتدال في متابعة الرجال.

و ـ الدعوة والإرشاد، وردّ البدع والمنكرات، والآداب الشرعية:

١٠٨ ـ إصلاح الرسوم.

١٠٩ ـ حياة المسلمين.

١١٠ ـ فروع الإيمان.

١١١ ـ آداب المعاشرة.

١١٢ ـ حقوق الإسلام.

١١٣ ـ حفظ الإيمان (في الرد على البدع والعقائد الباطلة).

١١٤ ـ أغلاط العوام.

١١٥ ـ إصلاح النساء .

١١٦ ـ إصلاح انقلاب الأمة (مجلدين) .

١١٧ ـ آداب الأخبار .

١١٨ ـ شذرات الحكم .

١١٩ ـ الحجة الانتهائية على المحجة البهائية .

١٢٠ ـ إزالة الرين عن حقوق الوالدين .

١٢١ ـ رفع الغلط لدفع الشطط .

١٢٢ ـ بيان اللحية والشوارب .

١٢٣ ـ الروضة الناضرة في التحريكات الحاضرة .

١٢٤ ـ معاملة المسلمين عن كل خيانة من غير المسلمين .

١٢٥ ـ الخطوب المذيبة للقلوب المنيبة .

١٢٦ ـ إعداد الجنة للتوقي عن الشبهة في إعداد البدعة والسنة .

١٢٧ ـ الفعل المحرم في فصل المحرم .

١٢٨ ـ القول الأهلي في مسألة جامع دهلي .

١٢٩ ـ درجة الحسام عن إشاعة الإسلام .

١٣٠ ـ العذر والنذر .

١٣١ ـ تنوير السراج في ليلة المعراج.

١٣٢ ـ الانسداد لفتنة الارتداد.

١٣٣ ـ الاستحضار للاحتضار مع تقلّبات الأطوار.

١٣٤ ـ الدلالة لأهل الضلالة.

١٣٥ ـ سدّ الغلط والمفاسد في حكم اللغط عند المساجد.

١٣٦ ـ أكمل الأديان في أسهل اللسان.

١٣٧ ـ تنبيه المسلمين على تمويه العالم المخالطة بالمشركين.

ز ـ السير والتراجم:

١٣٨ ـ نشر الطيب في ذكر النبي الحبيب ﷺ.

١٣٩ ـ الترتيب اللطيف في قصّة الكليم الحنيف.

١٤٠ ـ أماثل الأقوال والأحوال لأفاضل الرجال.

١٤١ ـ إخبار أهل المجد عن آثار أهل النجد.

١٤٢ ـ تحفة الشيوخ.

١٤٣ ـ قصة سيدنا يوسف عليه السلام.

١٤٤ ـ السنة الجليلة في الجشتية العلية.

١٤٥ ـ ذكر محمود.

١٤٦ ـ شريف الدرايات .

١٤٧ ـ أحسن التفهيم لمقولة سيدنا إبراهيم .

١٤٨ ـ بيان الوفود في أعيان ابن مسعود .

ح ـ الأذكار والأدعية:

١٤٩ ـ المأمول المقبول في قربات عند الله وصلوات الرسول :

اختصر فيها الأدعية المأثورة من (الحصن الحصين)، وقسّمها على سبعة أحزاب، وقد بلغ هذا الكتاب أكثر بيوت المسلمين في بلاد الهند، ونال إعجاب وقبول كل الأوساط .

١٥٠ ـ زاد السعيد في صيغ الصلاة على النبي الوحيد ﷺ .

١٥١ ـ الاستبصار في فضل الاستغفار .

١٥٢ ـ القول الصحيح في تحقيق بعض أجزاء دوازده تسبيح .

١٥٣ ـ تتمة قربات عند الله .

١٥٤ ـ خير الدلالة إلى حكم هاء الجلالة .

١٥٥ ـ زوال السَّنة من أعمال السَّنة .

١٥٦ ـ الخطب المأثورة :

جميع فيها خطب النبي ﷺ والخلفاء الراشدين .

١٥٧ ـ خطبات الأحكام لجمعات العام (بالعربية) .

ط ـ المؤلفات المتفرقة:

١٥٨ ـ بوادر النوادر (في مجلدين).

١٥٩ ـ بدائع الفرائد.

١٦٠ ـ الطرائف والظرائف.

١٦١ ـ جمع الصكوك في قمع الشكوك.

١٦٢ ـ علاج القحط والوباء.

١٦٣ ـ العدل مع أهل العدول.

١٦٤ ـ سدّ الهيعة في حدّ البيعة.

١٦٥ ـ دعوات الدّاعي.

١٦٦ ـ التأديب لمن ليس له في العلم والأدب نصيب.

كانت هذه إلمامة بأهم وأشهر مؤلفاته، وهناك الكثير الكثير الذي ذكره العلماء والمعتنون بسيرة وترجمة حياة الشيخ التهانوي، ولو استوعبناه لطالت بنا الصفحات، بالإضافة إلى مجلدات ضخمة وكثيرة من الملفوظات التي قام بتسجيلها وجمعها وتدوينها تلاميذه في مختلف جلساته العامة ومجالسه الخاصة، وهي تحتوي على نوادر من علم وحكمة، ولطائف وظرائف، وقصص وأخبار، ومواعظ وعبر.

هذا وفيما يأتي من الصفحات نتحف القرّاء الكرام ـ بإذن الله تعالى ومشيئته ـ بدراسة موجزة لبعض الأهم من هذه المؤلفات .

* * *

الفصل الثالث

دراسة موجزة لأهم مؤلفات التهانوي

١ ـ تفسير: (بيان القرآن)

تمهيد:

لما كان كتاب الله العظيم هو المصدر التشريعي الإسلامي الأول، بذل العلماء، بالغ عنايتهم، وصرفوا أقصى جهودهم في مجال خدمة هذا الكتاب العزيز منذ بداية العهد، وتناولوه ترجمةً وتفسيراً وبياناً وتوضيحاً، استنبطوا منه الأسرار وبيّنوا وجوه الربط بين الآيات. وكشفوا القناع عن الحقائق والمعاني، بأساليب بديعة مبتكرة.

وتفسير (بيان القرآن) الذي نتحدث عنه الآن ليس إلا درة متلألأة ثمينة من هذه السلسلة المباركة، فهو تفسير بديع بمعنى الكلمة، لم ينسج على منواله، اهتمّ فيه المؤلف (الشيخ التهانوي) ببيان التناسق بين الآيات، وإيضاح المشكلات القرآنية في أسلوب جميل، وعلّق عليه باللغة العربية، وهو يغني الإنسان عن كثير من المطوّلات.

يقول الشيخ محمد تقي العثماني: «فأما في التفسير فله تفسير بديع باللغة الأردية باسم (بيان القرآن) في أربعة مجلدات ضخمة من القطع الكبير،

يحوي مباحث علمية هامة من التفسير والنحو والبلاغة والفقه، والكلام، والتصوّف، وإنما يعرف قدر هذا الكتاب إذا رجع إليه القارئ بعد مطالعة المطوّلات من كتب التفسير، فإنه يجمع لُبّها ومغزاها، بعبارة مميزة علمية جامعة»[1].

ويقول الشيخ محمد يوسف البنّوري رحمه الله متحدّثاً عن تفسير بيان القرآن: «كابد فيه مطالعة كتب المفسّرين، ولخّص فيه أموراً مفيدة، وحلّ مواضع مشكلة غامضة بوجه أنيق، وزاد نفعها بفوائد بالعربية»[2].

«ومما لاشك فيه أنه تفسير يستفيد منه الطلبة والعلماء أولو الفضل وسعة النظر معاً، وقد أشاد به كبار العلماء، وراجعوه في حلّ عويصات ومعضلات تفسيرية لم يجدوا حلها في تفاسير أخرى، أمثال الشيخ شبير أحمد العثماني والشيخ العلاَّمة المحدّث أنور شاه الكشميري رحمهم الله»[3].

أ ـ الجوانب المرعية في تفسير القرآن الكريم:

لقد وضّح الشيخ التهانوي رحمه الله بعض النقاط المهمّة في مقدمة تفسيره، وهي بمثابة الأصول والضوابط الأساسية التي سار عليها خلال تفسيره لكتاب الله، والمنهج العلمي الذي اختاره في ذلك، وها نحن نلخّصه للقارئ الكريم.

---

(١) من مقدمة لكتاب (إعلاء السنن): ١/ ١١.
(٢) يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن، ص٥١ ـ ٥٢.
(٣) دار العلوم ديوبند، مدرسة فكرية توجيهية، ص١٧٠.

قال رحمه الله :

١ ـ قمت بترجمة القرآن الكريم ، ترجمة سهلة ميسّرة مفهومة للجميع ، مراعية للمعاني اللغوية .

٢ ـ لم استخدم في الترجمة الأمثال البحتة ، لأن الأمثال تختلف من منطقة إلى منطقة ، ومن ولاية إلى أخرى ، وأما اللغة الأردية الفصيحة السلسة ، فإنها مفهومة لدى الجميع ، وسهلة المنال في كل مكان .

٣ ـ قمت بإضافة بعض التوضيحات ، والتعليقات العلمية ، والتحقيقات الفنية ، والفوائد التفسيرية ، وحلّ الإشكالات الواردة في بعض الأماكن ، إذا اقتضت الحاجة إليه ، وقد وضعت هذه الإضافات كلها ورمزت لها بـ(ف) .

وقد اقتصر المؤلف على ما دعت الحاجة إليه دون التطرق إلى التفاصيل من ذكر اللطائف والنكات ، والتطويل في الفضائل ، أو المسائل الأخرى ، وذلك لأنّ الهدف الأصيل والغرض الأساس الذي قصده المؤلف من هذا التفسير هو شرح كلام الله تعالى ، وتسهيل معانيه للناس دون التجميع والتكثير والتطويل .

٤ ـ ذكرت القول الراجح من أقوال المفسّرين حيث تعدّدت آراؤهم ، ولم أتعرض لجميع الآراء والأقوال .

٥ ـ اقتصرت على ذكر المذهب الحنفي في المسائل الخلافية بين المذاهب الأربعة ، إلا إذا اقتضت الحاجة إلى التطرق لآراء كل المذاهب فوضعتها في الهامش .

٦ ـ فوائد خاصة لطلاّب العلم: هناك بعض الإضافات العلمية المفيدة الخاصة بطُلاّب العلم والدارسين والباحثين، وتتضمن بعض الموضوعات العلمية الدقيقة، مثل بيان أن الآية الفلانية مكية أو مدنية، وذكر اللغات غير المشهورة، وتوضيح وجوه البلاغة، والتراكيب النحوية والصرفية، والاستنباطات الفقهية، وشرح أسباب النزول. علماً أن هذا كله بلغة عربية، وبأسلوب سهل ميسّر، يمكن لطلبة الصفّ الثانوي فهمها وإتقانها والاستفادة منها، وخاصةً أن هذه الحواشي تفيد المدرّسين والأساتذة عند تدريس مادة التفسير، وتنفعهم للغاية.

٧ ـ مراعاة المعنى اللفظي: يقول رحمه الله: «قمت بمراعاة المعنى اللفظي، التزاماً بالترادف مرة، وأخذاً بالحاصل أخرى، ولقد جرّأني عليه صنيع شيخ مشايخنا، المسلَّم له عند أصحابنا الشاه عبد القادر الدهلوي(١) رحمه الله تعالى».

---

(١) هو الشيخ الإمام العالم الكبير المفسّر عبد القادر بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي، أحد العلماء المبرزين، اتفق الناس على ولايته وجلالته، كان مرجعاً في علم الرواية والدراية وتهذيب النفوس والدلالة على معالم الرشد وطرائق الحق، ومن أعظم ما منّ الله به عليه أنه وفق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره في لغة أهل الهند، واعتنى بها العلماء، سمّاها (موضح القرآن) من خصائصها أنه اختار لغة بحذاء لغة قاربت بما حازت في العموم والخصوص والإطلاق والتقييد، حتى إنها لا تجاوزها في موارد الاستعمال، توفّي رحمه الله في رجب سنة ثلاثين ومئتين وألف بدهلي. نزهة الخواطر: ٧/ ٢٩٥ـ٢٩٦.

ويسرد أمثلة من ترجمته:

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: ما نزل إليك، فعبر عن المجهول المتعدي بالمعروف اللازم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أنهم نالوا الهدى من ربهم، فعبّر عن الخبر الاسمي بالفعْلي، ثم مادة الوجدان غير مذكورة في القرآن، ثم لم يقع ﴿هدى﴾ مضافاً إلى الرب في القرآن.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: أنهم وصلوا إلى هدفهم وغايتهم، فعبّر عن اسم الفاعل بالماضي.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنما شأننا الإصلاح، وكم من بون بينهما، وأمثال ذلك كثيرة في ترجمته رحمه الله.

٨ ـ البعد عن التكلّفات في بيان النكات: ومنها نكات اختلاف العنوانات مع اتحاد المعنون، كما تكلفوا في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ...﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ...﴾ [الأعراف: ١٦١]، من بيان النكات في اختلاف العنوانات بين الآيتين، فإن أمثال هذه النكات تكلّفات وتعسّفات، والجواب الصحيح، والحق الصريح في جميع هذه الأمور وما حاكاها ما نقله من روح المعاني عن الزمخشري (مِن أنه لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض)[1]،

---

(١) انظر: روح المعاني للإمام الآلوسي: ١/٢٦٨، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت.

ولا تناقض بين هذه العنوانات.

وبالجملة فإن التفنن في التعبير لم يزل دأب البلغاء، وفيه من الدلالة على رفعة شأن المتكلم ما لا يخفى، والقرآن الكريم مليء، ومن رامَ بيان سر لكل ما وقع فيه منه، فقد رامَ ما لا سبيل إليه إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدنّي، والله يؤتي فضله من يشاء، وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلا هو.

٩ ـ بيان ربط الآيات من حيث الموضوع: وهذا مبني على اعتبار الارتباط فيما بين الآيات، والدليل الشافي عليه عندي، أنه لو لم نعتبر المناسبة بينهما لما اختلف ترتيب التلاوة عن ترتيب النزول، واللازم منتف بالتوفيق كما نصّوا عليه.

ويؤيده ما في (روح المعاني) تحت آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أنه ﷺ قال: «اجعلوها بين آية الربا وآية الدين»، وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال: «اجعلوها على رأس مئتين وثمانين آية من البقرة»[1]. ونحوه في التفسير المظهري[2]، ودلالته على ما أوعينا من التوقف ظاهر، وكذا الارتباط

---

(١) روح المعاني: ٣/ ٥٥.

(٢) وهو للشيخ الإمام الكبير العلامة المحدث ثناء الله الفاني فتي، أحد العلماء الراسخين في العلم، يرجع نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وُلد ونشأ ببلدة (فاني فت)وحفظ القرآن، وتفقه على الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، وأخذ الحديث عنه، كان متفرداً في أقرانه في التقوى والديانة، وكان شديد التعبد، وكان مع صفاء الذهن وجودة القريحة وقوة الفكر وسلامة=

بين السور المرتبة معتبر، لكن لا بالتوقف بل باجتهاد الصحابة، مع إجماعهم عليه فيما أراه.

والدليل الكافي عليه: ما أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى البراءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، ووضعتموها في السبع الطوال؟»[1].

فهذا يدلّ على أن الاجتهاد له دخل في ترتيب السور، وأيضاً وردت روايات مرفوعة وموقوفة في ترتيب السور، فدلّ على كونه غير توقيفي، تركه

= الذهن قد بلغ رتبة الاجتهاد في الفقه والأصول، له مصنفات عظيمة من أشهرها (التفسير المظهري) في (١٢) مجلداً، وكتاب في الفقه في مجلدين، و(السيف المسلول في الرد على الشيعة)، و(تذكرة الموتى والقبور)، و(تذكرة المعاد)، ورسالة في حكم الغناء، ورسالة في حرمة المتعة، ورسائل أخرى، توفي رحمه الله في رجب سنة خمس وعشرين ومئتين وألف. (نزهة الخواطر: ٧/ ١١٢ ـ ١١٤).

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٥٧، (٣٩٩) و١/ ٦٩، (٤٩٩)؛ والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة برقم (٣٠٨٦)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، (٧٨٦)؛ والنسائي في السنن الكبرى: ٥/ ١٠، (٨٠٠٧)؛ وابن حبان في صحيحه: ١/ ٢٣٠، (٤٣)؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٢٤١، (٢٨٧٥).

الشارع مسكوتاً عنه ، ثم أجمعوا على هذا الترتيب ، والآن لا تجوز مخالفته .

١٠ ـ ومن البلاغة عند بعض المتأخرين ورود بعض المعاني في صورة المتشابهات ، فإن صاحب التلويح عدّها كفايات ، كما قال : وأما عند علماء البيان فلأنِ الكناية لفظ قصد بمعناه معنى ثان ملزوم له ، أي لفظ استعمل في معناه الموضوع له ، لكن لا يتعلّق بـه الإثبات والنفي ، ويرجع إليـه الصدق والكذب . بل لينتقلَ منه إلى ملزومه ، فيكون هو مناط الإثبات والنفي ، ومرجع الصدق والكذب ، كما يقال : فلان طويل النجاد ، قصداً بطول النجاد إلى طول القامة ، فيصح الكلام ، وإن لم يكن له نجاد قط ، وإن استحال المعنى الحقيقي كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، وأمثال ذلك ، فإن هذه كلها كنايات عند المحققين من غير لزوم كذب ، لأن استعمال اللفظ في معناه الحقيقي ، وطلب دلالته عليه إنما هو لقصد الانتقال منه إلى ملزومـه ، وحينئـذٍ لا حاجـة إلى ما قيل : إن الكنايات مستعملة في المعنى الثاني ، لكن مع جواز إرادة المعنى الأول ، ولو في محل آخر وباستعمال آخر ، بخلاف المجاز ، فإنـه من حيث إنـه مجاز مشـروط بقرينة مانعـة عن إرادة الموضوع له .

١١ ـ الاهتمام ببيان ربط الآيات ، والسور بما قبلها ، وذلك بأسلوب سهل ميسّر ، كما أنَّ هناك اعتناءً ملموساً بتناول ملخص لكل سورة وبيان فحواها الحقيقي في بدايتها ، يلقي الضوء على ما تتضمنه السورة من الموضوعات الرئيسة .

١٢ ـ الاعتناء بوضع عناوين رئيسة للمعاني التي تشير إليها الآية ، وهذه

العناوين تسهّل الطريق للدارسين والباحثين، وتساعدهم في الوصول إلى غايتهم وهدفهم بأسرع وقت.

١٣ ـ الآيات التي فسّرت بالأحاديث والآثار، اهتم فيها المؤلف رحمه الله أن تكون صحيحة، وصريحة في الموضوع، أما الآيات التي لم تُفسّر بالمأثور، كما أن اللفظ القرآني لم يكن يحتمل ذلك، فقد وقع التسامح في اشتراط الصحة لآثارها.

١٤ ـ أما في موضوع الرد على الشبهات، وتفنيد المزاعم الباطلة، فقد كان جُلّ عناية المؤلف رحمه الله، بالشبهات التي تستند إلى دليل صحيح، أما الشبهات العقلية والحسيّة التي لا يؤيّدها الدليل، ولا تعتمد على نظر سديد وفكر صحيح فلم يتعرض لها بتاتاً.

١٥ ـ لم نقصد إلى الإطالة في الموضوع، والإطناب في التفسير والشرح بدون حاجة ملحة، أو فائدة علمية نادرة.

١٦ ـ بما أن كاتب هذه السطور ليس له كثير علم، واطلاع على الكتب السماوية الأخرى، فقد كان (تفسير الحقاني) هو المعوّل عليه في تفسير الآيات التي تتعلّق بالكتب السماوية.

١٧ ـ اقتفيت آثار السلف الصالح في الانتقاء من أقوالهم والأخذ بآرائهم من دون التطرق لآراء المتأخرين.

١٨ ـ لم أتطرق لذكر اللطائف والنكات التي لا دخل لها في فهم القرآن، ولا فائدة منها مرجوّة فيه، وذلك لأن الهدف الأساس، والغرض الأصيل هو

تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه، والاعتبار به.

١٩ ـ الآيات التي ورد في تفسيرها حديث مرفوع ثابت إلى النبي ﷺ لم نلتفت في تفسيرها إلى قول أحد.

ب ـ أهم مصادر المؤلف في تفسير (بيان القرآن):

● تفسير البيضاوي، للشيخ عبد الله بن عمر بن محمد القاضي ناصر الدين البيضاوي الشافعي (ت ٧٩١هـ).

● معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، المتوفى سنة ٥١٦هـ.

● روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للإمام شهاب الدين أبي الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ.

● الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ).

● تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي (ت ٨٦٤هـ)، وجلال السيوطي (ت ٩١١هـ).

● مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠هـ).

● تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ).

● الدر المنثور، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ).

● تفسير الخازن.

● تفسير فتح المنان.

● لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (ت ٩١١هـ).

● الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي.

● تفسير الرحماني.

● القاموس المحيط، للفيروز آبادي.

● تراجم القرآن الكريم، باللغة الأردية.

● كتب الحديث والفقه والسير والتراجم.

جـ ـ منهج المؤلف في التفسير:

اعتناؤه بالروايات ونماذجه من تفسير الآيات:

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤]:

«الروايات: في روح المعاني[1] عن ابن جرير عن الربيع قال: إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان، فقال لهم النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى... وفي رواية: ألست تزعم أن عيسى كلمة الله تعالى وروح منه...».

أخرجه السيوطي في (الدر المنثور) عن ابن أبي حاتم، وابن جرير عن الربيع، وفي (لباب النقول)[2] عن ابن أبي حاتم وابن إسحاق، بتخريج البيهقي في آخر القصة[3]، وقال في سورة الفاتحة مُعَنْوِناً (الروايات): «سورة الفاتحة مكية عند الأكثر، وهو المروي عن علي وابن عباس وقتادة وأكثر الصحابة».

وهكذا اختار رحمه الله منهجه في ذكر الروايات، علماً أن معظم هذه الروايات منقولة من تفسير (روح المعاني).

---

(١) انظر: روح المعاني، للآلوسي: ٣/ ٧٥.

(٢) انظر: الدر المنثور، للسيوطي: ٢/ ١٤٢؛ ولباب النقول، للسيوطي كذلك، ص٥١، ط: دار إحياء العلوم ببيروت؛ وانظر كذلك: تفسير الإمام ابن جرير الطبري: ٣/ ١٦٣، ط: دار الفكر ببيروت ١٤٠٥هـ.

(٣) بيان القرآن: ٢/ ٣.

١ ـ اللغة والنحو والبلاغة:

كان رحمه الله يعتني اعتناءً بالغاً ببيان اللغة والتحليل اللغوي والنحوي والبلاغي، ويخوض في بحار الوجوه البلاغية مستنداً في ذلك إلى أقوال العلماء والمفسّرين، ويختار القول الراجح بين الأقوال، وفيما يأتي نضرب بعض الأمثلة:

اللغة: يقول رحمه الله في سياق الشرح اللغوي لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ....﴾ [آل عمران: ١٠٤].

في روح المعاني: الأمة:

١ ـ الجماعة التي تؤم، أي تقصد لأمر ما.

٢ ـ وتطلق على أتباع الأنبياء، لاجتماعهم على مقصد واحد.

٣ ـ وعلى القدوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

٤ ـ وعلى الدين والملّة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٥ ـ والزمان: ومنه قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، إلى غير ذلك من معانيها.

النحو: قوله: ﴿منكم﴾، قيل: ﴿مِن﴾ تبعيضية، لوجوب هذا الأمر

والنهي على الكفاية، وقيل: بيانية، ولا يعارض وجوبه على الكفاية، لأن عموم الخطاب لا يقتضي الوجوب على العين، كما أن خطابات الجهاد عامة، ومع هذا فهو واجب على الكفاية، وأيضاً المخاطب جميع المدنيين، ويدخل فيهم الأوس والخزرج دخولاً أولياً.

البلاغة: ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التوبة: ٦٠]، أتى في الأصناف الأربعة باللام، وفي الباقية بـ(في) حرفاً، لعطف ابن السبيل على الأقرب، إما للتفنّن وإما لنكتة، وهي أن الأربعة المتقدّمة كونهم ملاكاً أظهر من المتأخرة، لأن المتأخرة حاجتهم منجزة، والغالب صرفها إليهم فوراً، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة، وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لهم، وكذا في سبيل الله وابن السبيل يصرفون في العُدّة والزاد فوراً.

وقال رحمه الله وهو يبيّن الوجه البلاغي في تقديم قوله تعالى: ﴿أموالكم﴾ على قوله ﴿أولادكم﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥].

قلت: قدّم الأموال مع كون الأولاد أحب إلى الإنسان طبعاً، لأن المال يحتاج إليه كثيراً، ولأن في تحصيله إشغالاً كبيراً، فحق له أن يهتم به».

٢ ـ اعتناؤه باستخراج مسائل السلوك من كلام ملك الملوك:

هذه رسالة خاصة بما تضمنه تفسير (بيان القرآن) من مسائل السلوك،

استنبطها المؤلف رحمه الله واستخرجها من الآيات القرآنية، وقد سمّاها رحمه الله (مسائل السلوك من كلام ملك الملوك)، علماً أن هذه الرسالة ألّفها الشيخ باللغة العربية، وإلى القارئ الكريم نماذج من هذه المسائل المستنبطة، وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذه المسائل، والتعريف بهذه الرسالة في مبحث مستقل إن شاء الله.

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، دليل على أن في القلوب أمراضاً، وهي أشدّ من أمراض الأبدان، كالشك والنفاق والحسد والحقد، وأمثال ذلك[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩] فيه ردّ على من حرّم بعض المباحات على نفسه، اعتقاداً أو عملاً، تقشفاً وتزهداً، ويُخصّ منه من تركه علاجاً[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فيه حمل بليغ للعباد على التوكل في الرزق، ولا يمنع من التوكل مباشرة الأسباب، والأخذ بها، مع العلم بأنه سبحانه مسبِّب لها، ولا ينبغي أن يعتقد أنه لا يحصل الرزق بدون مباشرة سبب، وبالجملة ينبغي الوثوق بالله تعالى، وربط القلب به سبحانه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن[٣].

---

(١) بيان القرآن: ٥/ ٢٠.
(٢) المصدر السابق: ٥/ ٢١.
(٣) المصدر السابق: ٥/ ٣٧.

٣ـ المسائل الاعتقادية:

كما نبّه رحمه الله في مختلف المواضع، وعند تفسيره للآيات على بعض المسائل الاعتقادية، وردّ على الفرق التي انحرفت، وحادت عن طريق الصواب والحق وفسّرت الآيات حسب أهوائها، وأفكارها الزائغة.

يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٍ ﴾ [يونس: ٥٩]، استدلّ المعتزلة بالآية على أن الحرام ليس برزق، ولا دليل لهم فيها، إذ المعنى «ما قُدّر لانتفاعكم» والمقدّر للانتفاع هو الحلال، فيكون المذكور هاهنا قسماً من الرزق لا مطلق الرزق الشامل للحلال والحرام، والكفرة إنما أخطؤوا في جعل بعض الحلال حراماً، ومن جعل أهل السنة نظيراً لهم في جعلهم الرزق مطلقاً منقسماً إلى قسمين، فقد أعظم الفرية(١).

وقال في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾ [التوبة: ٨٤]:

وقد ذكر أستاذي الشيخ محمد يعقوب رحمه الله في وجه حكمة صلاته ﷺ حكمة أخرى، ولا غرو في تضمن فعله ﷺ حكماً كثيرة، وهي أنه ﷺ بهذا الفعل كشف القناع عن وجه شرعي عظيم، وهو أنه لا ينفع شيء من التوسّلات والتبرّكات بدون الإيمان، ألا ترون في نبيٍّ يصلّي والصحابة رضي الله عنهم

---

(١) بيان القرآن: ٥/ ٢١.

مقتدون به، فصلوا جميعاً على جنازته، واستغفروا له، وكفن في قميص النبي ﷺ، ودخل جوفه ريق النبي ﷺ، ومع ذلك كله هو في الدرك الأسفل من النار، فلا يغتر أحد بكونه ذا نسبة من مبارك أو مقبول، كما هي هوسات الجهلاء الذين يسلكون أنفسهم في محبّي الأولياء ومعتقديهم، وأنّى لهم ذلك. انتهى بمعناه[1].

د ـ بعض الفوائد العلمية المنتقاة من (بيان القرآن):

١ ـ موالاة الكفار واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين:

قد تحدث الشيخ التهانوي رحمه الله عن هذا الموضوع وتناوله في عدة مواضع من تفسيره إجمالاً وتفصيلاً، حيث ورد النهي الشديد عن اتخاذ الكفار أولياء، ومدّ يد الموالاة إليهم، ونظراً إلى هذه التصريحات ـ النهي عن الموالاة ـ وقع بعض الطوائف من غير المسلمين فريسة سوء الفهم، بل الفهم الخاطئ، وظنّوا أن شريعة الإسلام تحرّض أتباعه على فصل كل العلاقات مع غير المسلمين، حتى الخُلق الحسن، والسلوك الطيب لا حظّ لهم فيه من المسلمين، وصرفوا النظر عن الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تحثُّ المسلمين على الخلق الطيب الحسن، والسلوك النبيل السامي مع كل الأقوام.

وفي مقابل هؤلاء كانت هناك جماعة من السذّج من المسلمين الذين اطلعوا على آيات النهي عن الموالاة، ثم شاهدوا ما قام به سيّد البشر الحبيب

---

(١) بيان القرآن: ٤/ ١٣٢.

المصطفى ﷺ من تقديم نماذج رائعة للخُلق الحسن، والسلوك الطيب النبيل، مع غير المسلمين، ثم تبعه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الرعيل الأول من هذه الأمة، وخلّفوا أمثلة عجزت أقوام العالم عن تقديم شيء منها. . .، هؤلاء رأوا من ذلك أن هناك تعارضاً بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إلا أنّ كُلاً من هذين الفكرين ناتج عن قصر النظر في آيات كتاب الله، وعدم التأمل ـ كما هو حقه ـ في حقائقها وفحواها، ولو أنهم أمعنوا النظر فيها، وعمّقوا الفكر في معانيها وسعة شموليتها لما وقعوا فريسة هذا الخطأ، ولزالت تلك الأوهام التي أدتهم إلى القول: بالتعارض بين المصدرين الكتاب والسنّة.

ومن ثَمّ فقد مسّت الحاجة إلى شرح المصطلحات ذات الصلة بهذا الموضوع، والتي يتبيّن لنا من خلالها المنهيّ عنه من المسموح به في مجال العلاقات والروابط الفردية والجماعية بين المسلمين وغيرهم، وما هي الأسباب التي من أجلها جاء النهي، وما إلى ذلك من الأمور.

مقاييس (العلاقة) ومراتبها:

الواقع أنَّ هناك مقاييس ومراتب ينبغي أن ننظر إليها بعين الاعتبار ونزن بها العلاقة بين شخصين أو جماعتين:

ـ **فمنها**: مرتبة (**الموالاة والمودّة القلبية**)، وهذه المرتبة خاصة بالمؤمنين ولا تجوز أبداً لغير المؤمنين، في أي حال من الأحوال.

ـ**ومنها**: مرتبة (**المواساة**) وهي الرغبة في الإحسان إلى الآخرين والنفع لهم، وإيصال الخير إليهم، وهذه جائزة ومسموح بها لغير المسلمين أجمعين،

إلا لأهل الحرب منهم، الذين يحاربون المسلمين، ويسعون في إضرارهم وإيذائهم، ويقومون ضدّهم، ويساندون أعداءهم في المعارك، هذا وقد بيّن الله جلَّ وعلا تفاصيل هذه المرتبة في سورة الممتحنة، إذ قال عزَّ من قائل: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

ـ **ومنها**: مرتبة **(المداراة)** ومعناها التظاهر بالخُلق الحسن، والمعاملة الطيبة، والسلوك المرضي العالي، وهذا أيضاً جائز مع غير المسلمين، إذا كان الهدف منه هو الدعوة إلى الدين، أو كانوا ضيوفاً عند المسلمين، أو لتأليف قلوبهم، أو كان الغرض هو توفير أسباب الأمن باتقاء شرورهم، والأضرار الناتجة منهم، وهذا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فنهى عن الموالاة واستثنى منها هذه الحالة، وهي التي تسمّى بالمداراة.

ـ **ومنها**: مرتبة **(المعاملات)**؛ أي: التعامل معهم في الأمور الدنيوية، كالتجارة والصناعة ومشاركتهم في الحِرف الأخرى، فهذا جائز مع جميع الكفار، إلا في حالة واحدة وهي حالة تضرّر المسلمين من هذه المعاملات.

وإن ما قام به سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدون ثم الصحابة أجمعون، خيرُ شاهد، وأصدق دليل وبرهان على ذلك، وما قرّره الفقهاء من حظر بيع الأسلحة لأهل الحرب من الكفار، والإذن في تجارة الأشياء الأخرى، إنما هو مبنيّ على هذا الأصل.

٢ ـ التشبّه بالأقوام الآخرين:

من هو المتشبّه؟

هو من عدل عن حقيقته وشكله الأصلي، وتخلّى عن مميزاته وسيرته وأخلاقه، واندمج في حقيقة قوم آخرين وتشكل بشكلهم، واختار طريقتهم وهيئتهم، وانتهج منهجهم، واتبع سلوكهم.

وهكذا نرى أن تعاليم ديننا الحنيف وشرعنا القويم الإسلامي تُلزم أتباعه أن تكون شخصياتهم متميزة عن الآخرين، حتى في الأشكال الظاهرية والتي تتمثل في الملبس، أما ما يميزهم من الآخرين في داخل الجسم فهو الاختتان، واللحية، ولا يمكن التمييز بين المسلمين وغيرهم ـ في المظهر الخارجي ـ إلا بهاتين الميزتين، ومن هنا فقد حثّ الدين الإسلامي على اختيار الملبس الذي يتفق وقواعد شرع الله، وإن الحفاظ عليه وعلى شعار اللحية من متطلبات الحميّة الدينية، والغيرة الإسلامية، وليس من قبيل التعصّب أو قصر النظر، وإنما الغرض الأساسي هو إنقاذ الأمة الإسلامية من تقليد الغير، وتجنيبهم الوقوع في الالتباس، أو فريسة التشبّه بالأقوام الأخرى، وذلك لأن الأمم التي لا تحافظ على مميزاتها وخصائصها، ولا تصون شخصياتها من الاندماج في الأقوام الأخرى فإنها لا تستحق أن يقال لها: أمة مستقلة حرة تتمتع بكل معاني الحرية والاستقلال.

حكم التشبّـه بالكفار:

مما لاشك فيه أن التشبّه بالكفار في المعتقدات والعبادات كفر، والتشبه

بهم في الطقوس والتقاليد الدينيـة حرام، مثل تقليـد النصارى في تعليق رمز الصليب بالعنق، واستخدام أي نوع من أنواع القلائد التي ترمز إلى الشرائع الهندوسية، والطقوس الدينية غير الإسلامية فهذا كله حرام؛ لأن اختيار الشعائر الكفرية والشركية علناً وجهراً دليل على الرضا بها قلباً، وهذا النوع من التشبّه وإن كان أقل درجة من النوع الأول، لكنه ذريعة إليه، فلا بد من سدّها حتى لا يمكن الوصول إليه، فهل يُعقل أو يرضى أحد لنفسه أن يشرب البول ـ أعزنا الله وإياكم ـ بحكم وجود الفرق بين الغائط والبول؟ كلا! بيد أن النهي عن التشبّه بالكفار في العبادات، والطقوس، والتقاليد المذهبية، والأعياد التي تحمل طابع الدين عندهم، ثـابت قطعاً بإشارات من كتاب الله، وأحاديـث صحيحة كثيرة، وسنة رسول الله ﷺ، وقد فصّل القول فيـه شـيخ الإسـلام الحافظ ابن تيمية رحمه الله في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) وذكر معظم تلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تناولت هذا الموضوع.

أما التشبّه بهم في شؤون العشرة الاجتماعية، والعادات القبلية والتقاليد القومية فهو مكروه تحريماً، مثلاً التزيّي بالزيِّ الخاص بهم، واستخدام ما يُشير إلى طائفة خاصة من الملابس، أو يعد مَعْلَماً من معالمهم بحيث يعرفون به، مثل استعمال الطاقية أو القلنسوة الخاصة بالنصارى، وارتداد الكساء الخاص الذي يستعمله العُبّاد الهندوس، أو الحذاء الخاص بالنُسّاك والرهبان، هذا وما يشبهه كله داخل في التشبّه بهم.

هذا وقد يزيد الطين بلة إذا كانت النية من استعمال هذه الأزياء والملابس هي التباهي بها، والتفاخر بالتظاهر بارتدائها، أو تقليد الإنكليز أو أقوام أخرى في هذه الأشياء، فلا شك أن الحرمة تزداد، وتشتد الخطورة.

أما إذا قلدهم أحد في طريقة التحدث وأسلوب الكلام حتى يُعدّ من طائفتهم ويُحسب من زمرتهم فذلك أيضاً محظور عليه، علماً أن تعلّم اللغات مثل الإنكليزية أو الهندية أو السنسكريتية إذا كانت أداة للمخاطبة ووسيلة المراسلة والمكاتبة، ولم تصحبها نية التشبه بهم، أو إرادة كسب إعجابهم أو إثبات حبّ الوطن فهذا لا بأس به، بل قد يصل الأمر إلى الوجوب إذا اقتضت الحاجة الدعوية، وتطلبت الضرورة الدينية، وكان الغرض فهم كلامهم للاطلاع على نواياهم، ومعرفة مقاصدهم.

٣ ـ مخالطة غير المسلمين:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، في (روح المعاني): ويشمل النهي حينئذ مداهنتهم، وترك النكير عليهم مع القدرة، والتزيّي بزيهم، وتعظيم ذكرهم، ومجالستهم من غير داع شرعي، وكذا القيام لهم، ونحو ذلك. قال الحسن: جميع (الذين) في الآيتين: يعني (لا تطغوا) و(لا تركنوا).

٤ ـ الزواج بالكتابية:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]،

ظاهر الآيـة يدل على جواز نكاح الكتابية، وقد حقّق في الموضوع الشـيخ التهانـوي رحمه الله، فقال: «هنـاك طائفة من الناس يزعمون أنهم من أهل الكتاب، وأن أزياءهم الظاهرية وأسلوب حياتهم وطريقة عيشهم تُشـبه أهل الكتاب، ولكن يبدو بعد إمعان النظر في عقائدهم، والبحث والتمحيص في أصول معتقداتهم أنهم ليسوا من أهل الكتاب في شيء، وكل ما يدّعون في هذا الصدد دعاوى باطلة لا تمت إلى الواقع والصحة بصلة، فلا يجوز نكاح المسلم لنساء هؤلاء، كما هو الحال في عصرنـا هذا، حيث يعتقـد بعض النـاس أن الإنكليز هم من النصارى أتباع سيدنا عيسى عليه السلام، والواقع أن عقائدهم قد تسرّبت إليها أمور إلحادية، وخرافية، وتطرقت إليها أشياء باطلة، لا علاقة لها بالشريعة العيسوية، وما أنزل الله بها من سلطان، فإنهم لا يؤمنون بنبوة عيسـى عليه السـلام ولا بشريعة الإنجيل، وكونه كتاباً سماوياً، وعلى هـذا فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب الذين أحل الله للمسلمين الزواج بنسائهم، وإن الذين يتزوجون في بلاد أوروبة أو الدول الغربية الأخرى، دون أي تحقيق أو بحث عن ديانة المرأة ومعتقداتها، يقعون فريسة الخطأ الفادح، ويظلمون أنفسهم».

٥ ـ بعض الفوائد التفسيرية:

ـ يقول رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿نعبد﴾: إن العبودية الكاملة هي معراج الإنسانية، ولذلك أكرم الله تعالى جميع الأنبياء بهذه الصفة المباركة وخاطبهم بـ(عباد الله)، كما وصف خاتم النبيين سيد الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ بـ(عبد الله ورسوله) الذي هو خير خلق الله في الأرض.

ـ ويقول في تفسير كلمة ﴿الرزق﴾: إن معنى كلمة الرزق وفحواها واسع النطاق في كتاب الله تعالى، فالرزق يتضمن كل أنواع النعم، وجميع أصناف الآلاء، سواء كانت ظاهرية أو مادية أو معنوية، فتشتمل دائرة (الرزق) العلم والحكمة والفهم والفراسة والمحبة والخشية والتقوى والطهارة، وعباد الله الصالحين يُنفقون كل ما أنعم الله عليهم من النعم في سبيل الحق والدين.

ـ ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾[البقرة: ٥٧]: كانت بنو إسرائيل قد تدفّقت عليهم أصناف من النعم، وأنواع من الثروات والآلاء، ورغم ذلك كله كان مآلهم أنهم كانوا غارقين في بحار المعاصي والآثام والبغي والطغيان، وفي هذه الآية دليل صريح على أن أبواب أنعم الله تعالى وآلائه تظل مفتوحة رغم كثرة المعاصي والآثام، وهذا يسمّى استدراجاً، وقد زعم بعض الجهلة من المتصوّفة أن كثرة المال، والازدياد في الثروات من علامات القبول عند الله تعالى، وهذا جهل بحت لا يمتّ إلى الدين بصلة.

ـ ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]: دلّت الآية الكريمة على ثلاثة أمور:

١ ـ إن طلب الأولاد من الله والرغبة فيهم لا يعارض التقوى والزهد.

٢ ـ ينبغي أن يكون نظر الداعي وتوجّهه إلى مسبّب الأسباب، وليس إلى الأسباب ذاتها.

٣ ـ ينبغي أن يدعو الإنسان ربه تعالى أن يرزقه الأولاد الصالحين، وليس مجرّد الأولاد.

ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]: دلّت الآية الكريمة على أربعة أشياء:

١ ـ لا ينبغي أن يغترّ الإنسان بالخوارق الصادرة من بعض الناس، لأنها قد تصدر من أهل الباطل.

٢ ـ هناك نوع من السحر قد يؤثر على القلب ويتصرف فيه، ويدخل فيه (عملية التنويم) (Mesmerism).

٣ ـ إن التأثر بالسحر وعملية التنويم (Mesmerism) لا ينافي الكمال الباطني، وقد أصيب سيدنا موسى عليه السلام أيضاً بالخوف والرعب.

٤ ـ ليس من الضروري قدرة أهل الحق على التغلّب على هذه الأشياء أو إبطالها.

ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦]:

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله: «إن المعاصي والآثام تزداد سوءاً وقُبحاً في الأوقات المباركة والساعات المفضّلة، وينبغي أن يقاس على الأوقات، الأمكنةُ والمقاماتُ المباركةُ، والأسف كل الأسف على أولئك الجهلة من رعاة شؤون المزارات وضرائح الأولياء والصالحين، الذين يقترفون أنواع الذنوب والمنكرات، ويرتكبون أصناف المعاصي والآثام، والبدع والخرافات عند هذه القبور، ويعقدون محافل الموسيقى ومجالس الطرب والغناء، ويزين لهم الشيطان أعمالهم، ويفتح لهم أبواب الشرّ والفساد والتبرّج

والسفور على مصراعيه، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً، نسأل الله السلامة والعافية.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]:

قال الشيخ التهانوي رحمه الله: لم يقدر سيدنا موسى عليه السلام أن يصبر على الأمور الثلاثة الصادرة عن الخضر عليه السلام، وهذا دليل على أن الإنسان مهما بلغ من المكانة العالية الرفيعة في العلوم الباطنة لن يسعه العمل مخالفاً لظاهر الشريعة الإسلامية، إلا بإلمام صريح، وهذا الإلمام الصريح استحال صدوره بعد ختم النبوة.

وأضاف رحمه الله قائلاً:

أجمع العلماء المحققون قاطبة على أن أي عمل أو فعل مهما كان مزكًى ومصفًّى ومجلًّى من حيث آثاره الروحانية، ولطائفه النورانية، لو كان معارضاً لظاهر الشريعة ومخالفاً لها فلن يكون مباحاً أبداً، يقول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١]:

هذه الآية الكريمة تناولت شرح وبيان النظام الإسلامي والحكومة الإسلامية، وصرحت بأنه لو أقيمت حكومة المسلمين الصالحين لعمرت مساجد الله بذكر الله، وازدادت رونقاً وبهاءً بإقامة الصلوات، وحلقات الدروس

والوعظ، فتَسْمَع دويَّ التكبير والتهليل في كل الأنحاء والأطراف، ولتبدو الحياة غنية بالمعنوية والروحانية، والقلوب عامرة منوّرة بنور الصلاح والتقوى، والبرّ والإحسان، حيث يقوم بيت المال بسدّ حوائج الفقراء والمحتاجين، فلا تجدنّ جائعاً يطلب ما يسد به رمقه، ولا عارياً يطلب ما يواري به عورته، ويعمّ الخير بين الجميع، ويسودُ المجتمعَ العدلُ والإنصافُ وتحكمه المساواةُ، بدل أن يضطرّ الإنسانُ لشراءِ العدل، والمساومةِ في المَحاكم للحصول على حقه الشرعي والقانوني، وتتحرر الكتلة البشرية من أغلال الربا والرشاوي، ويتطهر المجتمع من كل أنواع الكذب والتزوير والتزييف، والفحشاء ومساوئ الأخلاق، ومن جميع الفتن المادية؛ كالسرقة والنهب وقطع الطريق، ويُصبح ارتكاب المعاصي والآثام، واقتراف الذنوب حُلماً لن يتحقق، وأملاً لن ينال.

وكل من سوّلت له نفسه الاقتراب منها سيكون مصيره هو الخيبة والخسران في الأولى والآخرة، ولو لم يتب أصحاب الغناء والموسيقى، ومحافل الطرب والرقص، ولم يتخلّوا عن هذه العادات السيئة، فسيواجهون النفي والجلاء، تلك الحكومة التي تقمع فيها جذور الفواحش، وتحرّق دور السِّينما والأفلام الخليعة، وتهدم محلات الملاهي ومواضع التهم، ويحلّ الأدب الإسلامي البنّاء الرائع، والقصص الحسنة ذات السلوك العالي والتربية الرفيعة، محل الروايات الكاذبة والقصص الخرافية، والأشعار المُفسدة للأخلاق، المثيرة للشهوات، والهادمة للقيم الخلقية والمعايير الدينية والإسلامية، وبالجملة فإن إقامة وتأسيس الحكومة الإسلامية بمعنى الكلمة لتجعل الدنيا الفانية الزائلة جنة يشعر فيها الإنسان بالراحة والطمأنينة والهدوء

والسعادة، ويعيش عيشة هنيئة رغيدة بكل أمن واستقرار، وهذه هي الحكومة التي أرادها الباري جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة.

ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]. **قال رحمه الله**: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وقتادة والحسن البصري رحمهم الله: أنهم فسّروا الوسيلة بالتقرب، ومعنى ابتغاء الوسيلة هو البحث عن التقرب إلى الله والوصول إليه، وهذا يحصل للإنسان بالأعمال الصالحة، وتجنّب المعاصي والذنوب والابتعاد عنهما.

وإنّ بعض علماء الهند الذين استدلّوا بكلمة الوسيلة على إثبات الاستعانة والاستغاثة بالأولياء قد أساؤوا فهم كلمة الوسيلة، وحسبوها شبيهة ومماثلة في المعنى لكلمة (الوسيلة) الأردية، ولا شك أن هذا خطأ فاحش، لأن الوسيلة كلمة عربية معناها القرب والدنو.

وخلاصة القول: إن نيل رضا اللهِ تعالى، والحصول على مرضاته والتقرب إليه لا يكون إلا بالأعمال الصالحة فقط، لا بالاستعانة بالأولياء والاستغاثة بهم، ولا بإحياء ذكراهم، والاحتفال بهم، والنذر لهم، نسأل الله السلامة والعافية.

ونكتفي بهذا القدر من الفوائد العلمية، والنوادر واللطائف التفسيرية التي انتقيناها من (بيان القرآن) لحكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي.

والجدير بالذكر أن هذا التفسير العظيم قد طبع في طبعته الأولى في اثني عشر مجلداً، ثم صُغّرت الحروف وتمت طباعته في أربعة مجلدات ضخمة، رحم الله المؤلف ونفع بكتابه المسلمين.

* * *

٢ ـ إمداد الفتاوى

تمهيد:

إن موضع الإفتاء، أو كتابة الفتاوى، هو الذي يحيط بمعظم أجزاء حياته رحمه الله، العلمية والدعوية والإصلاحية، بل إنه يحتل حياته الكاملة بعد البدء في مرحلة التدريس والدخول في مجال الإفادة والتعليم، وقد رزقه الله تعالى من العمر ما يناهز أكثر من نصف قرن، يخدم فيه الدين والشريعة، ويغذّي الناس وينفعهم بعلمه وحِذْقه وذكائه، وفهمه، وورعه وتقواه.

وهكذا عاش هذا العالم الربّاني الجليل ترجماناً عن مراد الله تعالى، وبمثابة الوزير الموقّع عن الملك[١]، مع ما في هذا الفن من الخطورة وكبر الموقع، وكثرة الفضل[٢].

---

(١) لقد شبّه الإمام القرافي رحمه الله المفتي بالترجمان عن مراد الله تعالى، وجعله الإمام ابن القيم رحمه الله بمنزلة الوزير الموقّع عن الملك، وقال: إذا كان منصب التوقيع عن الملك بالمحلّ الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيّات، فكيف بمنصب التوقيع عن ربّ الأرض والسماوات؟!. (إعلام الموقعين عن رب العالمين: ١/ ١٠).

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله: اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل، لأنّ المفتي وارثُ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائمٌ بفرض=

هذا وقد عدّ العلماء هذه المجموعات الكبيرة من الفتاوى الصادرة من حكيم الأمة، الفائضة من قلمه السيّال، مأثرة كبيرة تجديدية لهذا العصر، وتراثاً علمياً كبيراً، لا يستغني عنه العلماء وأصحاب الفضل، فضلاً عن طلاب العلم وعامة الناس[1].

يقول الشيخ محمد تقي العثماني: «وأما في الفقه فله (إمداد الفتاوى) في ستة مجلدات ضخمة باللغة الأردية[2]، وهي مجموعة فتاواه التي كتبها بنفسه، وكان رحمه الله أكبر مرجع للفُتيا في الهند، يرجع إليه المستفتون من مشارق الأرض ومغاربها، ويكتب إليه العلماء الأفاضل في مسائل عويصة أشكل عليهم أمرها، فيجيبهم الشيخ، ويحلّ مشكلات المسائل وغامضها بكل تحقيق وتدقيق، بما يثلج صدورهم، ويشفي غلّتهم، وإن (إمداد الفتاوى) شاهدُ عدل لعمق نظره في الفقه، وفيها مباحث فقهية نفيسة، وشرح لمعظم المسائل التي حدثت في العصور الأخيرة، ويعتبر هذا الكتاب الآن أكبر مأخذ للمفتين ومرجع لهم في باكستان والهند وبنغلاديش»[3].

= الكفاية، لكنّه معرَّضٌ للخطأ، ولهذا قالوا: المفتي موقِّع عن الله تعالى. (المجموع شرح المهذّب: ١/ ٤٠).

(١) من مقدمة الشيخ المفتي شفيع أحمد (كبير المفتين في باكستان سابقاً) لكتاب (إمداد الفتاوى).

(٢) وفيها عدد لا بأس به من الفتاوى باللغة العربية، سوف نذكر نماذج منها إن شاء الله في الصفحات القادمة.

(٣) من مقدمة لكتاب إعلاء السنن: ١/ ١١ ـ ١٢.

هذا وقد أكرم الله سبحانه وتعالى الشيخ التهانوي بأساتذة أكْفاء من أهل الورع والتقى الذين كانوا له خير معين في هذا السبيل، ويرجع إليهم الفضل بعد الله سبحانه وتعالى، في تطوير مواهبه العلمية، وتنشيط صلاحياته الدعوية، فقطع رحمه الله شوطاً كبيراً من هذه المهمة العلمية في ظلّ إشرافهم العالي، ورعايتهم وإرشاداتهم الغالية، وتوجيهاتهم القيّمة، وسنحت له الفرصة أن يتمرن على هذا الفن، ويمارسه عن كثب، وتنمو فيه ملكة قوية، وبراعة نادرة تساعده على الإتقان في أداء هذا الواجب الديني الكبير، الذي لا تكفي فيه القراءة البحتة، والمطالعة المحضة، والذكاء النادر، والعارضة الوقادة فحسب، بل لا بدّ فيه من ملازمة مَهَرة هذا الفن والمحنّكين المتقنين، حتى يتمكن القائم بهذا الواجب من كسب ذوق صحيح في معرفة أصول هذا الفن.

والاطلاع على دقائق هذا الشأن، وإيجاد ملكة تعينه على الاستنباط والاستخراج في بيان أحكام ما يواجهه من الحوادث الطارئة والمستجدات والنوازل، الأمر الذي يتطلب منه بذل جهود وطاقات مضاعفة، حتى يتحقق هدفه المنشود، وينال غايته المتوخاة.

وفعلاً فإن العلماء والمفتين الذين تربى في كنفهم، ونشأ في إشرافهم نشأته العلمية وتحت رعايتهم الرشيدة، كانوا من أجلّ وأكبر الأساتذة في هذا الفن، أمثال الشيخ المحدث والفقيه العلاّمة **محمد يعقوب النانوتوي**، والعلاّمة المحدث الصالح الشيخ **رشيد أحمد الكنكوهي** رحمه الله.

وإن القارئ **لإمداد الفتاوى**، والمطلع عليه، سيجد أثر هذين الشيخين

الجليلين في الفتاوى جلياً بارزاً، ولا شك أن توجيهاتهم العلمية أصولاً وفروعاً تذكرنا بالمتقدمين من الفقهاء والمحققين الذين اشتهروا في مجال الإفتاء وذاع صيتهم فيه.

أ ـ خصائص الكتاب ومزاياه ومنهج المؤلف فيه:

١ ـ يعتبر هذا الكتاب موسوعةً فقهيةً مبسّطةً للناطقين باللغة الأردية، يجد فيها القارئ الكريم كل ما يحتاجه في العقائد والعبادات والمعاملات، بأسلوب سهل ميسّر، لا غموض فيه ولا اضطراب، ولا تعقيد ولا التباس، ومما يزيد في قيمة الكتاب ويرفع من مكانته، أن الشيخ التهانوي رحمه الله قد ضمّنه بعض الرسائل القيّمة حول قضايا معاصرة، ونوازل طارئة ربما لا يجدها القارئ في موضع آخر.

٢ ـ إن كثرة مصادر هذه الفتاوى، وتنوّع مواردها، يدلّ على مدى عناية الشيخ التهانوي رحمه الله بهذا الكتاب، وغوصه بحار البحث والتحقيق، كما أنه يدلّ على سعة اطلاعه، وعلو ثقافته، وإحاطته بالمادة التي تناولها.

٣ ـ كلما عرضت عليه مسألة ـ مهما كانت سهلة واضحة وجليّة ـ كان يدرسها دراسة متأنية، وينظر فيها بإمعان وتعمق، ويفكر في جوانبها وأطرافها، قبل أن يبدأ في كتابة الجواب، وينفق كل طاقاته في الوقوف على شبيهها ومثيلها من فتاوى فقهاء السلف، والمتقدّمين من العلماء، فإن وجدها كتب الجواب على ضوئها.

٤ ـ أمّا المسائل التي لا يجد لها جزئية صريحة فكان يحرّر جوابها طبقاً

للقواعد، وفي ضوء الأصول، وينبّه في آخر الجواب ويقول: إن هذا الجواب قد تم تحريره في ضوء الأصول والقواعد، لأني لم أقف على جزئية خاصة بهذه المسألة في آراء الفقهاء، وينبغي مراجعة العلماء الآخرين في المسألة، فإن خالفوني في الجواب فأرجو إفادتي بذلك.

٥ ـ كان رحمه الله لا يبتّ في مسألة ما دون استشارة ومراجعة أقرانه وزملائه من أهل العلم، بل إنه كان يراجع أحياناً تلاميذه ويستشيرهم إذا لم يجد أحداً من أساتذته أو أقرانه، وكان من عادته رحمه الله أنه كان يوصي العلماء ويؤكد عليهم بالتمسّك بمبدأ التشاور والالتزام به نظراً إلى أهميته القصوى.

٦ ـ إذا كانت المسألة لها صلة بذاته هو، أو عرضت له عارضة لم يعمل فيها بفتواه الخاصة، وإنما كان يعرضها على العلماء الآخرين يستفتيهم فيها، ثم يعمل بما كانوا يفتون، وقد أرسل إلى الشيخ المفتي محمد شفيع عدة مرات يسأله عن مسائل ويستفتيه فيها.

٧ ـ برغم استخدام كل أبواب الحيطة، وبذل كل الجهود، وإنفاق كل الطاقات الممكنة في مجال البحث والتحقيق، وإمعان النظر، وتدقيق الفكر في المسائل، كان رحمه الله يؤكد على أصحابه والملازمين لمجالسه وحلقات دروسه، وعامة العلماء أن يحيطوه علماً إذا خالفه أحد في الفتاوى الصادرة عنه، وكان يحبّ أن يسمع الانتقاد لفتاواه من أي واحد حتى من الصغار، وكان إن تغير رأيه بعد إعادة النظر في المسألة، أو وصل إلى نتيجة جديدة في البحث، يُسرع في إعلانه، وإطلاع الناس عليه في أقرب وقت ممكن، ويقوم بنشر رأيه

الجديد وقوله الأخير (الذي يراه راجحاً) في مجلة (النور) الشهرية، ثم يضمّن كل مجلد من (إمداد الفتاوى) ملحقاً خاصاً بأقواله الجديدة وآرائه المتأخرة، وذلك بعنوان (ترجيح الراجح).

٨ ـ كان رحمه الله ينهج منهج التيسير، ودفع الحرج، وإزالة المشقة عن عامة الناس، وجعله نُصب عينه تجاه النوازل والمستجدات الحديثة، والقضايا المعاصرة التي أوجدتها الآلات الحديثة، والمعاملات الجديدة، فإن رأى أن الأصول والضوابط الفقهية تسمح بقبول الرخص لهم، وإزالة الضرر عنهم، ويمكن توفير التيسير لهم دون أي تعارض مع النص الصريح، كان يرى مذهب التيسير، وخاصة في القضايا التي عمّت فيها البلوى، ولو وُجدت رخصة في رواية ضعيفة، أو في رأي عند إمام من الأئمة المتبوعين من السلف، كان يختارها، ويفتي بها نظراً إلى ضرورة الناس وعموم البلوى، ولكنه كان يشترط فيها شرطين أساسيين:

الأول: أن يكون عامة الناس مضطرّين في تلك المسألة، ولا يكون الأمر عائداً إلى حبّ اليسر والسهولة، أو كان السبب في ذلك هو التكاسل.

الثاني: أن تتم دراسة المذهب الذي اختير قوله في الأخذ بالرخصة والتيسير دراسة كاملة، وتحقّق فيه المسألة من كل الجوانب والنواحي، وبمراعاة شروط ذلك المذهب وتفاصيله الكاملة المستفادة من أحد علماء ذلك المذهب، ولا يكتفي في ذلك بالمطالعة الشخصية.

هذا وقد تحققت هذه الضرورة مستوفية كل الشروط في مسألة الزوج

العنّين والمجنون والمتعنّت والمفقود، بحيث لما اشتدت مظالم الأزواج على زوجاتهم، ووقعن فريسة المصائب والمشكلات من قبل أزواجهن في قضايا الأحوال الشخصية من النكاح والطلاق، وذلك بسبب غياب القاضي الشرعي، وفقدان القانون الشرعي في بلاد الهند، حتى انتشـرت أخبار ارتـداد النسـاء المسلمات في ولاية (بنجاب)، كان من الطبيعي أن يقلق الشيخ التهانوي رحمه الله لهذا الوضع المؤلم المُحزن، والذي بكت له العيون دموعاً دامية، ولِمَا آل الأمر إليه في شأن النساء المسلمات.

وانطلاقاً من مبدأ رفع لواء الإصلاح، والمشاركة الفعّالة في البحث عن حلول ناجعة لما يعاني منه المسلمون، نهض الشيخ التهانوي رحمه الله وأقبل على البحث والتنقيح لهذه المسائل من كل الوجوه، وذلك بمراجعة المذاهب الأربعة، وشمّر عن ساعد الجدّ لتحقيق هذا الغرض النبيل، والهدف السامي.

وكان كل من الشيخ المفتي **محمد شفيع**، والشيخ المفتي **عبد الكريم** قد شاركاه في إنجاز هذا العمل العظيم، وآزراه وشدّا عضده بكل معنى الكلمة، في كل خطوة كان يخطوها، حتى وفقهم الله تعالى لإكمال هذا التحقيق الأنيق من الكتب الفقهيّة للمذاهب الأربعة.

ثم نظراً للاستزادة العلمية، وطلباً لمزيد من التنقيح والتوضيح قاموا بمراجعة علماء المذهب المالكي الذين كانوا في ذاك الحين بالحرمين الشريفين، وواصلوا معهم كتابة ومراسلة، كما لم يَفُتْهُم أن يراجعوا علماء وفقهاء شبه القارة الهندية، ويستشيروهم في هذه الحادثة.

وبعد خمس سنوات حافلة بجهود متواصلة حثيثة، ومساعٍ مستمرة في مجال البحث والتحقيق، والتنقيح والتمحيص، قام الشيخ التهانوي رحمه الله بتأليف كتاب سمّاه (**الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة**) وجاء الكتاب متضمناً حلاً شرعياً دينياً للمعضلة التي كانت تعاني منها المرأة المسلمة، والظروف القاسية، والأوضاع العصيبة التي كانت تمرّ بها بسبب أنواع من العنف والظلم التي كان يقوم بها الأزواج تجاههن.

كانت هذه نبذة يسيرة تعريفية بمجموعة فتاوى الشيخ التهانوي رحمه الله وخصائصها ومنهجه فيها.

ب ـ المصادر والمراجع التي استقى منها المؤلف فتاواه:

لم نذكر في هذه القائمة كتب الأحاديث والآثار والسنن بجميع أنواعها، وكذلك الكتب المؤلفة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وإنما اكتفينا بذكر أهم مراجعه في التفسير والفقه وشروح الحديث، والكتب المتفرقة.

كتب التفسير وعلوم القرآن:

١ ـ تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ٢ ـ تفسير الكشاف، للزمخشري، ٣ ـ غاية البيان، ٤ـ تفسير الإمام الرازي، ٥ـ روح المعاني للآلوسي، ٦ـ حاشية الصاوي على الجلالين، ٧ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ٨ ـ فتح الرحمن للإمام ولي الله الدهلوي، ٩ـ موضح القرآن للشيخ عبد القادر المحدث الدهلوي، ١٠ـ تفسير النسفي (مدارك التنزيل)، للنسفي، ١١ـ تبصرة الرحمن، ١٢ـ تفسير ابن كثير، ١٣ـ الدر المنثور للإمام السيوطي،

١٤ـ فضائل قل هو الله أحد، لأبي محمد السمرقندي، ١٥ـ التفسير المظهري للعلامـة القاضي ثنـاء الله، ١٦ـ تفسـير روح البيان للبرسـوي، ١٧ـ تفسير الخازن.

كتب شروح الحديث:

١ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ٢ـ عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، للعلامة العيني، ٣ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود، لشمس الحق العظيم آبادي، ٤ـ شرح السنة، للإمام البغوي، ٥ـ جمع الفوائد، ٦ـ شرح النووي لصحيح الإمام مسلم، ٧ـ شرح الشمائل، للإمام الملا علي القاري، ٨ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري، ٩ـ التعليق الصبيح على مشكاه المصابيح، للعلامة محمد إدريس الكاندهلوي، ١٠ـ مشكل الآثار، للإمام الطحاوي، ١١ـ أشعة اللمعات شرح المشكاة (بالفارسية)، ١٢ـ بلوغ المرام، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ١٣ـ المصفّى شرح الموطأ، ١٤ـ الاستيعاب، للإمام ابن عبد البرّ، ١٥ـ شرح القسطلاني لصحيح البخاري.

كتب الفقه والفتاوى والأصول:

١ـ ردّ المحتار على الدر المختار، لابن عابدين الشامي، ٢ـ الفتاوى الهندية (الفتاوى العالمكيرية)، ٣ـ الخلاصة، ٤ـ المقنع، ٥ـ النهاية شرح الهداية، ٦ـ الهداية، للمرغيناني، ٧ـ الكفاية (حاشية على الهداية)، ٨ـ العناية (حاشـية على الهداية)، ٩ـ حاشية الشيخ وجيه الدين على شرح الوقايـة،

١٠ـ تنشيط الأذهان، ١١ـ جامع الرموز للقهستاني، ١٢ـ كشف المنار، ١٣ـ فتاوى قاضيخان، ١٤ـ البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم الحنفي، ١٥ـ حاشية العلاَّمة عبد الحي اللكنوي على شرح الوقاية، ١٦ـ الأسرار المحمديّة، ١٧ـ الأشباه والنظائر، لابن نُجيم الحنفي، ١٨ـ نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، للعلامة الزيلعي، ١٩ـ فتح القدير بشرح الهداية، للإمام ابن الهمام، ٢٠ـ تيسير الوصول إلى علم الأصول، ٢١ـ مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، ٢٢ـ شرح الصدور، ٢٣ـ الفوائد، لأبي القاسم بن علي الزنجاني، ٢٤ـ التجريد، لأبي الفضل، ٢٥ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للإمام الكاساني، ٢٦ـ منية المصلي، ٢٧ـ الحلبي، ٢٨ـ حاشية الطحطاوي على الدر المختار، ٢٩ـ النهر الفائق، ٣٠ـ جامع الرموز، للقهستاني، ٣١ـ المحيط، للسرخسي، ٣٢ـ رسم المفتي، لابن عابدين، ٣٣ـ شرح القهستاني، ٣٤ـ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، ٣٥ـ مجموعة فتاوى العلاَّمة أبي الحسنات عبد الحي اللكنوي رحمه الله، ٣٦ـ فتاوى همايون، ٣٧ـ خزانة المفتين، ٣٨ـ علم الفقه، للعلامة عبد الشكور اللكنوي، ٣٩ـ فوائد تاج الشريعة، ٤٠ـ خزانة الروايات، ٤١ـ الفتاوى السراجية، ٤٢ـ الفتاوى العزيزية، ٤٣ـ تنقيح الفتاوى الحامدية، ٤٤ـ عمدة الرعاية، ٤٥ـ الفتاوى التاتارخانية، ٤٦ـ فتاوى أهل سمرقند، ٤٧ـ فتاوى مجمع البركات، ٤٨ـ الخزانة الجلالية، ٤٩ـ فتاوى النوازل، لأبي الليث السمرقندي، ٥٠ـ معتمد الأصول، لأبي يعلى القاضي.

كتب متفرقة:

١ـ تذكرة خواص الأمة، لسبط ابن الجوزي، ٢ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ٣ـ أصح السير، للشيخ عبد الرؤوف القادري، ٤ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، ٥ـ الشفاء، للقاضي عياض، ٦ـ نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض، للخفاجي، ٧ـ سيرة ابن هشام، ٨ـ ترجيح الراجح، ٩ـ شرح نخبة الفكر، للحافظ ابن حجر، ١٠ـ حجة الله البالغة، للعلامة الشاه ولي الله الدهلوي، ١١ـ تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ١٢ـ منهاج السنة، للإمام ابن تيمية، ١٣ـ إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، ١٤ـ بهجة النفوس، لابن أبي جمرة، ١٥ـ كتاب الروح، للإمام ابن القيم، ١٦ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، للإمام ابن القيم، ١٧ـ وفاء الوفا بذكر حجرات المصطفى ﷺ، ١٨ـ تنزيل السكينة على قناديل المدينة للسبكي، ١٩ـ كشف النور عن أصحاب القبور، للنابلسي، ٢٠ـ شرح العقائد النسفية، ٢١ـ وفيات الأعيان، لابن خلّكان، ٢٢ـ الرسالة القشيرية، ٢٣ـ العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ٢٤ـ إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، للإمام ولي الله الدهلوي، ٢٥ـ الطريقة المحمّدية، للإمام البركوي، ٢٦ـ عوارف المعارف، ٢٧ـ زبدة النصائح.

كانت هذه قائمة بأهم المراجع والمصادر التي استقى منها المؤلف ما في كتابه (إمداد الفتاوى)، وإن كثرة هذه المراجع، وتعدّد أنواعها وموضوعاتها إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على ثقافة الشيخ التهانوي الواسعة، واطلاعه العميق، وسعة نطاق معلوماته المحيطة بكل أصناف العلوم وأقسام المعارف،

ومن ثَمَّ فإن الفتاوى الصادرة من قلمه كانت تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وتتّسم بالوسطية والاتزان، وتتميّز بالاعتدال في اختيار الآراء والأقوال، ودعمها بالأدلة والبراهين.

جـ ـ فهرس أهم الموضوعات والقضايا التي عالجها الكتاب:

لقد جاءت فتاوى الشيخ التهانوي رحمه الله مرتبةً ومبوّبةً على الأبواب الفقهية، منسوجة على منوال الفقهاء، متضمّنة الفروع والجزئيات المتعلقة بسائر الأبواب الفقهية.

● **أهم العناوين التي احتواها المجلد الأول من (إمداد الفتاوى)**، والذي بلغ عدد صفحاته حوالي ثمانمئة وسبع وأربعين صفحة، علماً أن كل العناوين وُضعت باللغة العربية:

كتاب الطهارة: فصل: في الوضوء ونواقضه، فصل: في الغسل، فصل: الماء الذي يجوز به الوضوء، وما لا يجوز به، فصل في الأسآر، فصل: في التيمم، باب: المسح على الخفين، باب: الحيض والنفاس والاستحاضة، أحكام النجاسات وكيفية تطهيرها، فصل: في الاستنجاء، مسائل منثورة متعلقة بكتاب الطهارة. **كتاب الصلاة**: شروط الصلاة وصفتها، باب القراءة، فصل في التجويد، رسالة (ضياء الشمس في أداء الهمس)، رسالة (التدقيق الجلي في تحقيق النون الخفي)، باب الإمامة والجماعة، باب ما يفسد الصلاة وما يكره فيها، باب النوافل، باب الوتر، فصل في التراويح، فصل في إدراك الفريضة وقضاء الفوائت، فصل في أحكام اللاحق والمسبوق، باب السهو في

الصلاة وأحكامه، باب صلاة المريض، باب سجدة التلاوة، باب صلاة المسافر، رسالة (نافع الإشارة إلى منافع الاستخارة)، باب صلاة الجمعة والعيدين، باب صلاة الاستسقاء، باب الجنائز، خلاصة الكلام في أذان الجمعة، مسائل منثورة متعلقة بكتاب الصلاة، المقالات المفيدة في حكم أصوات الآلات الجديدة، رسالة (استحباب الدعوات عقيب الصلوات)، رسالة (الصلاة على الميت الصبيّ المتولد بين مسلم وكافر بغيّ)، (التحقيق الفريد في حكم آلة تقريب الصوت البعيد).

● **فهرس أهم الموضوعات التي تناولها المجلد الثاني** الذي بلغ عدد صفحاته: سبعمئة واثنتين وثلاثين صفحة.

كتاب الزكاة والصدقات: فصل في العشر والخراج، تحقيق أراضي الهند، صدقة الفطر. **كتاب الصوم والاعتكاف**. **كتاب الحج**: باب الإحرام وأركان الحج، باب الحج عن الغير، مسائل منثورة متعلقة بالحج.

كتاب النكاح: رسالة (ضم شارد الإبل في ذم شارد إبل)، الصراح في أجرة النكاح، باب الجهاز والمهر، رسالة (تعديل أهل الدهر في درجة تقليل المهر)، باب المحرمات وغيرها، جلائل الأنباء في حرمة حلائل الأبناء، باب الأولياء والأكفاء، مسائل منثورة متعلقة بالنكاح. **كتاب الطلاق**: فصل في فسخ النكاح والخلع، فصل في الظهار والإيلاء، فصل في العدة والرجعة، فصل في النسب والحضانة والنفقات، كتاب الحدود والتعزير. **كتاب الأيمان**، **كتاب النذور**، **كتاب الوقف**، **أحكام المسجد**.

● **فهرس أهم الموضوعات التي تضمنها المجلد الثالث من (إمداد الفتاوى)** الذي بلغ عدد صفحاته: ستمئة واثنتين وعشرين صفحة:

كتاب البيوع: فصل الإقالة، والبيع بالخيار، بيع السلم، بيع الصرف، بيع العُملات والأوراق النقدية المعاصرة، البيع الفاسد، أحكام بيع الثمار والأزهار، المعاملات المباحة والمحظورة والمكروهة، أحكام المستجدات والقضايا المعاصرة الحديثة، **كتاب الربا**: رسالة (رافع الضنك عن منافع البنك)، ورسالة (كشف الدجى عن وجه الربا)، **كتاب الوكالة، كتاب الوديعة، كتاب الحوالة، كتاب الضمان، كتاب العارية، كتاب الإجارة، كتاب الصلح، كتاب المضاربة، كتاب القضاء، كتاب الشهادات، كتاب الشفعة، كتاب الغصب، كتاب الرهن، كتاب الهبة، كتاب الشركة، كتاب القسمة، كتاب الزراعة، كتاب الشرب، كتاب الصيد والذبائح والأضحية والعقيقة، رسالة (الاعتصام بحبل شعار الإسلام)**.

● **فهرس أهم الموضوعات التي تناولها المجلد الرابع من (إمداد الفتاوى)** الذي بلغ عدد صفحاته: ستمئة وثمانٍ وثمانين صفحة:

كتاب الحظر والإباحة، وفيه بيان ما يجوز وما لا يجوز، وما يستحب وما يكره من الصلاة والتسبيح والذكر والدعاء، أحكام التعليم والتعلم والكتب والمدارس، المحظور والمباح من الأطعمة والأشربة، أحكام الهدايا وقبول الدعوة، المحظور والمباح من الملابس، وأدوات الزينة والحلي، أحكام الكسب الحرام والحلال والمكروه، المال الحرام والمشتبه فيه، أحكام

حجاب المرأة المسلمة، ولمسها، والنظر إليها، أحكام النكاح والخِطبة وما هو المحظور والمباح فيها، أحكام الزنا وما يتعلّق به من الأمور، أحكام التداوي والمعالجة واستخدام الأدوية المباح منها والمحظور، أحكام الأشعار والحلق والتقصير واستخدام الخضاب، والختان، الغناء والمزامير واللهو واللعب، وأحكام التصاوير، حقوق البهائم وما يتعلق بها من الأمور، التشبه بالكفار، ودرجات معاملات المسلمين مع أهل الكتاب والمشركين، أحكام السلام، وتعظيم الأكابر، المسائل المتعلقة بالطاعون والأوبئة الطارئة الأخرى، المسائل المتفرقة. كتاب الوصايا. كتاب الفرائض.

● **فهرس أهم المباحث التي تناولها المجلد الخامس** من (إمداد الفتاوى) الذي بلغ عدد صفحاته: أربعمئة وست وخمسين صفحة:

كتاب الحديث والتفسير، رسالة (دفع الاعتساف عن آية الاستخلاف)، مباحث ومسائل تتعلق بالحديث، رسالة (جزل الكلام في عزل الإمام). **كتاب السلوك**، رسالة (تقطيف الثمرات في تخفيف السكرات)، رسالة (التعرف في حقيقة التصوّف)، رسالة (سدّ الهيعة في حدّ البيعة). **كتاب الرؤيا. كتاب البدع. كتاب العقائد والكلام.**

● **فهرس أهم الرسائل والمباحث التي تناولها المجلد السادس** من القضايا المعاصرة، وقد بلغ عدد صفحاتها ثلاثمئة وخمس وثلاثين صفحة:

١ ـ رسالة (إقامة الطامة على زاعم بقاء النبوّة العامة).

٢ ـ رسالة (تمهيد الفرش في تحديد العرش).

٣ ـ رسالة (نهاية الإدراك في أقسام الإشراك).

٤ ـ رسالة (تنزيه علم الرحمن عن سمة النقصان).

٥ ـ رسالة (خلود الكفار في النار جزاءً على الإصرار).

٦ ـ رسالة (الحجة الانتهائية على المحجة البهائية).

٧ ـ رسالة (البرهان على تجهيل من قال بغير علم في القرآن).

كانت هذه نظرة عابرة على أهم تلك العناوين والموضوعات التي تطرق لها الشيخ التهانوي رحمه الله خلال فتاويه، وقد لاحظ القارئ الكريم أن عدد الصفحات كل من المجلدات الستة يبلغ حوالي ثلاثة آلاف وستمئة وثمانين صفحة، وبهذا يتبيّن لنا مدى كثرة عدد الفتاوى، والمسائل التي تضمنتها هذه الصفحات، بالإضافة إلى تلك الرسائل الصغيرة المهمّة التي ألّفها رحمه الله حول القضايا والنوازل المعاصرة، والمستجدات العلمية الحديثة، فهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على دراسته العميقة المتأنية للمجتمع، وثقافته الواسعة، وسعة نظره، ودقة فكره، وبراعته، واهتمامه البالغ، واعتنائه الشديد، بما يَحلّ بالمسلمين في العالم رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً.

ومما لاشك فيه أن أمثال هذه الخدمات الجليلة، والمآثر الخالدة تجعل الإنسان يرتقي إلى درجة المجدّد، والمصلح الكبير والعالم الربّاني الجليل:

وليسَ على اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ في وَاحِدِ

د ـ نماذج من فتاويه:

١ ـ تحقيق القول في مسألة غسل الزوج زوجته بعد وفاتها:

سُئل رحمه الله عما أخرجه ابن ماجه والدارقطني والدارمي وأحمد عن عائشة رضي الله عنها قوله ﷺ: «وما ضرّكِ إنْ مِتِّ قَبلي فَغَسّلْتُكِ، وكَفَّنْتُكِ وصلَّيْتُ عليكِ»[1]، حيث يدلّ الحديث على جواز غسل الزوج زوجته بعد وفاتها، فما هو تحقيق القول في هذه المسألة؟.

فأجاب رحمه الله قائلاً: تحقيق المقام أنّه لا خلاف في جواز غسل المرأة زوجَها، كما نقله غير واحد من العلماء، وإنما الخلافُ في جواز غسل الزوج امرأته، فقال أبو حنيفة، وموافقوه: لا، وقال آخرون: نعم، واحتج المجوّزون بوجوه:

الأول: بقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «ما ضرّكِ إنْ متِّ قَبلي فغسَّلتُكِ...»، وجوابه أنَّ البخاري رحمه الله روى هذه القصة، ولم يذكر هذه الزيادة، بل تفرد بها ابن إسحاق وعنعن في الرواية، وهو غيرُ صحيح فيما تفرّد

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب ما جاء في غسل الرجل امرأته، وغسل المرأة زوجها، برقم (١٤٦٥)؛ والدارقطني في سننه: ٢/ ٧٤، (١١)؛ وأحمد في مسنده: ٦/ ٢٢٨، برقم (٢٥٩٥٠)؛ كما أخرجه ابن حبان في صحيحه: ١٤/ ٥٥١، (٦٥٨٦)؛ والبيهقي في السنن الكبرى: ٣/ ٣٩٦، (٦٤٥١)، باب الرجل يغسل امرأته إذا ماتت؛ والنسائي في السنن الكبرى: ٤/ ٢٥٢، (٧٠٧٩).

به، لا سيما إذا عنعن فُقد الاحتجاج بهذا الحديث. ولو سُلّم فقوله: «غسلتك» يحتمل التولّي بالغسل، كما يحتمل المباشرة، ومعلوم من عادته ﷺ أنه كان لا يباشر الغسل، فيُحمَلُ على التولّي لا المباشرة.

الثاني: بغسل علي فاطمة رضي الله عنها. وجوابه من وجوه:

الأول: أنه اختلفت الروايات في غسل فاطمة، ففي رواية: أنها اغتسلت في حياتها وأوصت: «لا يكشفني أحد بعد موتي، لأنني تطهّرت»، كما في الزيلعي وغيره[1]. وفي رواية: «أنها غسلتها الملائكة»، كما في (تذكرة خواص الأمة) لسبط ابن الجوزي، وفي رواية: «أنها غسَّلتها أم أيمن»، كما في الشامي[2]، وفي رواية: «أنها غسَّلها عليٌّ وأسماء»[3].

أما الروايتان الأوليان فظني أنهما مكذوبتان، اخترعهما الروافض

---

(١) رواها الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: ٦/ ٤٦١، (٢٧٦٥٦) عن أم سلمة رضي الله عنها، قال الهيثمي بعدما ذكرها في مجمع الزوائد: ٩/ ٢١١، رواه أحمد وفيه من لم أعرفه، وقد فصّل القول في سند هذه الرواية وطرقها الإمام الزيلعي في نصب الراية: ٢/ ٢٥٠؛ وذكرها ابن الجوزي في (التحقيق في أحاديث الخلاف): ٢/ ٦، (٨٦١)؛ وفي (العلل المتناهية): ١/ ٢٦١؛ وابن شاهين في (ناسخ الحديث ومنسوخه)، ص٤٨٢، (٦٤٦).

(٢) انظر: ردّ المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين، المعروفة بالشامي عند أهل الهند): ٢/ ١٩٨، ط: دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ.

(٣) انظر: سنن البيهقي الكبرى: ٤/ ٣٤، (٦٧٢١)، باب ما ورد في النعش للنساء.

خذلهم الله، تفضيلاً لفاطمة بفضائل غير واقعية، كما هو دأبهم.

وأما الروايتان الأُخريان فالأولى منهما أقوى من حيث الرواية، وثانيتهما أقوى من حيث الدراية.

أما قوة الأولى من حيث الرواية فإنه لم يثبت للثانية سند، ولم أعلم من أخرجها من المحدِّثين، وأما قوة الثانية من حيث الدراية فلأن اختصاص أم أيمن بأهل بيت النبوة معروف، بخلاف أسماء، فبعيد كل البعد أن تتكفل أسماء بغسلها أو توصيها فاطمة رضي الله عنها مع وجود أم أيمن، لاسيما إذا كانت أسماء بنة أبي بكر[1]، وعليٌّ يجتهد في إخفاء موتها عن أبي بكر رضي الله عنه، كما يروى عنه، فإن كانت الرواية الثانية ثابتة، والأولى غير ثابتة، فالجواب ظاهر.

وأما إن كانت الرواية الأولى ثابتة، فالجواب أن تَشاركت أسماءُ وعلي في الغسل، وهذا يحتمل وجوهاً:

الأول: أن يكون كلاهما مباشرين.

الثاني: أن يكون علي مباشراً وأسماء عوناً له.

الثالث: العكس.

فاحتجنا إلى الترجيح، فلما نظرنا في وجوه الترجيح علمنا أنّ الراجح

---

(١) قلت: بل هي أسماء بنت عميس، كما في الصفحة التالية. (ن).

هو الاحتمال الثالث لأنه لما كان أحدهما كافياً في المباشرة، لم تكن فاطمة محتاجة إلى الوصية لكليهما بالمباشرة، وأيضاً: لو جاز لعليٍّ غسلها، فأي حاجة كانت إلى الوصية لأسماء، فلما أوصت لكليهما علمنا أن الوصية بالمباشرة كانت لأسماء، ووصية الإعانة كانت لعلي.

أما الوصية بالمباشرة لأسماء فلعلمها رضي الله عنها بعقلها وحسن اطلاعها ومعرفتها لما أشارت عليها باتخاذ التابوت، كما وقع في رواية أبي نعيم، ولفظها هذا:

«أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: يا أسماء إني قد استقبحتُ ما يُصْنَعُ بالنساءِ أن يطرَحَ على المرأةِ الثوبَ فيصفُها، فقالت أسماءُ: يا بنة رسولِ اللهِ ألا أريك شيئاً رأيتُه بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة فحنَّتْها، ثم طرحتْ عليها ثوباً فقالت فاطمة: ما أحسنَ هذا وأجملَه، تُعْرَفُ به المرأةُ من الرجلِ، فإذا مِتُّ أنا فاغسليني أنتِ وعليّ. ولا تُدخلي عليَّ أحداً، فلمَّا توفيت غسلها عليٌّ وأسماء»[1].

أما الوصية بالإعانة لعليٍّ فلأنه كان أعلم بأحكام الغسل من أسماء، فأوصت له به ليعينها بتعليم الأحكام إن احتاجت إليه، ولأنها كانت رضي الله عنها تحبُّ علياً، فأحبتْ أن يشارِكَ في غسلها، وأيضاً كانت تعلمُ حُبَّ علي

---

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني: ٢/ ٤٣، ط: دار الكتاب العربي بيروت؛ كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٤/ ٣٤، (٦٧٢١)؛ وأورده ابن عبد البرّ في الاستيعاب: ٤/ ١٨٩٧، ط: دار الجيل بيروت.

إياها فرأت رضي الله عنها أنه رضي الله عنه لا يقصِّر في تحسين غسلها، فلهذه الوجوه أوصتْ إليه بالإعانة، فلما انتقش على صحيفة خاطرك ما تلوناه عليك علمت أن حديث غسل فاطمة إن ثبت فَلَنَا لا علينا.

والدليل الثالث للمجوزين هو: حديثُ ابن مسعود رضي الله عنه أنه غسل امرأته[1]، وجوابه أن حديث غسل ابن مسعود رضي الله عنه ضعيف كما صرّح به البيهقي[2]، كما أن حديث الاعتراض الذي نقله الشامي غير ثابت[3].

والدليل الرابع: حديث ابن عباس أنه قال: «الرجلُ أحقُّ بغسلِ امرأته»[4].

وجوابه أنَّه من رواية حجاج بن أرطأة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس، قال ابن المديني في داود: ما روى عن عكرمة فمنكر، وقال أيضاً: مرسل الشعبي أحبّ إليّ من داود عن عكرمة عن ابن عباس.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٣/ ٣٩٧، (٦٤٥٤) بطرق مختلفة، وذكره أحمد في العلل: ٣/ ١٩٠، (٤٨١٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) يشير به إلى ما قاله ابن عابدين: «ألا ترى أنَّ ابنَ مسعود رضي الله عنه لما اعترض عليه بذلك أجابه بقوله: أما علمت أنَّ رسول الله ﷺ قال: إنَّ فاطمة زوجتك في الدنيا والآخرة» (حاشية ابن عابدين: ٢/ ١٩٨).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٣/ ٣٩٧، (٦٤٥٤)؛ وابن أبي شيبة في المصنف: ٢/ ٤٥٦، (١٠٩٧٧)؛ وكذلك: ٣/ ٤٣، (١١٩٥٧).

وقال أبو داود: «أحاديثه عن شيوخه، وأحاديثه عن عكرمة مناكير»، وقال ابن عيينة: «كنا نتقي حديث داود»، وقال أبو زرعة: «لين»، وقال أبو حاتم: «ليس بالقوي، ولولا أن مالكاً روى عنه لتُرك حديثه».

وقال الساجي: منكر الحديث يُتهم برأي الخوارج، وقال الجوزقاني: لا يحمدُ الناسُ حديثَه. وعاب غير واحد على مالك الرواية عنه، وتركه عن سعد بن إبراهيم[1]، وهو وإن وثقه الأئمة أيضاً، ولكنَّ توثيقهم إياه في نفسه لا يعارض حكم الأئمة بالنكارة على حديثه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيضاً فيه الحجاج بن أرطأة المختلف فيه والمدلّس المشهور، وقد عنعن في الرواية فلا تقبل.

وبالجملة فحديث ابن عباس ضعيف لا يُحتجّ به، ولو سُلّم فهو محمول على التولّي بأمور الغسل لا المباشرة، كما علمت في حديث غسل فاطمة رضي الله عنها.

الدليل الخامس: ما رُوي عن علقمة وغيرهم من التابعين أنهم غسلوا نساءهم.

فجوابه: أن فعل التابعين ليس بحجة على الإمام.

كانت هذه حجج المجوّزين من المنقول، وقد علمت حالها، أما من

---

(١) انظر: تهذيب التهذيب: ٣/ ١٥٧، ترجمة داود بن الحصين أبي سليمان، رقم (٣٤٥).

المعقول فقالوا: موت الرجل كموت المرأة وبالعكس، فإن كان موت المرأة رافعاً للنكاح بحيث يكون للرجل حق غسلها، يكون موت الرجل أيضاً رافعاً له كذلك، وكذلك العكس، وإن لم يكن موت المرأة رافعاً له بالحيثية المذكورة لم يكن موت الرجل أيضاً رافعاً له لتلك الحيثية، وكذلك العكس.

إذا علمت هذا فاعلم أن موت الرجل ليس رافعاً له بتلك الحيثية فلا بد أن لا يكون موت المرأة أيضاً رافعاً له بتلك الحيثية، وأجيب بمنع المماثلة بين الموتتين كما سيجيء تفصيله.

واحتج المانعون بوجوه:

الأول: بقول عمر رضي الله عنه: «نحن كنا أحقُّ بها حينَ كانت حية، وأما إذ ماتت فأنتم أحق بها»[1].

ويرد عليه **أولاً** بأنه لم يثبت هذا النقل عنه، **وثانياً** بأنه يدل على أحقّية أهل المرأة بعد الموت، لا على نفي الحق عن الزوج أصلاً، ونحن لا نُنكر الأحقّية، بل نقول به، لأن حق القرابة باق بحلّها، وحق الزوجية اضمحلّ بالموت، فبطل الاستدلال به.

الثاني: بأننا تتبعنا الشريعة، فوجدنا أنها تُبقي النكاح في صورة موت الزوج في الجملة، حيث تُوجب العدة على المرأة، وليس هذا إلا بقاء النكاح

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في المصنّف: ٢/ ٤٥٦، (١٠٩٨٤)، و٣/ ٤٣، (١١٩٦٠) باختلاف يسير في اللفظ.

في الجملة، ولا تبقيه في صورة موت الزوجة، لأنه يحلّ للزوج نكاح أختها بمجرد موتها، فلو كان النكاح باقياً لم يحل له نكاحها.

ويُرد عليه أننا لا نُسلّم انعدام النكاح بالكلّية، بل هو باق من وجه، وزائل من وجه، كما قلتم في صورة موت الزوج، ويُجاب عنه بأن بقاء الشيء يُعرف بأصله، وأصل النكاح باق في صورة موت الزوج بخلاف موت الزوجة، فقلنا ببقائه في الأول دون الثاني، ويُرد عليه: إن ثبوت الميراث للزوج بحق الزوجية أثرٌ للنكاح وهو باق، فكيف يحكم بانعدام النكاح مطلقاً، ويجاب عنه: من آثار الشيء ما يثبت مع ذلك الشيء، ومنها ما يترتب عليه بعد انعدامه، كما هو شأن الميراث، فثبوت الميراث للزوج يحتمل أن يكون من القسم الأول، ويحتمل أن يكون من القسم الثاني، فلما نظرنا إلى ثبوت حلّ نكاح أختها له علمنا أنه من القسم الثاني، ويرد عليه أن ثبوت حلّ نكاح الأخت لا يدل على كون الميراث من القسم الثاني، لأن من أحكام الشيء ما يثبت مع بقائه، ومنها ما لا يثبت معه، فيجوز أن يثبت له الميراث، ولا يثبت له حرمة نكاح في الجملة.

الثالث: إنهم قالوا: موت الزوجة يعدم المحل، فلا يبقى النكاح معه، بخلاف موت الزوج، فإنه لا يعدم المحل فيبقى، ففي صورة موت الزوج يجوز للزوجة غسل الزوج، وفي صورة موت الزوجة لا يحل للزوج غسل الزوجة.

ويرد عليه أنه كما لا تبقى المحلّية في صورة موت الزوج، كذلك لا تبقى الأهلية في صورة موت الزوج، والشيء كما ينعدم بانعدام المحلّية كذلك

ينعدم بانعدام الأهلية، فكيف يبقى النكاح في صورة موت الزوج؟.

ويجاب عنه بأننا لا نسلّم انعدام الأهلية بالكلّية، ويجاب عنه بأن الشرع أحل للزوج نكاح الأخت، فعلمنا منه أنه اعتبر انعدام الأهلية بالكلّية، وألزم المرأة العدة، فعلمنا أنه لم يعتبر الشرع انعدام المحلّية بالكلّية كما مرّ سابقاً.

وأيضاً: إلزام المرأة العدة لا يقتضي عدم اعتبار انعدام الأهلية بالكلّية، لأنه يجوز أن يكون إلزام الشرع العدة لأجل احتمال العلوق لا لأجل بقاء النكاح، ويجاب عنه أنه يستلزم أن لا يكون على غير المدخول بها عدة، ويرد عليه أنه لا يستلزم ذلك لجواز إقامة السبب (أي النكاح) مقام المسبّب، كما فعل الشرع في غير موضع، ويؤيد ما قلناه انقضاء العدة بوضع الحمل.

أقول: هذا نموذج من الكلام بين الفريقين، ويتضح من ذلك أن المسألة اجتهادية، ولكل فريق سعة في الكلام، وليس عند أحد ما يُسكت المخالف، فلا يجوز الطعن لأي فريق على الآخر، هذا ما تيسّر لي في هذا المقام، والله أعلم[1].

٢ ـ الختان لمن أسلم وهو كبير السنّ:

س: ما قولكم دام فضلكم أيها العلماء العظام والأفاضل الكرام: في رجل كان نصرانياً، ثم تشرف بقبول الإسلام من صميم قلبه، وهو يقول: إني رجل كبير السن، أخاف من ضرر الختان، فسامحوني عنه، وكذلك أبنائي

---

(١) إمداد الفتاوى: ١/ ٤٩٢، باب الجنائز.

الذين هم كبار السنّ، وإلا لن يقبلوا الإسلام وسيبقون على الكفر.

فهل يُسامح عن الختان في هذه الصورة؟ أم يكره ويُجبر عليه؟ الأمر الذي قد يؤدي إلى ارتداده، وبقاء أبنائه على الكفر، بيّنوا بالتفصيل وتؤجروا بالأجر الجزيل؟.

الجواب: يُسامح عنه لوجهين:

الأول: عدم تحمل نفسه له، ومن لا يُطيق يُتْرَكُ ختانُه، بتصريح الفقهاء، كما في: (الدر المختار)، و(الكنز)، و(الخلاصة)، و(الخانية)، و(السراجية)، و(الهندية)، و(جامع أحكام الصغار) وغيرها بألفاظ متقاربة، «شيخ أسلم وقال أهل النظر: لايطيق الختان، تُرِك»، وهذا دخل فيمن لا يطيق، لأن الطاقة هي إما بالجسم أو بالنفس، فلما لم تُطق نفسه دخل فيمن لا يطيق»[1]، وقول الفقهاء (يختن) بالاتفاق كما في (الذخيرة)، والكافر إذا أسلم يختن بالاتفاق، **مشروط بالطاقة** بدليل الروايات الأخرى.

الثاني: تألفه وتألف أولاده على الإسلام، كما شرط بنو ثقيف أن لا يجاهدوا، وأجازه رسول الله ﷺ[2]، وصرّح العلماء في شرح حديث بريرة رضي الله عنها: يُتحمل أدنى الضررين لدرء أشدّهما.

---

(١) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق: ٨/ ٥٥٣، ط: دار المعرفة بيروت؛ ردّ المحتار على الدر المختار: ٦/ ٧٥١.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٥/ ٢٩؛ زاد المعاد للإمام ابن القيم: ٣/ ٤٩٨؛ السيرة النبوية لابن هشام: ٥/ ٢٢٥.

٣ ـ تعلّم علم المنطق ودراسة كتبه:

س: تعلّم علم المنطق حرام أو مباح أو فرض أو واجب أم حسن؟ وإذا كان مباحاً بقدر الاصطلاح فما قدره؟ وهل قراءة (سُلّم العلوم) وشروحه على قدر الاصطلاح جائز؟.

ج: العلم المنقول كالأغذية مقصود، والمعقول كالأدوية ضروري، لمن اشتغل بالكفاية من المنقول، ولم يسلم ذهنه عن الخطأ، في الاستدلال بدونه، ولما كان الضروري يتقدَّر بقدر الضرورة، وقدرها مختلف باختلاف الأذهان، فبأي مقدار ترفع الضرورة، كان الضروري هو ذاك المقدار، ومن لا ضرورة له ولا ضرر كان له مباحاً، ومن تضرر به كان له مذموماً، وبقدر التضرر يكون الذم من الكراهة والحرمة[1].

٤ ـ تحقيق تصوير صورة الحيوان:

سُئل رحمه الله عن حكم تصوير صورة الحيوان، فأجاب بما يأتي:

تحقيق تصوير صورة الحيوان: قال الإمام النووي في شرح مسلم في باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب، ما نصه:

---

(١) إمداد الفتاوى: ٤/ ٧٧.

قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر، لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره، فصنعته حرام بكل حال، لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها.

وأما تصوير صورة الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، وهذا حكم نفس التصوير.

وأما اتخاذ المصوّر فيه صورة حيوان، فإن كان معلقاً على حائط، أو ثوباً ملبوساً، أو عمامة ونحو ذلك مما لا يعد ممتهناً فهو حرام، وإن كان في بساط يداس، ومخَدّة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام، ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت؟ فيه كلام نذكره قريباً إن شاء الله، ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل، وما لا ظل له، هذا تلخيص مذهبنا في المسألة، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم.

وقال بعض السلف: إنما ينهى عما كان له ظل، ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل، وهذا مذهب باطل، فإنّ الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم، وليس لصورته ظل، مع باقي الأحاديث المطلقة في كل صورة، وقال الزهري: النهي في الصورة على العموم، وكذلك استعمال ما هي فيه، ودخول البيت الذي هي فيه، سواء كانت رقماً في ثوب أو غير رقم،

وسواء كانت في حائط أو ثوب أو بساط ممتهن أو غير ممتهن، عملاً بظاهر الأحاديث، لا سيما حديث النمرقة الذي ذكره مسلم، وهذا مذهب قوي.

وقال آخرون: يجوز منها ما كان رقماً في ثوب، سواء امتهن أم لا، وسواء علق في حائط أم لا، وكرهوا ما كان له ظل، أو كان مصوراً في الحيطان وشبهها، سواء كان رقماً أو غيره، واحتجوا بقوله في بعض أحاديث الباب «إلا ما كان رقماً في ثوب»، وهذا مذهب القاسم بن محمد... إلخ.

ثم قال (النووي) تحت قوله ﷺ: «إلا رقماً في ثوب» ما نصه: «هذا يحتج بـه من يقول بإباحـة ما كان رقماً مطلقاً، كما سبق، وجوابنا وجواب الجمهور عنه: أنـه محمول على رقـم على صورة الشـجر وغيـره مما ليـس بحيوان، وقد قدمنا أن هذا جائز عندنا»[1].

أما حديث الستر[2] الذي أنكر عليه النبي ﷺ هو هذا: عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا متسترةٌ بقرام فيه صورةٌ، فتلوّنَ وجهُهُ، ثم تناولَ السترَ فهتكَهُ، ثم قال: «إنَّ مِنْ أشدِّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ الذي يُشبّهونَ بخلقِ اللهِ».

وأما حديث النمرقة فهو: عن عائشة أنها اشترت نمرقةً فيها تصاوير،

---

(١) شرح النووي لصحيح الإمام مسلم: ٣٤١/٧، ط: دار الحديث القاهرة ١٤٢٢هـ.

(٢) من هنا كلام الشيخ التهانوي رحمه الله.

فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل، . . . . إلى قوله: فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أصحابَ هذه الصُّور يُعذّبون. . . ». الحديث.

رواهما مسلم في الباب المذكور، وأيضاً: فقد تقرّر في محله أن مخالفة إجماع الأئمة الأربعة لا يجوز، لا سيّما وقد صحَّ نص النهي عن الرقم في الثوب، كما مرّ، فحديث استثناء الرقم إما مؤوّل كما مرّ، وإما منسوخ بقاعدة «إذا تعارض المحرِّمُ والمبيح ترجَّح المحرِّم» وإما منسوخ بدلالة مخالفة الإجماع، كما تحرَّرَ في موضعه، وإما محمول على الصغيرة جداً بحيث لا تستبين، والله أعلم.

كتبه أشرف علي
١٥ ذي القعدة ١٣٣٤هـ[١]

٥ ـ حكم بيع أراضي بلاد فلسطين المقدسة أو التوسط في بيعها لليهود:

س: ما حكم الشريعة الإسلامية المطهّرة في بعض المسلمين الذين يبيعون أراضي بلاد فلسطين المقدّسة، أو يتوسّطون لبيعها على يد اليهود الطامعين، الذين يقصدون من شراء هذه الأراضي والعقارات جلاء المسلمين من هذه البلاد المقدسة، والاستيلاء على المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وإنشاء كنيستهم (الهيكل) مكانه، وتشكيل دولة يهودية في فلسطين، بمساعدة بعض الدول المعادية للإسلام، والتي تبذل كل جهد في محاربته،

---

(١) إمداد الفتاوى: ٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

وما هو الرادع لهم عن هذا العمل المُنكر؟.

وهل إذا أفتى بعض العلماء بكفر من باع أرضه لليهود أو توسط ببيع أرض غيره لهم لمساعدة أهل الكفر على المسلمين، ولموالاته لليهود الذين يعملون ليل نهار لطرد المسلمين، وإبعادهم عن بلاد فلسطين، والمسجد الأقصى، الذي أسرى الله برسوله محمد ﷺ إليه، وحرمانهم من الصلاة عليهم، ومن الدفن في مقابر المسلمين، لخروجهم عن الإسلام، وفيه عِبرة لغيرهم ممن تسوّل له نفسه اقتراف مثل خطيئتهم، فما قولكم في فتواه؟ أفيدونا ولكم من الله الأجر والثواب.

الجواب والله هو الموفق للصدق والصّواب:

أما عن الجزء الأول فلنمهّد أولاً الدلائل ثم نشيد بها المسائل، ففي (الدر المختار)، فصل الجزية، أحكام أهل الذمة ما نصه: «ولا يعمل بسلاح؛ أي لا يستعمله ولا يحمله لأنه عزٌّ، وكل ما كان كذلك يُمنعون عنه، قلت: ومن هذا الأصل تُعرف أحكام كثيرة».

وهذا أصل كُلِّي، وهاهنا جزئيات نسردها: ففي (الدر المختار): الذمّي إذا اشترى داراً؛ أي أراد شراءها في المصر لا ينبغي أن تباع منه، فلو اشترى يجبر على بيعها من المسلم، وقيل: لا يجبر إلا إذا كثر، قال ابن عابدين في ردّ المحتار على (الدر المختار): قوله: «الذمّي إذا اشترى داراً...»، قال السرخسي في (شرح السير): فإن مَصَّر الإمام في أراضيهم للمسلمين كما مصّر عمر رضي الله عنه البصرة والكوفة، فاشترى بها أهل الذّمة دوراً وسكنوا مع

المسلمين، لم يمنعوا من ذلك، فإنا قبلنا منهم عقد الذمّة، ليقفوا على محاسن الدين، فعسى أن يؤمنوا، واختلاطهم بالمسلمين، والسكن معهم يحقّق هذا المعنى، وكان شيخنا الإمام شمس الأئمة الحلواني يقول: هذا إذا قلّوا، وكان بحيث لا تتعطل جماعات المسلمين، ولا تتقلل الجماعة بسكنهم بهذه الصفة، فأما إذا كثروا على وجه يؤدّي إلى تعطيل بعض الجماعات أو تقليلها مُنعوا من ذلك، وأمروا أن يسكنوا ناحية، ليس فيها للمسلمين جماعة، وهذا محفوظ عن أبي يوسف في (الأمالي)».

ثم في (الدر المختار) بعد أسطر:

«وإذا تكارى أهل الذمة دُوراً فيما بين المسلمين ليسكنوا فيها (أي المصر) جاز، لعود نفعه إلينا، وليروا تعاملنا فيُسلموا، بشرط عدم تقليل الجماعات لسكناهم، شرطه الإمام الحلواني، فإن لزم ذلك من سكناهم، أُمروا بالاعتزال عنهم، والسكنى بناحية ليس فيها مسلمون، وهو محفوظ عن أبي يوسف».

وفي (رد المحتار): فتحصّل من مجموع كلام الحلواني والتُمرُتَاشِي: أنَّه إذا لزم من سكناهم في المصر تقليل الجماعة، أُمروا بالسكنى في ناحية خارج المصر، ليس فيها جماعة للمسلمين، وإن لم يلزم ذلك يسكنون في المصر بين المسلمين مقهورين، لا في محلَّة خاصة، لأنه يلزم منه أن يكون لهم في مصر المسلمين منعة كمنعة المسلمين، بسبب اجتماعهم في محلّتهم، فافهم.

ثم في (رد المحتار) بعد أسطر بعنوان (التنبيه): «قال في (الدر المنتقى) وكذا يمنعون عن التعلّي في بنائهم على المسلمين، ومن المساواة عند بعض العلماء، نعم يبقى القديم. . .»، ثم قال بعد بحث طويل:

«والحديث الشريف[1] لا يُفيد أن لهم ما لنا من العِزِّ والشَّرف، بل في المعاملات من العقود ونحوها، للأدلة الدالة على إلزامهم الصّغَار، وعدم التمرّد على المسلمين، وصرّح الشافعية بأن منعهم عن التعلّي واجب، وأن ذلك لِحقِّ الله تعالى، وتعظيم دينه، فلا يباح برضا الجار المسلم. وقواعدنا لا تأباه، فقد مرّ أنه يحرم تعظيمه، ولا يخفى أنَّ الرضا باستعلائه تعظيم له، هذا ما ظهر لي في هذا المحلّ، والله تعالى أعلم»[2].

قلت ـ القائل هو الشيخ التهانوي ـ وفي الباب روايات لا تحد ولا تعد، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى، وإذا كان هذا حكم الكراء والشراء للدار، والتعلّي في البناء والجدار، فكيف حكم بيع المسلمين أراضيهم من الكفار،

---

(١) أشار به المؤلف إلى الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «. . . . وإنا ندعوكم إلى الإسلام، فإن أسلمتم فلكم مثل ما لنا وعليكم مثل ما علينا، وإن أبيتم فأعطوا الجزية. . .» الحديث. مصنف ابن أبي شيبة: ٦/ ٤٧٥، (٣٣٠٥٣)؛ ومسند أحمد: ٥/ ٤٤٠، (٢٣٧٧٧)؛ وذكره الهيثمي بلفظ: «من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا»، وقال: ضعفه أحمدُ، مجمع الزوائد: ١/ ٩٣.

(٢) ردّ المحتار على الدر المختار: ٤/ ٢١١ ـ ٢١٢، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

وهو أقوى أسباب العزّة والشوكة، والقوة والصولة؟! وإذا كان هذا حكم الذمّيين، وهم مقهورون تحت حكم الإسلام، فكيف حكم غير الذمّيين الذين ليسوا في شيء من الاستسلام؟! وهو كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وكما قال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢].

ولله در القائل:

أحبابَنا! نُوَبُ الزمانِ كثيرةٌ وأَمَرُّ مِنْهَا رِفْعَةُ السُّفَهَاءِ
فَمَتَى يَفِيْقُ الدَّهْرُ مِنْ سَكَرَاتِهِ وأرَى اليَهُودَ بِذِلَّةِ الفُقَهَاءِ

وأما عن الجزء الثاني فإنْ كان أهل هذه الفتاوى من أهل البصيرة والكياسة، فأقرب محاملها هي السياسة، والعلماء لهم في أمثالها حق الرئاسة، وهذا آخر الجواب في هذا الباب، والله أعلم بالصواب.

كتبه

أشرف علي التهانوي الحنفي الفاروقي

في الثلث الأول من رمضان المبارك سنة ١٣٣٨هـ[١]

٦ ـ حكم دفن الموتى بالليل:

سُئل رحمه الله عن حديث رواه ابن ماجه[٢] في سننه، (كتاب

---

(١) إمداد الفتاوى: ٣/ ٥٩، (كتاب البيوع).

(٢) ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، برقم (١٥٢١)؛ والطحاوي في شرح معاني الآثار: ١/ ٥١٣، باب الدفن بالليل، بدون كلمة «إلا أن تضطروا»؛ =

الجنائـز)، قوله ﷺ: «لا تدفنـوا موتـاكم بالليل إلاّ أن تضطـرّوا»، علماً أنَّ الجماهير يدفنون الموتى حتى في الليل، ولا يمنع عنه العلماء، فما رأيكم حول العمل بهذا الحديث الذي ظاهره المنع عن دفن الموتى في الليل؟ وقد ورد في (الفتاوى الهندية) قوله: «لا بأس به».

فأجاب رحمه الله قائلاً:

الحديث المذكور في السؤال ضعيف بإبراهيم بن يزيد، نعم روى مسلم عن جابر بن عبد الله: أنَّ النبيَّ ﷺ خطب يوماً؛ فذكر رجلاً من أصحابه قُبِضَ فكُفِّن في كفن غير طائل، وقُبر ليلاً، فزجر النبي ﷺ أن يُقبَرَ الرجل بالليل حتى يصلَّى عليه، إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك، وقال النبي ﷺ: «إذا كَفَّنَ أحدُكُم أَخَاهُ فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ»[1].

قال النووي: قوله ﷺ: «حتى يصلَّى عليه»، هو بفتح اللام، وأما النهي عن القبر ليلاً حتى يصلَّى عليه، فقيل: سببه أن الدفن نهاراً يحضره كثيرون من الناس، ويصلّون عليه، ولا يحضره في الليل إلا أفراد، وقيل: لأنهم كانوا يفعلون ذلك بالليل لرداءة الكفن فلا يبينُ بالليل، ويؤيده أول الحديث وآخره، قال القاضي: العلتان صحيحتان، قال: والظاهر أن النبي ﷺ قصدهما معاً،

= وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: ٥/ ٢٩، (٧٣٥٦).

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب في تحسين كفن الميت، (٩٤٣)؛ وابن الجارود في المنتقى: ١/ ١٤٢، (٥٤٦)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الجنائز، (٣١٤٨)؛ وأحمد في مسنده: ٣/ ٢٩٥، (١٤١٧٨).

قال: وقد قيل: قوله ﷺ: «إلاَّ أنْ يضطرَّ إنسانٌ إلى ذلك» دليل أنَّه لا بأس به في وقت الضرورة.

وقد اختلف العلماء في الدفن بالليل، فكرهه الحسن البصري إلا بضرورة، وهذا الحديث مما يستدلّ به له، وقال جماهير العلماء من السلف والخلف: لا يكره، واستدلّوا بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة من السلف دفنوا ليلاً من غير إنكار، وبحديث المرأة السوداء، والرجل الذي كان يقمّ المسجد فتوفّي بالليل، فدفنوه ليلاً، وسألهم النبي ﷺ عنه فقالوا: توفي ليلاً فدفناه في الليل، فقال: «ألا آذنتموني!» قالوا: كانت ظلمة، ولم ينكر عليهم.

وأجابوا عن هذا الحديث أن النهي كان لترك الصلاة، ولم ينه عن مجرد الدّفن بالليل، وإنما نهى لترك الصلاة، أو لقلّة المصلّين، أو عن إساءة الكفن، أو عن المجموع كما سبق[1]. وقال المحشي: قوله: «حتى يصلَّى عليه. . .»، قال الإمام النووي: يُصلَّى بفتح اللام، وقال الشيخ ابن حجر في شرح صحيح البخاري: وقوله: «حتى يصلِّي عليه» مضبوط بكسر اللام، أي يصلّي النبي ﷺ، فهذا سبب آخر للنهي (غير سبب عدم تحسين الكفن) يقتضي أنه إن رجي بتأخير الميت إلى الصباح صلاة من تُرجى بركته عليه، استحب تأخيره وإلا فلا، وبه جزم الطحاوي[2].

قلت ـ القائل هو التهانوي ـ: وقد دَفَنَ (مبنياً للفاعل) النبيُّ ﷺ بالليل

---

(١) انظر: شرح الإمام النووي لصحيح مسلم: ٧/ ١١.

(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٣/ ٢٠٨.

كما في (جمع الفوائد) عن الترمذي أنه ﷺ دخل قبراً ليـلاً فأُسرجَ له سـراجٌ فأخذه من قبل القبلة، وقال: «رحمك الله، إنْ كنتَ لأوَّاهاً تَلاّءً للقرآن»، وكبّر عليه أربعاً[1].

وأيضاً قد دُفِنَ (مبنياً للمفعول) النبيُّ ﷺ بالليل، كما في (جمع الفوائد) عن القزويني: أنه دُفِنَ ﷺ وسط الليل من ليلة الأربعاء[2].

وكان كلُّ ذلك دليلاً فعلياً على الجواز، والدليل القولي عليه بل على كراهة انتظار النهار بلا ضرورة ما في (جمع الفوائد) عن أبي داود: أنَّ طلحة بن البراء لما مرض أتاه رسول الله ﷺ يعوده فقال: «لا أراهُ إلاّ قَدْ حدثَ بهِ الموتُ، فآذنوني بهِ وعجِّلُوا، فإنَّه لا ينبغي لجيفةِ مسلمٍ أن تُحبَسَ بين ظهراني أهلِهِ»[3]، وبذلك كله قال فقهاؤنا، كما في (ردّ المحتار)، ولذا كُرِهَ تأخيرُ صلاته ودفنه ليصلي عليه جمع عظيم بعد صلاة الجمعة، وفي (الدر المختار): «لا يكره الدفن ليلاً»[4].

* * *

---

(١) رواه الإمام الترمذي في سننه، باب ما جاء في الدفن بالليل، برقم (١٠٥٧)؛ والبيهقي في السنن الكبرى: ٤/ ٥٥، (٦٨٤٩).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، (١٦٢٨).

(٣) رواه أبو داود في سننه، باب التعجيل بالجنازة وكراهية حبسها، برقم (٣١٥٩)؛ كما رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما يستحب من التعجيل بتجهيزه إذا بان موته، برقم (٦٤١٢).

(٤) رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين): ٢/ ٢٤٥؛ حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح، ص٤٠٦؛ إمداد الفتاوى: ١/ ٥٣٥.

٣ ـ كشف الدجى عن وجه الربا

إن هذه الرسالة العلمية القيّمة من مآثر العلاّمة التهانوي الخالدة، التي حرّرها رحمه الله رداً على سؤال كان ورد إليه من المحكمة الشرعية للدولة الآصفية (حيدر آباد الدكن) يتضمن عدداً من الأسئلة والاستفسارات حول حقيقة الربا، وما يترتب عليه من المضار والمفاسد الدنيوية والأخروية، فجاءت هذه الرسالة كاملة مكمَّلة مستوعِبة جميع جوانب الموضوع، مبيّنة الأصول والقواعد الأساسية، والضوابط الحقيقة التي يبتني عليها الربا، متناولة جميع الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على تحريمه، وها هو نص بداية الرسالة:

«الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فقد اطلعنا على الاستفتاء الذي ورد علينا من الصدارة العالية، والمحكمة الشرعية للدولة الآصفية، في حقيقة الربا، فأردنا أن نخرج للمستفتي ما عندنا من العلم وفق طلبه، ونوضح له طريق الحق ومحجة الصدق، إنجاحاً لمراده ومأربه، وبالله أعتضد فيما أعتمد، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولنذكر قبل الشروع في الجواب أصولاً موضوعية ليتيسّر لنا بها طريق الإيجاز في بيان الصواب».

هذا وقد بيّن رحمه الله في **الأصل الأول**: «**أن إجماع المجتهدين حجة، لا يجوز لأحد خلافه**».

وأوضح في **الأصل الثاني**: **أنَّ العامي الذي ليست له أهلية الاجتهاد يلزمه اتباع قول المجتهدين**.

وأما **الأصل الثالث**: **فقد تناول فيه رحمه الله شرح معنى قول الأصوليين «الثابت بدلالة النص»** وهو ما ثبت بمعنى النص لغةً لا اجتهاداً، وليس المراد به معناه اللغوي الموضوع له، بل معناه الالتزامي كالإيلام من التأفيف.

وذكر في **الأصل الرابع**: **أنَّ مدار تصحيح الحديث وتضعيفه ليس على الإسناد فقط**، ودعم قوله هذا بآراء من المحدِّثين، والفقهاء والأصوليين، أمثال المحقق ابن الهمام وابن عبد البرّ وغيرهم.

وبيّن في **الأصل الخامس**: **أنَّ الحديث المرفوع الضعيف إذا تأيّد بأقوال الصحابة أو قول أكثر العلماء فهو مقبول محتج به**.

وأما **الأصل السادس**؛ فتناول فيه موضوع (الأجل) و(المدة) وأوضح: **أن الأجل ليست له قيمة مستقلة عند الشارع**.

والأصل السابع في بيان علة حرمة الربا، وهي كونه ظلماً وغبناً، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

والأصل الثامن في بيان: **أنَّ أقوال التابعين في تفسير الآيات حجة**، كما

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين): «ومن تأمل كتب الأئمة ومن بعدهم وجدها مشحونة بالاحتجاج بتفسير التابعي»[1].

هذه هي الأصول الثمانية التي ذكرها العلاّمة التهانوي رحمه الله كمقدمة وتمهيد للجواب الذي كتبه حول مسألة الربا.

وقد بدأ في الجواب قائلاً: إن الفضل المشروط في القرض ربا محرمٌ، لا يجوز للمسلم أخذه من أخيه المسلم أبداً، لإجماع العلماء المجتهدين على حرمته، فلم يقل أحد منهم بجواز الفضل المشروط في القرض. ثم ذكر رحمه الله أقوال العلماء والفقهاء المجتهدين في هذا الصّدد، وتناول الأدلة والبراهين بالتفصيل.

يقول رحمه الله: ولعلَّ هذا القدر كاف لجواب هذا الاستفتاء بطوله، وافٍ للمستفتي في إنجاز سؤله، وإنجاح مأموله، ولكن نريد أن نتكلَّم على ما أبداه من الدلائل بالتفصيل، حيث يشفي به الغليل، ويتميز الصحيح من العليل، فنقول: قد زعم المستفتي أن الأمة بعد اتفاقها على أن المعنى اللغوي للربا ليس مراداً في الآية، تشعبت فرقتين، فالأئمة وجمهور العلماء عيَّنوا هذه الأفراد بالستة، فالربا عندهم منحصر في البيع لا غير، وذهب البعض إلى أن اللام في الربا للعهد، والمراد به ربا الجاهلية.

قلت: أما الأئمة فلم يرد منهم تصريح بإجمال الآية أصلاً، ومن ادّعى

---

(١) إعلام الموقعين: ٤/١٥٦، ط: دار الجيل بيروت، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

فَلْيُرِنَا نُصوصَهم.

وأما المتأخرون من العلماء فقد ذهب بعضهم إلى ما قال المستفتي، وقد بقي قولٌ آخرُ ذكره ابن العربي في أحكام القرآن له، وصحّحه، ونصه:

«قال علماؤنا: الربا في اللغة هو الزيادة، ولا بد في الزيادة من مزيد عليه تظهر الزيادة به، فلأجل ذلك اختلفوا هل هي عامة في تحريم كل ربا، أو مجملة لا بيان لها إلا من غيره؟ والصحيح أنها عامة...»[1].

وهكذا فصّل العلاّمة التهانوي رحمه الله القول في بيان حقيقة الربا الشرعية واللغوية وتحديد معناها ومفهومها في ضوء الأدلة وأقوال العلماء المتقنين أصحاب هذا الشأن، وفنّد جميع الشبهات التي أثارها أهل الأهواء، وأصحاب الزيغ والباطل، بصدد ربا الفضل والنسيئة وربا الجاهلية، وبحث في الموضوع بحثاً علمياً دقيقاً متناولاً سائر الجزئيات وكل الفروع مع الجوانب المرتبطة به، إلى أن أنهى تحقيقه العلمي الرصين بقوله: «هذا آخر ما أردنا إيراده في جواب هذا الاستفتاء الذي وصل صاحبه في تحريف الكلام، وتبديل الشرع غاية الانتهاء، ولعمري إن الذين كانوا يجوّزون الربا في الهند مع الكفار لكونها دار الحرب، هم أحسنُ حالاً من هذا المستفتي، وخيرٌ مآلاً، لكونهم آخذين بقول إمام من الأئمة، ولو ضعيفاً، **لا يجوز الإفتاء به عندنا إلا لضرورة شديدة.**

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي.

وأما هذا المستفتي فقد أتى بالعجب العجاب من تحليل الحرام، وإلى الله المشتكى مما أحدثه المنتسبون إلى العلم في الأحكام، وغيّروا من شرع الله وشرع رسوله أفضل الأنام عليه صلاة الله وسلامه إلى يوم القيامة، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، والحمد لله رب العالمين، اللهم توفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فتوفّني غيرَ مفتون.

حُرّر في ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٧هـ

* * *

٤ ـ استحباب الدعوات عقيب الصلوات

هذه الرسالة اختصارٌ وتلخيصٌ للكتاب المسمّى (مسلك السادات إلى سبيل الدعوات) لمؤلفه الشيخ محمد علي بن الشيخ حسين، مفتي المالكية سابقاً بمكة المحمية، في تحقيق أحكام الدعاء.

ولنتحف القارئ الكريم بما كتبه الشيخ التهانوي رحمه الله نفسه في مستهل هذه الرسالة: حول سبب اختياره لهذا الكتاب والقيام باختصاره وتلخيصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ونحمده ونصلّي على رسوله الكريم، وبعد:

فهذا بعضٌ من أجزاء كتاب (مسلك السادات إلى سبيل الدعوات) الذي ألّفه الفاضل الشيخ محمد علي بن المرحوم الشيخ حسين مفتي المالكية بمكة المحمية سابقاً، في تحقيق أحكام الدعاء عموماً، واستحبابه إثر الصلوات للفذِّ ولأئمة المساجد والجماعات خصوصاً، في عام الألف والثلاثمئة والإحدى والعشرين من الهجرة، كما صرّح في آخر الكتاب، لخّصتها منه سداً لنكير بعض المتهوّرين، وحكمهم بالبدعة عليه، ولقّبتها (باستحباب الدعوات عقيب الصلوات)، نفع الله تعالى بها المسلمين، وجعلها لي ذخراً ليوم الدين، وأنا أشرف علي التهانوي عفي عنه، وحررتها في أوائل رجب الأصم سنة ١٣٥٤هـ من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف سلام وتحية».

هذا وقد قسّم رحمه الله تعالى هذه الرسالة إلى أربعة عشر جزءاً.

وها نحن نذكر للقرّاء الكرام نبذة يسيرة عن كل جزء من هذه الأجزاء تعميماً للفائدة والنفع.

الجزء الأول: ذكر فيه المؤلف حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِنْ عَبْدٍ مؤمنٍ يبسطُ كَفَّيْهِ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ يقولُ: اللهمَّ إلـٰهي وإلـٰهَ إبـراهيمَ وإسـحاقَ ويعقوبَ وإلـٰهَ جبريـلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ؛ أسألُكَ أنْ تَستجيبَ دَعْوتي، فإنِّي مضطر، وتَعْصمني في دِيْني، فإنِّي مُبتَلًى، وتَنالني بِرَحْمَتِكَ فإنِّي مُذْنِبٌ، وتنفي عنِّي الفقرَ فإنِّي مسكين، إلا كَان حقّاً على الله أن لا يردَّ يديه خائبتينِ»[1].

ثم ذكر رحمه الله أقوال العلماء في درجة هذا الحديث، وأثبت بأنه حديث ضعيف، لكن يُعمَلُ به في الفضائل، وكما ذكر روايات أخرى تعضده وتقوّيه، كما نقل عن الحافظ السيوطي وغيره من العلماء ما ذكروه في كتبهم من الروايات المتعلقة بهذا الباب.

الجزء الثاني: ذكر فيه ما رواه ابن السني عن أبي أمامة قال: ما دنوت من رسول الله ﷺ في دبر كل صلاة مكتوبةٍ ولا تطوعٍ إلا سمعتُه يقول: «اللهمَّ اغفرْ لي ذُنُوبي وخَطاياي كُلَّها...» كذا رواه النسائي وأبو داود والحاكم بألفاظ مختلفة[2].

---

(١) أورده الديلمي في (الفردوس بمأثور الخطاب): ١/ ٤٨٢، (١٩٧٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٥٢٢، (٥٩٤٢) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ونحوه الطبراني في المعجم الصغير: ١/ ٣٦٥، (٦١٠)؛ وفي=

الجزء الثالث: ذكر فيه المؤلف رحمه الله اتفاق المذاهب الأربعة على ندب الدعاء سراً للإمام والفذّ، وسرَدَ في هذا الصدد نصوصاً من كتب الأئمة، وأثبت أنَّ هذا هو الذي عليه عمل الأئمة في جميع الأقطار وفي المشارق والمغارب بدون أي نكير.

الجزء الرابع: حاصل الكلام في دعاء الإمام عقب الصلاة وتأمين الحاضرين على دعائه إن كان على نية أنه من سنن الصلاة وفضائلها فهو غير جائز. وإن كان بدون هذه النية فهو باقٍ على حكم أصل الدعاء، والدعاءُ عبادةٌ شرعية، فضلُها من الشريعة معلوم.

الجزء الخامس: في ذكر النصوص من كتب الشافعية الدالة على استحباب الدعاء بعد الصلاة، والإسرار به إلاّ إذا كان لتعليم الحاضرين.

الجزء السادس: في بيان نصوص الحنابلة التي مفادها أنَّ الدعاء إثر الصلوات مسنونٌ عند الحنابلة، لأنَّه من ساعات الإجابة كما دلّت عليه الأحاديث.

= الكبير: ٤/ ١٢٥، (٣٨٧٥)، أما عن أبي أمامة رضي الله عنه فقد رواه الطبراني كذلك في المعجم الكبير: ٨/ ٢٠٠، برقم (٧٨١١)؛ ونحوه في: ٨/ ٢٢٧، (٧٨٩٣) ونحوه في: ٨/ ٢٥١، (٧٩٨٢)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد بعد ما عزاه إلى الطبراني: رجاله رجال الصحيح إلا الزبير بن خريق وهو ثقة: ١٠/ ١١٢.

الجزء السابع: في ذكر نصوص الأحناف في هذا الصدد، وإثبات استحباب الدعاء عقب الصلاة.

الجزء الثامن: خلاصة القول:

«فتحصَّل من هذا كلِّه أنَّ الدعاء دُبُرَ الصلوات مسنونٌ ومشروعٌ في المذاهب الأربعة، لم ينكره إلا ناعقٌ مجنون، قد ضلَّ في سبيل هواه، ووسوس له الشيطان فأغواه.

ظَـنَّ الجَهُـوْلُ بـأنَّ مُطْلَـقَ عَقْلِـهِ ... يَهْـدِيْـهِ يَـوْمـاً للسَّبِيْـلِ المُسْتَـوِي

فَـأَضَلَّـهُ حتَّـى الشَّـريعَـةَ رَدَّهَـا ... بمُجَـرَّدِ البُهْتَـانِ والسَّفَـهِ القَـوِي

يَـا ربِّ سَلِّمْنَـا وَسَلِّـمْ دِينَنَـا ... واهْدِ العِبَادَ لمَنْهَجِ الحَقِّ السَّوِي

الجزء التاسع: في بيان (رفع اليدين عند الدعاء) قال المؤلف رحمه الله:

دلَّت عليه الأحاديث خصوصاً وعموماً، فمن العموم ما أخرجه أبو داود والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: على شرط الشيخين، من حديث سلمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيْمٌ يَسْتَحْيِي إذا رفَعَ الرَّجُلُ إليهِ يَدَيْهِ أنْ يَرُدَّهُما صِفْراً خائبتين»[1].

---

(١) رواه أبو داود في سننه، باب الدعاء برقم (١٤٨٨)؛ والترمذي في سننه، باب في دعاء النبي ﷺ برقم (٣٥٥٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه، باب رفع اليدين في الدعاء، (٣٨٦٥)؛ وابن حبان في صحيحه: ٣/ ١٦٣، (٨٨٠)؛ والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٥، برقم =

وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ رحيمٌ كريمٌ يستحيي مِنْ عَبْدٍ أنْ يَرْفَعَ إليهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لا يَضَعُ فيهِمَا خَيْراً»[1].

وهكذا استمر يسرد الأحاديث في الموضوع نفسه، وذكر عدداً من الروايات، الدالة على رفع اليدين.

الجزء العاشر: في حكم رفع اليدين على المذاهب الأربعة، وقد فصّل المؤلف فيه القول، وذكر أقوال ونصوص المذاهب استناداً إلى كتبهم.

وخصّ **الجزء الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر** بذكر هذه النصوص.

الجزء الرابع عشر: وهو في بيان ما يتعلّق بمسح الوجه باليدين بعد الدعاء، وفيه ذكر لنصوص الفقهاء، مع ذكر الأحاديث وشرحها، وتوجيه كلام العلماء في هذا الصدد، وعليه تنتهي الرسالة.

* * *

= (١٨٣٠ و١٨٣١)، ١/ ٧١٨، (١٩٦٢).

(١) الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٥، (٢١٨٣٢).

٥ ـ الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة

هذه رسالة قيّمة نافعة في بيان بعض القضايا الشائكة المتعلّقة بالأحوال الشخصية للمسلمين، ومنها:

ـ أحكام الزوجة المفقود عنها زوجها.

ـ أحكام الزوج المجنون.

ـ حكم زوجة العنّين.

ـ حكم عدم إنفاق الزوج على زوجته مع القدرة.

ـ حكم تفويض الطلاق عند النكاح.

هذا وقد تحدث الشيخ التهانوي رحمه الله حول هذه القضايا وما يتعلّق بها من الفروع والجزئيات بكل تفصيل، واستوعب كل جوانبها، واستعرض أقوال العلماء وأدلتهم نحو هذه القضايا، وبيّن للقرّاء مدى تمتّع المرأة المسلمة من حقوق لدى الشريعة الإسلامية الغرّاء.

المتأمّل في هذه الدراسة يجد أنَّ المؤلف رحمه الله بذل في البحث عن أحكام هذه المسائل وتحقيقها وتدقيقها أقصى ما يمكن من الجهود، وأنفق فيها من وقته الثمين الكثير الكثير، كما أنه لم يكتفِ بدراسة ومطالعة ما كان

لديه من الكتب المتوفّرة والمصادر والمراجع المتاحة، وإنما راجع في تحقيق الأمر، وطلباً لمزيد من الإيضاح، علماء كبار، أصحاب الفضل والعلم في عصره، من شبه القارة الهندية وخارجها من المملكة العربية السعودية من علماء الحرمين الشريفين، لا سيما المدرّسين في الحرم النبوي الشريف، فقد قام بإرسال الرسائل إليهم للتأكد من رأي المذهب المالكي والقول الراجح لديهم.

وقد اختـار الشـيخ رحمه الله مذهب الإمام مالك رحمه الله في بعض المسائل نظراً إلى دفع الحرج عن المرأة المسلمة، ورفع الضيق عنها، وتيسير أمرها، وبالذات في مسألة المفقود عنها زوجها.

هذا وقد تضمنت هذه الرسالة عدة رسائل صغيرة وهي كالآتي:

١ ـ (المختارات في مهمّات التفريق والخيارات): وتحتوي هذه الرسالة على أحكام مفصّلة لمسائل النكاح، ومن أهمّها: خيار البلوغ، خيار الكفاءة، حرمة المصاهرة.

٢ ـ (حكم الزواج مع اختلاف دين الأزواج): وتتضمّن هذه الرسالة أحكاماً مفصّلة لاختلاف مذهب الزوجين، وصور فسخ النكاح وعدمه عند وجود الاختلاف.

٣ ـ (المرقومات للمظلومات): هذه الرسالة خلاصة للرسائل السابقة، وبمثابة دستور، وأصول وضوابط لتنفيذ هذه الأحكام.

٤ ـ (رفاق المجتهدين للنظر في وفاق المجتهدين): تشتمل هذه الرسالة

على تلك الاعتراضات، والانتقادات التي وُجّهت إلى رسالة (الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة).

أهم العناوين التي تضمنتها هذه الرسائل كلها:

- حكم فسخ النكاح بسبب ارتداد الزوجة.
- شرائط القاضي الشرعي.
- الإفتاء بمذهب الأئمة الآخرين، وشروطه، وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الصدد.
- حكم تفويض الطلاق وصوره الثلاث.
- الفرق بين النكاح المعلّق والمشروط.
- حكم قضاء القاضي في الهند وما شابهها من البلاد.
- فائدة علمية مهمة لأهل العلم حول شروط قضاء القاضي.
- هل يمكن العبرة بالأحكام الصادرة عن ممثلي الحكّام الموجودين على مستوى المديريات والمحافظات؟ وكيف؟ ومتى؟.
- حكم زوجة العنّين.
- كيفية رفع الدعوى ضد الزّوج العنّين، وطريقة الحكم فيها.
- شرائط التفريق لزوجة العنّين.

- حكم المجبوب .
- حكم زوجة المجنون .
- خيار الفسخ لزوجة المجنون .
- حدّ الجنون الموجب للتفريق .
- صور الدعوى والتفريق .
- شرائط التفريق .
- حكم مهر زوجة المجنون وعدّتها .
- حكم زوجة المفقود .
- مذاهب الأئمة الأربعة في زوجة المفقود .
- الفتوى على مذهب الإمام مالك رحمه الله عند اقتضاء الضرورة .
- الاستفتاء من علماء السادة المالكية .
- صورة دعوى زوجة المفقود والحكم عليه بالموت .
- اتفاق الحنفية والمالكية على حكم المفقود في دار الحرب .
- تحديد أربعة أعوام تتم بعد تفتيش الحاكم وطروء اليأس ، وانتهاء أمل العودة .
- مصاريف ونفقات البحث عن المفقود والتفتيش عنه .

- من الذي ينوب عن القاضي الشرعي عند عدم وجوده.
- حكم زوجة المتعنت.
- إذا امتنع المتعنت عن ظلمه فما هو الحكم.
- حكم زوجة الغائب (غير المفقود).
- صور إرسال الحكم إلى الغائب.
- لا يشترط إرسال الحكم إلى الغائب، إذا كان بعيداً في الدول الأخرى.
- إذا عاد الغائب إلى بلده فما هو الحكم؟
- حرمه المصاهرة.
- أسباب وشرائط تحقيق حرمة المصاهرة.
- كيفية الحكم في حرمة المصاهرة.
- التوضيح الضروري المتعلّق بالحلف والتصديق والشهادة.
- خيار البلوغ.
- لزوم النكاح المعقود من الأب والجد، وشرائط اللزوم.
- حكم الأولياء الآخرين ما عدا الأب والجدّ.
- الحاجة إلى قضاء القاضي في خيار البلوغ والتفاصيل المتعلّقة به.

- حكم الأبكار والثيّبات .
- الحاجة إلى إشهاد الشهود للبكر في خيار البلوغ ، وتفصيل القول فيه .
- خيار الكفاءة .
- صور الزواج من غير الكفؤ .
- حكم ارتداد الزوجة .
- لا يفسخ النكاح بارتداد الزوجة .

كانت هذه أهم العناوين التي احتوت عليها هذه الرسائل، وبها يتبيّن الواقع بكل جلاء مدى الجهود والمساعي التي بُذلت في هذا الصّدد .

أما ما وجّهه الشيخ التهانوي رحمه الله من الاستفتاءات إلى علماء السادة المالكية فهي خمس رسائل ، وقد اعتنى بها علماء الحرم النبوي الشريف اعتناءً بالغاً، وردّوا عليها باهتمام كبير، ولا يتسع المكان أن ننقل هنا كل ما يتعلّق بهذا الموضوع، فإن الاستفتاءات وأجوبتها تحتوي على حوالي خمسين صفحة بالقطع المتوسّط ، وإنما نقتصر على الإشارة إلى الاستفتاءات الموجّهة إليهم فقط ، علماً أنها كلّها محرّرة باللغة العربية .

نصّ الاستفتاء الأول:

ما قول ساداتنا المالكية ، أطال الله بقاءهم ونفع المسلمين بعلومهم ، في هذه المسائل الآتية :

١ ـ امرأة مسلمة فقدت زوجها منذ سنين، ولم يتبين أمره مع كثرة التفتيش، هل يجوز لها بعد مضيّ أربع سنين أن تعتدّ عدة الوفاة، ثم تزوّجُ بزوج آخر؟ أم لا بدّ من رفع الأمر إلى الوالي أو الحاكم أو جماعة المسلمين، ثم يفتش ذلك المرفوع إليه، فإذا يئس يحكم بعد ذلك بانتظارها أربع سنين، فإن لم يتبيّن تعتد عدة الوفاة، كما يفهم من المدوّنة ومختصر الخليل وشرحه للدردير، أم كيف الحكم؟.

٢ ـ هل يلزم حكم الحاكم أو حكم جماعة المسلمين لانتظار أربع سنين؟ أم يصح ذلك بغير الحكم أيضاً؟.

٣ ـ بلاد إسلامية استولى عليها الكفار منذ مدة مديدة، وفقدت مسلمة من أهلها زوجها فيها، وليس هناك حاكم إسلامي يفصل الأحكام حسب القوانين الشرعية، فكيف السبيل هناك؟ وفي أي قسم من الأقسام الأربعة المذكورة للمفقود في (مختصر الخليل) يكون عدادُه؟.

٤ ـ هل الصورة الثانية للمفقود، المذكورة في (مختصر الخليل) تختص بامرأة كانت من سُكّان البلاد الإسلامية، فذهب زوجها إلى البلاد الشركية، وفُقد هناك؟ أم تشتمل القاطنة بالبلاد التي استولى عليها الكفّار، وبالديار الحربية الأصلية، أم كيف الأمر؟.

٥ ـ المفقود عنها زوجها سواء كانت من البلاد الإسلامية أو الشركية، إذا لم يترك زوجها عندها نفقة، وهي في غاية من الاحتياج والفاقة، أو كانت بحيث يُخشى عليها الفساد بالعزوبة، كيف السبيل لها إذا أرادت الزواج، أو أراد أهلها ذلك؟.

٦ ـ المفقود عنها زوجها إذا لم يكن عندها النفقة، وهي محتاجة، أو يُخشى عليها الفساد، هل يصح تطليقها أو فسخ نكاحها من غير حكم الحاكم الشرعي؟ أم لا بد من الحكم؟ وعلى الثاني كيف يعمل بالبلاد الإسلامية التي تغلّب عليها الكفار؟ أفيدونا ولكم الأجر الجزيل.

هذا كان نصّ الاستفتاء الأول، وقد أجاب عليه ثلاثة من العلماء الكبار المفتين في المذهب المالكي بالمدينة المنوّرة، وهم:

١ ـ العلاّمة سعيد بن الصديق الفلاتي، مفتي المالكية بالمدينة المنوّرة، وقد تم تحرير الجواب منه رحمه الله في تاريخ ٧ جمادى الأولى ١٣٤٧هـ.

٢ ـ العلاّمة ألفا هاشم رحمه الله تعالى، مفتي المالكية بالمدينة المنوّرة.

٣ ـ العلاّمة محمد طيب بن إسحاق الأنصاري المالكي، المدرّس بالمسجد النبوي الشريف.

كما وجّه الشيخ التهانوي رحمه الله بعض الأسئلة المتعلّقة بزوجة المفقود مرة ثانية إلى هؤلاء الأفذاذ، وقد أجاب عليها العلماء الآخرون ومنهم:

١ ـ العلاّمة الصالح التونسي المدرّس بالمسجد النبوي الشريف.

٢ ـ العلاّمة سعيد بن صديق الفلاتي (المذكور سابقاً).

وهكذا مرة ثالثة ورابعة، وفي المرة الرابعة جاء الردّ من العلاّمة محمد ابن علي البيضاوي المالكي رحمه الله، وأما في المرة الخامسة فقد جاء الرد من

الشيخ عبد الله الفوتي المدرّس بالمسجد النبوي الشريف، مرفقاً بتوقيعات كل من السادة محمود بن أبي بكر الفلاتي، وعثمان بن إدريس علي الفلاتي.

وهكذا بدت لنا جهود حكيم الأمة التهانوي رحمه الله في مجال البحث والتحقيق، وبذل كل الوسائل المتاحة، والإمكانيات المتوفرة للوصول إلى الحق.

ومما لا شك فيه أن مثل هذا العمل الجليل، وهذه الخدمة الدينية العظيمة لا يقوم بها إلا من اصطفاه الله تعالى لتجديد دينه وإصلاح أمته، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ثناء العلماء على الكتاب[1] وإشادتهم بهذا الجهد العلمي المبارك:

قال الشيخ ظفر أحمد التهانوي: «الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فقد طالعت هذه الرسالة الفريدة، وملأت عيني بأنوار تلك اللآلئ النضيدة، فوجدتها فريدة في الباب، ودرة يتيمة أُخرجت من لجة العباب:

مِنْهَا الْحَيَاةُ لِكُلِّ حَيٍّ مَيِّتٍ   مِنْهَا المَمَاتُ لِكُلِّ قَوْلٍ زُورِ
مِنْهَا البَيَاضُ لِكُلِّ قَلْبٍ أَسْوَدٍ   مِنْهَا السَّوادُ لِكُلِّ عَيْنٍ ضَرِيْرِ

---

(١) وقد بلغ عدد صفحات الكتاب إلى مئتين وثلاث وعشرين صفحة، بالقطع المتوسط، ط: مكتبة رضي ديوبند، أترابراديش الهند.

ولله در شيخنا، فقد بالغ في التحقيق والتنقير، وبذل جهده في التسهيل على الأمـة المظلومة والتيسير، جعل الله هذا السعي مشكوراً، وهذا العمل مقبولاً ومبروراً، وصلّى الله وسلم على سيدنا ومولانـا محمـد وعلى آلـه وأصحابه أجمعين».

كتبه

ظفر أحمد التهانوي

تغمده الله بالغفران والرضوان

وقال الشيخ عاشق إلـهي الميرتهي: «. . . وقد تشرفت بمطالعة هذه الرسالة الفائقة، والضميمة اللاحقة والخلاصة الرائقة بإمعان النظر وحسن الفكر، فوجدت الأجوبة كلها صحيحة بلا ارتياب، والمجيب أجاد فيما أجاب، وبذل الجهد في تخليص العاجزة فأصاب، وما هي بأول بركة منه، فإنه للأمة طبيب، وشفقة الطبيب على المريض ليس بعجيب، فجزاه الله عنا أحسن جزائه، ومتعنا بطول عمره وبقائه، وعلى الأمـة أن يراعـوا بالقيـود والشرائط حق المراعاة، ويعضّوا عليها بالنواجذ، فإنها من أهم المهمّات، ويجتنبوا عن الحرية في الدين، واتباع الهوى كما هو ديدن الزمان لأنه من الموبقات. . .».

(عاشق إلـهي الميرتهي)

* * *

٦ ـ حلية أهل الجنة (بهشتي زيور)

هذا الكتاب المفصّل الجامع لأحكام النساء يُعَدُّ من الإنجازات العلمية الكبيرة في مجال تعليم المرأة المسلمة، واطلاعهن على ما فرض الله سبحانه وتعالى لهن من الحقوق، وعليهن من الواجبات، وقد سدّ هذا الكتاب ثغراً كبيراً كان قد طرأ على المجتمع النسائي، وجاء ملبياً لمتطلباتهن، ومغطّياً حوائجهن، في كل مجال من مجالات الحياة الدينية والدنيوية، وبسبب ذلك تلقى بالقبول العام المنقطع النظير في كل الأوساط العلمية، ونال إعجاب القرّاء من الذكور والإناث على السواء، وقد أشاد به كبار العلماء، والمشايخ العظام وأثنوا عليه، ثناءً حارّاً.

يقول سماحة العلاّمة الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله:

«وقع الاسم الكريم للشيخ أشرف علي التهانوي في سمعي مقروناً بكل أدب واحترام منذ الصغر، وذلك لمَّا كان كتابه (بهشتي زيور) (حلية أهل الجنة) يحظى بالقبول المدهش، والتجاوب الحار، فقد كان كتابه بمثابة مفت مطاع، ومشرف ديني، في الأسر التي كانت بعيدة عن البدع، والتقاليد الجاهلية، والعقائد الفاسدة، ولعلّه أوّل كتاب تعرَّفت به من بين كتبه»[١].

---

(١) مقال الشيخ الندوي رحمه الله المنشور في مجلة (ثقافة الهند) الصادرة من دهلي، المجلد (٤٢)، العدد (٣)، عام ١٩٩١م، حول عنوان (حكيم الأمة =

ويقول رحمه الله في موضع آخر: «وقد كان لكتابه (بهشتي زيور) (حلية أهل الجنة) الذي ألّفه أصلاً لتعليم البنات، وضمّنه المسائل الفقهية التي تشتد إليها الحاجة، رواج وذيوع، قلما بلغهما كتاب آخر من الكتب الدينية في هذا العصر، وطبع مراراً كثيرة يصعب إحصاؤها»[1].

ويقول الشيخ محمد تقي العثماني: «وله أيضاً كتاب (بهشتي زيور) (حلية أهل الجنة) وهو في سبعمئة صفحة تقريباً من القطع الكبير، وقد جمع فيه مسائل جميع أبواب الفقه والعقائد والتصوّف، وصنّفه في الأصل لتعليم النساء، فجمع فيه علاوة على المسائل الدينية، جميع ما تحتاج إليه النساء في حياتهن الأسرية، وساعده في تأليف هذا الكتاب جماعة من العلماء.

وهذا الكتاب وإن كان قصد به إفادة النساء، فقد انتفع به الرجال كثيراً، ولم يجد العلماء عنه غنًى، وترجم إلى عدة لغات محلية»[2].

ويقول عنه الدكتور نسيم اختر الندوي:

«قدم فيه الشيخ التهانوي صورة ملخصة جامعة لمفاهيم القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، وتناول فيه معظم القضايا الخاصة بحياة المرأة اليومية، فهذا

= أشرف علي التهانوي)، تعريب الأستاذ آفتاب عالم الندوي.

(١) من تعليقاته على كتاب (نزهة الخواطر) ترجمة الشيخ أشرف علي التهانوي: ٨/ ٥٩.

(٢) من مقدمته لكتاب (إعلاء السنن): ١/ ١٢.

الكتاب بمثابة موسوعة ذاع صيتها في الوقت الذي لم يكن يتوفر فيه أي كتاب من نوعه باللغة الأردية، يحقق متطلّبات النساء، فقد بحث فيه المؤلف الإيمان والعبادات والأخلاق والمعاملات، وأساليب الحياة، إلى جانب التوجيهات القيّمة الخاصة بشؤون المنزل، والأمور العائلية.

ومما لا شك فيه أنَّ هذا الجهد العلمي يجسّد فعلاً اهتمامه البالغ بتعليم النساء اللاتي ظلّت أغلبيتهن فريسة للانفلات، وعدم العناية من قِبل المجتمع المسلم الهندي في مجال التعليم، بالرغم من وجود الدلائل القوية، والنصوص الواضحة التي تحثّ المسلم والمسلمة على الاهتمام بالعلم سواء بسواء»[1].

هذا وقد احتوى الكتاب على أحد عشر قسماً:

القسم الأول: يتناول بيان العقائد، والأصول التي عليها مدار الإيمان، وأحكام الطهارة.

الثاني: يتضمن جميع أحكام الصلاة بكل تفاصيلها.

الثالث: يتحدث عن أحكام الصيام والحج والأيمان والنذور واللقطة والأوقاف.

---

(١) (حكيم الأمة أشرف علي التهانوي ومساهمته في تعليم المرأة)، مقال منشور في مجلة (البعث الإسلامي)، الصادرة في لكنو، عدد المحرم ـ صفر، ١٤٢٤هـ.

الرابع: يشتمل على أحكام النكاح والطلاق، والأمور المتعلّقة بحضانة الأولاد وتربيتهم.

الخامس: يحتوي على مسائل من المعاملات.

السادس: يتحدَّث عن جملة من التقاليد، والطقوس والعادات الرائجة المتغلغلة في مجتمعات المسلمين، وبيان طرق إصلاحها في ضوء الكتاب والسنّة.

السابع: يحتوي على جملة من الآداب الشرعية، والأخلاق الإسلامية، والأعمال التي تستوجب الثواب أو العقاب.

الثامن: يتضمن سير وتراجم الأزواج المطهرات (أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أجمعين) والتي قد خلّفت آثاراً عميقة، ومآثر دينية قيّمة وأسوة حسنة مباركة للمرأة المسلمة، كما أنه يحتوي على قصص رائعة ومؤثرة منتقاة من حياتهن، تدلّ على ما قمن به من التضحيات الجليلة والعظيمة في سبيل هذا الدين وإعلاء كلمة الحق المبين، والدفاع عن حياض الشريعة الإسلامية الغرّاء.

التاسع: يشتمل على أصول حفظ الصحة، والتداوي والعلاج، في ضوء ما ثبت من السنة في كتاب الطب والرقى الشرعي المباح.

العاشر: فيه بيان للأمور المنزلية، والصناعات والحرف اليدوية، وتوجيه مهم للنساء وإرشادهن إلى ما ينبغي لهن من مطالعة الكتب الدينية، وقراءتها والإلمام لها.

الحادي عشر: فيه بيان أحكـام الطهارة والعبادة للرجـال، وأصول الاحتفاظ بالصحة الجيدة، ومعه ملحق خاص بحقوق الوالدين.

ملاحظة: لقد خرجت على منصّة الشهود طبعات كثيرة للكتاب، يبلغ عددها أكثر من خمسين طبعة تقريباً، كما ترجم الكتاب إلى عدة لغات محلّية، ومن أهم مميزاته أنَّ الشيخ التهانوي رحمه الله حاول أن يذكر فيه كل مسألة مقترنـة بأدلتها من الكتاب والسنة، كما نقل عبـارات الفقهاء العربيـة ضمن جزئيات وفروع فقهية، حتى إذا أشكل الأمر على أهل العلم راجعوها وتحققوا منها.

وخلاصة القول: إن هذا الكتاب بمثابة موسوعة موجزة، وهي متوفّرة موجودة في كل مناطق الهند، وهدية علمية مباركة يتحف بها كل الآباء والأمهات بناتهم عند الزواج.

* * *

٧ ـ تعليم الدّين مع تكميل اليقين

هذا الكتاب من أهم مؤلفات الشيخ التهانوي رحمه الله، وأشملها لفروع الدين وأجزائه من العقائد والأعمال والعبادات والمعاملات، والسياسة والمعاشرة، والآداب والأخلاق.

وقد تحدَّث المؤلف بنفسه عن سبب تأليف الكتاب، ومحتوياته، بما فيه كفاية وغنى عن أي إضافة أو تفصيل، وفيما يأتي نصّ كلام المؤلف رحمه الله بعد التعريب:

مقدمة المؤلف:

«﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ١ ـ ٤].

يرى معظم الناس في عصرنا هذا أن الإسلام اسم لبعض العبادات، وأداء عدد من الشعائر الدينية، والإيمان بالغيب، والحشر، والجنة وما فيها من النعيم والحور العين، والنار وما فيها من أنواع العذاب والعقاب، وأنه لا يتعرض لأحوال الإنسان الظاهرة والباطنة، كما أنهم يعتقدون أن الإنسان حر

في فهمه لله تعالى ورسوله ﷺ، يتعامل مع الناس كيفما يشاء، يكسب المعاش بأي طريقة يختارها، ويأكل ويشرب ويلبس كما تهوى نفسه، يعيش حياته الفردية والجماعية متبعاً هواه، وجرياً وراء شهواته، ليس هناك حاجز يحجزه، ولا رادع يردعه، حتى ولو حاول المشي مع الأصول والضوابط في شؤونه التجارية فيقلّد في ذلك غير المسلمين، ويقلّد في نمط الحياة، ومنهج الحياة والعشرة والاجتماع، الفلاسفة القدامى أو حديثي العهد.

أما في مجال السلوك والتزكية والإحسان، فيجعل من جَهَلة الناس المجرّدين عن العلم والمعرفة، أسوةً وقدوةً.

وبالجملة فهؤلاء لا يمتّون بصلة إلى العقائد الإسلامية الحقة، ولا إلى أمور الرسالة، ولا إلى الآداب والأخلاق الدينية، ولا إلمام لهم بأصول المعاملات، وقواعد الشؤون التجارية، ولا اطلاع لهم ولا معرفة بدينهم وشريعتهم، وثقافتهم الإسلامية الراقية، وحضارتهم العريقة، الأمر الذي وقعوا بسببه فريسة سوء الظن بالإسلام، والفهم الخاطئ تجاه تعاليمه، وظلوا يظنون ـ معاذ الله ـ أن الشريعة الإسلامية، والدين الإسلامي، تنقصه التعاليم وفق المتطلبات الراهنة، والأصول والقوانين حسب مقتضيات العصر الحديث، ولا سيما طبقة الشباب الحديثي العهد وطُلاّب المدارس العصرية، فقد ترسّخ في ذهنهم هذا الفهم الخاطئ، ورأوا أنفسهم محتاجين إلى حضارة الغير، وثقافة الآخرين، ونتج من ذلك تلقائياً أنهم بدؤوا يفضّلون الطرق الأخرى على طريق الإسلام قلباً أو قالباً، ويسخرون من معظم عقائد الإسلام.

أما عامة الناس فقد أصابهم هذا المرض من نواحٍ أخرى، فإنهم كانوا

يُلزمون أنفسَهم مراجعة علماء الدين في شؤون العبادات فقط، أما المعاملات فأطلقوا فيها العنان لأنفسهم، يحكمون بما تهوى به أنفسهم، دون أن يراجعوا علماءهم، وهكذا كان الأمر في مجال العقائد، وتفاصيل التوحيد والشرك والكفر، فما شعروا بأي حاجة إلى مراجعة العلماء في هذا الشأن.

أما طبقة العلماء ورجال الدين فقد كان ديدنهم أنهم حبسوا أنفسهم في مذاكرة مسائل الأعمال والعبادات، وانشغلوا عن التحقيق في المعاملات، والخوض في بحار البحث والتنقيح والنظر والتأمل لما يواجه العامة من القضايا والمستجدّات، وحسبوا أن ما هم عليه الآن هو أعلى مكانة وأرقى درجة، حتى إن فكرتهم تلك قد تؤديهم إلى حدوث الأمراض الباطنة والأسقام الروحية فيهم مثل العُجب والكبر وحُبّ الدنيا، والطمع في زخارفها.

وأما طبقة الزهّاد وأصحاب التصوّف والسلوك، فكانوا قد وقعوا فريسة زلّة كبيرة، وخطأ فادح، بحيث إنهم زعموا أن الشريعة تباين الطريقة، وهما شيئان مختلفان، وظنّوا الطريقة الغاية الأصيلة والهدف الحقيقي، والشريعة قانوناً للتنظيم فقط، وقلبوا الحقيقة رأساً على عقب، وابتعدوا عن العلماء وحفَظَة الدين، وزعموا الأوهام وكل ما يطرأ على البال من التخيّلات، مكاشفات، واعتقدوها أموراً حتمية بل فوق اليقينيات، دون أن يقيسوها بمقياس الشرع، ويزنوها بميزان الدين.

وبالجملة فقد تأثرت كل طبقة من الطبقات بهذه الفكرة الزائفة الزائغة ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ، ولو أنهم صرفوا أدنى جهد في معرفة الكتاب والسنة،

وتأملوا فيها لوجدوا ضالتهم هناك، ونالوا بغيتهم، ويتجلّى لهم هذا الواقع كالشمس في رابعة النّهار، أن تعاليم الشريعة الإسلامية، وقوانينها الأبدية، ودستورها الربّاني، هو الكافي الشافي الوافي، للبشرية جمعاء، في كل شأن من شؤونها، وأن هذه هي الشريعة التي أنزلها الله تعالى من فوق سبع سماوات، صالحة لمواكبة الركب البشري، وكافلة لتلبية جميع حوائجه ومتطلباته في كل زمان ومكان.

وفيها ما يغني البشرية عن تعاليم الشرائع الأخرى وقوانينها التي صنعتها أيدي الناس وصاغتها الأذهان البشرية، ولو لم يكن الأمر كما أسلفنا لَمَا قال المولى عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]. ولما قال الرسول ﷺ رداً على من سأله من بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فيما رواه أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أن عمر أتاه فقال: إنا نسمع أحاديث من اليهود فتعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوِّكونَ أنتم كما تهوَّكت اليَهودُ والنَّصارى، لقد جِئْتُكُم بها بيضاءَ نقيَّة»(١).

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٣/ ٣٨٧، (١٥١٩٥) (باختلاف يسير في اللفظ)؛ والمقدسي في الأحاديث المختارة نحوه: ١/ ٢١٦، (١١٥)؛ وابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣١٢، (٢٦٤٢١)؛ والبيهقي في شعب الإيمان: =

وإنَّ القرآن الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] هو الذي جاء فيه: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦]، ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ [العنكبوت: ٨]، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...﴾ [الحجرات: ١١]، وغيرها من آيات المعاملات والشؤون الاجتماعية.

وهكذا شأن كتب الحديث الشريف، إن تأمل أحدٌ في فهارسها وجد كتاب الإيمان، وكتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، ... كما وجد تحته كتاب البيوع، وكتاب النكاح والطلاق والآداب، وكتاب الرقاق، ومِنْ ثَمَّ فلا يبقى مجال لأحد أن يزعم أو يدّعي أنَّ الإسلام لم يتطرَّق إلى بيان المعاملات، وشؤون العشرة والأمور الأسرية، وفضائل الأخلاق، والآداب والتزكية

= ١/ ٢٠٠، (١٧٧)؛ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٦٢.

والإحسان، وإنما ركّز على العقائد والأعمال [التعبدية] فقط، بل إن كل مُنصف وعادل يشهد شهادة حق أن دين الإسلام تولّى شرح وبيان كل هذه الأنواع الخمسة بكل تفصيل، ولم يَدَعنا نحتاج إلى أحد، أو نمدّ يد الاستنجاد إلى ملة أخرى، حتى إن المنصفين من غير المسلمين لم يلبثوا إلا أن يعترفوا بكمال هذا الدين الحنيف، وشموله وجامعيته، ومسايرته الركب البشري في سائر حوائجه وجميع متطلباته[1].

سبب تأليف الكتاب:

ونظراً إلى حاجة الناس إلى التوعية والنصح، وترشيد الصحوة الإسلامية، وإيقاظ الوعي الإسلامي فيهم، خاصة من هذا المنطلق الفكري الذي وقعوا فيه فريسة الفهم الخاطئ، رأيتُ من المناسب أن تكون هناك رسالة تقوم بسدّ هذا الفراغ الهائل ـ الناتج عن الإغفال والجهالة وعدم المعرفة ـ وتحتوي على هذه الموضوعات الخمسة باختصار، مقتبسة من أنوار الكتاب والسنة وفي ضوء هدي النبي الكريم ﷺ.

منهج المؤلف في الكتاب:

وقد قسّمتها إلى خمسة أقسام:

---

(١) وقد ألّف الشيخ التهانوي رحمه الله كتاباً مستقلاً حول هذا الموضوع سمّاه (شهادة الأقوام على صدق الإسلام) جمع فيه ثناء الكفار على الإسلام وتعاليمه.

١ ـ العقائد والتصديقات .

٢ ـ الأعمال والعبادات .

٣ ـ المعاملات والسياسة .

٤ ـ الآداب والمعاشرة .

٥ ـ التزكية والإحسان والسلوك .

والله العظيم أسأل العون والنصر ، وتجنّب الخطأ والزّلاّت ، إنه تعالى هو الموفق والمعين ، وهو على كل شيء قدير ، آمين وبه نستعين»[١] .

أهم موضوعات الكتاب ومحتوياته:

الفصل الأول : في بيان العقائد :

لقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا القسم جملة من العقائد الإسلامية ، محلاّة بالأدلة من الكتاب والسنة ، وهذه الأدلة مذكورة على الهامش .

الفصل الثاني : الشرك وأقسامه :

لقد بدأ المؤلف هذا الفصل بآية كريمة من كتاب الله العزيز وهي : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ

---

(١) ملاحظة : يقع الكتاب في ١٦٦ صفحة ، بالقطع المتوسط ، وقد تولَّت نشره وتوزيعه مكتبة فريد للطباعة والنشر ، دهلي الهند ١٩٩٩م .

وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٥ـ ١٢٠].

ثم ذكر أقسام الإشراك، وجملة من البدع وما إلى ذلك من الأمور وهي:

١ ـ الإشراك في العلم: قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٢ ـ الإشراك في التصرّف: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ـ٨٩].

٣ ـ الإشراك في العبادة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [هود: ٢٦].

٤ ـ الإشراك في العادة: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦ـ١٤٤].

٥ ـ **بيان البدع المحدثة على القبور وضرائح الصالحين**؛ قال النبي ﷺ: «لا تجعلوا قبري وثناً بعدي»[١].

---

(١) رواه أحمد ومالك.

٦ ـ البدع المرتكبة في مختلف الطقوس والعادات والتقاليد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠].

٧ ـ ذكر بعض الكبائر من الذنوب.

٨ ـ ذكر شعب الإيمان.

٩ ـ بعض الأضرار الدنيوية للمعاصي والذنوب.

١٠ ـ بعض المنافع الدنيوية للطاعات.

الفصل الثالث: الأعمال والعبادات:

وفي آخر الكتاب ذكر فصلاً مستقلاً تناول فيه إصلاح بعض الأخطاء في باب التزكية والإحسان، وردّ على الجهلة من المتصوّفين، ونقل أقوال كبار العلماء والزهّاد أمثال الشيخ بايزيد والشيخ الجنيد رحمهم الله في الحث على اتباع الطريقة المحمديّة واقتفاء السنّة النبوية، والتحذير من اتباع الهوى وما يخالف الشريعة الإسلامية، ومن تلك الأقوال:

«كلُّ حقيقةٍ على خلاف الشريعة زندقةٌ باطلةٌ».

«ما لنا طريق إلى الله إلا على الوجه المشروع، لا طريق لنا إلى الله إلا ما شرعه، ومن قال: إنَّ ثَمَّ طريقاً إلى الله خلاف ما شرع، فقوله زور».

«ولو نظرتم إلى رجل عالٍ في الكرامات حتى إنه يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة».

«الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ» .

«اللهمَّ اختم لنا بالخير والسعادة» .

* * *

٨ ـ المصالح العقلية للأحكام النقلية

مقدمة المؤلف:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، يقول العبد الفقير إلى الله: مما لا شك فيه أن مدار الأحكام الشرعية الفرعية هو النصوص الشرعية المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والذي لا يمتثل لهذه النصوص، ويمتنع عن العمل بها بحجة البحث عن حِكَم وعلل تلك الأحكام وأسرارها ومصالحها، فإنه يُعد عاصياً ومُذنباً. وبالرغم من ذلك فإنه لا ينكر أحدٌ أنَّ هناك مصالحَ وحكماً وأسراراً لمشروعية تلك الأحكام التي فرضها الله تعالى على عباده، ومع أن العبد غير مكلّف بالبحث عن تلك الأسرار، لكن من طبيعة البشر أنه إذا عرفها واطلع عليها فإن هذه المعرفة قد تزيد في إيمانه بتلك الأحكام وإذعانه لها، إلا أن الراسخين في العلم، وأصحاب اليقين الكامل لا حاجة لهم إلى ذلك، لكن فيها تقوية قلب وجبر خاطر لبعض الضعفاء من أهل الإيمان الذين يمتاز بهم عصرنا هذا.

ولذلك نرى في كتب السلف الصالح أمثال الغزالي[١]

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي أبو حامد، حجة الإسلام، =

والخطّابي[1] والعزّ ابن عبد السلام[2] وغيرهم رحمهم الله أنهم يتطرقون إلى هذه المعاني، ويتعرضون لهذه اللطائف في كتبهم.

كما أن ما تسبّب به المنهج التعليمي الحديث من خلق الحرية في الطبائع والنفوس البشرية، أدى ذلك إلى ازدياد رغبة الناس في معرفة هذه المصالح والحِكَم، حتى بدأ بعض أهل العلم بذكرها شيئاً فشيئاً في خطبهم وكتاباتهم

= صاحب التصانيف المفيدة في الفنون العديدة، كالمستصفى والمنخول في أصول الفقه، والوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه، وإحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، ومعيار العلم، والمنقذ من الضلال، توفّي سنة ٥٠٥هـ، (انظر: طبقات الشافعية للسبكي: ٦/ ١٩١؛ وفيات الأعيان: ٣/ ٣٥٣).

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب أبو سليمان البستي المعروف بالخطّابي، كان رأساً في علم العربية والحديث والفقه والأدب وغير ذلك، وصنّف التصانيف النافعة المشهورة منها (معالم السنن) و(أعلام السنن) و(غريب الحديث) و(شرح أسماء الله الحسنى) و(كتاب العزلة) و(كتاب الغنية عن الكلام) توفّي سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة». (انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٢/ ١٥٧؛ وسير أعلام النبلاء: ١٧/ ٢٣).

(٢) هو عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الشافعي أبو محمد شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام الملقب بسلطان العلماء، أشهر كتبه (القواعد الكبرى) و(مجاز القرآن) و(شجرة المعارف) توفي سنة ستمئة وستين للهجرة. (انظر: طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٢٠٩؛ وفوات الوفيات: ١/ ٥٩٤؛ وشذرات الذهب: ٥/ ٣٠١).

وذلك تسهيلاً للطامة وتيسيراً على العامة، ولو أن هؤلاء العلماء قاموا بمراعاة الحدود الشرعية في بيان هذه الأسرار والحِكَم لقلنا: إنَّ ما كتبوه فيه كفاية، ولكن كما هو المعروف أنَّ الباحثين عن الحق قليلون، والمتبعين حقاً للشريعة عزيزون نادرون، فكان مصير هؤلاء أنهم حادوا عن سواء الصراط، وتجاوزوا الحدود بسبب شيوع الآراء الفاسدة، وذيوع المختلقات والإشاعات الكاذبة، واتباع الأهواء، وملؤوا كتابهم بالغث والسمين والرطب واليابس.

فخطر على بالي أنَّ مطالعة مثل هذه الكتب لعامة الناس تضرّهم أكثر من أن تنفعهم في الدين والدنيا، كما أن منعهم عنها صار أمراً مستحيلاً، ولذا فقد اقتضت الحاجة إلى تأليف كتاب جامع في هذا الموضوع، خالٍ عن المفاسد السابقة الذكر، حتى يتمكن الباحث عن أسرار الشريعة والراغب في معرفتها من تحقيق حلمه، والوصول إلى غايته بعد قراءة الكتاب.

هذا وقد حاولت أن أتناول في هذا الكتاب ذكر الأسرار والمصالح التي تكون قريبة من الأصول الشرعية، وملائمة لأفهام العامّة، إلا أنَّ جميع هذه المصالح ليست مما نصّ عليه الكتاب أو السنة، ولا هي كلها مدار الأحكام، ولا حصر فيها، وإنما هي بمثابة الأمثلة والنماذج، وقد سبق أن ألف في هذا الموضوع علماء جهابذة في المتقدّمين، ومنهم العلاّمة الشاطبي، والمحدِّث العلاّمة ولي الله الدهلوي، وكتابه (حجة الله البالغة) أشهر من أن يُعرّف، كما ألّف متأخراً أحد المعاصرين الأفاضل الأستاذ إبراهيم أفندي علي من مصر، وسمّاه (أسرار الشريعة)، وطُبع الكتاب في مصر عام١٣٢٨هـ، وقبله رسالة

أخرى باسم (الرسالة المحمدية).

وأسمّي كتابي هذا (المصالح العقلية للأحكام النقلية) سائلاً المولى عزَّ وجلَّ أن يجعله نافعاً ومفيداً للبشرية، ودافعاً للشكوك والشبهات تجاه الأحكام الشرعية.

كتبه
أشرف علي
شهر رجب ١٣٢٤هـ

وفيما يأتي نلفت نظر القارئ الكريم إلى أهم الموضوعات التي حواها الكتاب:

- حُكم تعدّد حِكَم ومصالح الأحكام الشرعية.
- الحِكَم والأسرار المتعلقة بالوضوء، هناك عشرة حكم وأسرار ذكرها المؤلف رحمه الله في باب الوضوء، وأتبعها بِحِكَم أخرى، مثلاً: الحكمة في دعاء التوبة بعد الانتهاء من الوضوء. الحكمة في ندب الترتيب في الوضوء، حكمة تجديد الماء في مسح الرأس والأذنين، حكمة مشروعية الطهارة من الماء والتراب، حكمة تخصيص الأعضاء السبعة في الوضوء.
- حكمة السواك في الإسلام.
- نظرة عامة على الطهارة المعنوية.
- طهارة الأعضاء والجوارح.

- حكمة كون التيمّم ينوب مناب الوضوء والغسل.
- الحكمة في عدم التفريق بين تيمّم الغسل والوضوء.
- الحكمة في منع الحائض والجنب من دخول المسجد.
- الحكمة في غسل الكافر عند اعتناقه الإسلام.
- الحكمة في وجوب الغسل بعد الطهارة من الحيض.
- الحكمة في منع الجنب والحائض من الصلاة وقراءة القرآن.

وهكذا تتابع ذكر الحِكَم، وبيان الأسرار والمصالح لمعظم الفروع والجزئيات الفقهية، المتعلّقة بكتاب الطهارة والصلاة، وإلى هنا ينتهي **الجزء الأول** من الكتاب.

أما الجزء الثاني: فهو يشتمل على حكم وأسرار الأبواب التالية:

كتاب الزكاة، كتاب الصوم، باب العيدين، كتاب الأضاحي، كتاب الحج، كتاب النكاح، كتاب الطلاق.

والجزء الثالث: من الكتاب يتضمن مباحث:

كتاب البيوع، والمعاملات، والفرائض، والمواريث، وحكم وأسرار متعلِّقة بالقبر ونعيمه وعذابه، وحقيقة الصراط.

كما ضمَّن رحمه الله **نهاية الكتاب** بعض المباحث المهمة المتعلقة بحياة البرزخ، والثواب والعقاب، والجنة والنار، ومنها:

ـ أجوبة الإمام ابن القيم رحمه الله على الأسئلة الواردة حول عذاب القبر ونعيمه.

ـ حقيقة الصراط الأخروي في كلام ابن العربي.

ـ حقيقة الصراط المستقيم في كتابات الإمام الغزالي.

ـ حقيقة القيامة في ضوء ما كتبه الإمام محمد قاسم النانوتوي.

ـ حقيقة المكافآت على الأعمال الإنسانية.

ـ حقيقة الجنة والنار.

ـ لا يُغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

ـ أرضى الأقوال في عرض الأعمال من مقال العارف الجلال (الرومي).

ومما يلفت النظر أنَّ المؤلف رحمه الله قد انتقى في معظم المباحث من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله، كما نلاحظ ذلك في بيان حكمة عدم تفرقة تيمّم الوضوء والغسل:

قال رحمه الله: يقول العلاَّمة ابن القيم رحمه الله: «وأما كون تيمّم الجنب كتيمم المُحدث، فلما سقط مسح الرأس والرجلين بالتراب عن المُحدث سقط مسح البدن كله بالتراب عنه بالطريق الأولى، إذ في ذلك من المشقة والحرج والعسر ما يناقض رخصة التيمّم، ويدخل أكرم المخلوقات على الله في شعبة البهائم إذا تمرّغ في التراب، فالذي جاءت به الشريعة، لا مزيد في الحسن

والحكمة والعدل عليه، ولله الحمد». وكذلك في حكمة مشروعية مسح الرأس في التيمم، وبيان حكمة القراءة جهراً في الجمعة والعيدين، وحكمة قضاء الصيام على الحائض دون الصلاة، وحكمة وجوب الشاتين في عقيقة الغلام، والشاة الواحدة في عقيقة البنت.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب قد تُرجم إلى اللغة الإنكليزية، ونالت هذه الطبعة قبولاً وإعجاباً لدى أوساط المثقّفين والمقيمين في أوروبة والبلاد الغربية، وأشادوا بالكتاب وأثنوا عليه.

* * *

٩ ـ نهاية الإدراك في أقسام الإشراك

هذه رسالة صغيرة الحجم، كثيرة المعاني، وهي في أصلها جواب لسؤال موجَّه إلى حكيم الأمة التهانوي رحمه الله حول بيان مراتب الإشراك بالله، وما هو الشرك المراد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨].

وهل توجد هناك مرتبة أو درجة من الشرك يكون فيها إشراك البعض من غير الله منافياً للنجاة، وإشراك البعض الآخر معه غير مناف للنجاة؟ مثلاً: السجود أمام قبور الصالحين بنية خاصة، أو بقصد طلب الحوائج منهم ـ كما يفعله المبتدعة ـ، وفي مقابله السجود أمام الأصنام والأشجار، والنذر لهم بنفس النية السابقة.

فهل يمكن أن يكون السجود أمام قبور الصالحين ـ بما لهم عند الله من مكانة وقبول خاص ـ غير منافٍ للنجاة؟ بينما يكون السجود أمام الأصنام والأشجار منافياً لها؟.

وإذا كان الجواب بلا، فما هو سبب التفريق بينهما؟ ومعلوم أن مشركي مكة أيضاً كانوا يعتقدون أنَّ الأصنام أقل مكانة وأصغر درجة من الله، بل كانوا يعتبرونها وسيلةً للتقرّب إلى الله، كما حكى الله عزَّ وجلّ عنهم: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]. إذن ما هي حقيقة الشرك؟ بيِّنوا تؤجروا.

كانت هذه هي القضيـة الأساسـية التي وُجّهت إلى الشـيخ رحمـه الله، فأجاب عليها بجواب يشفي العليل ويُروي الغليل، وذلك في ضوء الكتاب والسنّة وأقوال سلف الأمة، مستفيداً في ذلك من مصادر ومراجع علمية موثوق بها، معتمد عليها لدى أصحاب هذا الشأن وأهل هذا الفن، وعوَّل كثيراً على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه النجيب الإمام ابن القيم رحمهم الله، أمثال كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية، وكتاب (إغاثـة اللهفان من مصائـد الشيطان) لابن القيم، وكتـاب (مدارج السالكين شرح منازل السائرين) له أيضاً. وسمَّى هذه الرسالة بـ(نهاية الإدراك في أقسام الإشراك)، ومما يجدر بالذكر أنَّ العلاّمة ظفر أحمد العثماني (صاحب إعلاء السنن) كان قد تفضَّل مشكوراً بإضافة بعض التعليقات النافعة والهوامش المفيدة عليها، فازدادت قيمة وعلماً وتحقيقاً.

ولعلَّ ملخَّص الكلام في هذا الموضوع هو ما ذكره العلاَّمة ظفر أحمد العثماني في هامش الرسالة إذ قال: قلت: فتلخَّص لنا من هذا التفصيل أنَّ أسباب الشرك متعددة:

الأول: اعتقاد كون الشيء شريكاً لله تعالى في الألوهية والوجوب، ولا قائل به سوى الوثنية.

الثاني: اعتقاد كون الشيء مدبِّراً في العالم، واسطة بينه وبين الله تعالى، مؤثِّراً في العالم بالذات، أي بإرادته من غير احتيـاج إلى إرادة الله، وذلـك لتفويض الله ذلك إليه، كما هو اعتقاد عبدة الكواكب، وبعض عبدة الأوثان.

وأما اعتقاد كونه مُدبِّراً مؤثراً محتاجاً في تدبيره وتأثيره إلى مشيئة الله تعالى وإرادته فليس ذلك بشرك، لقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] وكذا اعتقاده كونه واسطة بينه وبين الله تعالى، كذلك ليس بشرك، لكون الملائكة والرسل وسائط بين العباد والخالق في المعرفة والأحكام، وكون بعض الملائكة وسائط في الأمور التكوينية لا يخفى على من طالع النصوص والأحاديث.

الثالث: السجود لشيء مع تسميته إلـٰهاً، من غير اعتقاد كونه مؤثراً ومدبّراً بالذات، كما هو شأن بعض من عبدة الأوثان.

الرابع: اعتقاد كون الله تعالى جسماً وفي مكان، ودخل فيه اعتقاد الولد والصاحبة لكونه من خواصّ الجسم.

الخامس: اعتقاد كون الشيء سوى الله تعالى نافعاً وضاراً بالذات، أي من غير احتياجه إلى إذن الله تعالى في ذلك، كما هو اعتقاد أصحاب الطلاسم.

السادس: اعتقاد حلول الرب في شيء.

السابع: اعتقاد كون الشيء شفيعاً له عند الله تعالى، وفيه تفصيل سيأتي.

فالعبادة هي إظهار غلبة الذل والخشوع لشيء، مع اعتقاد من تلك الاعتقادات فيه، مرجعه إلى ما ذكرناه من قبل، أن العبادة غاية الحب بغاية الذلّ والخضوع، مع الشعور بأن للمعبود سلطةً غيبية فوق الأسباب، يقدر بها على النفع والضر، وليس السجود لشيء عبادة مطلقاً، لكون الملائكة سجدوا

لآدم، ولكون إخوة يوسف وأبويه خرّوا له سُجّداً.

والظاهر الأصحّ أنّ هذا السجود (سجود إخوة يوسف وأبويه له) كان بوضع الجبهـة على الأرض، كما هو المتبادر منه لغةً، لكنه لم يكن مقترنـاً باعتقاد من الاعتقادات المذكورة، بل كان لمحض التحية والإكرام، وكان ذلك جائزاً قبل، ثم نُسخ في شرعنا، ولذا قال العلماء: إن سجود التحية حرام، وسجود العبادة لغير الله كفر.

وبعـد ذلك فلنتأمّـل في أحوال سـاجدي القبور، إنهم بـأي فريق من المشركين يتشبهون؟ فالظاهر من أحوالهم كونهم مشابهين للذين إذا مات منهم رجـل صالح يعتقدون فيـه أنه مسـتجاب الدعوة، ومقبول الشـفاعة عند الله تعالى، اتخذوا له صنماً على صورته، وعبدوها على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون شفيعاً لهم يوم القيامة عند الله تعالى، ويقولون: هؤلاء شفعاء عند الله، غير أن ساجدي القبور لا يتّخذون صنماً على صورة بخلاف المشركين.

نعم كلاهما يشتركان في السجود لهذا الرجل ظاهراً، وفي اعتقاد كونه شفيعاً باطناً، وقد مرَّ آنفاً أن السجود ليس بشرك مطلقاً، ولو كان من أكبر الكبائر.

اعتقاد الشفاعة في أحد هل هو شرك مطلقاً أم فيه تفصيل؟:

فلا يخفى لمن طالع النصوص، ومارس الأحاديث أن اعتقاد الشفاعة في أحد ليس بشرك مطلقاً، لثبوت الشفاعة للأنبياء، ولحَمَلَة القرآن، والأولياء، يوم القيامة بعد إذنه تعالى في ذلك.

ثم علّق رحمه الله على كلام الإمام ابن القيم رحمه الله (حول موضوع الشفاعة وما أثبته الله تعالى منها وما نفاه وأبطله)[1] فقال:

قلت: وبعد ذلك فلا يجوز الحكم على ساجد القبور بالكفر والشرك الأكبر بمجرد اعتقادهم في أصحاب القبور، أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، ما لم يُستَفْسَروا عن كيفية اعتقادهم ذلك، وأما قبل الاستفسار فيلزم العمل بما قاله العلماء: إن قول القائل: «أنبت الربيع البقل» محمول على الإسناد الحقيقي إن كان دهرياً، وعلى الإسناد العقلي المجازي إن كان موحِّداً، فكذا القول: «بأنهم شفعاؤنا عند الله» يحمل على الشفاعة الشركية إن كان القائل غير مسلم، وعلى الشفاعة الشرعية إن كان مسلماً.

وكذا القول بأن فلاناً يضرّ وينفع، يُحمل على الضر والنفع بالذات إن كان كافراً جهاراً، وعلى الضر والنفع بإذن الله للكرامة التي أعطاه إياها إن كان مؤمناً موحِّداً مُقرّاً بالإسلام، هكذا ينبغي أن يفهم المقام، والحمد لله الملك المِنعام.

لعلّك عرفت بالتفصيل الذي ذكره العلاَّمة ابن القيم أنَّ مرجعه ما قاله الشيخ في بيان الفرق في اعتقاد التأثير وعدمه، فالمشرك يعتقد شفاعةَ معبودِهِ مؤثرة، لما له من القدرة المستقلّة في زعمه، والموحِّد المعظِّم للقبور لا يعتقدها مؤثرة، ولا يعتقد الشافع ضاراً ولا نافعاً، وإنما يعتقد عدم التخلف في شفاعته

---

(١) انظر كلام العلاَّمة ابن القيم رحمه الله في (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان): ١/ ٢٢٠، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، دار المعرفة ـ بيروت.

للكرامة التي هي له عند الله، وهذا ليس بشرك، وإن كان معصية، فافهم[1].

أما كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي أشار إليه المؤلف في الموضوع قائلاً: يراجع ذلك في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم)[2] ، فإنه ذكر موضوع تعظيم القبور، واتخاذ القبور مساجد في غاية التشديد والتهديد، إلا أنه لم يحكم عليهم بالكفر والشرك، بل شبَّههم بالمشركين، وقد ورد في الحديث الشريف: «لعن الله أقواماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3]، وكذلك قوله ﷺ: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعْبَد»[4].

* * *

---

(١) هامش إمداد الفتاوى: ٦/ ٨٨ـ ٩٠.

(٢) انظر: (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم): ١/ ٣٣٢، تحقيق: الدكتور ناصر العقل، ط. دار العاصمة، المملكة العربية السعودية ـ الرياض.

(٣) رواه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، برقم (٢٠١٩)، بلفظ: «قوماً»؛ وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، (٤٣٦)، بلفظ: «لعنة الله على اليهود والنصارى...» الحديث؛ وكتاب الجنائز، برقم (١٣٩٠)؛ وكتاب الأنبياء، برقم (٣٤٥٤)، ونحوه؛ مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، (٥٢٩) و(٥٣٠).

(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ: ١/ ١٧٢، (٤١٤)؛ وابن أبي شيبة في المصنّف: ٢/ ١٥٠، (٧٥٤٤)، ٣/ ٣٠، (١١٨١٩)؛ وعبد الرزاق في المصنّف: ١/ ٤٠٦، (١٥٨٧).

١٠ ـ إصلاح الرسوم

إنَّ إصلاح المجتمع، وتطهيره من أنجاس البدع، وتنقيته من أرجاس التقاليد الجاهلية والعادات والطقوس غير الإسلامية كان الشغل الشاغل لحكيم الأمة التهانوي رحمه الله، وهمّه الأول والآخر، كيف لا؟ وقد أكرمه الله تعالى واصطفاه لكي يقوم بين الناس رافعاً لواء التجديد، مصلحاً، ربّانياً، باذلاً كل جهده، ومنفقاً جميع طاقاته في سبيل إحياء الدين، والسنة النبوية، وإماتة البدع، واستئصال جذور الخرافات والعقائد الفاسدة.

إنَّ هذه الرسالة ـ إصلاح الرسوم ـ التي نعرّف بها القراء الكرام في هذه الأسطر القليلة، تأتي في إطار تلك الخدمات الإصلاحية، والجهود الدعوية التي قام بها الشيخ التهانوي، فإن نطاق جهوده هذه لا يقتصر على صنع الرجال، وتهذيب النفوس، وإيجاد جيل من المصلحين الداعين العاملين في مجال إيقاظ الوعي الديني، وترشيد الصحوة الإسلامية، وإنما يشمل كذلك تأليف الرسائل الدعوية، وكتابات المقالات والبحوث في هذا الباب، وكتابه (إصلاح الرسوم) ليس إلا جهداً ملموساً ودرّةً ذهبية من هذه السلسلة المباركة، وعنوان الكتاب خير دليل على محتوياته، ولنترك القرّاء مع مقدّمة المؤلف:

يقول رحمه الله: «إننا نشاهد بأم أعيننا أنَّ معظم المسلمين في عصرنا الراهن ألزموا أنفسهم المواظبة على العادات والتقاليد والطقوس التي اخترعوها بأنفسهم أو ورثوها عن آبائهم وتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، أكثر بكثير مما فرض الله تعالى عليهم من الفرائض والواجبات، وما شرع لهم نبيّهم ﷺ من السنن والمندوبات، وقد وصلت شدة تمسكهم بالعادات والتقاليد إلى درجة أنهم إذا فاتتهم فرائض الله لا يهمهم شيئاً ولا يحرّك فيهم ساكناً، لكنهم لن يرضوا أن يقع أي نوع من النقصان في القيام بتلك العادات والتقاليد، وهذا هو السبب الرئيس لمعاناتهم شتى أنواع المصائب، وأصناف المشكلات، وخسرانهم في الدنيا والآخرة، ولم يقتصر الأمر على ما ذكرنا، بل إنهم غرقوا في حُبِّ هذه العادات عُمياً وصُمّاً وبُكماً، دون أن يخطر على بالهم شفاعتها ومفاسدها، بل بالعكس بدؤوا يعتقدون أنها أعمال ثواب وخير.

ونظراً إلى هذه الأوضاع السيئة لعامة المسلمين الذين أسرتهم أواصر التقاليد العمياء، وربطتهم أغلال العادات والطقوس، ومست الحاجة إلى النهوض براية الإصلاح، ورفع عَلَمِ الدعوة والإرشاد، فبدأتُ في تأليف هذه الرسالة ـ عسى الله أن ينفع بها العباد ـ وقسّمتها إلى ثلاثة أبواب، وكلّ باب يحتوي على عدة فصول؛ وها أنا أسمّيها (إصلاح الرسوم) وأبدؤها متوكّلاً على واهب العلوم».

أهم المباحث والأبواب التي تضمّنتها الرسالة:

١ ـ الرقص والطرب والموسيقى، وجملة من المعاصي والعادات

الجاهلية التي تعوّد عليها عامة المسلمين في مختلف مناسبات الفرح والأعياد، مثل الزواج وغيره.

يقول المؤلف رحمه الله: «إنَّ الاهتمام بحفلات الرقص والغناء في حفلات الزواج يؤدي إلى ارتكاب عدد من الأشياء المحظورة، منها:

- النظر إلى غير المحارم؛ وهذا يعني: زنى العين.

- السماع إلى الأغاني المحرَّمة؛ وهذا يعني: زنى الأذن.

- التحدّث إلى غير المحارم؛ وهذا يعني: زنى اللسان.

- ميلان القلب إلى غير المحارم؛ وهذا يعني: زنى القلب.

- لمسهن والاختلاط بهن؛ وهذا يعني: زنى اليد.

وقد ورد هذا المضمون في الحديث الشريف بكل صراحة، كما رواه البخاري في صحيحه[1]، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه في حديث طويل، وفيه: «وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنّور فإنهم الزناة والزواني...» الحديث.

- إشراك الآخرين في أعمال المعصية، والعادات المستوجبة للفسق وأنواع من الذنوب والآثام، وذلك عن طريق توجيه الدعوة إليهم للمشاركة في مثل هذه الاحتفالات.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، (٧٠٤٧).

ـ إيذاء الجيران بأصوات المزامير والمعازف، وآلات اللهو والطرب، وقد يسبب ذلك تضييع الفرائض عن أوقاتها المكتوبة، والإخلال في صلواتهم وعباداتهم.

ـ إذا اعتاد القلب على مثل هذه المعاصي فإنه بدل أن يشعر بشيء من الخجل أو الندم على اقترافها، يظل ينبسط على ذلك ويشعر بالفرح والسرور منه، وتزول منه مهابة المعاصي، وما يترتب عليها من العذاب والعاقبة الوخيمة وسوء المصير، ولا شك أنَّ هذا أمر خطير للغاية.

ـ إن بعض الناس يتباهون بارتكاب هذه المعاصي، ويفتخرون بها، ويعتقدون أنهم كلما ازدادت فيهم هذه الأنواع من الذنوب والمعاصي ارتقت درجاتهم، وسمت مكانتهم وارتفع شأنهم، ومما لا شك فيه أنَّ هذا من قبيل الاستخفاف بالمعاصي، بل استحسانها، الأمر الذي يوجب زوال الإيمان، كما قرّره العلماء.

ـ ارتكاب معصية (الإسراف) والتعاون على الإثم والعدوان.

ـ إنَّ الذين لا يشاركون في هذه المحافل مباشرة، لكنهم يرسلون إلى أصحابها والقائمين عليها برسائل التبريك والتهاني، فهم يشاركونهم في الإثم والوزر. روى الإمام أبو داود في (سننه) عن العرس بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: «إذا عُمِلَت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة: أنكرها ـ؛ كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها؛ كان كمن شهدها»[1].

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، (٤٣٤٥)؛ وصحّحه السيوطي في=

٢ ـ لعب الشطرنج والزجل والجري وراء الحمام، والتحريش بين البهائم، والأحاديث الواردة في التحذير منها. «عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة، فقال: شيطان يتبع شيطانة»[1].

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن... وفيه: ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[2].

٣ ـ الاشتغال بالألعاب النارية وتضييع المال فيها، وجعل الأنفس عرضة للخطر وإلقاؤها في التهلكة.

٤ ـ حلق اللحية أو قصّها إلى أقل من قبضة، وإعفاء الشارب، وبيان الأحاديث الواردة في ذلك، وكذلك تشبّه النساء بالرجال، والعكس، وتغيير

= الجامع الصغير، (٧٦٦)؛ وأورده المتقي الهندي في كنز العمال برقم (٥٥٣٧).

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، (٤٩٤٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ١٩ و١٠/ ٢١٣؛ وفي شعب الإيمان: ٥/ ٢٤٤، (٦٥٣٤)؛ وابن ماجه في سننه، باب اللعب بالحمام (٣٧٦٥)؛ وأحمد في مسنده: ٢/ ٣٤٥، (٨٥٢٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، (٢٤٧٥)، وكتاب الأشربة، (٥٥٧٨)، كتاب الحدود، (٦٧٧٢)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (٥٧)؛ والنسائي في سننه، كتاب قطع يد السارق، (٤٨٧٠)، وكتاب الأشربة: (٥٦٥٩ و٥٦٦٠)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، (٣٩٣٦).

خلق الله، واستخدام الخضاب الأسود.

٥ ـ القزع والإسبال، والأحاديث الواردة في الموضوع.

٦ ـ تعليق صور الحيوان في البيت، ورعي الكلاب دون حاجة شرعية.

٧ ـ البدع المرتكبة بمناسبة (العقيقة) و(الختان) و(الخِطبة) و(الزواج)، وقد أسهب المؤلف رحمه الله في هذا الموضوع، وفصّل تفصيلاً مفيداً، واستعرض كل ما يقوم به الناس عموماً في شبه القارة الهندية، تاركين السنة، عاضّين على التقاليد والطقوس غير الإسلامية بالنواجذ، وحذّر منها تحذيراً شديداً.

٨ ـ الاحتفال بمولد النبي ﷺ، وقد قسّمه المؤلف إلى ثلاثة أقسام مع بيان حكم كل واحد على حدة، وإلى القارئ الكريم ملخّص ما قاله رحمه الله:

القسم الأول: الاحتفال الذي يكون مطلقاً عن القيود الشائعة المتعارفة بين الناس، مثلاً: لم يكن هناك دعوة خاصة موجَّهة إلى الناس بهذا الخصوص، بل إنهم اجتمعوا مصادفة، ، أو لغرض آخر، ثم قام البعض منهم بذكر سيرة النبي الكريم ﷺ العطرة المباركة، ومحاسن أخلاقه الطيبة وشيئاً من شمائله ومعجزاته، وتخلل ذلك التواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا النوع من الحفل جائز ومباح دون أي نكير، فإن النبيّ ﷺ قد تحدَّث إلى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين عن أحواله وأخلاقه، وتتابع الصحابة رضي الله عنهم بروايتها لمن جاء بعدهم، وما زالت هذه الطريقة مستمرة بين المحدّثين.

القسم الثاني: الاحتفال المقيّد بقيود غير مشروعة، وهذه القيود في حدِّ ذاتها إما قبيحة أو معصية، مثلاً: ذكر الروايات الموضوعة والمختلقة على النبي ﷺ أو الاهتمام بإنشاد القصائد الغزلية وغيرها، يُنشدها المُرد والفتيان والأحداث من ذوي الألحان والأصوات الحسنة، أو إنفاق المال الحرام فيه، والاعتناء البالغ بالمظاهر وأمور التباهي والتفاخر؛ مثل: الإكثار من الأضواء، واستخدام أرقى أنواع الزخارف، والفرش الرائعة، أو يؤدّي ذلك إلى فوات الصلاة أو صلاة الجماعة، أو غلبة الظن في ذلك، أو تكون نيّة مدير الاحتفال والقائم به أو المسؤول عنه هي كسب الشهرة والصيت بين الأنام، أو يعتقد أن الرسول ﷺ يحضر الحفل بنفسه، أو يعتقد أي أمر يخالف الشرع الإسلامي والقواعد التي يقوم عليها ديننا الحنيف، فهذا النوع من الاحتفال حرام شرعاً، وذنبٌ عظيم ومعصية كبيرة، يعاقب عليها صاحبه.

يقول الرسول ﷺ: «من كذبَ عليَّ متعمّداً فليتبوَّأ مقعده من النار»[1].

القسم الثالث: الاحتفال الذي يكون بين القسمين السابقين، فلا يكون مطلقاً عن القيود كلياً، ولا يكون مقيداً بالقيود المحرَّمة، والأعمال المحظورة شرعاً، بل يكون مُطهَّراً من المعتقدات الباطلة، بعيداً عن المنكرات والخرافات.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، (١٠٧)؛ وكتاب الجنائز، (١٢٠٩)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المقدمة، (٤ و٥)، وكتاب الزهد والرقائق، (٥٣٢٦).

فمثل هذا النوع من الاحتفال إن كان يلزم منه وقوع فساد أو ضرر ديني فيكون محظوراً، وإن لم يلزم منه وقوع أي فساد أو ضرر ديني فيبقى مباحاً جائزاً، وثمة خمس قواعد وأصول لا بدّ من معرفتها والتركيز عليها، وفي ضوئها يتبيَّن لنا حكم النوع الثالث من الاحتفال.

القاعدة الأولى: «تنزيل عمل ما منزلة الفرائض والواجبات أو فوقها».

فإن اعتقد شخص أن عملاً فلانياً من الأعمال المهمة والمؤكّد عليها في الدين، وظلّ يواظب عليه بشكل دائم مثل الفرائض والواجبات الشرعية أو أكثر منها، ويعتقد أن تركه أمر مذموم يستحق تاركه اللوم والعتاب، فهذا أمرٌ ممنوع ومحظور عليه، لأنه يؤدّي إلى معارضة الحكم الشرعي، وتجاوز حدوده.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يجعل أحدكم للشيطان شيئاً من صلاته، يرى أنَّ حقاً عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه، لقد رأيتُ النبيَّ ﷺ كثيراً ينصرفُ عن يسارِه»[1].

يقول الشيخ الطيبي شارح (المشكاة): «قد دلَّ الحديث على أنَّ أحداً، لو أصرَّ على أمر مندوب ومستحبّ، واعتقده عزيمة ومؤكدة، ولم يعمل بالرخصة، فإن الشيطان ينال منه حظّه من الإضلال، فما بالك بالشخص الذي يصرّ على بدعة، أو يواظب على أمر منكر مخالف للشرع».

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، (٨٥٢)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، (٧٠٧)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، (١٠٤٢) وغيرهم.

وقال صاحب (المجمع): «يُستنبط من الحديث أن المندوب يصل إلى درجة الكراهة إذا خيف من أنه سوف يُنزَّل منزلة الواجب أو المؤكد» وعلى هذا منع الحنفية من تعيين سورة خاصة في الصلوات، وهذا ما يدل عليه ما رواه مسلم في (صحيحه) عن الرسول ﷺ: «لا تختصّوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصّوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم»[1].

القاعدة الثانية: «العمل المباح بل المستحب قد يتحول إلى منهي عنه وغير مشروع لاقترانه بعمل غير مشروع» مثلاً: الذهاب إلى الولائم: أمرٌ مندوب ومسنون، ولكن يمنع عن الذهاب إليها إذا كانت هذه الدعوة تتضمن أعمالاً غير مشروعة مخالفة للشرع، ومعارضة للدين، كما ورد في الأحاديث، وكذلك صلاة النوافل: أمر مندوب ومستحب، ولكنّها تتحول إلى غير مشروع في الأوقات المكروهة.

القاعدة الثالثة: «العمل المباح والمندوب الصادر من الخواصّ إذا تسبب في إفساد عقيدة العامة فإنه يتحول إلى مكروه وغير مرغوب فيه في حق الخواص كذلك». وذلك لأن تجنّب عامة المسلمين من الوقوع في الضرر واجب ديني وأمر ضروري، وينبغي للخواص أن يتركوه ويتنحّوا عنه.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، (١١٤٤)؛ ورواه البخاري في صحيحه باختصار، كتاب الصوم، (١٩٨٥).

والدليل عليه ما ورد عن النبي ﷺ في قصة إدخال الحطيم داخل بناء بيت الله (الكعبة المشرّفة)، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألتُ النبيَّ ﷺ عن الحِجْر، أَمِن البيت هو؟ قال: «نعم»، قلت: فما لهم لم يُدخلوه في البيت؟ قال: «إنَّ قومَكَ قصَّرت بهم النفقة»، قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومكِ حديثٌ عهدُهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الحِجْر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض»[1].

وما ورد عن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما قوله بخصوص صنع الطعام لأهل الميت، كان سنّة، لكن لما بدأ الناس يعتبرونه عادة تُرك، قال رضي الله عنه: فما زالت سنّة حتى كان حديثاً فتُرِك[2].

كذلك الحال في سجدة الشكر، فإنه عمل مباح، وقد ورد ذكرها في الأحاديث، ولكن كرهها بعض الفقهاء الأحناف، كما ذكره العلاّمة ابن عابدين الشامي رحمه الله، مخافة أن يظنّها عامة الناس سنة مقصودة.

القاعدة الرابعة: «المسألة التي تكون فيها الكراهة عارضة ومؤقتة قد يتغير حكمها باختلاف الزمان والمكان»، واختلاف تجارب ومشاهدة أصحاب الإفتاء، بمعنى أنه يمكن أن يحكم بإباحة شيء في زمن ما لانعدام أسباب

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، (١٥٨٤)؛ ونحوه في صحيح الإمام مسلم، كتاب الحج، (١٣٣٣).

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب ما جاء في الجنائز، (١٦١١).

الكراهة، بينما يحكم بكراهته في زمان آخر لوجود أسباب الكراهة، أو يحكم بالجواز في مكان دون مكان. وكُتب الفقه الإسلامي غنية بنماذج وأمثلة لهذا النوع من المسائل، وها نحن نرى أن رسول الله ﷺ قد سمح للنساء بالصلاة في المساجد في زمنه لانعدام احتمال الفتنة، ولكنّ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لما شهدوا الظروف المتغيرة، والأوضاع المختلفة منعوا من ذلك.

القاعدة الخامسة: «الغاية لا تبرر الوسيلة»:

لو قام أحد بعمل غير مشروع، ونوى به حصول بعض المصالح والمنافع التي لا يلزم شرعاً نيلها والحصول عليها، أو كان هناك طرق أخرى يمكن اختيارها واستخدامها للحصول على تلك المنافع، فهذا العمل غير المشروع لا يجوز.

وذلك لأن العمل المباح والجائز قد يتحوّل إلى عبادة بحسن النية وصدق الإخلاص، ولكن لا يمكن أن تتحول المعصية إلى مباح حتى لو تضمّنت آلاف المصالح والمنافع، ولا يجوز ارتكابها ولا السكوت عليها، وهذه قاعدة بديهية، مثلاً: لو جاء أحد يجمع المال بطرق غير شرعية؛ مثل: القهر والظلم والغصب والنهب، بنيّة أنه سيقوم بتوزيعه بين الفقراء والمحتاجين والمساكين، ويساعد به المعسرين، فلن يجوز هذا الظلم أو الغصب أبداً، حتى ولو تضمن ذلك مئات الآلاف من الفوائد والمنافع.

خلاصة القول في الاحتفال بعيد ميلاد النبي ﷺ:

وفي ضوء هذه القواعد يتبيَّن لنا الواقع في مسألة الاحتفال بمولد النبي ﷺ، وبالنظر إلى القاعدة الثانية فإنَّ هذا العمل المباح يتضمن عدة مفاسد

ومضار، والتجربة خير شاهد على ذلك، فإن عامّة الناس يعتبرون القيود المبتدعة في مثل هذه المحافل من الأمور اللازمة، ويظنون أنه مثل المعلوم من الدين بالضرورة، بل إنهم في بعض الأحيان يعتقدون أن العمل به آكد وأولى من فرائض الدين الأخرى، وهذا ما يشهد عليه اهتمامهم الكبير، واعتناؤهم البالغ والفائق برعايته وتنظيمه والإعداد له أكثر بكثير من الفرائض الشرعية، والواجبات الدينية، مثل: الصلوات والجُمع والأعياد.

ومما يزيد الطين بلّة أن أحداً، لو نصحهم وأرشدهم إلى الحق الصواب، وبيّن لهم الحكم الشرعي قاموا يهجمون عليه، ويؤذونه بشكل أسوأ وأقبح من طعن الكفار والمبتدعين والفسّاق. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الاحتفال لم ينقل عن السلف الصالح حتى ولو مع مراعاة جميع القيود الشرعية والضوابط الدينية.

إذن فالأولى والأفضل والأحوط من حيث الدين والورع تجنّب هذه الحفلات بكافة أشكالها، لأنها ليست من ضروريات الدين، ولا يتوقف عليها أمر من أمور الشرع، بل يغلب على الظن أنها قد تُفضي إلى اقتراف البدع والمحرّمات. والله تعالى أعلم، وعلمه أتم وأحكم.

تفنيد بعض الشُّبهات الواردة في الموضوع:

قد يُشكل بعض الناس ويقولون: إن العلماء الكبار والفقهاء العظام أمثال: الحافظ السيوطي، والعلاّمة الحافظ ابن حجر العسقلاني، والمُلاّ علي القاري وغيرهم رحمهم الله، قد أثبتوا ذلك، فيُجاب عليهم:

أولاً: إن العلماء الآخرين الذين كانوا في عصورهم قد خالفوهم في رأيهم هذا.

ثانياً: وبصرف النظر عن ذلك، فإن المفاسد والمضار التي توجد في عصرنا، لم تكن في عصورهم، فلوا كانوا في عصرنا هذا، ورأوا ما نراه؛ لمنعوا ذلك.

ويقول البعض: إن علماء الحرمين اتفقوا على جوازه، فنقول:

أولاً: هذا الاتفاق غير مُسلَّم.

ثانياً: إنهم أفتوا بجواز القيود المباحة، لكنهم لو اطّلعوا على تلك المعتقدات الباطلة، والمفاسد التي من أجلها نحن نُنكر ذلك، لأنكروا ذلك.

ويقول البعض الآخر: إن معظم العلماء قالوا بالجواز.

فنقول:

أولاً: لم يقم أحد بإحصاء جميع علماء الدنيا.

ثانياً: إنّ المفسدة التي بسببها نقول بالمنع، لم يُجوّزها أحد من العلماء، لا الكثير ولا القليل.

وهكذا هناك شبهات ركيكة أخرى لا تنبني على دليل، ولا تستند إلى برهان لسنا في حاجة إلى الإطالة فيها، والله تعالى أعلم.

٩ ـ من هذه البدع والعادات الجاهلية: الاحتفال بذكرى أولياء الله،

والاجتماع على ضرائح الصالحين، والقيام بالفاتحة المروّجة، وعقد المجالس هناك.

وقد تناول المؤلف رحمه الله هذا الموضوع كذلك بشيء من التفصيل والإطناب، وبيّن أنها لا تمتّ إلى الدين بصلة لا من قريب ولا من بعيد، وكان في كل ذلك مستشهداً بآيات من الذكر الحكيم، وأحاديث وسنن سيّد المرسلين ﷺ، كما تطرّق رحمه الله لمسألة التوسّل والوسيلة، وما وقع فيه عامة الناس فريسة الجهل والضلال.

١٠ ـ من هذه البدع والعادات والتقاليد: ما يصنع من الحلويات، وتطبخ أنواع الأطعمة الخاصة في ليلة الخامس عشر من شعبان، وفي الأعياد، وكذلك في العاشر من المحرم الحرام.

وتناول المؤلف هذه البدع كلها واحدة تلو أخرى، وبيّن للناس الطريق الصحيح، وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، وحذّرهم من الوقوع فيما يضرّ بدينهم ودنياهم.

١١ ـ البدع والتقاليد التي سادت المجتمع عند تجهيز الموتى ودفنهم.

١٢ ـ البدع المرتكبة في شهر رمضان المبارك.

١٣ ـ زيارة الأشياء المتبرّكة والأماكن المقدّسة، والبدع فيها.

١٤ ـ بدع تزيين المساجد وزخرفتها.

١٥ ـ عدم توزيع الميراث في صنف النساء.

هذه كانت أهم الفصول والأبواب التي تضمَّنها هذا الكتاب القيّم النافع، رحم الله المؤلف، ونفع به العباد والبلاد.

* * *

١١ ـ تمهيد الفرش في تحديد العرش

هذه رسالة نافعة في بيان عقيدة السلف في إثبات صفة الاستواء لله تعالى، وحمله على الحقيقة، وقد صرّح فيها المؤلف أنه رجع عن قوله الأول الذي قال فيه بحمل الاستواء على الكناية، وها هو نص كلامه:

«لقد كنت فسّرته بحملي إياه على الكناية عن التدبير، كما يؤيده قوله تعالى في بعض الآيات بعد الاستواء: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وإنما حملته عليها لسهولة فهمه للعوام، والأرجح حمله على الحقيقة وتفويض حقيقتها إلى الله تعالى».

وأضاف قائلاً: «هذا هو الذي عليه جمهور السلف، من حمل الاستواء على الحقيقة، ثم تفويضها إلى الله تعالى، والمنع من الخوض فيها، وهذا المنع معقول؛ لأن إدراكنا قاصر عنه، كما يمنع الأكمه عن الخوض في كنه اللون بعين هذه العلة، وإياك أن تقيس استواءه على استوائك، **لأن الصفة تختلف حقيقتها باختلاف الموصوف، كما أنَّ استقرار زيد على شيء يغاير بكنهه استقرار الرأي على أمر**، كما أنَّ طول الخشب **يغاير** بكنهه طول الليل، مع كون كل من الاستواء والطول حقيقياً، وإذا كان المستوي غير معلوم الكنه، فكان الاستواء لا محالة غير معلوم الكنه، فأي وجه لقياس مجهول الكنه على معلوم الكنه».

ثم ذكر رحمه الله عدداً من الحِكَم لبيان الاستواء، ومنها:

١ ـ **الحكمة الأولى**: تتأيد بقوله تعالى في سورة [غافر: ١٥]: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، لأنه يتبادر منه أنَّ المقصود من ذكر كونه ذا العرش كونه رفيع الدرجات.

٢ ـ **الحكمة الثانية**: تتأيد بقوله تعالى بعد ذكر الاستواء هاهنا: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي سورة [يونس: ٣]، و[السجدة: ٥] بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

٣ ـ **الحكمة الثالثة**: تقريب الطريق على العباد، فذكر لعباده أنه استوى على العرش حتى يقصدوه بالدعاء لطلب الحوائج، فكان ذلك من جملة رحمته بعباده، والتنزل لعقولهم، ولولا ذلك لبقي صاحب العقل حائراً، لا يدري أين يتوجّه بقلبه.

كما ذكر رحمه الله المواضع السبعة من القرآن الكريم التي ذُكر فيها الاستواء، وشرحها شرحاً وافياً.

وقال في آخر الرسالة: «هذا كله كان على مذهب السلف، واختار الخلف مسلك التأويل لمصلحة سهولة فهمه للعوام، ولهذا التأويل وجوه؛ أقربها إلى العربية وأوفقها بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ونحوه، حمله على التدبير، فقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ تفسير للاستواء عند الخلف، وبيان للحكمة عند السلف كما قررته آنفاً، ولا يرد على الخلف أن الملك لم يزل لله تعالى، فما معنى تأخره عن خلق العالم؟ لأني أقول: إن المراد التدبير الخاص

في السموات والأرض، وظاهرٌ أنه يتأخر عن خلقهما، ولا يلزم منه حدوث الصفة، بل حدوث الفعل، ولا محذور فيه، فافهم.

وقد كنتُ كتبتُ قبل هذ مذهب الخلف في المتن بصورة التفسير، ومذهب السلف في الحاشية مع التصريح برجحانه، وغيّرت الآن إلى العكس، بإشارة بعض أهل العلم، وإن لم يكن من أهل الحلم، لاعتدائه في إلقائه، لكن عفوت وصفحت، ورضيت بما قد قدر، ونظرت إلى ما قيل: «**خذ ما صفا ودع ما كدر**». والله الهادي إلى الرشد، وهو العزيز المقتدر[1].



(١) إرشاد الفتاوى: ٦/ ٢٥ـ ٥٥؛ بوادر البوادر: ٢/ ٦٢١ـ ٦٢٨.

١٢ ـ جزاء الأعمال

هذه رسالة قيّمة صغيرة الحجم، لكنها تحمل في طيّاتها أسمى المعاني وأهم المباحث المتعلقة بجزاء الأعمال، والثواب عليها في حالة الإتيان بها بطريقة شرعية ومنهج مشروع، أو العقاب عليها إذا كان الأمر عكس ذلك.

يقول المؤلف رحمه الله في مقدمة الرسالة:

«الحمد لله الذي تُجلَبُ النعم بطاعته، والنقم بمعصيته، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد نبيّه، الذي جعل العزّ لمن والاه، والذلّ والهوان على من عاداه، وعلى آله وأصحابه الذين اتّبعوه في المنشط والمكره، واليسر والعسر، رضي الله تعالى عنهم، ووفّقنا للتأسّي بهم، وبعد؛ فيقول العبد الفقير: إن أحوالنا اليوم لا تخفى على أي أحد، وتكاسلنا في أمور الطاعات، وتهاوننا بالأعمال الصالحة، وعكوفنا على المعاصي، واشتغالنا بالملاهي والسيئات، أصبح أمراً بيّناً.

وقد بدا لنا بعد إمعان النظر في حقيقة الأمر أن من أهم أسباب هذه المعضلة والآفة هو اعتقاد وقوع جزاء الأعمال ـ الحسنة والسيئة ـ في الآخرة فقط، وغاب عن البال أن بعض آثار هذه الأعمال الحسنة منها والسيئة قد تظهر في هذه الدنيا كذلك، وقد أدّى هذا الظن الخاطئ إلى القول بعدم تأثير الأعمال

البتّة في الثواب والعقاب، مع أن هذه الفكرة الخاطئة تتعارض مع كثير من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، فمست الحاجة إلى دفع هذه الشبهات الزائفة، وذلك بتوضيح أمرين مهمّين هما :

١ ـ إثبات هذه الحقيقة أن الإنسان كما يُجازى في الآخرة على أعماله بالثواب أو بالعقاب، فإنَّ بعض آثار ذلك الجزاء يظهر في الدنيا كذلك .

٢ ـ توضيح العلاقة الوطيدة، والصلة القوية التي تربط بين الأعمال وثمار الآخرة، وأرجو الله تعالى أن هذه الفكرة إذا رسخت في أذهان الجماهير، ودخلت في قلوبهم كانت حافزاً لهم على الرغبة في القيام بالأعمال الحسنة، ودافعاً إلى فعل الطاعات، ورادعاً عن ارتكاب المعاصي ومنفِّراً عن اقتراف المنكرات .

هذا وقد سمَّيتُ هذه الرسالة (جزاء الأعمال)، وضمَّنتها مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

أما المقدّمة : ففي بيان أن الأعمال لها دخل في الثواب والعقاب .

الباب الأول : في بيان ما يترتّب من المضارّ والخسائر الفادحة في الدنيا، على ارتكاب المعاصي، واقتراف الذنوب .

الباب الثاني : في بيان ما يترتّب من المنافع والخيرات في الدنيا، على فعل الطاعات والقيام بالأعمال الصالحة .

الباب الثالث : في بيان مدى الرابطة القوية والصلة المُحكمة بين الذنوب

وعقاب الآخرة.

الباب الرابع: في بيان ما للطاعات والأعمال الصالحة من التأثير على جزاء الآخرة.

الخاتمة: في بيان بعض الأعمال الخاصة ـ السيئة أو الحسنة ـ التي تأكد فيها الأمر أو النهي، وكذلك الرد على بعض الشبهات الواردة في هذا الصدد.

وكان الفراغ من تأليفها في ٢٣ ذي القعدة ١٣١٤هـ بمدرسة جامع العلوم في مدينة كانفور، سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين»[١].

كانت هذه نبذة يسيرة عن موضوعات الكتاب وسبب تأليفه كما تحدّث إلينا المؤلف رحمه الله، ومما لا شك فيه فإن الكتاب برغم صغر حجمه نافع ومفيد جداً، وميزته الأساسية أنه يعتمد في بيان كل الحقائق على نصوص من الكتاب والسنة، وآثار السلف الصالحين، وتجاربهم ومشاهداتهم، فهو هدية علمية، وتحفة ثمينة غالية للخاصة والعامة، ولذا فقد كتب الله له القبول، ونال إعجاب القرّاء الكرام، وطبع طبعات كثيرة.

* * *

---

(١) جزاء الأعمال، ص١ ـ ٣، ط: مكتبة نصير، نيودهلي، الهند.

١٣ ـ إحياء السنن أو (جامع الآثار)

كان حكيم الأمة مولانا أشرف علي التهانوي رحمه الله يرى منذ زمان أنَّ بعض الناس يُطيلون ألسنتهم في حقّ الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ويقولون: إنَّ مذهبه غير مؤيد بالحديث، وإنه يقدم القياس والرأي على الحديث الصحيح إلى غير ذلك من الدعاوي التي لا حجّة لها ولا دليل.

وأدلة الإمام أبي حنيفة رحمه الله وإن كانت مبسوطة في كثير من الكتب القديمة، غير أنها مبعثرة في كتب مختلفة ورسائل شتى، فأراد حكيم الأمة رحمه الله أن يجمعها في كتاب، وشرع في تأليف كتاب سمّاه (إحياء السنن) وجمع فيه أدلّة الإمام أبي حنيفة من الأحاديث الصحيحة في جميع الأبواب الفقهية، ولكن مسودة هذا الكتاب العظيم قد ضاعت عن المؤلف قبل أن تطبع، ثم بعد برهة من الزمان عاد الشيخ إلى تأليفه مرة أخرى، وغيّر فيه منهجه، وسمّاه (جامع الآثار)، وجمع فيه أحاديث استنبط منها الحنفية مذهبهم، مع التنبيه الموجز على كيفية إسنادها، ووجه الاستدلال منها، ثم أضاف إليه تعليقاً باسم (تابع الآثار) ذكر فيه توجيه الأحاديث التي ظاهرُها التعارضُ مما ذُكر في (جامع الآثار)، وقد طبع كلاهما في جزء لطيف في المطبع القاسمي بديوبند في عام ١٣١٥هـ طبعاً حجرياً. ولكن كلا الكتابين كانا في غاية الاختصار، ولم يتجاوزا أبواب الصلاة، وكان يودّ رحمه الله أن

يؤلّف مثل ما ألّف من قبل، ويبسط فيه الكلام عن الأحاديث سنداً ومتناً، ورواية ودراية، حتى استعدّ لإنجاز هذه المهمّة مولانا الشيخ أحمد حسن السنبهلي، ففوّض إليه الشيخ التهانوي خدمة هذا التأليف، فجمع في المتن أحاديث وآثاراً مع الكلام على إسنادها باختصار، وشرحها في التعليق متناً وإسناداً ببسط وتفصيل، وسمّى المتن بالاسم السابق (إحياء السنن)، والتعليق باسم (التوضيح الحسن).

وكان حكيم الأمة التهانوي رحمه الله ينظر في كل ما يكتب مولانا السنبهلي، حرفاً حرفاً، ويغيّر في مواضع منه، حيث يجد الحاجة إليه، حتى بلغ كتاب الحج.

وها هي مقدمة الشيخ التهانوي رحمه الله لكتاب (إحياء السنن) في طبعته الثانية:

وبعد؛ فهذه جملة من الأدلة على بعض الفروع من مذهب أقدم الأئمة الأربعة المشهورين المجتهدين في الدين، أبي حنيفة النعمان رضي الله عنهم وعن أتباعهم أجمعين، مسّت الحاجة إليها في هذا الزمان، حيث أطال الطاعنون ألسنتهم فيه، فلم يبقَ للسكوتِ مساغ، وقد كنت سوّدت قبل سنين بعض ذلك من جميع الأبواب الفقهية، وسمّيته (إحياء السنن)، لكنه قد ضاع عني، والحمد لله على كل حال، ثم بعد برهة من الزمان، عُدت إلى كتابة بعضه على منهج غير المنهج السابق، وسمّيته (جامع الآثار)، وقد شاع بحمد الله تعالى، لكنه لم يتجاوز أبواب الصلاة، ولم يتيسّر لي أسباب تكميله وتتميمه،

إلى أن منَّ الله تعالى عليَّ الآن، ووفّقني للعود إليه بإشارة بعض الناس من المشتغلين لديّ بخدمة العلم، وشاركني في هذا الخطب، وأعانني عليه، بحيث يصح أن يقال: إنه العامل وأنا المُعين، وغيّرت منهجه عن منهج الجامع إلى المنهج السابق لكونه سهلاً خالياً من التعب، مراعياً فيه ترتيب (الهداية)[1]، ولم أكتفِ في هذه النوبة بالمسائل الاختلافية المقصودة بالجمع، بل أضفت إليها بعض الفروع المتفق عليها، لفوائد مخصوصة.

ولما كان هذا مُشاكلاً لتسويد (إحياء السنن) رأيت أن أسمّيه بذلك الاسم القديم، ليكون ذلك إحياءً للدارس الرميم، والله الموفق لإتمام كل أمر عظيم وخطب جسيم، وعلّقتُ عليه تعليقاً موضحاً لمعاني الأحاديث، وباحثاً عن أسانيدها، وسمّيته (التوضيح الحسن على إحياء السنن).

نمقه العبد الراجي رحمة ربه القوي

أشرف علي

غفر له ذنبه الخفي والجلي

ثناء العلماء على الكتاب:

هذا وقد أبدى كبار العلماء والمحقّقين إعجابهم بكتاب العلاّمة التهانوي رحمه الله، وأشادوا به في مقالاتهم وبحوثهم، وها هو الإمام البحّاثة الناقد البصير المحقق المحدث الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري رحمه الله

---

(١) الهداية: اسم كتاب مشهور في الفقه الحنفي، للمرغيناني.

يقول بعد أن أشار إلى جهود علماء الهند وباكستان ومآثرهم في خدمة السنّة المطهّرة في القرون الأخيرة، ونهوضهم بأعباء علوم السنة من القرن العاشر حتى الآن:

«ولبعض علمائهم أيضاً مؤلفات خاصة في أحاديث الأحكام على طراز بديع مبتكر، وهو استقصاء الأحكام من مصادرها، وحشدها في صعيد واحد، في الأبواب، والكلام على كل حديث منها، جرحاً وتعديلاً وتقوية وتوهيناً. . . إلى أن قال: وكذلك عني بهذا الأمر العلاَّمة الأوحد، والحبر المفرد، شيخ المشايخ في البلاد الهندية، المحدث الكبير، والجهبذ الناقد، مولانا حكيم الأمة أشرف علي التهانوي، صاحب المؤلفات، البالغ عددها نحو خمسمئة مؤلَّف ما بين صغير وكبير ـ بل زادت مؤلفاته على ألف عند وفاته ـ فألَّف كتاب (جامع الآثار) في هذا الباب، ويُغني عن وصف هذا الكتاب ذكر اسم مؤلِّفِه العظيم، وهو مطبوع بالهند، إلا أن الظفر به أصبح بمكانة من الصعوبة، حيث نفدت نسخه المطبوعة، لكثرة الراغبين في اقتناء مؤلَّفات هذا العالم الربّاني، وهو بركة البلاد الهندية، وله منزلة سامية عند علماء الهند، حتى لقَّبوه (حكيم الأمة)»[1].

* * *

---

(١) مقالات الكوثري، ص٧٥.

١٤ ـ إعلاء السنن

هذا الكتاب هو العمل الموسوعي العلمي الضخم، والمكمّل لما بدأه حكيم الأمة التهانوي رحمه الله باسم (إحياء السنن) ثم (جامع الآثار)، ولكن قدَّر الله تعالى أن يقوم بإنجاز هذه الفكرة، وإكمال هذا المشروع العلمي الكبير ابن أخت الشيخ وتلميذه المتخرج في علوم الحديث لديه، وفي ظلّ إشرافه العالي، المحدِّث الناقد والفقيه البارع مولانا ظفر **أحمد العثماني**، فاستوفى رحمه الله أدلة أبواب الفقه بجمع أحاديث الأحكام في الأبـواب من مصـادر صعبة المنال، مع الكلام على كل حديث في ذيل كل صفحة، بما تقضي به صناعة الحديث، من تقوية وتوهين، وأخذ وردّ على اختلاف المذاهب.

اشتغل هذا العالم الغيور بهذه المهمّة الشاقة نحو عشرين سنة اشتغالاً لا مزيد عليه، حتى أتم مهمّته بغاية من الإجادة، بتوفيق الله سبحانه.

يقول العلاَّمة الكوثري رحمه الله ـ وهو يثني عليه أطيب الثناء، ويطريه أصدق الإطراء ـ: «والحق يقال: إني دُهشت من هذا الجمع، وهذا الاستقصاء، ومن هذا الاستيفاء البالغ في الكلام على كل حديث، بما تقضي به الصناعة، متناً وسنداً، من غير أن يبدو عليه آثار التكلّف في تأييد مذهبه، بل الإنصاف رائده عند الكلام على آراء أهل المذاهب، فاغتبطتُ به غاية الاغتباط، وهكذا تكون همم الرجال، وجدّ الأبطال».

ويقول الشيخ المحدث الفقيه الباحث الناقد العلاَّمة عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في تقريظه لكتاب (إعلاء السنن):

«فمن أهم ما خُدمت به السنة المطهّرة شرح أحاديث الأحكام، واستخراج ما فيها من فقه وتعليم، وأمر ونهي، وحلال وحرام. وقد تبارت همم المحدّثين الفقهاء من كل عصر ومصر في جمع تلك الأحاديث في صعيد واحد، لتكون مرجعاً سهلاً، قريب المنال لكل متفقه ومستفيد، ومن أفضل بل أفضل ما ألف فيها في هذا القرن الرابع عشر، وأوسعه حجماً ـ من وجهة نظر السادة الحنفية ـ كتاب (إعلاء السنن) تأليف شيخنا العلاَّمة المحدّث الفقيه، الأصولي البارع، المتبع الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي رحمه الله، وكان سبب تأليف هذا الكتاب النافع العظيم ما حدث من حوالي منتصف هذا القرن، إذ قامت في بعض بلاد الهند ـ قبل انقسام باكستان منها ـ نغمة من بعض المسمّين أنفسهم (أهل الحديث) زعموا فيها أن مذهب السادة الحنفية الذي هو مذهب جمهور المسلمين في تلك البلاد الواسعة العريضة يخالف الأحاديث النبوية في كثير من مسائله، كما زعموا أيضاً أن السادة الحنفية يقدّمون القياس على الحديث الشريف، وكما أنكروا أيضاً تقليد الأئمة الأربعة المتبوعين رضي الله عنهم، وأطالوا لسانهم في جنب فقه الحنفية، وجنب فقيه الملة الإمام أبي حنيفة بوجه أخصّ، فتصدَّى لردّ هذه المزاعم الزائفة فحول الفقهاء والعلماء في تلك الديار الهندية، وأبطلوا هذه الدعاوى بالتآليف الحديثية الكثيرة المحققة، وبيّنوا فيها استناد السادة الحنفية في فقههم ومذهبهم إلى الأحاديث الشريفة، وأنهم

يقدّمون الحديث الشريف حتى الحديث الضعيف على القياس، وأن القياس بشروطه من الأدلة التي يجب العمل بها، وأن الحنفية لا ينقصون استدلالاً بالسنة وتمسكاً بها عن غيرهم من الأئمة، إن لم يكونوا أقوى من سواهم تمسكاً بالحديث والأثر.

وقد استوفى العلاّمة التهانوي في كتابه (إعلاء السنن) أدلة أبواب الفقه كلها من باب الطهارة إلى ختام الأبواب الفقهية، بجهد بارع، وصناعة حديثية فقهية دقيقة، لفتت الأنظار إلى هذا الكتاب، حتى تخاطفته أيدي العلماء من حين صدوره، وأصبح الحصول على نسخة منه من الأماني الكبار في نفوس العلماء الذين عرفوا هذا الكتاب عن كثب أو سمعوا عنه»[1].

هذا وقد تُوِّج الكتاب بمقدّمتين علميتين، إحداهما حديثية[2]، والأخرى

---

(١) من تقريظ الشيخ عبد الفتاح أبي غدة لكتاب (إعلاء السنن)، طبعة إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان، بتحقيق وتعليق: الشيخ العلامة محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى.

(٢) ألّفها الشيخ ظفر العثماني بنفسه، وقد طبعت هذه المقدمة باسم (إنهاء السكن لمن يطالع إعلاء السنن) في الهند، ثم طبعت بتحقيق وتعليق العلامة الشيخ المحقق الباحث عبد الفتاح أبي غدة، رحمه الله، باسم (قواعد في علوم الحديث)، فجاءت تحفة علمية رائعة المنظر والمخبر، ولقيت أطيب القبول والاستحسان من كبار أولي العلم والعارفين بهذا الفن، وطبعت طبعات كثيرة.

أصولية[1] فقهية، نظراً لما انطوى عليه الكتاب من الأحاديث الشريفة في المتن، والأحكام الفقهية المستخرجة منها في الشرح، فكان الكتاب بهذا الاستيفاء والعناية في ذروة ما ألف في موضوعه، وفعلاً طلع هذا المشروع العلمي الضخم الكبير على منصة الوجود، وقد تفضَّل الشيخ التهانوي رحمه الله مشكوراً بمراجعته كله حرفاً حرفاً، وزاد فيه أشياء، وحذف منه أشياء، حسب ما اقتضته الحاجة، أو دعت إليه الضرورة.

ويجدر بنا أن نتحف القرّاء الكرام بما كتبه الشيخ أشرف علي التهانوي خطبة لـ(إعلاء السنن) وعليه نختم هذه الكلمة التعريفية بالكتاب، يقول رحمه الله:

«الحمد لله، أستعينه وأستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً.

---

(١) ألَّفها الشيخ حبيب أحمد الكيرانوي في ضوء ما أفاده الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، وهي مقدمة علمية مفصَّلة تتعلق بالمسائل الأصولية والقواعد المهمة حول القياس، وقد طبعت في دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.

أما بعد: فيا أخي! انظر أولاً في خطبة الحصة الأولى من (إحياء السنن) تنكشف لك حقيقة الرسالة، ثم اسمع ثانياً، أنها مسّت الحاجة بسبب بعض الأسباب التي لا طائل تحت ذكرها إلى تفويض تأليفها إلى ابن أختي الفطن البارع الذكي المولوي ظفر أحمد، ثبّته الله على المنهج الأرشد، وتبديل اسمها من (إحياء السنن) إلى (إعلاء السنن)، واسم تعليقاتها من (التوضيح الحسن) إلى (إسداء المنن)، وتعديل بعض المقامات من الحصة الأولى التي أشيعت سابقاً، وتلقيب مجموع المضاف والمضاف إليها بالحصة الأولى من (إعلاء السنن)، فإذاً هذه هي الحصة الثانية منها، سرحت النظر فيها كالأولى حرفاً حرفاً، فوجدتها ـ والحمد لله ـ أحسن من الأولى، رواية ودراية، وكفاية في موضوعها، وباقي التزاماتها في تغيير بعض المواضع، وهو يسير بكثير، وتميز كلامي من كلامه ونحو ذلك كالأولى، ولله الحمد على ما أبدى وأسدى، ولَلآخرةُ خيرٌ لك من الأولى.

وأنا العبد الراجي رحمة ربه القوي أشرف علي التهانوي غفر له ذنبه الجلي والخفي».

هذا وقد طبع هذا الكتاب الحديثي الفقهي العجاب في مدينة كراتشي من باكستان مخدوماً بخدمة علمية ممتازة من العلاَّمة المحقق الشيخ محمد تقي العثماني نجل سماحة العلاَّمة المفتي محمد شفيع رحمه الله، وقد قام حفظه الله الوارث الألمعي لعلوم أبيه بتحقيق هذا الكتاب والتعليق عليه بما يستكمل غاياته ومقاصده، ويتمّم فرائده وفوائده في ذوق علمي رفيع، وتنسيق فني

طباعي بديع، كما صدرت له الطبعة الأخرى من دار الفكر بيروت في ثلاثين جزءاً.

وقال رحمه الله يوماً في مجلسه الخاص، مثنياً على كتاب (إعلاء السنن):

الحمد لله، فقد ظهر بالخانقاه الإمدادية (تهانه بهون) عمل عظيم، لم يوجد نظيره في أكبر مراكز العلم الدينية بالهند، وهو جمع الأحاديث المؤيّدة للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، في مسائل الخلاف من كل باب، وهذه السلسلة اسمها (إعلاء السنن)، ولعدم الوقوف على تلك الأحاديث، ظن كثير من الحنفية فضلاً عن الطائفة المنكرة لتقليد الفقهاء، أن مذاهب هؤلاء الفقهاء، لا سيّما مذهب أبي حنيفة رحمه الله تخالف الحديث في كثير من المسائل، فبتأليف هذا الكتاب القيّم (إعلاء السنن)، ظهر للناس عامة، وللعلماء خاصة، أن ليست مسألة من مسائل أبي حنيفة رحمه الله تعالى، مخالفةً للكتاب والسنة، والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً، ولقد بذلنا الجهد في هذا العمل مدة طويلة، وأنفقنا له أموالاً جزيلة، حتى تمَّ العمل بفضل الله وكرمه، فالحمد لله الذي بعزّته وجلاله تتم الصالحات، وله الشكر الجزيل على ذلك ألف ألف مرة[1].

وقال يوماً رحمه الله تعالى: «لو لم يكن بالخانقاه الإمدادية إلا تأليف (إعلاء السنن) لكفى به كرامة وفضلاً، فإنه عديم النظير في بابه».

---

(١) من (ملفوظات الإفاضات اليومية): ٣/ ١٥٨.

وقال رحمه الله بعد ما أمعن النظر في الجزء الرابع منه[1]: بعد الحمد والصلاة، لما نظرت في هذه الحصّة الرابعة من كتاب (إعلاء السنن)، بعد انتهاء تأليفها، علاني سرور اضطرّني إلى إظهاره قولاً بدعائي للمؤلِّف، ومَدحي للمؤلَّف، وفعلاً بإعطاء ردائي له لإدخال السرور عليه، رجاءَ أن يُدخلني الله تعالى فيمن يخدم من يخدم الدين ولو بشيء من المسرّة، حقّق الله رجائي، ورجاءَ كل من يخدم الدين، بفضله وببركة سيّد الخلق أجمعين، وصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه كل حين.

وكان هذا في غرّة جمادى الآخرة سنة ١٣٤٦هـ.

كتبه أشرف علي

* * *

(١) من إعلاء السنن: ٤/ ٣٩، طبعة الهند.

١٥ ـ أحكام القرآن
أو (دلائل القرآن على مذهب النعمان)

إن المكتبة الإسلامية غنية بالتفاسير التي ألّفها علماء هذه الأمة خدمة لكتاب الله تعالى، وكل مؤلِّف كان له منهجه الخاص وطريقته في هذا الصدد، فاعتنى البعض منهم بتفسير الكلمات، وشرح الغريب منها وبيان وجوه الإعراب، بينما جاء الآخرون فقاموا بحشد الروايات والآثار الواردة في التفسير، وإن من أهم هذه المناهج وأعلاها مرتبة، وأسماها مكانة، وأعظمها نفعاً، استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم، فإن الأحكام الشرعية هي رسالة القرآن العملية التي تنير السبيل للإنسان في حياته اليقظة، وتأخذ بيده إلى الخير في كل ما يحدث له في يومه وليله، فقامت جماعة من العلماء بجمع هذه الأحكام، وألّفوا كتباً كثيرة في هذا الباب، وكان الإمام الداعية الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى من أكثر الناس حرصاً على تأليف جديد في هذا الموضوع، وكانت فكرته في مبدأ الأمر أن يكون ذلك الكتاب جامعاً لأدلة الحنفية من القرآن الكريم ببسط واستقصاء، كما أن كتاب (إعلاء السنن) الذي ألّفه الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله بإرشاد شيخه التهانوي جامع لأدلة الحنفية من السنة، ولذلك اقترح في أول الأمر أن يكون اسم الكتاب (دلائل القرآن على مذهب النعمان) ثم بدا له أن لا يقتصر على ذكر الدلائل

فحسب، بل يذكر كل ما يستنبط من آيات القرآن الكريم من فقه وأصول وأدب وخلق وهداية وإرشاد، مع العناية الخاصة بالمسائل التي حدثت في العصور الأخيرة، ولا يوجد في كتب المتقدمين مباحث وافية فيها، ومن هنا غيَّر اسم الكتاب إلى (أحكام القرآن).

هذا وكان الشيخ رحمه الله يودّ أن يؤلف هذا الكتاب بنفسه، ولكنه كان في أواخر عمره مزدحم الأشغال مع انتقاص القوى واعتراء الأسقام، وكان يريد أن يتم تأليف (أحكام القرآن) في أسرع وقت ممكن، فاختار رحمه الله أن يفوّض هذا العمل إلى أربعة من أصحابه:

١ ـ العلاَّمة المحقق الكبير الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله.

٢ ـ العلاَّمة الفقيه الشيخ المفتي محمد شفيع رحمه الله.

٣ ـ العلاَّمة المحدث الفاضل الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رحمه الله.

٤ ـ العلاَّمة الثبت الشيخ المفتي جميل أحمد التهانوي حفظه الله.

فقام كل واحد بتأليف ما فوّض إليه من هذا الكتاب، وربما دعاهم الشيخ التهانوي رحمه الله إلى مقرّه بقرية (تهانه بهون) ليتمكّن من النظر فيما تمّ تأليفه، ويتمكنوا من مراجعته عند الحاجة.

وكان الشيخ التهانوي رحمه الله تعالى شديد العناية بهذا العمل المبارك الذي يقوم به أصحابه، فينظر فيما كتبوه، ويرشدهم في معضلاته، ويشير

عليهم بالإصلاح والتعديل، وفوق كل ذلك أنه جعل هذا التأليف سمير عينيه، ونديم فكره، لا يزال يتفكر فيما يجعل الكتاب أكثر نفعاً وأعظم فائدة، وكلما وقع بقلبه استنباط دقيق من أيّة آية من القرآن الكريم ـ في أثناء تلاوته أو تدبّره في القرآن ـ أخبر به من كانت تلك الآية في نصيبه من هؤلاء الأربعة، فضمّنوا تلك الفائدة ما يكتبونه في تفسير الآية، وبسطوها، وأتوا لها بشواهد وتفريعات.

وقد رآه تلاميذه مراراً في مرض وفاته ـ وقد بلغ المرض منتهاه، وهو مضطجع على سريره مغمض عينيه، فإذا هو يفتحها ويجيل بنظره إلى غرفته ثم يقول: أين الشيخ المفتي محمد شفيع؟ وكان الشيخ المفتي محمد شفيع مشتغلاً بتأليف نصيبه من (أحكام القرآن) في غرفة أخرى، فيدعوه أصحابه، فيقول له الشيخ رحمه الله: ظهر لي آنفاً أن الآية الفلانية تستنبط منها المسألة الفلانية، فيكتب الشيخ المفتي محمد شفيع رحمه الله في مذكرته ما قاله الشيخ ويرجع إلى مكانه، وبهذا نستطيع أن نعرف مدى عنايته بهذا الكتاب، وأنه جعله قرين قلبه ونصب عينه حتى في فراش مرضه الذي توفي فيه.

وهكذا ألّف الشيخ ظفر أحمد العثماني التفسير من سورة البقرة إلى آخر سورة النساء، والشيخ المفتي جميل أحمد التهانوي من أول سورة يونس إلى آخر سورة النمل، والشيخ المفتي محمد شفيع من أول سورة الشعراء إلى آخر سورة يس، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي من أول سورة قَ إلى آخر القرآن الكريم.

وبقي الفراغ من سورة المائدة إلى سورة التوبة، ومن سورة بني إسرائيل إلى سورة الفرقان.

وفيما يأتي نتحف القراء الكرام بمقدمة مؤلّفي هذا الكتاب العظيم، والتي نتمكن من خلالها من الاطلاع على مناهجهم وطرقهم في استنباط الأحكام.

يقول الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله بعد خطبة الحاجة والحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ:

«أما بعد؛ فلما وفّقني الله تعالى سبحانه بمحض فضله وإنعامه لتكميل (إعلاء السنن) الجامع لأحاديث تؤيد مذهب إمام الزمن في نحو عشرين مجلداً مع مقدمتين بترتيب حسن، أشار عليَّ مَن إشارَتُه حكمٌ، وطاعته غنمٌ، آية من آيات الله، فظهر قوله عليه الصلاة والسلام: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله»[1] مجدّد الملّة، حكيم الأمة، سند علماء الدهر، شيخ مشايخ العصر، مسند الوقت، أعظم المفسّرين، سلطان العلم والعمل، وفي التفسير والحديث والفقه أمير المؤمنين، مقدام العلماء الراسخين، أشرف العلماء والأولياء الكاملين، سيدنا ومولانا محمد المدعو بأشرف علي التهانوي، متّعنا الله وسائر المسلمين بطول بقائه بالخير والعيش الهني ـ أن أجمع ما يستدلّ به على مسائل الإمام الأعظم إمام الأئمة أبي حنيفة النعمان من النصوص القرآنية والإشارات الربّانية، فيما اختلف فيه أئمة الاجتهاد، من الحلال والحرام، والصحة والفساد، وألحق به تكميلاً للفائدة، وتتميماً للعائدة ما يحتج به غيره من الأئمة مع جوابه، أو ما يوهم بظاهره خلاف ما عليه الجمهور مع أبي حنيفة وأصحابه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ٤/ ٢٢٧؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٧/ ٤٩٤، رقم (١١١٠٨)؛ وإسحاق بن راهويه في مسنده: ١/ ٨١، رقم (٢٤).

وكان قد أمر بذلك أولاً للمولوي محمد شفيع فلم يفرغ ـ أطال الله بقاءه[1] ـ لكثرة ما عنده من الأشغال لإتمامه وتكميله، بطمأنينة القلب وفراغ البال، ولم يكتب في عدة سنين إلا أوراقاً عديدة ذكر فيها أحكاماً معدودة، تستفاد من أوائل سورة البقرة، ولو أنه وجد الفراغ لذلك لأتى بالعجب العجاب، ما يسبق به المهرةَ، ولكنه كان من القدَر المقدور وقوع قرعة الفال باسم هذا المجهول المكسور، مع ما هو فيه من قلّة البضاعة في العمل، وقصر الباع عن هذا الأمر الجلل، والعبد الضعيف لم يحم حول حماه، إلا امتثالاً لأمرِ مَن أمرُه يكشف عن كل مشكل دجاه، وهو مظهر قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[2]، فتحملت هذا الحمل الثقيل، وتجشّمت هذا الخطب الجليل، مستمداً من بحار علومه، مقتبساً من أنوار بُدُوره ونجومه، راجياً من الله سبحانه تيسير كل عسير ببركة هذا الشيخ النبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إنَّ المقـاديـرَ إذا سـاعـدتْ ... ألحقـتِ العـاجـزَ بـالقـادرِ»[3]

أما مقدمة الشيخ المفتي محمد شفيع فهي:

«بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله ﷺ، فيقول العبد

---

(١) وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٩٦هـ.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، (٣١٢٧)؛ والطبراني في المعجم الأوسط: ٣/ ٣١٢، رقم (٣٢٥٤)؛ وفي الكبير: ٨/ ١٠٢، رقم (٧٤٩٧)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٦٨: إسناده حسن.

(٣) أحكام القرآن، القسم الأول من الجزء الأول، ص١ ـ ٣.

الضعيف الملتجي إلى مولاه القوي محمد شفيع المفتي بدار العلوم الديوبندية : إن هذه جملة جميلة في تفسير آيات الأحكام من كلام الملك الحق العلاّم، قد قام بجمعها وتأليفها آية من آيات الله ، من الذين إذا رُؤوا ذُكر الله ، مجدد الملّة، حكيم الأمة، سند علماء الدهر، وشيخ مشايخ العصر بالديار الهندية مولانا أشرف علي التهانوي، متّعنا الله تعالى وسائر المسلمين بطول بقائه بالخير، واتفق قيامه لهذا الخطب الجليل في أوان ضعفه وأواخر عمره الشريف، ولذلك قسّم أجزاءه على عدد من أصحابه، ليتيسّر تكميل هذا الأمر الجليل في زمن قليل، ووقع من هذه القسمة في سهم العبد الضعيف من سورة الشعراء إلى سورة الحجرات، وأنا مع ما أنا فيه من قلة البضاعة في العلم والعمل، والاطلاع على خطر هذا الشأن، وقصور باعي عنه ما اجترأت في القيام على هذا الموقف الجليل إلا رجاءَ أن يسهل الله سبحانه وَعْرَ هذا الطريق بإفادات شيخنا وبركاته، ولعلّه يكون ذخراً لهذا العبد الجاني على نفسه يوم لاينفع مالٌ ولابنون.

وكان الهدف في أول الأمر ما يتعلق بالمسائل الاجتهادية، وبيان الدلائل على ما ترجح منها عند الإمام أبي حنيفة النعمان، ولذلك سُمّي الكتاب أولاً (دلائل القرآن على مسائل النعمان) ولكن لما أخذت في تأليفه، والتزمت عتبة الشيخ لأجله، جعل يلقي عليّ آيات الأحكام عامة، سواء كانت مختلفة فيها بين الأئمة، أو مما مسَّت الحاجة إلى بيانها لعامة المسلمين في العصر الحاضر، فكان مجموعة لأحكام القرآن حسب ما تيسّر»[1].

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١ ـ ٢.

هذا وقد طُبع الكتاب بكامله في خمسة مجلدات بتقديم من العلاَّمة الشيخ محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى، في إدارة القرآن والعلوم الإسلامي، كراتشي في عام ١٤٠٧هـ.

* * *

١٦ ـ مسائل السلوك من كلام ملك الملوك

هذه الرسالة من الرسائل القيّمة النافعة، ضمّنها المؤلف مسائل السلوك المستنبطة من الآيات القرآنية، وقد طُبعت هذه الرسالة بهامش تفسيره (بيان القرآن)، وقبل الدخول في صُلب الموضوع، وبدء استخراج الفوائد السلوكية، قام المؤلف رحمه الله بشرح أهمية الموضوع، ومدى قيمته، وإزالة معاني الإفراط والتفريط، واعتبر هذا الفن من علم الاعتبار، وذكر سبب تسميته بهذا الاسم.

ويجدر بنا أن نتناول مقدّمة المؤلف في هذا الصدد حتى يتضحَ الأمرُ وتتجلّى الحقيقة في أروع شكلها. يقول المؤلف رحمه الله: «فإنَّ من العلوم القرآنية كثير من مسائل التصوف، ذكرها الصوفية في كتبهم مستندين إلى القرآن، وجملة ما ذكروه قسمان:

١ ـ قسم دلَّ عليه القرآن بوجوه الدلالات المعتبرة عند أهل العلم والاجتهاد، تنصيصاً ويسمّى تفسيراً واستنباطاً، ويسمّى فقهاً، ولا كلام في كون هذا القسم مدلولاً للقرآن، أما التنصيص فظاهر، وأما الاستنباط فلِما تقرّر من أن القياس مُظهر لا مُثبت.

٢ ـ وقسم لا دلالة عليه بعينه، ولا على ما يشاركه في العلة الشرعية،

لكن له دلالة على ما يناسبه بنحو من المناسبة، ويسمّى اعتباراً، وهذا القسم مما تكلّموا في كونه مدلوله، فكم من مثبت له، وهو ظاهر صنيع كثير من الصوفية، وكم من نافٍ له، وهو ظاهر كلام حملة العلوم الظاهرة.

والقول الفصل في هذا الباب أنَّ النفي حق إن أريد بالولاية كون ذلك المعنى مقصوداً بلا واسطة، كالمنصوص، أو بواسطة كالثابت بالقياس.

والإثبات حق منقول من السلف، إن أريد بالدلالة ما هو أعم من ثبوته بأحد الطريقين المذكورين، ومن ثبوت الشيء من أصله بنحو من الأصالة، من غير أن يقصد مع القول بإرادة المعنى الظاهري قطعاً، فإن إبطال هذا المعنى باطل، وذهاب إلى مذهب الباطنية الضالّة.

ولنُسمعك ما يدل على جميع ما ادّعيناه:

أما أن لهذا الصنيع أصلاً من السلف: فقد روى رزين عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: ١٧]، قال: ليّنَ القلوبَ بعد موتها مخبتة منيبة، يُحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة، وإلا فقد عُلِمَ إحياءُ الأرض مشاهدةً.

فقول ابن عباس صريح في صحة تأويل الأرض بالقلب، هل هذا إلا الذي يسلكه الصوفية، بل ظاهره ينفي ظاهر التفسير، لكن لما كان هذا التفسير يقينياً، يصرف قوله عن المتبادر إلى أن مراده رضي الله عنه: إيقاظ السامع أن لا يكتفي من الآيات على ظاهرها، وإن كان مقصوداً، بل يعتبر به وينتقل إلى حال القلب.

هذا ما بدا لي في اعتبار علم الاعتبـار، وأبلغ من هذا ما قـرَّره شـيخ مشايخنا ولي الله الدهلوي المحدث الفقيه، في كون هذا العلم معتبراً، وذلك في كتابه (**الفوز الكبير في أصول التفسير**)، حيث قال رحمه الله:

«وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم فليست في الحقيقة من فن التفسير، وإنما يظهـر على قلب السـالك عند اسـتماع القرآن أشياء، وتتولد في نظم القرآن، ـ ومثلما يتصف به السالك من حالة أو معرفة حصلت له، كمثل من سمع من العشاق قصة ليلى والمجنون، فتذكر معشوقة له فيستحضر ما كان من المعاملة بينه وبين محبوبته ـ، وهاهنا **فائدة مهمة ينبغي الاطِّلاع عليها**، وهي: أنَّ حضرته ﷺ جعل فن الاعتبار معتبراً، وسلك ذلك الطريق لتكونَ سنّة لعلماء الأمة، ويكون ذلك فتحاً لباب ما وهب لهم من العلوم، كآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]، قرأها في مسألة القدَر بالتمثيل، وإن كان منطوق الآية أن من عمل هذه الأعمال نهديه إلى طريق الجنة والنعيم، ومن عمل بضدّها تُفتح له طريق النار والتعذيب، ولكن يمكن أن يعلم بطريق الاعتبار أن كل واحد خلق لحالة تجري عليه تلك الحالة، من حيث يدري أو لا يدري، فبهذا الاعتبار وقع لهذه الآية ارتباط بمسألة القدر، وكذلك آية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، فمنطوقها أنه اطّلع على البرّ والإثم، ولكن بين خلق الصورة العلمية بالبر والإثم وخلق البر والإثم إجمالاً في وقت نفخ الروح مشابهة، فيمكن الاستشهاد بهذه الآية في هذه المسألة بالاعتبار»، والله أعلم[1].

---

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير، للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم، المعروف=

قلت: والحديثان اللذان أشار إليهما الشيخ ولي الله الدهلوي هما هذان:

فالأول: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ»، قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: «اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ، أمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهل السَّعادَةِ، وأمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾»[1].

والحديث الثاني: ما روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رجلين من مُزينة قالا: يا رسول الله! أرأيتَ ما يعملُ الناسُ ويكدحونَ فيه، أشيءٌ قُضِيَ عليهم، ومضى فيهم مِنْ قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيّهم وثبت الحجة عليهم؟ فقال: «لا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِم وَمَضَى فِيْهِم، وتَصْدِيْقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ـ٨]»[2]، فثبت بهذا التقرير كون ذلك الطريق ذا أصل.

= بشاه ولي الله الدهلوي، ص١٠٢ ـ ١٠٣، ط: مطبعة المكتبة العلمية، لاهور، باكستان، ١٩٧٠م.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن (٤٩٤٥)، كتاب الجنائز، (١٣٦٢)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب القدَر، (٢٦٤٧)؛ والترمذي في سننه، كتاب القدَر، (٢١٣٦)؛ وأبو داود في سننه، كتاب السنة، (٤٦٩٤).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب القدَر، (٢٦٥٠).

وأما كون إبطال المعنى الظاهر باطلاً، ففي (روح المعاني)[1]: تحت آية ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ [الرعد: ١٧]: ما نصّه: قال ابن عطية: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يريد بالماء الشرع والدين، وبالأودية القلوب، ومعنى سيلانها بقدر ما أخذ النبيل بحظّه والبليد بحظّه، ثم قال: وهذا قول لا يصحّ ـ والله تعالى أعلم ـ عن ابن عباس، لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزالي، وأهل ذلك الطريق، وفيه إخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير داع إلى ذلك، وإن صحَّ ذلك عن ابن عباس فيقال فيه: إنما قصد رضي الله عنه أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧] معناه: الحق يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعتريها... إلخ.

ونحن نقول: إن صحَّ ذلك فمقصود الخبر منه الإشارة، وإن كان يريد غير ظاهر فيه، وحجة الإسلام الغزالي رحمه الله أشدّ الناس على أهل الرموز القائلين بأن الظاهر ليس مراد الله تعالى، كما لا يخفى على متتبّعي كلامه[2]. ولقد أتى الإمام الغزالي بالقول الصراح، والفصل البواح في المسألة، في كتابه (مشكاة الأنوار) حيث قال: ولا تظنَّن من هذا الأنموذج، وطريق ضرب الأمثال، رخصةً مني في رفع الظواهر واعتقاداً في إبطالها، حتى أقول مثلاً: لم

---

(١) انظر: روح المعاني للإمام الآلوسي: ١٣/١٣٨، ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يكن مع موسى عليه السلام نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه: ١٢] حاشا لله، فإن إبطال الظواهر هو رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، ولم يعرفوا الموازنة بينهما، ولم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الإسرار مذهب الحشوية، فالذي يجرّد الظاهر، حشوي، والذي يجرّد الباطن، باطني، والذي يجمع بينهما كامل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لِكُلِّ آيَةٍ ظَاهِرٌ وبَاطِنٌ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ»[1]. وربما نُقِلَ هذا عن علي رضي الله عنه موقوفاً، بل أقول: فهم موسى عليه السلام من خلع النعلين إطراح الكونين، فامتثل الأمر ظاهراً بخلع نعليه باطراح العالمين.

فهذا هو الاعتبار، أي: العبور من الشيء إلى غيره، من الظاهر إلى السرّ، وفرق بين من يسمع قول رسول الله ﷺ: «لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيه صورة أو كلب»، فيقعي الكلب في بيته، ويقول: ليس الظاهر مراداً، بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب، لأنه يمنع المعرفة التي هي من أنوار الملائكة، إذ الغضب غول العقل، وبين من يمتثل الظاهر، ثم يقول: الكلب ليس كلباً لصورته بل لمعناه، وهي السبعيّة والضراوة، فإذا كان حفظ البيت الذي هو القلب مقرّاً للجوهر الحقيقي الخالص عن سر الكلبية أولى، فأنا أجمع الظاهر

---

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده: ٩/ ٨٢، رقم (٥١٤٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً؛ ونحوه الطبراني في المعجم الكبير: ٩/ ١٣٦، رقم (٨٦٦٧) موقوفاً على عبد الله؛ وابن المبارك في (الزهد) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً، ص٢٣، رقم (٩٣)؛ وهو عند العجلوني في كشف الخفاء: ١/ ٢٤١، رقم (٦٣٠).

والسرّ جميعاً، فهذا هو الكامل، وهو المعنيّ بقولهم: «الكامل من لا يُطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه»[1]، ولذلك ترى الكامل لا تسمح نفسه بترك شيء من حدود الشرع مع كمال البصيرة، وقريب من هذا ما في (روح المعاني): «أما كلام السادة الصوفية من القرآن، فهو من باب الإرشادات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق ما بينهما وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان، ومحض العرفان، لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد، وإنما المراد الباطن فقط، إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة، توصلوا إلى نفي الشريعة بالكليّة، وحاشا ساداتنا من ذلك، كيف وقد حضّوا على حفظ التفسير الظاهر، وقالوا: لا بد منه أولاً، إذ لا يُطمع في الوصول إلى الباطن، قبل إحكام الظاهر، ومن ادَّعى فهم أسرار القرآن، قبل إحكام التفسير الظاهر، فهو كمن ادَّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب».

وقد أتيت بهذا التقرير مع زيادة تحقيق أنَّ لكل آية ظاهراً وباطناً.

هذا وفيما يأتي نذكر بعض النماذج من مسائل السلوك المستنبطة من كلام ملك الملوك:

● قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

قال العبد الضعيف: فيه دليل على أن مدار الخلافة هو العلم والفهم، بشرط أن لا يناقضه عمله، لا الاجتهاد في العمل، وهو عين ما يُراعيه مشايخ الطريق في الاستخلاف.

---

(١) من مقولات الغزالي، ذكرها الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٣٣.

● قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ [البقرة: ٥٧]. فيه دليل على أنَّ تواتر النعم مع العصيان استدراجٌ وخطرٌ، وكثير من جهلة الصوفية في غرور منه، حيث يزعمون كثرة المال والجاه أمارة للقبول.

● قوله تعالى: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا... ﴾ [البقرة: ١١١] يستنبط منه أن الفوز بالأكساب لا بالأنساب، كأولاد المشايخ في زماننا.

● قوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة: ١٨٠]. دليل على أن ملك المال لا ينافي في التقوى للكامل مع أداء حقوقه.

● قوله تعالى: ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال العبد الضعيف: صريح بما عليه أهل الطريق من علوم خاصة، وأعمال خاصة، وأحوال خاصة، وإفاضة طريقهم إلى غيرهم كما يقول على هذا مجموع ما فسّروه به، ففي (روح المعاني) عن علي وابن عباس: الربَّاني: الفقيه العالم، وعن قتادة والسدي: العالم الحكيم، وعن ابن جبير: الحكيم التقي، وعن الشبلي: الذي لا يأخذ العلوم إلا من الربّ، ولا يرجع في شيء إلا إليه، وعن سهل: الذي لا يختار على ربه حالاً، وعن القاسم: المتخلّق بأخلاق الرب، علماً وحكماً، وقيل: هو الذي محق في وجوده ومحق عن شهوده، وقيل: هو الذي لا تؤثر فيه تصاريف الأقدار على اختلافها. وكل الأقوال يرد من منهل واحد.

● قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال العبد الضعيف: في الآية مسألتان:

الأولى: أن الفكر أيضاً عبادة، كما أن الذكر عبادة.

الثانية: أن محل الفكر هو الخلق، حيث قيل: الفكر بخلق السماوات والأرض، ومن ثَمَّ قالوا: لا تتفكروا بذات الله.

● قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]. دلَّ بعمومه على عدم الاستنكاف عن قبول الحق، ولو ممن هو أدنى منه، وعن الاعتراف بخطئه، لا كعلماء القشر وكمشايخ الرسم، يموّهون أباطيلهم ويؤوّلون أقاويلهم، وحملهم على ذلك كبرهم.

● قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]. فيه دلالة على أن إرادة الشيخ وشفقته لا يُغني شيئاً دون فضل الله وتوفيقه.

● قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨]. دلَّت الآية على أنه لا يُعتدّ بشيء من الكمالات دون اتّباع الشريعة.

● قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٦]. فيه إبطال لما يزعمه الجهلة من كون المشايخ متصرفين مستقلّين.

● قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. نصّ في نفي التصرّف المستقلّ حتى عن المقبولين، وفي (الروح): وفي هذه الآية الكريمة ردّ على رجاء كشف الضرّ من غيره سبحانه وتعالى[1].

---

(١) روح المعاني: ٧/ ١١٣.

وفي (فتوح الغيب) للجيلاني قدّس سرّه: «إنَّ من أراد السلامة في الدنيا والآخرة، فعليه بالصبر والرضا، وترك الشكوى إلى خَلقه، وإنزال حوائجه بربّه عزَّ وجلّ، ولزوم طاعته، وانتظار الفرَج منه سبحانه وتعالى، والانقطاع إليه، فحرمانه عطاء، وعقوبته نعماء، وبلاؤه دواء، ووعده حال، وقوله فعل، وكل أفعاله حسنة، وحكمة ومصلحة، غير أنه عزَّ وجلّ طوى علم المصالح عن عباده، وتفرّد به، فليس إلا الاشتغال بالعبودية، من أداء الأوامر واجتناب النواهي، والتسليم في القدر، وترك الاشتغال بالربوبية والسكون عن: لِمَ وكيف ومتى»[1].

● قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. فيه ردّ لكثير من بدع زماننا التي تضاهي البدع المذكورة في هذه الآيات، فإنَّك لو تأمَّلتَ فيهما لوجدتهما متطابقتين، وقد شاعت هذه الرسوم حتى في المدّعين للمشيخة.

● قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. دلَّ على تعليم التوحيد الكامل من الاستسلام في جميع أحواله التشريعية والتكوينية بأن يفوّض جميعها إليه تعالى، إطاعة لما أمر به، ورضا بما قضى به».

● قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ [الأعراف: ١٠]. حاصل الأول: الجاه، والثاني: المال، وذِكْرُهما في موقع

---

(١) المصدر السابق، نقلاً عن فتوح الغيب: ٧/ ١١٣ ـ ١١٤.

المنّة دليلٌ على كونهما نعمةً يجب الشكر عليهما، فلا يُذمّان، بل يذمّ الانهماك في تحصيلهما.

● قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١١٦].

أفادت الآية أموراً:

١ ـ عدم الاغترار بالخوارق.

٢ ـ كون التصرّف في الخيال أحد أقسام السحر، ومنه عمل التراب الشائع في زماننا الذي يسمّى (مسمريزم).

٣ ـ لا ينافي التأثر منه الكمال الباطني، فإنه عليه الصلاة والسلام قد تأثر منه، فمثل هذه الأفعال ليست بدليل على كون الفاعل من أهل الحق، ويلزم قدرتهم عليها.

● قوله تعالى: ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]

وفي الحديث الذي رواه الترمذي[1]: قرأ رسول الله ﷺ الآية لما قال بعضهم له ﷺ: «اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط»؛ فدلّت الآية بعد انضمام الرواية على قبح اتّباع الجهلة في رسومهم ولو دنيوية، فما بال من يتشبّه بهم في عبادة القبور، واتخاذ السُّرج، والستور عليها، وفي (روح المعاني) بعد

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، (٢١٨٠).

نقل الحديث: والناسُ اليومَ قد اتخذوا من قبيلِ ذاتِ أنواطٍ شيئاً كثيراً لا يحيطُ به نطاق الحصر[1].

● قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]

هذا حال كثير من متصوّفة زماننا، فإنهم يتهافتون على الشهوات، تهافت الفراش على النار، ويقولون: إنَّ ذلك لا يضرّنا، لأنّا واصلون، وحُكِيَ عن بعضهم أنَّه يأكل الحرام الصرف، ويقولون: إنَّ النفي والإثبات يدفع ضرره، وهو خطأ فاحش، وضلال بيّن، أعاذنا الله من ذلك.

● قوله تعالى: ﴿ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] لأنَّ ولاية الله تعالى لا بدّ فيها من التقوى، وغالب الجهلة اليوم على أن الولي هو المجنون، ويعبّرون عنه بالمجذوب، وكلما أطبق جنونه أو كثر هذيانه، واستقذرت النفوس السليمة أحواله كانت ولايته أكمل، وتصرّفه في ملك الله أتم.

وبعضهم يطلق الوليّ عليه وعلى من ترك الأحكام الشرعية ومرق من الدين المحمّدي، وتكلم بكلمات القوم وتزيّا بزيّهم، وليس منهم في عير ولا نفير.

● قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٣١]، فيه إشارة إلى ذم التقليد الصرف، كما اعتاده الجَهَلة، إذا منعتهم من الرسوم تشبّثوا بفعل مشايخهم.

---

(١) روح المعاني: ٩/ ٤٣.

● قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]. قرن القيام على قبر للزيارة، والدعاء بالصلاة على صاحبه، يدل على كونه نافعاً للميت، ومن ثم نُهي عنهما لمن لم يكن أهلاً لذلك النفع، وهذا النفع زائد على نفع الدعاء بالغيبة.

● قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

قال العبد الضعيف[1]: لما كانت التماثيل عامة للخارجي والذهني، والعكوف عاماً للمعبودية والمقصودية، ومن ثمّ سمّى رسول الله ﷺ الرياء شركاً، استدلّ الشيخ الشهيد الدهلوي رحمه الله بالآية على ذمّ تصوّر الشيخ المتعارف عند الغُلاة منهم، وأما وجودها في الذهن من غير قصد مستقلاً، ومع عدم العكوف عليها بأن يستحضرها إذا غلب عليه الحُب مثل سائر المحبوبات، ولا يهتم بإبقائها إذا غابت عن الذهن فلا بأس به، ويدلّ على عموم العكوف، والتماثيل لغير الأصنام ما في (روح المعاني) برواية ابن أبي شيبة وغيره عن علي رضي الله عنه أنه مرَّ بقوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[2]، فإن العكوف لغة: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم، وقيل: اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض،

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ٥٩.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٥/ ٢٨٧، رقم (٢٦١٥٨)؛ شعب الإيمان للبيهقي: ٥/ ٢٤١، رقم (٦٥١٨)؛ وذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، ص٤٢١؛ والإمام أحمد بن حنبل في الورع، ص٩٢.

وهو على التفسيرين دون العبادة.

● قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ . . .﴾ [الحج: ٧٣]. فيه تربية المخاطب بما يناسب استعداده، كما هو ظاهر من التمثيل، وفي (روح المعاني): إشارة إلى ذم الغالين في أولياء الله، حيث يستغيثون بهم في الشدّة غافلين عن الله تعالى، وينذرون لهم النذور، والعقلاء منهم يقولون: إنهم وسائلنا إلى الله، وإنما ننذر لله عزَّ وجلّ، ونجعل ثوابه للوليّ، **ولا يخفى أنهم في دعواهم أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين**: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم أو ردّ غائبهم أو نحو ذلك، والظاهر من حالهم الطلب، ويرشد إلى ذلك أنه لو قيل: انذروا لله تعالى واجعلوا ثوابه لوالديكم، فإنهم أحوج من أولئك الأولياء، لم يفعلوا[1].

● قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]

فيه أبلغ تصريح، حيث لا يفوقه تصريح بوجوب اتّباع الشريعة، حتى على سيّد الأنبياء ﷺ، فكيف لغيره؟! وأنَّ ما يخالف الشريعة هو هوًى بحتٌ، ليس في شيء من الحقّ، فما بال من يتهاون فيه علماً أو عملاً، ثم يعدّ نفسه في الكاملين المقرّبين؟!.

● قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]. فيه ردّ على من

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ٢١٢.

يزعم النجاة أو القبول من دون العمل، بمحض الانتساب إلى صالح، فظاهراً أو باطناً، أو اعتماداً على بعض التبرّكات، ككثير من الجهلة المتزيّين بزيّ الصوفية.

● قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ . . . ﴾ [فصلت: ٤٠]. دخل فيه غُلاة الصوفية في نفيهم التفسير المنقول، واختراعهم ما يخالف الأصول.

كانت هذه بعضَ النماذج، ونبذاً يسيراً من تلك المسائل التي استنبطها المؤلف رحمه الله من الآيات القرآنية، في مجال السلوك والتزكية والإحسان، وأكتفي بهذا القدر، سائلاً المولى عزَّ وجلّ أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتّباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

* * *

١٧ ـ إصلاح انقلاب الأمة[1]

إنَّ كتاب (إصلاح انقلاب الأمة) للعلامة أشرف علي التهانوي؛ كتاب يتّسم بالمحاولات التجديدية قام بها الشيخ في مجال إصلاح الأمة الإسلامية وقد تناول فيه جميع مجالات الحياة، وما طرأ عليها من تصرفات وآثار لا تتوافق والشريعة الإسلامية، ثم قدّم التعليمات الإسلامية بكل وضوح وتفصيل.

إنَّ الأمة الإسلامية والمجتمع الهندي بصفة خاصة، والذي قد تسرّبت إليها مفاسد ومخالفات شرعية كانت محطّ عناية الشيخ التهانوي، ويعتبر هذا الكتاب جزءاً مهماً من تلك الجهود الإصلاحية التي قام بها رحمه الله، يقول الشيخ العلاّمة محمد تقي العثماني في تقديمه للكتاب:

«لقد استعرض الشيخ التهانوي في هذا الكتاب بكل دقة وحكمة، جميع المفاسد والأخطاء التي كانت قد لحقت بحياتنا الاجتماعية والشخصية والتي عرَّضت مجتمعنا لأنواع من البلاء والآفات، وقد تضمن هذا الكتاب شرح الأحكام الشرعية التي تتعلّق بالنكاح، والمهر، والنفقة، والعدل، والرضاعة، والطلاق، واللقطة، وحقوق العباد الأخرى. مع الإشارة إلى جوانب القصور

---

(١) من دراسة الأخ حسيب الرحمن الندوي بعد تعديل يسير.

في الفهم والعمل، التي تشوّه مجتمعنا الإسلامي، وتؤدي إلى عواقب وخيمة مهلكة.

كما قام رحمه الله بتحديد مواضع الضعف وأماكن السقم، ووصف علاجها الصحيح في ضوء الكتاب والسنة».

وقد قسم الكتاب إلى جزأين:

الجزء الأول: يتحدّث عن العقائد والعبادات المقصودة من صلاة وصيام وزكاة وحج وأضحية، وعن معاملات البيع والشراء، وعن شؤون المعاشرة؛ مثل: الطعام واللباس والكلام، وعن الأخلاق الباطنة؛ مثل: الرياء والحسد، وما إلى ذلك من الأمور.

وأما **الجزء الثاني**: فقد خصَّصه الشيخ بما يتعلّق بالنكاح والطلاق وما لحق بهذا الموضوع من أخطاء ناشئة عن الجهل بالدين.

وبما أن الكتاب يتناول جميع ما يمسّ الحياة الإسلامية من موضوعات ومجالات؛ فأرى من المناسب أن أقسم الكتاب إلى فصول عديدة حسب الموضوعات التي تكلّم عنها الشيخ في هذا الكتاب.

الفصل الأول: أهمية الكتاب:

يتناول الشيخ في هذا الفصل ضرورة وأهمية الكتاب، وكيف أن الطبقة المتجددة التي تثقّفت بالثقافة الغربية على أيدٍ لم يكن لها نصيب من الشريعة الإسلامية؛ انحرفت عن جادة الطريق الصحيح بسبب قلّة معرفتها بالشريعة

الإسلامية إلى أنها رفضت الدين بأصله، ثم يقوم الشيخ بمناشدة الأمة الإسلامية للرجوع إلى دينها الحنيف.

الفصل الثاني: إصلاح انقلاب الأمة:

يتناول الشيخ في هذا الفصل: الطرق والأساليب التي يمكن بها إصلاح انقلاب الأمة الإسلامية، ويقدِّم دستورَ العمل لكلٍّ من الرجال والنساء وعلماء الأمة، كل على حدة، كما يتحدّث عن أساليب إزالة ضعف الهمة، وضرورة علماء الدين، وطرق تصحيح الأخطاء وآداب الاستفتاء والاستماع إلى المواعظ وصحبة أهل الكمال، ومضار صحبة أهل السوء وضرورة القيام بتعليم أهل البيت.

الفصل الثالث: القصور في أداء حقوق كتاب الله عزَّ وجلّ:

نبَّه الشيخ فيه على جوانب القصور المتعلّقة بكتاب الله عزّ وجلّ، وأكّد على ضرورة إنشاء مدارس لتعليم القرآن الكريم وفضائل تلاوته، وأشار إلى قصور أهل العلم وإهمالهم هذا الجانب المهم، وقدم دستور العمل للعلماء والقائمين بإدارة المدارس، بالإضافة إلى الإهمال في آداب التلاوة ومعنى تضمن القرآن الكريم جميع العلوم، وعدم جواز استخدام القرآن الكريم لأعمال السحر والشعوذة والأغراض غير الشرعية، وتسخير الجن واكتساب المال، وما إلى ذلك.

الفصل الرابع: القصور في أداء حقوق رسول الله ﷺ:

يتحدّث فيه الشيخ عن تعامل المتجددين مع شخصية الرسول ﷺ،

وضرورة صحبة الربانيين والعلماء، كما ينبّه على خطأ من يرى نفسه في الجنة وغيره في النار، وكذلك عظمة النبي الكريم ﷺ بوصفه حامل الوحي، ويتطرق إلى بيان أن كل حكمة ليست علة للحكم الشرعي، ولا هي مقصودة بذاتها، وحقيقة متابعته واتّباعه ﷺ.

الفصل الخامس: القصور في أداء الصلاة:

يتحدَّث فيه الشيخ عن القصور الواقع في أداء الصلاة من المرأة والرجل، وطرق تجنب هذا القصور، كما تعرّض لموضوع التأخير في أداء الصلاة من قبل بعض العلماء والمشايخ، وذكر العلاج لهذا المرض بالإضافة إلى آثار الصلاة وبركاتها وتعديل أركان الصلاة والخشوع فيها وحقيقة الخشوع.

الفصل السادس: القصور في أداء الصيام:

يحتوي على حديث عن رؤية الهلال، والموضوعات ذات الصلة بالصيام، مع الإشارة إلى ظاهرة التفريط والإفراط في هذا الباب، ومعنى تصفيد الشياطين في رمضان، ومسائل السحور، والإفطار، والتراويح، وصدقة الفطر، وصلاة العيد.

الفصل السابع: القصور في أداء الزكاة:

يتحدَّث الشيخ فيه عن مسائل الزكاة وما تجب فيه الزكاة، والأخطاء التي تحصل في محاسبتها وعن مصارف الزكاة، كما تطرَّق لأحكام صدقة الفطر وجلود الأضاحي.

الفصل الثامن: القصور في باب الحج:

يتحدَّث فيه الشيخ عن جوانب القصور في باب الحج؛ فيبين أن زيارة المدينة ليست ضرورية لكمال الحج، وحكم الحج عن طريق التسوّل، وحكم الحج من دون محرم.

الفصل التاسع: القصور في باب الأضاحي:

يتكلَّم فيه الشيخ عن الأضحية والمسائل المتعلقة بها، وعن الأخطاء التي تقع فيها بسبب الجهل المنتشر بين الناس.

الفصل العاشر: جوانب القصور في بعض العبادات المالية الأخرى:

يتحدَّث الشيخ في هذا الفصل عن موضوع استخدام الوقف في غير مصرفه، وحكم وقف سائر الممتلكات والتقصير الواقع في هذا الباب.

الفصل الحادي عشر: كفارة اليمين المالية:

يتحدَّث فيه الشيخ عن أحكام الكفارة وشروطها، وأن الكفارة الواحدة لا تكفي لعدد من الأيمان، وأن التمليك شرط لأداء الكفارة.

الفصل الثاني عشر: القصور في النذر المالي:

يتحدَّث فيه الشيخ عن الأخطاء التي تتعلَّق بالنذر المالي، وأنه يجب الوفاء بالنذر المعلّق إذا تحقق الشرط وإن لم يكن الشرط دائماً، كما يتحدث فيه عن عدم جواز استعمال شيء من القبر ولو في الأعمال الصالحة، وأن النذر

المالي لا يتأدى بالدفع إلى الأغنياء، وأن النذر بما هو غير جائز لا يجوز، كما أنه لا يصح النذر بما لا يقدر عليه الإنسان.

الفصل الثالث عشر: جوانب القصور في فدية الصلاة والصيام:

يتحدَّث فيه الشيخ عن التقصير في موضوع الصلاة والصيام، وأنه تجب الوصية بالفدية إذا عجز الإنسان عن أداء شيء منها في حياته، كما أنه لا ينبغي أن يقصِّر فيها اعتماداً على الفدية، وصور جواز الفدية في الحياة، وأن الفدية التي لا توافق الشريعة لا تتأدى، وخلاصة ما جاء في هذا الفصل.

الفصل الرابع عشر: جوانب القصور في الصدقات:

يتحدَّث فيه الشيخ: أنّ الشريعة تحثّ على الصدقات النافلة أيضاً، وأن المغالاة في الصدقات النافلة غير صحيحة، وأن الصدقات يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى، وأنها شرك إذا كانت لغيره، وأنه لا يجوز التصدّق بجميع الأموال بحيث يؤدي ذلك إلى حرمان الوارثين، وأن تحديد التاريخ والوقت للتصدق بدعة، وما إلى ذلك من الأمور التي تتعلّق بالموضوع.

الفصل الخامس عشر: القصور في التبرّعات المالية المختلفة:

يتحدَّث فيه الشيخ عن الآداب التي تجب مراعاتها في التبرعات المالية وكيفية التعامل مع المحتاج والإحسان إليه، كما يتحدّث عن استحباب الإقراض إذا قدر عليه لكونه من أبواب البر والإحسان، ووجوب الإمهال للمعسرين، وموضوع الاستفادة بالرهن، وتحقيق موضوع البيع بالوفاء، وما إلى ذلك من الأمور.

الفصل السادس عشر: القصور فيما يتعلّق بالموتى:

يتحدَّث فيه الشيخ عن القصور الحاصل في هذا الباب، مثل وجوب المواظبة على الصلاة حتى في حالة المرض ما أمكن، وعدم جوازها قاعداً مع القدرة على القيام، وعدم جواز النظر إلى عورة المريض إلا للضرورة، وتجنّب الأدوية المحرَّمة، وطريقة الدعاء في حالة المرض، وما إلى ذلك.

الفصل السابع عشر: القصور فيما يتعلق بالسفر:

يتحدَّث فيه الشيخ عن السفر، والتقصير الذي يحصل بعد الشروع في السفر، وعن القصور في الإجارة، وألا يصطحب من الأغراض أكثر مما هو مسموح به قانوناً في القطار وغيره من المركبات، وعن ضرورة إبلاغ المضيف مسبقاً عن زيارته له، وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة بالسفر.

الفصل الثامن عشر: القصور في تعليم المرأة:

يتحدَّث فيه الشيخ عن القصور الحاصل في مجال تعليم المرأة، وانقسام المجتمع المسلم إلى ثلاث فئات فيما يتعلّق بتعليم المرأة، وعن الشبه المثارة في هذا المجال والرد عليها، وعن أسلم الطرق لتعليم المرأة وغيرها من الأمور التي تمس الموضوع[١].

---

(١) وقد سبق أن تحدَّثنا في الباب الثالث، ص(٢٠٦) بالتفصيل عن جهود الشيخ رحمه الله الإصلاحية في مجال تعليم المرأة المسلمة.

الفصل التاسع عشر : القصور في حقوق الأساتذة والتلاميذ والزملاء :

يتحدَّث فيه الشيخ عن التقصير الذي يحصل في حقوق الأساتذة، وعن آداب المعلم وحقوقه، وآداب المتعلم أمام الأساتذة، وما يجب عليهم نحو أساتذتهم من الحقوق وكذلك العكس. كما يذكر رحمه الله وصية الرسول ﷺ بهذا الخصوص، ونصائح عامة للطلبة والأساتذة.

ثم يتحدّث الشيخ عن حقوق الزملاء؛ فيذكر أن الزميل والجار هو الأخ في الدين، فيجب أن يعامَل معاملة الأخ، وأن الزميل في الدرس إذا لم يستطع أن يحضر الدرس لسبب ما فيجب على الزميل إخباره بما جرى في الفصل.

* * *

وأما **الجزء الثاني** من هذا الكتاب فهو يحتوي على الموضوعات التالية :

الفصل الأول : الإصلاح في مجال النكاح :

يتحدَّث الشيخ في هذا الباب عن الأمور التي يجب الاعتناء بها، وعن المفاسد التي تنجم عن إهمالها وعدم الاهتمام بها؛ مثل: النكاح من غير ضرورة، رغم العاهات المانعة منه، وعدم حصول المصالح الشرعية من الزواج إذا عقد النكاح من غير موافقة تامة، وما يترتب من المشاكل والمفاسد بسبب عدم مراعاة العمر بين الزوجين، وعن المفاسد التي تنجم عن تعدّد الزوجات من غير ضرورة، وبباعث من الشهوة، وكون تعدّد الزوجات من الإثم لبعض الأسباب، كما أن إنكار تعدّد الزوجات هو نتيجة اتّباع الملحدين الأوروبيين، وعن المفاسد الدنيوية والدينية التي تسود المجتمع بسبب تأخير زواج البنت بعد بلوغها.

الفصل الثاني: الغلو المذموم في جميع الأمور:

وفي هذا الفصل يتحدّث الشيخ عن ضرورة التأكد من ثلاثة أمور في الزوج، وأنه من الجهل اعتبار الزواج بالأرملة عيباً، والمفاسد التي تحصل بسبب عدم تزويج الأرملة، وعن ترغيب الأرملة في الزواج بالموعظة والنصح، والمفاسد التي تحصل عن الزواج من غير رضا الزوجين، والولاية الجبرية على الصغير والصغيرة، وعن ضرورة معرفة رأي الزوجين في العصر الحاضر، وشرح وبيان أن الشريعة تراعي المصالح البشرية وتقدّر العواطف الإنسانية، والهدف الأساس من النكاح هو حصول التوافق والمودة بينهما، وأن الزواج المبني على الدِّين هو الذي يضمن العيش الرغيد الهنيء بغاية من المودة والاطمئنان، وأنَّ المال والجمال وحدَهما لا يضمنان استمرار الحب بينهما، وعن الأحوال التي يجب فيها النكاح أو يُسنّ أو يمنع، وما هو حكم ترك النكاح، والطمع في مال المنكوحة أمر غير محمود، وضمان حفظ المصالح في اعتبار الكفاءة، والمفاسد التي تظهر بسبب النكاح في الصغر، كما تناول الشيخ بعض المسائل الفقهية المتعلقة بالنكاح.

الفصل الثالث: تصحيح بعض الأخطاء فيما يتعلّق بالحلال والحرام:

يتحدَّث فيه الشيخ عن الخطر الذي تتعرّض له الشريعة إذا أقدم على الاجتهاد كل من هبَّ ودبّ، والردّ على الفتوى الصادرة بجواز النكاح بمنكوحة الجد الحقيقي من أحد أدعياء الاجتهاد، والأمثلة الخطيرة للتفسير بالرأي.

الفصل الرابع : آفة كثيرة الشيوع :

يتحدّث الشيخ تحت هذا العنوان عن الأخطاء المتعددة الأنواع الشائعة في المجتمع، والمتعلقة بالمصاهرة، فيذكر حرمة الزوجة على زوجها إذا مسّ الرجل أمها أو بنتها بالشهوة، وأن هذه الحرمة من خواص هذا الفعل، وليس عقاباً له على فعله[1]، ثم تطرّق إلى تقليد الرجل غير إمام مذهبه استجابةً للهوى والرغبات النفسية.

الفصل الخامس: حرمة الرضاعة :

يتحدَّث فيه الشيخ عن الأمور الشائعة في المجتمع حول الرضاعة، فيذكر أن إرضاع الطفل من القابلة خلاف الاحتياط، وأنَّ اتّباع الشريعة يجلب للمتبع سمعة طيبة وليس سمعة سيئة، ثم تعرّض لبعض المسائل الفقهية المتعلّقة بالمفقود الخبر من الأزواج، وبيّن أنَّ المخطوبة حرام على الخطيب قبل الزواج، وأنَّ المتعة والنكاح المؤقت حرام بالإجماع، كما تناول فيه موضوع تعدّد الزوجات... وما إلى ذلك من المفاهيم الخاطئة السائدة في المجتمع حول النكاح، وطرق إصلاحها.

الفصل السادس: الولاية على الصغار :

يتناول فيه الشيخ الأمور المتعلقة بالولاية على الصغار فيما يتعلّق بالزواج، وأنَّ موافقة البكر: سكوتها، وأحكام النكاح الموقوف، وأحكام فسخ النكاح،

---

(١) هذا الحكم تفرَّد به الحنفية دون سائر المذاهب. (ن).

والحقوق الحاصلة للبنت إذا زُوِّجت مكرهة، وجواز تزويج البالغة نفسها في حالة إهمال الولي.

الفصل السابع: إصلاح الأمور المتعلقة بالكفاءة:

يتناول فيه الشيخ ما يتعلّق بموضوع الكفاءة، من أنَّ الأمَّ لا تعتبر في كفاءة النسب، والافتخار بالنسب لا قيمة له شرعاً، وأن الشريعة تعتبر الكفاءة النسبية، وأن الإفراط والتفريط في اعتبار الكرامة النسبية مذمومان شرعاً، وعن ضرورة التأكد من عقيدة الشخص المتزوج قبل الزواج، كما أنه تكلم عن موضوع زواج الجن مع الإنس وما يتعلق بهذا الموضوع من مسائل.

الفصل الثامن: إصلاح الأمور المتعلّقة بالمهر:

يتناول فيه الشيخ موضوع المهر، فيذكر وجوبه، والإثم الذي يلحق بالرجل إذا مات وكان ينوي عدم دفع المهر، وأنه يعدّ من الزناة، والفرق بين النكاح والزنى، وكراهة المغالاة في المهر في ضوء الحديث النبوي الشريف، ومفاسدها... وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة بالموضوع.

الفصل التاسع: إصلاح الأمور المتعلقة بالعدل بين الزوجات:

يتناول فيه الشيخ جوانب التقصير في العدل بين الزوجات، وأنَّ العدل واجب في النفقات والليالي، وأنَّ الحب القلبي لا يدخل في إطار العدل، ووجوب العدل بين الزوجات في تقديم الهدايا والتبرعات، وأهمية إقامة العدل، وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة به بين الأزواج.

الفصل العاشر: إصلاح الأمور المتعلقة بالرضاعة:

يذكر في هذا الباب الموضوعات التي تتعلّق بالرضاعة من شروط ثبوت حرمة الرضاعة، وصور حرمة الرضاعة، ووجوب إذن الزوج في إرضاع الغير، وأن الاختلاء مع الأخت من الرضاعة ممنوع، وضرورة احترام المرضعة، وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة بالموضوع.

الفصل الحادي عشر: أبواب الطلاق وما يلحق به:

يتناول فيه الشيخ جوانب التقصير فيما يتعلّق بالطلاق، ويذكر أن الطلاق ليس عيباً إذا استدعته الضرورة والمصلحة، وأن الإفراط والتفريط في الطلاق كلاهما مذموم، وهو ممنوع من دون حاجة شديدة، ومن الإثم أن يوقع الرجل ثلاث تطليقات مرة واحدة، وما هي المفاسد الدنيوية التي تترتّب على الطلاق الثلاث مرة واحدة.

الفصل الثاني عشر: باب النفقات الروحانية:

يذكر الشيخ في هذا الباب مفهوم النفقات الروحانية، وأهمية تربية الزوجات والأولاد تربية روحانية وجسمانية، وأن التربية الروحانية أهم وأشد من التربية الجسمية، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في حقوق الزوجات والأولاد، وأن التعليم الديني واجب وضروري للبنات، وأن الثقافة الحقيقية هي الثقافة الدينية، ثم يتطرّق الشيخ إلى ذكر القواعد الضرورية للتعليم والتربية، والكتب التي تساعد على إصلاح الأعمال والأخلاق، وطرق تربية الأولاد، بالإضافة إلى ذكر بعض الآداب الإسلامية للحياة.

الفصل الثالث عشر : إصلاح الأمور المتعلقة باللقطة :

يحتوي هذا الفصل على مفهوم اللقطة، وما يحصل من تقصير في هذا الباب، ويذكر أنه إذا كان هناك احتمال ضياع الأغراض فالتقاطها واجب، كما أن الالتقاط لغرض شخصي أو ذاتي يعتبَر إثماً، وأن الإعلان باللقطة واجب، ويبيّن الطرق لأداء الحقوق المجهول أهلها، وما إلى ذلك من الأمور المتعلّقة باللقطة.

الفصل الرابع عشر : إصلاح الأمور المتعلقة بالمفقود :

يذكر الشيخ في هذا الباب جوانب التقصير في هذا المجال وضرورة الاحتفاظ بنصيب المفقود من الإرث، والفرق بين مال المفقود وأمانته، وأن مدة الانتظار الطويلة للمفقود هي من باب الاحتياط، ويذكر بعض الشبه فيما يتعلّق بأحكام المفقود ويدحض تلك الشبه، وغير ذلك من الأمور المتعلقة.

الفصل الخامس عشر : إصلاح الأمور المتعلقة بالتعزير والتعيير والتكفير :

يتناول الشيخ في هذا الباب مفاهيم التعزير والتعيير والتكفير، وينبّه إلى الخطأ العلمي فيما يتعلّق بالحقوق على العباد، وأن حقوق العباد تنقسم إلى ثلاثة أقسام، كما يذكر أنه لا يمكن تطبيق التعزير من دون ثبوت شرعي، بالإضافة إلى بيان طرق إثبات الشهادة الشرعية، وأن التعزير بالمال لا يجوز في شريعتنا، وأن الكشف والإلهام والرؤيا لا يثبت بها الزنى، وأن التصديق بخبر ما عن طريق السحر والجن والكهانة قريب من الكفر، وأن الشريعة هي مدار العلم والعمل عند المسلمين، وأنَّ الاحتياطَ لازم في إصدار فتوى الكفر، كما

يذكر بعض شروط إصدار فتوى الكفر، وأن مراعاة الحدود الشرعية واجبة في كل الأمور، وأن الإنسان إذا جدّد إيمانه بعد ثبوت كفره يجب عليه أن يعيد النكاح والحج أيضاً.

هذه نظرة سريعة على موضوعات يحتوي عليها هذا الكتاب العظيم، الذي ألّفه الشيخ التهانوي لإصلاح الأمة المسلمة وتطهيرها مما لا يرضاه الله ورسوله ﷺ، ويعد هذا الكتاب من الكتب الجليلة النفع، والعظيمة الفائدة، وقد عدّه بعض العلماء من الكتب التي تتسم بطابع التجديد في الدين.

رحم الله صاحب هذا الكتاب ورحمنا معه، وأدخلنا جميعاً في جنات النعيم.

* * *

كلمة أخيرة

كانت هذه إلمامة ببعض مؤلفات الإمام التهانوي رحمه الله، ولا شكَّ أنَّ هناك الكثير الكثير من هذه المؤلفات الذي ذاع صيته، وشاع نفعه بين العامة والخاصة، وتناولته أيدي المستفيدين، وتداولته ألسنة المسترشدين وطالبي الإصلاح في شبه القارة الهندية، وقرّرت المراكز التعليمية والمؤسسات التربوية إدخاله في مقرراتها الدراسية ومناهجها التعليمية، كما أن هناك عدداً كبيراً من هذه المؤلفات اعتنى بها العلماء وخدموها من جوانب مختلفة؛ مرة بالتسهيل والتيسير، ومرة بنقلها إلى عدة لغات محليّة وعالمية، فعندنا قائمة كبيرة من المؤلفات عدّها وأحصاها الشيخ عزيز الحسن المجذوب[1] ـ رحمه

---

(١) لقد ذكر الشيخ عزيز الحسن بالتفصيل تلك المؤلفات التي تناولها العلماء بالترجمة والتحقيق والتسهيل، علماً أن أهم اللغات التي ترجمت إليها مؤلفات الشيخ التهانوي رحمه الله هي:
١ ـ اللغة الإنكليزية، ٢ـ اللغة البنغالية، ٣ ـ لغة بشتو، ٤ـ اللغة البرهمية، ٥ـ اللغة السندهية، ٦ـ اللغة الكجراتية، ٧ـ اللغة الهندية.
ومن الجدير بالذكر أنه قد تمت ترجمة الكتاب (حلية أهل الجنة) إلى اللغة الفرنسية كذلك، قام بها أحد العلماء المدعو بإبراهيم بك البوفالي المقيم في مدينة (سنيت بيري) إحدى مدن أمريكة، والمحتلة من قبل فرنسة.
انظر لمزيد من التفصيل: أشرف السوانح: ٣/ ٣٦٣ ـ ٣٧٤.

الله ـ والتي قد ترجمت إلى اللغة الإنكليزية والفارسية والبنغالية، أما اللغات المحليّة الهندية ـ المنتشرة في شبه القارة الهندية ـ فحدّث ولا حرج، فقد ترجمت أغلب مؤلفاته رحمه الله إليها.

وهكذا خلّف حكيم الأمة التهانوي رحمه الله مكتبة عامرة بالكتب الدينية والدعوية والثقافية والفكرية والإصلاحية، تُغذّي الأرواح البشرية، وتقوّي أذهانهم، وترشدهم إلى الخير والصلاح، وتدرّبهم على الورع والتقوى، وتعينهم على أداء حقوق العباد ورب العباد.

ومما لا ريب فيه أن هذا التراث العلمي الرائع الثري الضخم الذي فاض به قلم العلاّمة التهانوي ودبجه يراعه، في فترة زمنية محدّدة تعجز عن إنجازه الأكاديميات والمجامع، وطائفة من الكُتاب والمؤلّفين، إلا أن فضل الله عليه كان عظيماً، ومنّه عليه كبيراً؛ إذ وفّقه للقيام بهذه الأعمال العلمية، وأجرى على قلمه هذه الموضوعات المهمة والتحقيقات النادرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

هذا وقد تمّت طباعة كل هذه الكتب في حياته رحمه الله، بل طبع البعض منها عدة طبعات ونفدت، وبيعت من هذه الكتب مئات الآلاف من النسخ، ولو أراد الشيخ لكسب الملايين عن طريق حفظ حقوق نشرها وتوزيعها، أو بيع تلك الحقوق، لكن ورعه وتقواه لم يسمح له بأن يفكّر في هذا الجانب بأية لحظة، وهكذا ديدن الصالحين، وطبيعة أولياء الله، فإنهم لا تهمّهم الدنيا وزخارفها إلا قدر الحاجة وسدّ الضرورة الأساسية.

ولا شيء أدلّ على إخلاصه لله في منهجه الدعوي، وأسلوبه الإصلاحي، من أنه لم يطلب من أحد حقاً من حقوق التأليف، أو قام بحفظه له فيما بعد، بل أذن للجميع أن يقوموا بنشر كل مؤلفاته وجميع كتبه ورسائله، دون أي استفسار أو استئذان[1].

وفعلاً فقد أثمرت تضحيته هذه ثماراً يانعة، ولعبت دوراً بارزاً في إطار نشر الوعي الديني، وترشيد الصحوة الإسلامية، وتناول كلُّ الطبقات من البشر رسائله بكل سهولة ويسر، وانتفع بها الجميع، وعمَّ الخير بين الناس كلهم، وتمكّنوا من اقتناء ما احتاجوا إليه من هذه المؤلّفات بأسعار رمزية.

وهكذا تسنّى للشيخ رحمه الله تبليغ دعوته ونشر فكره ومنهجه تجاه الإصلاح ورفع كلمة الله، وبثّ الدعوة الإسلامية في كل الأوساط، بالحكمة والموعظة الحسنة، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

---

(١) حكيم الأمة ومجدّد الملّة، الشيخ أشرف علي التهانوي، تعاليمه وخصائصه، ص٢٧.

مصادر ترجمة التّهانوي

١ ـ أشرف السوانح، في أربعة مجلدات، ألّفه الشيخ الخواجه عزيز الحسن المجذوب، رحمه الله.

٢ ـ حكيم الأمة مجدّد الملّة الشيخ أشرف علي التهانوي، ألّفه الأستاذ نجم الحسن التهانوي.

٣ ـ الشيخ التهانوي: شيء من أحواله ومآثره وخدماته، ألّفه السيد منوّر حسن الكاظمي.

٤ ـ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، لمؤلّفه العلاّمة الشريف الشيخ السيّد عبد الحي الحسني رحمه الله.

٥ ـ سيرة الشيخ أشرف علي التهانوي.

٦ ـ موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري في العالم العربي والإسلامي، للأستاذ إبراهيم بن عبد الله الحازمي.

٧ ـ تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع.

٨ ـ مقدّمة كتاب (كاروان تهانوي)، للشيخ محمد سالم القاسمي، مدير دار العلوم، ديوبند.

٩ ـ **مقدمة إعلاء السنن**، المجلد الأول، للشيخ العلاَّمة محمد تقي العثماني.

١٠ ـ **مقدمة كتاب (بزم أشرف كى جراغ)**: (مصابيح المحافل الأشرفية) للشيخ الأستاذ أحمد سعيد.

* * *

فهرس المصادر والمراجع(١)

١ ـ **آداب الإفتاء والاستفتاء**، للشيخ محمد زيد المظاهري الندوي، ط : إفادات أشرفية بانده ـ الهند، ١٤١١هـ.

٢ ـ **أسعد الأبرار**، للشيخ أبرار الحق، ط : دار الإشاعة ـ دلهي، الهند.

٣ ـ **أشرف الإرشاد في حقوق العباد**، جمع وترتيب محمد إقبال القريشي، ط : مكتبة فريد المحمودة ـ دلهي.

٤ ـ **أشرف السوانح**، للشيخ الخواجه عزيز الحسن المجذوب، ط : إدارة التأليفات الأشرفية، ملتان ـ باكستان، ١٤٠٦هـ.

٥ ـ **أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة**، للشيخ أشرف علي التهانوي، ط : مركز إدارة تبليغ دينيات ـ دلهي، الهند.

٦ ـ **أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند**، للشيخ العلاَّمة أبي الحسن علي الندوي، ط : المجمع العلمي الإسلامي ـ الهند.

---

(١) لم أتناول في هذا الفهرس أسماء كتب التفسير والحديث الشريف والفقه التي استفدتُ منها في إنجاز هذا البحث وأحلت إليها في توثيق النصوص.

٧ ـ **إظهار الحق**، للشيخ رحمة الله الكيرانوي، ط: الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية ـ الرياض.

٨ ـ **إعلاء السنن**، تأليف: المحدِّث الناقد ظفر أحمد العثماني على ضوء ما أفاده الشيخ الفقيه أشرف علي التهانوي، تحقيق: العلاَّمة القاضي محمد تقي العثماني، ط: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ـ كراتشي، باكستان.

٩ ـ **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان**، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط: دار المعرفة ـ بيروت.

١٠ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، لابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل، ط: دار العاصمة ـ الرياض.

١١ ـ **إمداد الفتاوى**، للشيخ أشرف علي التهانوي، ط: مكتبة دار العلوم ـ كراتشي، باكستان، والطبعة الهندية كذلك.

١٢ ـ **أنفاس عيسى**، للشيخ محمد عيسى الإلـٰه بادي، ط: إدارة تأليفات أولياء ديوبند.

١٣ ـ **بزم أشرف كى جراغ (مصابيح المحافل الأشرفية)**، للأستاذ أحمد سعيد، ط: دار الكتب ـ دوبند يوبي، الهند.

١٤ ـ **بصائر وعبر**، للشيخ العلاَّمة محمد يوسف البنوري.

١٥ ـ **بوادر النوادر**، للشيخ أشرف علي التهانوي، ط: مكتبة جاويد ـ ديوبند، ١٩٩٥م.

١٦ ـ **بيان القرآن**، للشيخ أشرف علي التهانوي، ط: أشرف المطابع ـ تهانه بهون، الهند، ١٣٥٣هـ.

١٧ ـ **بين التصوف والحياة**، للشيخ الأستاذ عبد الباري الندوي، تعريب: سعادة العلاَّمة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، ط: مكتبة دار الفتح ـ دمشق، ١٩٦٣م.

١٨ ـ **تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر**، للعلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

١٩ ـ **تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع**.

٢٠ ـ **حكيم الأمة، نقوش وتأثرات**، للشيخ عبد الماجد الدريابادي.

٢١ ـ **دار العلوم ديوبند مدرسة فكرية توجيهية، حركة إصلاحية دعوية، مؤسسة تعليمية وتربوية**، للشيخ عبيد الله الأسعدي، ط: أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية، دار العلوم ـ ديوبند، ١٤٢٠هـ.

٢٢ ـ **الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها**، للشيخ العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي، ط: المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء ـ لكنو.

٢٣ ـ **علماء ديوبند اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي**، للشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي، تعريب: فضيلة الأستاذ نور عالم خليل الأميني، ط: الجامعة الإسلامية، دار العلوم ـ ديوبند، ٢٠٠٢م.

٢٤ ـ **الفوز الكبير في أصول التفسير**، للشيخ الإمام ولي الله الدهلوي، ط: المكتبة العلمية ـ لاهور، باكستان، ١٩٧٠م.

٢٥ ـ **قواعد في علوم الحديث**، للشيخ المحدث العلاَّمة ظفر أحمد العثماني التهانوي، تحقيق: العلاَّمة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ط: دار السلام للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ.

٢٦ ـ **كاروان تهانوي (من قوافل التهانوي)**، للشيخ الحافظ محمد أكبر شاه البخاري، ط: إدارة المعارف ـ كراتشي، باكستان.

٢٧ ـ **المصالح العقلية للأحكام النقلية**، للشيخ أشرف علي التهانوي، ط: مكتبة التهانوي ـ ديوبند.

٢٨ ـ **المعاصرون**، للشيخ الأديب المفسّر عبد الماجد الدريابادي.

٢٩ ـ **مقالات الكوثري (للشيخ الإمام المحدِّث النقاد محمد زاهد بن الحسن الكوثري)**، ط: مطبعة الأنوار ـ القاهرة، ١٣٧٢هـ.

٣٠ ـ **ملفوظات كمالات أشرفية**، للشيخ أشرف علي التهانوي، مكتبة جامي إلـه باد ـ الهند.

٣١ ـ **المهند على المفند**، للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ط: المكتبة اليحيوية ـ سهارنفور.

٣٢ ـ **موائد العوائد**، للشيخ أشرف علي التهانوي.

٣٣ ـ **موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري في العالم العربي والإسلامي**، لمؤلفه: إبراهيم بن عبد الله الحازمي، ط: دار الشريف ـ الرياض، ١٤١٩هـ.

٣٤ ـ **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، للشيخ الشريف العلاَّمة عبد الحي الحسني، ط: نور محمد كارخانه تجارت كتب كراتشي ـ باكستان، ١٣٩٦هـ.

٣٥ ـ **نشر الطيب في ذكر النبي الحبيب**، للشيخ أشرف علي التهانوي، شركة تاج المحدودة ـ كراتشي، لاهور، باكستان.

٣٦ ـ **نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ العلاَّمة محمد أنور الكشميري**، للشيخ العلاَّمة المحدّث محمد يوسف البنوري.

٣٧ ـ **يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن**، للشيخ محمد يوسف البنوري، ط: مجلس الدعوة والتحقيق ـ كراتشي، ١٣٩٦هـ.

٣٨ ـ **يادرفتكان**، للعلامة السيد سليمان الندوي.

٣٩ ـ **الأفكار السياسية، للشيخ حكيم الأمة التهانوي**، لمؤلفه الشيخ العلاَّمة محمد تقي العثماني، ط: مكتبة ملت ـ ديوبند، الهند.

المجلات والدوريات:

٤٠ ـ **مجلة ثقافة الهند الفصلية**، الصادرة من نيودهلي ـ الهند، المجلد (٤٢)، العدد (٣).

٤١ ـ **مجلة الداعي**، نصف شهرية، الصادرة من دار العلوم ـ ديوبند، برئاسة تحرير الأستاذ الفاضل الشيخ بدر الحسن القاسمي، عدد خاص بالاحتفال المئوي، جمادى الأولى والآخرة ١٤٠٠هـ.

٤٢ ـ **مجلة هدى**، الشهرية الصادرة في دهلي ـ الهند ١٩٩٥م.

٤٣ ـ **مجلة بحث ونظر**، الفصلية، الصادرة من مجمع الفقه الإسلامي لعموم الهند ـ دهلي، الهند، ١٤٠٨هـ.

٤٤ ـ **مجلة البعث الإسلامي**، الصادرة من دار العلوم ندوة العلماء ـ لكنو، الهند.

٤٥ ـ **مجلة البيّنات**، العدد الممتاز عن الشيخ العلاَّمة محمد يوسف البنوري، الصادرة من كراتشي ـ باكستان.

* * *

الفهرس

هذا الرجل ٥
الإهداء ٩
مقدمة الكتاب بقلم فضيلة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي ... ١١
بين يدي الكتاب ١٥

الباب الأول

سيرة حكيم الأمة أشرف علي التهانوي

الفصل الأول: سيرته الذاتية ٢١
- اسمه ونسبه ٢١
- أسرته ٢٢
- مولده ٢٣
- نبذة تاريخية عن قرية (تهانه بهون) ٢٣
- نشأته وأيام طفولته ٢٤
- حادثة وفاة الأم ٢٥
الفصل الثاني: نشأته العلمية ٢٧
- طلبه للعلم ٢٧

ـ في جامعة دار العلوم ديوبند ٢٨
ـ نبذة تاريخية عن دار العلوم ديوبند ٢٨
ـ كبار شيوخه: ٣١
١ ـ الشيخ محمد يعقوب النانوتوي ٣١
٢ ـ الشيخ محمود حسن الديوبندي ٣٢
٣ ـ الشيخ منفعت علي الديوبندي ٣٨
٤ ـ الشيخ عبد العلي الميرتهي ٣٩
٥ ـ الشيخ الملا محمود ٣٩
٦ ـ الشيخ السيد أحمد ٤٠
٧ ـ الشيخ محمد عبد الله المهاجر المكي ٤٠

الفصل الثالث: تفوقه العلمي ونشاطاته الدعوية أيام الدراسة ٤٢
ـ المفخرة العلمية ٤٣
ـ احترامه الشيوخ وتوقيره إياهم ٤٥

الفصل الرابع: خصائصه ومميزاته البارزة ٤٧
ـ الذاكرة القوية النادرة والذكاء الباهر ٤٧
ـ ضبط الأوقات وحُسن توزيعها ٤٩
ـ حبّه للسنّة وكراهيته للبدع ٥٤
ـ محاسن أخلاقه ٥٥

- وسطيته واعتداله ٥٦
- مذهبه في الفقه ٥٩
- حلمه وتواضعه ٦١
- الاهتمام البالغ بإصلاح الأمة ٦٢
- غنى النفس ٦٤
- حليته وصفاته ٦٥

الفصل الخامس: استكمال التربية والسلوك ومبايعته الشيخ إمداد الله المهاجر المكي والاستفادة منه ٦٧

- تمهيد ٦٧
- قيمة الصحبة وأهميتها ٦٨
- التعريف بالشيخ إمداد الله المهاجر المكي ٦٩
- المبايعة ٧٣
- الخانقاه الإمدادي ٧٥

الفصل السادس: رحلته إلى الآخرة ٧٦

- من وصايا الشيخ رحمه الله ٧٧
- قصائد في رثاء الشيخ رحمه الله ٨٣
- فضله وثناء العلماء عليه ٨٦

الباب الثاني
الحياة العلمية للشيخ التهانوي

الفصل الأول : التدريس والمحاضرات ٩٣

ـ مدرسة الفيض العام ٩٣

ـ مدرسة جامع العلوم ٩٥

ـ منهجه في التدريس ٩٦

ـ الحاجة إلى العلماء أو المتصوفين ٩٧

الفصل الثاني : أهم تلامذته ٩٩

١ ـ العلامة ظفر أحمد العثماني التهانوي ٩٩

٢ ـ الشيخ إسحاق بن لطيف الهدى البردواني ١٠٣

٣ ـ الشيخ أحمد علي الفتحفوري ١٠٤

٤ ـ الشيخ صادق اليقين الكرسوي ١٠٥

٥ ـ الشيخ الطبيب محمد مصطفى البجنوري ١٠٦

الفصل الثالث : الكتابة والتأليف ١٠٨

ـ إيجاد جيل من المؤلفين النابغين ١٠٩

الفصل الرابع : المواعظ الحسنة ١١٢

ـ منهجه وطريقته في الوعظ ١١٤

الفصل الخامس: مذكراته اليومية (مجموعة ملفوظاته) ١١٨
ـ حقيقة التزكية والتصوف ١٢٥
ـ فائدة مهمة: لا إنكار في المسائل الخلافية ١٢٨
الفصل السادس: القيام بمهام الإفتاء ١٣٠
الفصل السابع: آراؤه في المسائل الاعتقادية ١٣٢
ـ التهانوي يثبت الاستواء لله تعالى ويحمله على الحقيقة دون الخوض فيها ١٣٢
ـ التهانوي يرجّح مذهب السلف في اختصاصه تعالى بعرشه ١٣٤
ـ رأيه في المعية الإلـٰهية ١٣٥
ـ رأيه في العلم بالغيب ١٣٦
ـ التهانوي يفنّد قول منكري بشرية النبي ﷺ ١٣٧
ـ التهانوي يفسّر النور بالقرآن العظيم ١٣٧
ـ التهانوي يمنع الدعاء لغير الله بلفظ الخطاب أو ندائه بـ(كاشف الكرب) أو (قاضي الحاجات) ١٣٨
ـ المذهب الوسط في التوسل والوسيلة ١٤١
ـ توجيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ١٤٣
ـ خلاصة القول ١٤٣

ـ المنامات ليست بحجة شرعية ولا يجوز الاعتماد عليها في المسائل ١٤٤
ـ التهانوي يرفض الورد بـ(يا شيخ عبد القادر) ونحوه ١٤٥
ـ تحقيق معنى السنّة والبدعة ١٤٦
ـ تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة نزاع لفظي ١٤٧
ـ قاعدة كلية لمعرفة السنّة والبدعة من المحدثات ١٤٨
ـ الاحتفال بمولد النبي ﷺ والأربعينات ونحوها بدعة صورة
ومعنى وواجبة الرد ١٤٩
ـ عدم تكفير أهل الأهواء ١٥٠
ـ موقفه من الاجتهاد والتقليد ١٥٣
ـ يجب على المقلد ترك مذهبه فيما لا دليل عليه ١٥٦
**الفصل الثامن: التهانوي والسياسة (آراؤه في السياسة الشرعية
والسياسة المعاصرة)** ١٥٨
ـ تمهيد ١٥٨
النقطة الأولى: مكانة السياسة في الإسلام ١٦١
ـ إصلاح خطأ في التعبير (السياسة الإسلامية أو الإسلام السياسي؟) ١٦١
النقطة الثانية: نظام الحكم الإسلامي يرفض العلمانية والديمقراطية ١٦٥
ـ هل رأي الأغلبية معيار للحق؟ ١٦٨
ـ نظام الحكم الشخصي (الملكية) ١٧١

- السلطة مسؤولية وأمانة وليست حقاً من الحقوق ١٧١
- فرائض الحاكم وواجباته : ١٧٢
١ - الاهتمام بالأمور التافهة والاعتناء بالمحقرات ١٧٤
٢ - منع الأمراء والمسؤولين عن الظلم ١٧٥
٣ - قسمة الأعمال والمسؤوليات بين الحكام والعلماء ١٧٥
٤ - استشارة أولي الألباب وأصحاب العقل والفهم ١٧٦
النقطة الثالثة : حكم بذل الجهود والمساعي السياسية لإقامة الدين ، وما هي حدود هذه الجهود؟ ١٧٦
- الجهود السياسية ومبدأ تزكية الأخلاق ١٧٨
- التدابير السياسية ١٧٩
- كيفية التعامل مع الحكام ١٨١

الباب الثالث

جهود الإمام التهانوي الإصلاحية والتجديدية

- تمهيد ١٨٩
الفصل الأول : الجهود الإصلاحية في مجال العقائد والإيمان ١٩١
- ضوابط التجديد والمجدد ١٩١
- تفضيله الشريعة على الطريقة ١٩٢
- جهوده في إصلاح العقائد ١٩٣

الفصل الثاني : تعلم الإنسانية أم تعلم الولاية؟ ١٩٥
الفصل الثالث : العناية البالغة بحقوق العباد ١٩٨
الفصل الرابع : إصلاح المعاشرة ٢٠٠
الفصل الخامس : تعليم حُسن المعاشرة مقدّم على تعليم النوافل ٢٠٢
الفصل السادس : إصلاح العادات والتقاليد غير الإسلامية ٢٠٤
الفصل السابع : الجهود الإصلاحية في مجال تعليم المرأة المسلمة ٢٠٦
ـ المنهج الأسلم لتعليم البنات ٢١١
الفصل الثامن : صيانة المسلمين عن خيانة غير المسلمين ٢١٥
ـ أهم ركائز المجلس وأصوله ٢١٨
الفصل التاسع : الردّ على الفِرق الضالة ٢٢١
أولاً ـ الطبائعيون (النياچرة) ٢٢١
ثانياً ـ البهائية ٢٢٩
ثالثاً ـ القاديانية ٢٣١
رابعاً ـ الآغاخانية ٢٣٥

الباب الرابع
جهود الإمام التهانوي التجديدية
في مجال التزكية والإحسان والسلوك

الفصل الأول : التزكية والإحسان في ميزان الإسلام ٢٤١
ـ التزكية شعبة من شعب الدين ٢٤١

- الإحسان في لسان النبوّة ٢٤١
- ما أُثِر عن الرسول ﷺ ينقسم إلى ظاهر وباطن ٢٤٢
- فقه الظاهر وفقه الباطن ٢٤٣
- حدوث مصطلح (التصوّف) وجنايته على (التزكية والإحسان) ٢٤٣
- الحاجة إلى المجدّدين والمصلحين ٢٤٤
- الشيخ التهانوي المجدد ٢٤٧
- حقيقة التصوّف عند الشيخ التهانوي ٢٤٩
- الأعمال الظاهرة لم تفرض إلا لتخدم الإنسان في تزكية باطنه .. ٢٥٠
- التصوف هو التزكية التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية
واتّباعها والامتثال لها ٢٥٢
- إنكار الشيخ التهانوي على الجهلة من الصوفية ٢٥٣
- إزالة سوء الفهم ٢٥٤

الفصل الثاني: تقرير حقيقة الأذكار والأوراد ٢٥٦
- إصلاح خطأ جسيم في باب الذكر ٢٥٦
- مبدآن أساسيان للتجديد في مجال التصوف ٢٥٨

الفصل الثالث: تقرير حقيقة المجاهدة وتفنيد مزاعم الجهلة من المتصوّفة المتعسّفين ٢٦٠
- لا إفراط ولا تفريط ٢٦٠

ـ المتصوفة الجهلة المتعسفون زيّفوا التصوّف وأفسدوه ٢٦٢

الفصل الرابع : الكشوفات الصوفية لا قيمة لها في التقرب إلى الله ٢٦٥

الفصل الخامس : الكرامة هي التي تظهر من متبع كامل في التقوى ٢٦٧

الفصل السادس : تقرير حقيقة البيعة ٢٦٩

ـ الإفراط والتفريط في فهم حقيقة البيعة ٢٦٩

ـ لا لزوم لصورة البيعة التقليدية ٢٧١

الفصل السابع : الهدف الأصيل هو العبودية التي هي كمال العمل والطاعة ٢٧٣

ـ خلاصة التصوف والهدف الأساس منه ٢٧٣

الباب الخامس

نبذة عن مشاهير خلفاء التهانوي

تمهيد ٢٧٧

ـ الميزة الخاصة ٢٧٩

ـ أجلّ وأشهر خلفائه ٢٨١

الفصل الأول : العلامة السيد سليمان الندوي ٢٨٢

الفصل الثاني : العلاّمة الكبير الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي ٢٩٠

الفصل الثالث : العلاّمة المفتي محمد شفيع ٢٩٣

الفصل الرابع : الشيخ المقرئ حكيم الأمة محمد طيب ٢٩٩

الفصل الخامس : الأستاذ الشيخ عبد الباري الندوي ٣٠٦
الفصل السادس : الشيخ الأديب الكاتب عبد الماجد الدريابادي ٣١٥
الفصل السابع : المصلح الشيخ وصي الله الفتحفوري ٣١٩
الفصل الثامن : الشيخ عبد الحي السهارنفوري ثم الحيدرآبادي ٣٢٣
الفصل التاسع : الشيخ عبد الغني الفولفوري ٣٢٧
الفصل العاشر : الشيخ العلاَّمة المحدِّث محمد يوسف البنوري ٣٣٢

الباب السادس
آثار الشيخ التهانوي الخالدة

الفصل الأول : كلمة عامة عن مؤلّفاته ٣٣٩
الفصل الثاني : سرد إجمالي لأسماء أشهر مؤلفات التهانوي ٣٤٢
الفصل الثالث : دراسة موجزة لأهم مؤلّفات التهانوي ٣٥٦
١ ـ تفسير (بيان القرآن) ٣٥٦
ـ تمهيد ٣٥٦
أ ـ الجوانب المرعية في تفسير القرآن الكريم ٣٥٧
ب ـ أهم مصادر المؤلف في تأليف هذا التفسير ٣٦٥
جـ ـ منهج المؤلف في التفسير ٣٦٦
د ـ بعض الفوائد العلمية المنتقاة من (بيان القرآن) ٣٧٢

٢ ـ إمداد الفتاوى (مجموعة فتاوى الشيخ رحمه الله) ٣٨٥
ـ تمهيد ٣٨٥
أ ـ خصائص الكتاب ومزاياه، ومنهج المؤلف فيه ٣٨٨
ب ـ المصادر والمراجع التي استقى منها المؤلف فتاواه ٣٩٢
جـ ـ فهرس أهم الموضوعات التي عالجها الكتاب ٣٩٦
د ـ نماذج من فتاويه: ٤٠١
١ ـ تحقيق القول في مسألة تغسيل الزوج زوجته بعد وفاتها ٤٠١
٢ ـ الختان لمن أسلم وهو كبير السن ٤٠٩
٣ ـ تعلّم علم المنطق ودراسة كتبه ٤١١
٤ ـ تحقيق تصوير صورة الحيوان ٤١١
٥ ـ حكم بيع أراضي بلاد فلسطين المقدسة أو التوسط في بيعها لليهود ٤١٤
٦ ـ حكم دفن الموتى بالليل ٤١٨
٣ ـ كشف الدجى عن وجه الربا ٤٢٢
٤ ـ استحباب الدعوات عُقيب الصلوات ٤٢٧
٥ ـ الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة ٤٣٢
٦ ـ حلية أهل الجنة (بهشتي زيور) ٤٤٢
٧ ـ تعليم الدين مع تكميل اليقين ٤٤٧

٨ ـ المصالح العقلية للأحكام النقلية ٤٥٨
٩ ـ نهاية الإدراك في أقسام الإشراك ٤٦٥
١٠ ـ إصلاح الرسوم ٤٧١
١١ ـ تمهيد الفرش في تحديد العرش ٤٨٦
١٢ ـ جزاء الأعمال ٤٨٩
١٣ ـ إحياء السنن (جامع الآثار) ٤٩٢
١٤ ـ إعلاء السنن ٤٩٦
١٥ ـ أحكام القرآن ٥٠٣
١٦ ـ مسائل السلوك من كلام ملك الملوك ٥١٠
١٧ ـ إصلاح انقلاب الأمة ٥٢٥
كلمة أخيرة ٥٣٩
مصادر ترجمة الشيخ التهانوي ٥٤٢
فهرس المصادر والمراجع ٥٤٤
الفهرس ٥٥١

